رواية

هنري جيمس

بورتريه سيِّدة

الجزء الثاني

ترجمة
د. أنوار يوسف

مكتبة 1177



بورتريه سيِّدة



بورتريه سيّدة

هنري جيمس

ترجمة: د. أنوار يوسف

عنوان الكتاب بالإنكليزية:

The Portrait of a Lady

By Henry James

Translated by Dr. Anwar Yousef

الطبعة الأولى: فبراير ـ شباط، 2022 (1000 نسخة)



بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520/+9647811005860

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar Al Rafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 80 - 9

هنري جيمس

مكتبة | 1177



بورتريه سيدة

الجزء الثاني

ترجمة

د. أنوار يوسف



www.daralrafidain.com

الفصل 27

لا يمكنني أن أحاول تقديم تقرير كامل عن ردة فعل شابتنا تجاه الإغواء العميق لروما أو أن أحلّل نفسياً مشاعرها كلما تدوس على الطريق المبلّط للمنتدى الروماني أو أن أعدَّ ضربات قلبها كلما تجتاز عتبة كاتدرائية القديس بطرس، بل يكفي أن أقول إن انطباعها يشبه الانطباع المتوقع لشخصٍ بحداثة سنها وحماستها. لقد كانت مولعة دائماً بالتأريخ، وهنا كان يوجد تأريخ في أحجار الشارع وذرات أشعة الشمس. كان لديها خيال يتأجج عند ذِكر الإنجازات العظيمة، وكلما تتلفت يؤثر فيها إنجازٌ عظيم. لقد أثارتها هذه الأشياء بقوة، لكن أثارتها روحياً تماماً.

بدا لمرافقيها بأنها تحدثت أقل من المعتاد. وكان رالف تاتشيت، عندما بدا أنه ينظر لها بفتور وسماجة، يراقبها مراقبة شديدة. لقد كانت سعيدة جداً من خلال معيارها هي. كانت راغبة بأن تعتبر هذه الأوقات أسعد الأوقات التي عرفَتْها يوماً. كان الشعور بماضي البشرية الرهيب ثقيلاً عليها، لكنه شعورٌ مؤقت عموماً وسيتخذ أجنحةً فجأة ليتمكن من التحليق في السماء. كان ذهنها مشوشاً تماماً لدرجة أنها بالكاد عرفَتْ إلى أين كانت ستقودها أجزاؤه المختلفة، وطافت بنشوة صوفية مكبوتة من التأمل وهي ترى مراراً في الأشياء التي تنظر إليها أكثر مما كان موجوداً، ومع ذلك لا ترى الكثير من الفقرات التي يعددها موراي[1].

(1) موراي: هو جون موراي، ناشر إنجليزي قام بطباعة سلسلة من كتيبات المسافرين في لندن سميت كتيبات موراي كدليل سياحي للمسافرين، وقد اشتهرت في ثلاثينيات القرن 19. (المترجمة)

إن روما، كما قال رالف، معترف بها للأهمية النفسية.

غادرت المجموعة المدوّية من السيّاح وعادت معظم الأماكن المهيبة إلى الكآبة. كانت السماء عبارة عن بريق من اللون الأزرق، وفقدت طرطشة ماء النافورات في محاريبها المليئة بالطحالب ارتعاشتها وضاعفت أنغامها. وعند أركان الشوارع اللامعة الدافئة يتعثر المرء بباقات الأزهار.

ذهب أصدقاؤنا في إحدى الأمسيات ـ كان ذلك في المساء الثالث من إقامتهم ـ للتفرج على آخر التنقيبات في المنتدى الروماني، تلك الأعمال الشاقة التي توسعت سابقاً على نحوٍ كبير لبعض الوقت. نزلوا من الشارع الحديث إلى الطريق المقدس الذي تجولوا على طوله بمشية محترمة اختلفت من واحدٍ لآخر. دُهشت هنرييتا بحقيقة أن روما القديمة قد عُبِّدَتْ كثيراً مثل نيويورك، وحتى أنها وجدت تشابهاً بين الآثار العميقة التي يمكن اقتفاؤها للعربات في الشوارع الأثرية وبين الأخاديد المعدنية ذات الصرير العالي الذي يعبّر عن قوة الحياة الأميركية.

بدأت الشمس بالمغيب، وكان الهواء عبارة عن ضباب ذهبي، وانحنت الظلال الطويلة للأعمدة المحطمة والركائز عبر ميدان الأطلال. سارت هنرييتا مبتعدة مع السيد بانِلْنج الذي من الواضح أنه أسعدها وهو يتحدث عن يوليوس قيصر وهو «فتىً ممتلئ الخدين»، وقام رالف بجمع شروحات كهذه لأنه كان مستعداً أن يعرضها على الأذن المصغية لبطلتنا. وضع أحد علماء الآثار المتواضعين والذي كان يجوب المكان، نفسه تحت تصرف الاثنين، وكرّر درسه بطلاقة لم يفسدها انتهاء الموسم.

كانت هناك عملية تنقيب تجري أمام الناس في ركنٍ بعيد من المنتدى، فاقترح على الفور بأنه إن كان يُسعد السادة أن يذهبوا ويراقبوها قليلاً، فقد يرون شيئاً مثيراً للاهتمام. أعجب الاقتراح رالف أكثر من إيزابيل التي كانت مرهقة من كثرة التجوال لذلك حثت رفيقها ليشبع فضوله بينما هي تنتظر عودته بصبر.

كان الزمان والمكان ملائمين لرغبتها ـ إذ كان عليها أن تتمتع بتواجدها بمفردها قليلاً.

وهكذا، ذهب رالف مع الدليل السياحي بينما جلست إيزابيل على عمودٍ ساقطٍ أرضاً بجوار قاعدة هضبة الكابيتولين. لقد رغبت بعزلةٍ قصيرة. لكنها لم تتمتع بها طويلاً. فبينما كان اهتمامها منصباً على البقايا الأثرية الخشنة للماضي الروماني التي تبعثرت حولها والتي ترك فيها التآكل بفعل القرون الكثير جداً عن الحياة الشخصية؛ كانت أفكارها، بعد أن استقرت قليلاً على هذه الأشياء، قد شردت في سلسلة مراحل تتطلب بعض الدقة في تتبّعها، إلى مناطق وأشخاص مليئة بفتنة حقيقية أكثر. فمن ماضي روما وحتى مستقبل إيزابيل آرتشر كانت هناك مسيرة طويلة، لكن خيالها أخذها برحلة جوية واحدة والآن هي ترفرف بدوائر بطيئة فوق أقرب وأغنى مكان. كانت مستغرقةً جداً في أفكارها لدرجة أنها حين حوّلت نظرها فوق سلسلة من البلاطات المتصدعة وغير المخلوعة من مكانها والتي تغطي الأرض عند قدميها لم تسمع صوت اقتراب خُطىً قبل أن يجتاز ظلٌّ مستوى نظرها. فنظرت إلى الأعلى ورأت رجلاً مهذباً ـ رجلاً لم يكن رالف وهو عائد ليقول إن التنقيبات مملة. كانت هذه الشخصية البارزة قد ارتعدت حينما ارتعدت هي، فوقف هناك وكشف عن رأسه مما سبَّبَ دهشتها الممتقعة بشكل محسوس. فصاحت إيزابيل عندما نهضت: (لورد واربيرتون!).

ـ (لم يكن لدي فكرة بأنه أنت. فقد التفتُّ عند ذلك الركن وصادفتكِ).

فنظرت حولها لتفسّر: (أنا بمفردي، لكن رفاقي تركوني للتو، وذهب ابن خالتي ليتفرج على التنقيبات التي هناك).

ـ (آه نعم فهمت).

وجال نظر اللورد واربيرتون قليلاً بالاتجاه الذي كانت قد أشارت إليه.

والآن وقف أمامها بثبات؛ لقد استعاد توازنه وبدا أنه يرغب بإظهار ذلك، حتى ولو بلطف. فواصل كلامه وهو ينظر إلى عمودها الحزين.

(لا تسمحي لي بإزعاجكِ، إذ أخشى بأنكِ متعَبة).

فترددت لبرهة، لكن جلست ثانيةً.

ـ (نعم. أنا متعبة قليلاً).

ثم أضافت: (لا تسمح لي بمقاطعتكَ).

ـ (أوه، يا عزيزتي، أنا لوحدي تماماً، فليس لدي شيء في الأرض أفعله. لم يكن لدي فكرة بأنكِ في روما. لقد أتيتُ لتوّي من الشرق. أنا فقط مارٌّ من هنا).

قالت إيزابيل التي كانت قد علمت من رالف بأن اللورد واربيرتون كان غائباً عن إنجلترا: (كنتَ تقوم برحلة طويلة).

ـ (نعم. سافرتُ خارج البلاد لستة أشهر ـ بعد آخر مرة رأيتكِ فيها مباشرةً. لقد كنتُ في تركيا وآسيا الصغرى، ووصلتُ في اليوم السابق من أثينا).

لقد حرص على أن لا يكون سمجاً، لكنه لم يكن عفوياً، وبعد نظرةٍ طويلة على الفتاة عاد لعفويته.

ـ (هل ترغبين أن أترككِ أو ستسمحين لي بالبقاء قليلاً؟).

فأخذت الموضوع بتعاطفٍ تام.

ـ (لا أريد منكَ أن تتركني يا لورد واربيرتون، فأنا مسرورة جداً برؤيتكَ).

ـ (أشكركِ لقولكِ ذلك. هل يمكنني الجلوس؟).

كان العمود المحزز الذي تجلس عليه يسمح بجلوس عدة أشخاص، وكان هناك متسع كبير حتى لرجلٍ إنجليزي متحضّر جداً. جلس هذا الرجل الراقي من تلك الطبقة الأرستقراطية بجوار سيدتنا الشابة، وطوال خمس دقائق كان قد سألها عدة أسئلة اختيرت اعتباطاً والتي من الواضح بأنه لم

يفهم قليلاً إجابتها لأنه استوضح بعضها مرتين. وكان قد منحها أيضاً معلومةً عن نفسه لم يخطئ إحساسها الأنثوي الهادئ في فهمها. لقد كرر لأكثر من مرة بأنه لم يكن يتوقع أن يلقاها، وكان من الواضح أن اللقاء قد أثَّرَ به بطريقةٍ كانت ستجعل الاستعداد له مستحسناً. بدأ بشكل غير مترابط ينتقل من حصانة الأشخاص من العقاب إلى عظمتهم، ومن كونهم رائعين إلى كونهم لا يُطاقون. سفعته الشمس بشكلٍ رائع، حتى لحيته الكثّة كانت قد صُقلت بحرارة آسيا. كان يرتدي ثياباً فضفاضة وغير منسجمة والتي يميل إليها السائح الإنجليزي في الأراضي الأجنبية ليراعي بها راحته ويؤكد بها وطنيته؛ وكان بعينيه الثابتتين الجذّابتين، وبشرته البرونزية اليانعة قبل أوانها، وشخصيته الرجولية، وصورته المتواضعة، وهيئته العامة بكونه رجلاً نبيلاً ومستكشفاً؛ ممثلاً للعِرْق الإنجليزي. لاحظت إيزابيل تلك الأشياء وكانت مسرورة بأنها أحبته دائماً. من الواضح بأنه، بالرغم من الصدمات، احتفظَ بكل فضيلة من فضائله ـ وتلك هي السمة التي تشكّل جوهر الأسر الأرستقراطية المحترمة، كما يقال، ويحاكون بذلك جوهر مظهرهم الثابت وجمالهم، أي ليست رهناً بالتغيرات العادية وتزول فقط بزوالهم التام.

تحدثا عن مواضيع بالتسلسل طبعاً؛ موت زوج خالتها، حالة رالف الصحية، الطريقة التي أمضت بها فصل الشتاء، زيارتها إلى روما، عودتها إلى فلورنسا، خططها لفصل الصيف، الفندق الذي كانت ماكثةً فيه؛ ومن ثم مغامرات اللورد واربيرتون الخاصة به، الرحلات، الأهداف، الانطباعات والمقر الحالي.

في النهاية كان هناك سكوت، فقد قيل الكثير أكثر مما قال كلاهما بحيث إن كلماته الأخيرة لم تكن مهمة كثيراً: (لقد كتبتُ لكِ عدة مرات).

ـ (كتبتَ لي؟ لم أستلم رسائلكَ أبداً).

ـ (أنا لم أرسلها أبداً. كنتُ أحرقها).

فضحكت إيزابيل: (آه، من الأفضل أنكَ فعلتَ ذلك بدلاً مني!).

واصل كلامه ببراءةٍ أثَّرَتْ فيها: (تصورتُ بأنكِ لن تهتمي بها، فقد تراءى لي في النهاية أنه لم يكن لي الحق بأن أزعجكِ بالرسائل).

ـ (كنتُ سأُسعَد كثيراً بالحصول على أخبارٍ عنكَ. تعرف كم تمنيتُ ذلك.... فذلك....) لكنها توقفتْ عن الكلام، إذ كانت ستوجد إهانة كبيرة في الإفصاح عن ما تفكر فيه.

ـ (أعلم ما ستقولينه، وهو أنكِ تمنيتِ أن نبقى دائماً أصدقاء).

كانت هذه الصيغة، مثلما نطق بها اللورد واربيرتون، بالتأكيد صريحة تماماً. لكنه كان قاصداً أن يجعلها تبدو كذلك في تلك اللحظة.

فوجدت نفسها مكرَهة لتقول فقط: (أرجو أن لا تتحدث عن كل ذلك)؛ وهو قولٌ لم تدرك كثيراً بأنه سيشكل تشجيعاً للآخر.

فهتف مرافقها مكرهاً: (إنه لعزاءٌ صغير لي أن تسمحي لي بالتحدث عن كل ذلك!).

قالت الفتاة التي، كانت جالسة هناك وهي صامتة تماماً، ألقت بنفسها إلى الخلف بنوعٍ من الانتصار الكبير على الرد الذي لم يكفِه كثيراً قبل ستة أشهر: (لا أستطيع أن أتجرأ على تعزيتكَ).

لقد كان جذاباً، كان قوياً، كان شهماً، ولم يكن هناك رجل أفضل منه. لكن إجابتها بقيت نفسها.

سمعَتْهُ يقول في خضم نشوتها الغريبة: (لا بأس بعدم محاولتكِ تعزيتي، فلن يكون ذلك في مقدوركِ).

ـ (لقد تمنيتُ أن نلتقي ثانيةً لأنني لم أكن أخشى بأنكَ ستحاول جعلي أشعر بأنني مخطئة بحقكَ. لكن عندما تفعل ذلك.... يكون الألم أقوى من الفرح).

ثم نهضت بعظمة محسوسة قليلاً، وهي تبحث عن رفاقها.

ـ (أنا لا أريد أن أجعلكِ تشعرين كذلك، طبعاً لا يمكنني قول ذلك. أنا أردتُ فقط أن تعلمي أمراً أو اثنين ـ إنصافاً لنفسي. لن أعود إلى الموضوع ثانيةً. لقد شعرتُ بقوةٍ بما عبّرتُ به إليك العام الماضي، ولم أستطع أن أفكر بأي شيء آخر. حاولتُ أن أنسى ـ باجتهاد وانتظام، حاولتُ أن أهتم بامرأةٍ أخرى. أنا أخبركِ بذلك لأنني أردتُ منكِ أن تعلمي بأنني فعلتُ ما يجب عليّ فعله. ولم أنجح. ولهذا السبب نفسه سافرتُ خارج البلاد ـ أبعد ما يمكن. يقولون إن السفر يُلهي الذهن، لكنه لم يُلْهِ ذهني. لقد فكرتُ بكِ دائماً، منذ أن رأيتُكِ آخر مرة. وقد بقيتُ كما أنا تماماً. أحبكِ بنفس القدر تماماً، وكل شيء قلتُهُ لكِ آنذاك حقيقي تماماً. إن هذه اللحظة التي أتحدثُ بها إليك تُبيِّنُ لي ثانيةً، ولسوء حظي الكبير، كم تسحرينني بشكل لا يُقهَر. كما ترين.... لا أستطيع قول أقل من ذلك. على أية حال، أنا لا أقصد الإلحاح في الموضوع؛ أنا أقول ذلك الآن فقط. يمكنني أن أضيف بأنني عندما عثرتُ عليكِ صدفة منذ بضع دقائق، وبدون أدنى فكرة برؤيتكِ، أقسمُ بشرفي بأنني كنتُ في اللحظة نفسها أتمنى أن أعرف أين أنت).

كان قد استعاد سيطرته على نفسه، وبينما هو يتكلم أصبحت السيطرة كاملة. ربما كان يخاطب أعضاء مجلسٍ صغير ـ وهو يعدُّ بكل هدوء ووضوح خطاباً ذا أهمية؛ مستعيناً بالنظر العَرَضي لورقةٍ ملاحظاتٍ مخفية في قبعته التي لن يرتديها ثانيةً. وإن أعضاء المجلس، بالتأكيد، سيشعرون بأن الموضوع مستحسن.

أجابت إيزابيل: (أنا أفكر فيكَ مراراً يا لورد واربيرتون. يمكنكَ أن تكون متأكداً بأنني سأفعل ذلك دائماً)

ثم أضافت بأسلوبٍ حاولَتْ أن تحافظ على رقته وتُكبت دلالته: (لا يوجد هناك ضرر في ذلك لكلا الطرفين).

سارا سويةً جنباً إلى جنب، وعاجلَتْهُ بالسؤال عن أخواته وطلبت منه أن

يُعلمهنّ بأنها سألت عنهن. لم يشر ثانيةً في الوقت الحاضر إلى موضوعهما الهام، وإنما غاص ثانيةً في مياهٍ أقل عمقاً وأكثر أماناً[1]. لكنه أراد أن يعرف متى كان عليها أن تغادر روما، وعندما ذكرت مدة بقائها أعلن بأنه مسرور بأن المدة لا تزال بعيدة.

تساءلَتْ بقلقٍ: (لماذا قلتَ إنك كنتَ مارّاً فقط؟).

ـ (آه، عندما قلتُ بأنني كنتُ مارّاً لم أقصد بأن المرء سيعتبِر روما وكأنها كلافام جَنْكْشِن[2]. وإنما أن تمرّ بروما يعني أن تقيم فيها لأسبوعٍ أو اثنين).

ـ (قل بصراحة بأنكَ تعني أن يقيم بنفس المدة التي أبقى فيها أنا!).

بدا أن ابتسامته الخجولة قد أثرت بها قليلاً.

ـ (أنتِ لن تحبي ذلك. لأنتِ تخشين أن ترينني كثيراً).

ـ (لا يهم ماذا أحب. فأنا لا يمكنني بالتأكيد أن أتوقع منكَ أن تتركَ هذا المكان الرائع بسببي. لكنني أعترف بأنني خائفة منكَ).

(سأبدأ أخاف ثانيةً؟ أعدكِ بأن أكون حذراً جداً).

كانا قد توقفا تدريجياً ووقفا لبرهة وجهاً لوجه، فقالت بتعاطفٍ قصدَتْ أن يكون ممتعاً لكليهما: (مسكين يا لورد واربيرتون!).

ـ (فعلاً مسكين اللورد واربيرتون! لكنني سأكون حذراً).

ـ (قد تكون تعيساً، لكنكَ لن تجعلني كذلك، فهذا ما لن أسمح به).

ـ (لو كنتُ واثقاً من أن بإمكاني أن أجعلكِ تعيسة لحاولتُ فعل ذلك).

عند قوله هذا تقدمته في المشي وهو تبعها.

(لن أقول أبداً كلمةً تزعجكِ).

---

(1) يقصد بأنه تحدث عن مواضيع سطحية. (المترجمة)

(2) كلافام جنكشن: هي محطة قطار كبيرة في لندن. (المترجمة)

ـ (ممتاز. فلو فعلتَ ذلك فستنتهي صداقتنا).

ـ (ربما يوماً ما ـ بعد فترة قصيرة ـ ستتركينني).

ـ (أتركك لأجعلكَ تعيساً؟)

فتردد: (لأخبركِ مرة أخرى.....).

لكنه توقف عن الكلام ثانيةً.

(بأنني سأقاوم ذلك. سأقاوم ذلك دائماً).

كان رالف تاتشيت قد انضم إليه في معاينته للتنقيب الآنسة ستاكبول ورفيقها، وقد ظهر هؤلاء الثلاثة الآن من بين تلال الأرض والصخور المتجمعة حول الفجوات وأصبحوا على مرأى من إيزابيل ورفيقها.

هتف رالف المسكين بالترحيب بصديقه بفرحةٍ مقيدةٍ بدهشة، وصاحت هنرييتا بصوت عالٍ: (يا لطيف، إنه ذلك اللورد!).

حيّا رالف وجارُه الإنجليزي بعضهما بالرصانة التي يحيّي بها الجيرانُ الإنجليز بعضهم بعد فراقٍ طويل؛ وثبتت الآنسة ستاكبول نظرتها التأملية البليغة على المسافر الذي سفعَتْهُ الشمس. لكنها سرعان ما أظهرت علاقة قرابتها بالإحراج.

(لا أعتقد بأنكَ تتذكرني يا سيدي).

قال اللورد واربيرتون: (في الحقيقة أنا أتذكركِ. لقد طلبتُ منكِ أن تأتي وتريني وأنتِ لم تأتِ أبداً).

أجابت الآنسة ستاكبول ببرود: (أنا لا أذهب لأي مكانٍ أُدعى إليه).

ضحك مالك لوكلي.

ـ (آه، حسناً لن أطلب ذلك منكِ ثانيةً)

ـ (إن لن تطلب مني ذلك فسآتي، تأكّد من ذلك!).

بدا اللورد واربيتون مع كل مرحه متأكداً من ذلك تماماً.

وقف السيد بانِلِنْج جانباً بدون أن يطالب بأن يشعر به أحد، لكنه انتهز الفرصة الآن ليومئ إلى سيادة اللورد الذي أجابه بودٍّ ومصافحة باليد: (أوه، أنت هنا يا بانِلِنْج؟).

قالت هنرييتا: (حسناً، لم أكن أعرف بأنكَ تعرفه!).

فأجاب السيد بانِلِنْج بظرافة: (ظننتُ بأنكِ لا تعرفين كل شخصٍ أعرفه).

ـ (لقد اعتقدتُ بأنه عندما يعرف رجلٌ إنجليزي لورداً فإنه يقول ذلك دائماً).

ضحك اللورد واربيرتون ثانيةً: (آه، أخشى بأن بانِلِنْج خجلٌ مني).

راقت هذه الملاحظة لإيزابيل. وتنهدت تنهيدة ارتياح بسيطة عندما استمروا في طريقهم إلى المنزل.

كان اليوم التالي هو يوم الأحد، وقد أمضت نهارها وهي منكبّة على كتابة رسالتين طويلتين ـ الأولى لأختها ليلي، والأخرى لمدام ميرليه، لكنها لم تذكر في أي من الرسالتين أن خاطباً مرفوضاً أخافها باستمالةٍ أخرى.

من مساء الأحد، يقوم كل الرومان الطيبون (وأفضَل الرومان هم عادةً برابرة الشمال) باتباع عادة الذهاب إلى الصلاة في كاتدرائية القديس بطرس. وقد تم الاتفاق بين أصدقائنا بأنهم سيذهبون معاً إلى تلك الكنيسة الكبيرة.

بعد الغداء، وقبل ساعةٍ من وصول العربة، حضر اللورد واربيرتون إلى فندق باريس وزار السيدتين. كان رالف تاتشيت والسيد بانِلِنْج قد خرجا معاً. بدا أن الزائر أراد منح إيزابيل دليلاً على نيته بالإيفاء بالوعد الذي قطعه لها في المساء السابق؛ فقد كان عاقلاً وصريحاً ـ ليس مزعجاً بشكلٍ أحمق أو انفعالياً إلى حدٍّ بعيد. بناءً على ذلك، تركها لترى كم هو ممكن أن يكون مجرد صديقٍ طيب.

تحدث عن رحلاته، عن بلاد فارس، عن تركيا، وعندما سألَتْهُ الآنسة ستاكبول فيما إذا كان «سيدفع المال» لها لتزور تلك البلدان، أكد لها بأنهم منحوا حرية كبيرة لعمل المرأة. قدّرت إيزابيل كفاءته، لكنها تساءلت عن غرضه وما الذي توقع أن يجنيه حتى من إظهار الأصل الرفيع لاستقامته. إن كان يتوقع أن يجعلها تلين بإظهار نفسه بأنه كم هو شخص طيب، فيمكنه أن يوفر على نفسه المتاعب. فقد عرفت الأصل الرفيع لكل شيء عنه، ولا يوجد شيء يمكنه أن يفعله الآن ليوضح الصورة. علاوة على ذلك، إن وجوده في روما أساساً قد سبَّبَ لها إحراجاً من النوع الظالم ـ كانت تفضّل إحراجاً من النوع العادل. مع ذلك، عندما قال، عند انتهاء زيارته، بأنه هو أيضاً يجب أن يكون في كنيسة القديس بطرس وبأنه سينتظرها وينتظر أصدقاءها، كانت مضطرة إلى أن تجيب بأن عليه أن يعمل ما يريحه.

في الكنيسة، عنما مشت على أرضها الفسيفسائية، كان هو أول شخصٍ قابلَتْهُ. لم تكن أحد السياح المتفاخرين الذين «خاب أملهم» بكاتدرائية القديس بطرس ووجدوها أصغر من شهرتها.

إن المرة الأولى التي مرت فيها من تحت الستارة الجلدية الضخمة التي تلتوي وتهتز بعنف عند المدخل، والمرة الأولى التي وجدت فيها نفسها تحت القبة المقوسة العالية ورأت الضوء وكأنه رذاذٌ عبر الهواء الذي كان كثيفاً بالبخور وبانعكاسات الرخام والذهب والفسيفساء والبرونز؛ ازداد إحساسها بالعظمة، ازداد بسرعة؛ بعد ذلك، لم يفتقر إلى الفضاء ليحلّق. لقد حدَّقت واندهشت كطفلٍ أو كشخصٍ قروي، وأبدت تقديرها الصامت للعظمة المنتصبة. سار اللورد واربيرتون إلى جانبها وتحدث عن سيرة القديسة صوفيا، قديسة القسطنطينية، فخافت مثلاً أن ينتهي بالحديث عن سيرته النموذجية.

لم يكن القدّاس قد بدأ بعد، لكن في كاتدرائية القديس بطرس كان هناك

الكثير مما يجب رؤيته. وبما أن شيئاً دنيوياً قليلاً موجود في رحابة المكان، والذي بدا بأنه مخصص للممارسات المادية مثلما هو مخصص للممارسات الروحية؛ فيمكن للأفراد والجماعات، والمتعبّدين المختلفين والمتفرجين، أن يمارسوا مفاهيمهم المتنوعة بدون نزاع أو تجاوز. فبهذه العظمة الرائعة لن تنتقل الحماقة الفردية سوى لمسافة قليلة. رغم ذلك، لم تكن إيزابيل ورفاقها مذنبين بشيء؛ لأن رغم أن هنرييتا كانت مضطرة ببراءة إلى أن تعلن أن قبة مايكل أنجلو[1] قد تألمت من مقارنتها بقبة الكابيتول في واشنطن، إلا أنها وجّهت خطابها على وجه الخصوص إلى أسماع السيد بانِلْنج واحتفظتْ به بصيغته المشددة لأعمدة الإنترفيور.

تجولت إيزابيل في الكنيسة مع سيادة اللورد، وعندما اقتربا من جوقة المرتّلين عند يسار المدخل، كانت أصوات مرتّلي البابا تنتقل إليهما فوق رؤوس عدد كبير من الأشخاص المتجمعين خارج الأبواب. توقفا قليلاً بجوار الحشد المكوَّن بالتساوي من مواطني لندن الرومانيين وغرباء فضوليين. وبينما هما واقفان هناك مضت الحفلة الموسيقية قُدُماً. من الواضح أن رالف كان في الداخل مع هنرييتا والسيد بانِلْنج، بينما رأت إيزابيل، وهي تنظر خلف المجموعة المتراصّة التي أمامها، ضوء العصر (الذي أصبح فضياً بفعل غيوم البخور التي اختلطت بالترنيمة الرائعة) وهو ينساب عبر التجاويف المقوَّسة للنوافذ العالية.

بعد فترة قصيرة توقف الإنشاد، ومن ثم بدا اللورد واربيرتون يميل إلى الابتعاد معها عن المكان. تمكنت إيزابيل من مرافقته فحسب، وعندئذٍ وجدت نفسها بمواجهة جيلبرت أوزموند الذي كان يقف خلفها على بُعد مسافةٍ قصيرة. كان يتقدم الآن نحوها بكل الصور ـ يبدو بأنه ضاعَفَ هذه الصور بهذه المناسبة لتتناسب مع المكان.

---

(1) قبة مايكل أنجلو: هي قبة كاتدرائية القديس بطرس والتي صممها مايكل أنجلو. (المترجمة)

قالت وهي تمد يدها: (إذن فقد قررتَ المجيء؟).

ـ (نعم، وصلتُ الليلة الماضية وزرتُ فندقكِ ظهر اليوم. أخبروني بأنكِ أتيتِ إلى هنا وبحثتُ عنكِ).

فقررت أن تقول: (إن الآخرين بالداخل).

أجاب بسرعة: (لم آتِ من أجل الآخرين).

فأشاحت بنظرها بعيداً؛ فقد كان اللورد واربيرتون يراقبهما، ربما كان قد سمع ذلك. وفجأة، وكي نكون منصفين، تذكرت ما قاله لها في اليوم الذي أتى فيه إلى جاردن كورت ليطلبها للزواج. كانت كلمات السيد أوزموند قد جعلتها تحمرّ خجلاً، ولم يكن لتلك الذكرى ذلك التأثير لتبدد هذا الاحمرار. لقد تداركتْ أية خيانة من خلال تعريف أحدهما للآخر، ولحسن الحظ برز السيد بانِلِنْج في تلك اللحظة من الجوقة يشق طريقه عبر الحشد بشجاعة بريطانية ومتبوعاً بالآنسة ستاكبول ورالف تاتشيت. أقول لحسن الحظ لأن هذه ربما نظرة سطحية للموضوع؛ لأن عند رؤية ذلك السيد الذي من فلورنسا لم يرَ رالف أن الأمر يبعث على السرور. مع ذلك لم يتأخر عن المجاملة، وقال لإيزابيل وبلطفٍ كافٍ بأنها حظيت سريعاً بجميع أصدقائها حولها. كانت الآنسة ستاكبول قد التقت بالسيد أوزموند في فلورنسا، لكنها الآن وجدت فرصةً لتقول لإيزابيل بأنها أحبته لكن ليس أكثر من معجبيها الآخرين السيد تاتشيت واللورد واربيرتون، وحتى السيد غوزييه الصغير في باريس. فأسعدها أن تقول: (لا أدري ماذا يوجد فيكِ، لكن بالنسبة لفتاةٍ لطيفة فأنتِ تجذبين أكثر الناس غرابة. إن السيد غودوود هو الشخص الوحيد الذي أكنُّ له احتراماً، وإنه الشخص الذي لا تقدّرينه تماماً).

في تلك الأثناء كان السيد أوزموند يستفهم من سيدتنا الشابة: (ما هو رأيكِ بكاتدرائية القديس بطرس؟).

فأقنعت نفسها بأن تجيب: (إنها كبيرة جداً وبرّاقة جداً).

ـ (إنها كبيرة جداً؛ فهي تجعل المرء يشعر وكأنه ذرّة).

فسألت مع إعجابٍ قليلٍ بعبارتها: (أليس ذلك هو ما يجب أن تشعر به في أعظم معابد البشر؟).

ـ (أعتقد بأن ذلك هو ما يجب أن نشعر به في كل مكان، عندما يكون المرء نكرة. لكنني لا أحب هذا الشعور كثيراً في الكنيسة كما في أي مكان آخر).

صاحت إيزابيل وهي تتذكر شيئاً كان قد ذكره في فلورنسا: (من المستحسن فعلاً أن تصبح البابا!).

قال جيلبرت أوزموند: (آه، كنتُ سأستمتع بذلك!).

في تلك الأثناء كان اللورد واربيرتون قد انضمَّ إلى رالف تاتشيت، وسار الاثنان معاً مبتعدين.

سأل سيادةُ اللورد: (من هو الشخص الذي يتحدث مع الآنسة آرتشر؟).

قال رالف: (اسمه جيلبرت أوزموند ـ ويعيش في فلورنسا).

ـ (ماذا يكون إضافةً إلى ذلك؟).

ـ (لا شيء مطلقاً. أوه نعم، إنه أميركي، لكن المرء ينسى أنه تافه جداً).

ـ (هل يعرف الآنسة آرتشر منذ مدة طويلة؟).

ـ (ثلاثة أو أربعة أسابيع).

ـ (هل هي تحبه؟).

ـ (إنها تحاول أن تكتشف ذلك).

ـ (وهل ستحاول؟).

سأل رالف: (أن تكتشف ذلك....؟).

ـ (هل ستحبه؟).

ـ (تقصد هل ستقبل به؟).

قال اللورد واربيرتون بسرعة: (نعم. أعتقد بأن هذا هو ما أقصده بشكلٍ مروّع).

أجاب رالف: (ربما لا، إنْ لم يفعل أحد شيئاً ليمنعه).

حدق اللورد واربيرتون لبرهة، لكنه فهم المعنى: (إذن يجب علينا أن نكون هادئين تماماً؟).

أضاف رالف: (هادئين كالقبر. وفقط في حالة واحدة!).

ـ (في حال وافقَتْ؟)

ـ (في حال لم توافق؟)

احتمل اللورد واربيرتون ذلك في البداية بصمت، لكنه قال ثانيةً: (هل هو بارع كثيراً؟).

قال رالف: (كثيراً).

فكَّرَ رفيقه: (وماذا أيضاً؟).

تأوّه رالف: (ماذا تريد أكثر؟).

ـ (هل تقصد ماذا تريد هي أكثر؟).

أخذه رالف من ذراعه ليعيده؛ إذ كان عليهم أن يعودوا للانضمام إلى الآخرين.

ـ (إنها لا تريد شيئاً نمنحه نحن لها).

قال سيادة اللورد بلطف وهما عائدان: (آه، حسناً. إن كانت هي لا تريد، فأنتَ.....!).

***

الفصل 28

قام اللورد واربيرتون ليلاً ونهاراً بالذهاب ثانيةً لرؤية أصدقائه في فندقهم، وفي تلك البناية عرف بأنهم كانوا قد ذهبوا إلى الأوبرا. فتوجّه بالعربة إلى الأوبرا بنيّة زيارتهم في مقصورتهم تبعاً للطريقة الإيطالية العفوية. وعندما حصل على الموافقة بالدخول ـ كان واحداً من المسارح الثانوية ـ جال بنظره في أرجاء المسرح الكبير، البالي، ذي الإضاءة الخافتة؛ وهو عملٌ حالما انتهى منه أصبح حرّاً ليتابع بحثه. وبعد تمشيطه لصفّين أو ثلاثة من المقصورات لاحظ في إحدى أكبر المقصورات الكبيرة سيدةً عرفها بسهولة.

كانت الآنسة آرتشر جالسةً بمواجهة المسرح ومحجوبة جزئياً بستارة المقصورة، وكان إلى جانبها السيد جيلبرت أوزموند وهو متكئ إلى الخلف على كرسيه. يبدو بأنهم اتخذوا المكان لنفسيهما فقط، وافترض واربيرتون بأن رفاقهما استغلوا الخلوة ليتمتعوا بالبرودة النسبية للكواليس. وقف قليلاً وعيناه على الشخصين المثيرين للاهتمام. فسأل نفسه إن كان عليه أن يصعد ويقاطع الانسجام. أخيراً رأى بأن إيزابيل رأته وأن هذا الشيء جعله يحسم قراره؛ فلم يكن هناك مانع واضح. فاتخذ طريقه إلى الأقسام العلوية وعند السلّم التقى برالف تاتشيت وهو ينزل على مهل وقبعته مائلة بضجر ويداه حيث اعتادتا أن تكونا. كانت تحية رالف هي: (لقد رأيتكَ منذ لحظة وأنتَ في الأسفل وكنتُ نازلاً إليكَ. فأنا أشعر بالوحدة وأحتاج إلى رفقة).

ـ (كان لديكَ رفقة جيدة وقد تركتَها الآن).

ـ (هل تقصد ابنة خالتي؟ أوه، إن لديها ضيفاً ولا تريدني، ثم إن الآنسة

ستاكبول وبانِلِنْج قد خرجا للمقهى ليتناولا المثلجات ـ فالآنسة ستاكبول تفرح بالمثلجات، ولا أعتقد بأنهما يريدانني أيضاً. والأوبرا سيئة جداً، فقد بدت النساء يشبهن غاسلات الملابس ويغنين كالطواويس. أشعر بأنني مكتئب جداً).

قال اللورد واربيرتون بدون تأثُّر: (من الأفضل أن تذهب إلى البيت).

ـ (وأترك سيدتي الشابة في هذا المكان الحزين؟ آه، لا، يجب أن أرعاها).

ـ (يبدو أن لديها الكثير من الأصدقاء).

قال رالف بنفس السوداوية الساخرة الكبيرة: (نعم، ولهذا السبب يجب أن أرعاها).

ـ (إن كانت لا تحتاجكَ فمن المحتمل بأنها لا تحتاجني).

ـ (كلا، فأنتَ مختلف. اذهبْ إلى المقصورة وابْقَ هناك ريثما أتجوّل).

ذهب اللورد واربيرتون إلى المقصورة، حيث كان ترحيب إيزابيل به يشبه ترحيبها بصديقٍ مُسِنّ بحيث سأل نفسه قليلاً كم هي تافهة وزائلة المقاطعة التي انضمَّتْ إليها[1]. تبادل التحية مع السيد أوزموند، الذي قُدِّمَ إليه في اليوم السابق والذي، بعد دخوله، جلس بدماثةٍ بعيداً وصامتاً، وكأنَّ التنصُّل من اللياقة تجاه هذين الشخصين المذكورين ممكنٌ الآن. إن ما أدهش ضيفها الثاني هو أن الآنسة آرتشر قد اكتسَبَتْ، في الظروف الأوبرالية، تألُّقاً، وحتى قليلاً من العظمة؛ لأنها كانت دوماً شابةً ذات نظرة حادة، سريعة الحركة، مفعمة بالحيوية بشكلٍ كامل، وقد يكون متوهماً من هذه الناحية. علاوة على ذلك فإن حديثها معه دلَّ على حضور الذهن؛ إذ عبَّر عن لطفٍ بارع جداً واتزانٍ في الرأي دَلّا على سيطرتها غير المضطربة على قدراتها.

أصابت اللورد واربيرتون المسكين لحظاتٍ من الحيرة. لقد أحبَطَتْهُ بكل

(1) يقصد أوزموند لأنه كان من مقاطعة فلورنسا. (المترجمة)

معنى الكلمة، بقدر ما تستطيعه امرأةٌ؛ فما كان شأنها إذن بتعابير كهذه وبلباقةٍ كتلك، وقبل كل شيء نغمة التسوية هذه ـ هل هي مقدمة لشيء ما؟ كان في صوتها مكر حلو، لكن لماذا تفعل ذلك معه؟

عاد الآخرون؛ فقد كانت الأوبرا البالية، العادية، التافهة، قد بدأت. كانت المقصورة كبيرة، وكان هناك متسعٌ له ليبقى لو أراد أن يجلس قليلاً في الخلف وفي الظلام. ففعل ذلك لمدة نصف ساعة، بينما بقي السيد أوزموند في المقدمة خلف إيزابيل مباشرةً وهو منحنٍ إلى الأمام ومرفقاه على ركبتيه. لم يسمع اللورد واربيرتون شيئاً، ولم يرَ من زاويته المظلمة شيئاً سوى المنظر الجانبي الواضح لهذه السيدة الشابة والذي ظهر بوضوحٍ مغايرةً بالإضاءة الخافتة للمسرح.

عندما كانت هناك استراحة أخرى، لم يتحرك أحد؛ فقد كان السيد أوزموند يتحدث مع إيزابيل، واحتفظ اللورد واربيرتون بركنه. مع هذا فقد فعل ذلك لوقتٍ قصير فقط؛ إذ نهض بعد ذلك وحيّا السيدات وتمنى لهن أمسية سعيدة. لم تقل إيزابيل شيئاً لتمنعه من المغادرة، لكن ذلك لم يمنعه من أن يحتار ثانيةً؛ فلِمَ يجب عليها أن تميّز شخصاً غير مناسبٍ كهذا، بينما لا تريد أن يكون لها علاقة بآخَر مناسب جداً؟ فغضب من نفسه لأنه احتارَ، ثم غَضِبَ لأنه غَضِبَ. ولم تفعل موسيقى فيردي الكثير لتهدّئه، فغادر المسرح وسار نحو المنزل، بدون أن يتبيَّنَ طريقه، عبر شوارع روما الملتوية الحزينة التي حملَتْ تحت النجوم حزناً أثقل من حزنه.

استفهم أوزموند من إيزابيل بعد أن ابتعد: (ما هي ميزة هذا الرجل؟).

ـ (ميزته هي أن لا عيب فيه ـ ألا ترى ذلك؟).

علقت هنريتا: (إنه يملك حوالي نصف إنجلترا، تلك هي ميزته. تلك التي يطلقون عليها البلد الحرّ!)

قال جيلبرت أوزموند: (آه، إنه صاحب أملاك عظيم؟ رجل محظوظ!).

صاحت الآنسة ستاكبول: (هل تسمي ذلك حظّاً ـ امتلاك الكائنات البشرية التعيسة؟ إنه يمتلك مستأجريه، ولديه الآلاف منهم. من الجميل أن تملك شيئاً ما، والجماد فقط كافٍ بالنسبة لي. فأنا لا أُصرُّ على اللحم والدم والعقول والمشاعر).

أشار السيد بانِلِنْج مازحاً: (يبدو لي بأنكِ تملكين إنساناً أو اثنين. فأنا أتساءل فيما إذا كان واربيرتون يلاحق مستأجريه بالأوامر كما تفعلين أنت معي؟).

قالت إيزابيل: (إن اللورد واربيرتون راديكالي كبير، وله أفكار تقدمية جداً).

صرحت هنرييتا لتُعْلِمَ السيد أوزموند: (لديه جدران صخرية عالية، وحدائقه محاطة بأسوار حديدية عملاقة محيطها ثلاثون متراً تقريباً. وددتُ لو يتناقش مع بعض الراديكاليين لدينا من بوسطن).

سأل السيد بانِلِنْج: (ألا يحبّذون الأسوار الحديدية؟).

ـ (ليُخرسوا بها فقط المحافظين الخبثاء. أشعر دائماً وكأنني أتحدث معكَ من فوق عبر شيء من الزجاج المكسور).

واصل أوزموند الحديث وهو يسأل إيزابيل: (هل تعرفينه جيداً، هذا المُصْلِح الذي يحتاج إلى إصلاح؟)

ـ (جيداً بما يكفي مقابل كل التقدير الذي أكنّه له).

ـ (وما مقدار ذلك التقدير؟).

ـ (أحبُّ أن أُحبَّهُ).

قال أوزموند: («حب الحب».... عجباً، ذلك يثير الغضب!).

ففكرتْ: (كلا. اجعَلْها «حب الكره»).

ضحك أوزموند: (هل تريدين أن تثيري غضبي من أجله؟).

لم تقل شيئاً لوهلةٍ، لكن بعد ذلك قابلَتْ هذا السؤال المرح بجديّة غير متناسبة: (كلا يا سيد أوزموند، أنا لا أعتقد بأنني سأتجرأ يوماً وأثير غضبكَ).

ثم أضافت بأريحية أكثر: (على أية حال فاللورد واربيرتون رجلٌ لطيف جداً).

تساءل صديقها: (وذو قوة عظيمة؟).

ـ (بل ذو قوة ممتازة، وطيبٌ مثلما يبدو).

ـ (تقصدين طيباً بقدر ما هو جميل؟ إنه جميل جداً. كم هو محظوظ بشكل يثير الغيظ! ـ أن تكونَ زعيماً إنجليزياً عظيماً، أن تكون ذكياً ووسيماً عند المساومة، ومن باب وضع اللمسة الأخيرة أقول أن تكون متمتعاً بحزبٍ رفيع! فذلك هو الرجل الذي يمكنني أن أحسده!).

تأملته إيزابيل باهتمام.

ـ (تبدو لي بأنكَ دائماً تحسدُ أحداً. فبالأمس كان البابا، واليوم اللورد واربيرتون المسكين).

ـ (إن حسدي ليس خطيراً؛ فهو لن يؤذي فأرة. أنا لا أريد أن أدمر الناس ـ أنا فقط أريد أن أكون هُم. فكما ترين، ذلك يدمر نفسي فقط).

قالت إيزابيل: (هل تحب أن تكون البابا؟).

ـ (سأعشق ذلك ـ لكن كان يجب أن أفضّل ذلك بشكل مبكر أكثر).

فعاد أوزموند للموضوع: (لكن عجباً، هل تشيرين إلى صديقكِ بالمسكين؟).

قال رالف لأول مرة، منضماً إلى الحديث بتهكم حاذق بوضوح وكأنه بريء ظاهرياً: (إن النساء ـ عندما يكنَّ طيبات جداً جداً ـ يشفقن أحياناً على الرجال بعد أن يقمن بإيذائهم. تلك هي طريقتهن العظيمة في إظهار العطف).

سألت إيزابيل مندهشةً وكأن هذا الرأي كان جديداً تماماً: (أرجوكَ، وهل آذيتُ اللورد واربيرتون؟).

قالت هنرييتا بينما ارتفعت الستارة لعرض الباليه: (إن كنتِ قد آذيتِهِ فهو يستحق ذلك).

لم تعد إيزابيل ترى ضحيتها في الأربع والعشرين ساعة التالية، لكن في اليوم الثاني بعد زيارة الأوبرا قابلَتْهُ في معرض الكابيتولين، حيث كان واقفاً أمام أسد المجموعة، تمثال المحارب المحتضِر. كانت قد دخلت مع رفاقها الذين اتخذ جيلبرت أوزموند بينهم مكانه بهذه المناسبة أيضاً. قامت المجموعة بعد صعودها السلم بالدخول إلى أولى وأجمل الغرف. خاطبها اللورد واربيرتون بشكلٍ حذر جداً، لكنه قال بسرعة بأنه كان مغادراً المعرض. وأضاف: (ومغادراً روما. يجب أن أودعكِ).

كانت إيزابيل الآن، وبشكل غير منطقي تماماً، حزينة جداً لسماع ذلك. ربما كان سبب ذلك هو لأنها توقفت عن الخوف من أن يجدد طلبه للزواج؛ فقد كانت تفكر في شيء آخر. كانت على وشك أن تعلن عن ندمها، لكنها ردعت نفسها، وتمنت له فقط رحلة موفقة. وهو أمرٌ جعله ينظر إليها بشكلٍ كئيب قليلاً.

(أخشى بأنكِ تعتقدينني «متقلباً» جداً. لقد أخبرتكِ في اليوم السابق بأنني أريد الكثير جداً كي أبقى).

ـ (أوه، لا. يمكنكَ أن تغير رأيكَ بسهولة).

ـ (وذلك هو ما فعلتُهُ).

ـ (رحلة موفقة إذن).

قال سيادة اللورد بشكلٍ كئيبٍ تماماً: (أنتِ مستعجلة كثيراً كي تتخلصي مني).

ـ (أبداً. لكنني أكره الفراق).

فواصل كلامه بشكلٍ جديرٍ بالشفقة: (أنتِ لا يهمكِ ما أفعله).

نظرت إليه إيزابيل لوهلة، فقالت: (آه، أنت لا تفي بوعدكَ!).

فاحمرَّ وجهه كصبي في الخامسة عشرة.

- (إن لم أفعل ذلك فلأنني لا أستطيع. ولهذا السبب أنا ذاهب).

- (وداعاً إذن).

- (وداعاً).

مع ذلك بقي متلكئاً.

(متى سأراكِ ثانيةً؟).

ترددت إيزابيل بسرعة وكأنها تلقّت إلهاماً سارّاً.

- (يوماً ما. بعد أن تتزوج).

- (لن يحصل ذلك أبداً. سيحصل بعد أن تتزوجي أنت).

فابتسمت.

- (ذلك سينفع أيضاً).

- (نعم، جداً. وداعاً).

فتصافحا، وتركها لوحدها في غرفةٍ مهيبة وسط التحفيات الرخامية اللامعة. فجلست وسط دائرة هذه الأشباح، وهي غير منتبهة لها كثيراً، وقد استقرت عيناها على وجوهها البيضاء الجميلة مُصغيةً إلى صمتها الأبدي. من المستحيل، في روما على الأقل، أن تنظر طويلاً إلى مجموعة ضخمة من المنحوتات الإغريقية بدون أن تشعر بتأثير هدوئها النبيل الذي يهبط بهدوءٍ على الروح، الرداء الأبيض الكبير للسلام، مثلما يحصل عندما يُغلَق بابٌ عالٍ للاحتفال. أقول في روما بشكلٍ خاص، لأن الجو الروماني هو بيئة رائعة لانطباعاتٍ كهذه. فأشعة الشمس الذهبية التي تمتزج معها، والسكون العميق للماضي الذي رغم ذلك لا يزال حيّاً، رغم أنه ليس سوى فراغٍ مليءٍ بالأسماء، إلا أنه يبدو بأنه يلقي سحراً مهيباً عليها.

كانت الستائر مسدلة جزئياً على نوافذ الكابيتولين، واستقر ظلٌّ رائقٌ دافئ على التماثيل وجعلها حيّةً أكثر بشكلٍ لطيف. جلست إيزابيل هناك وقتاً طويلاً تحت سحر مهابتها الهادئة وهي تتساءل عن الشيء الذي كانت عيونها الذاهلة مفتوحة عليه، وكيف ستُحْدِثُ شفاهها الغريبة أصواتاً بالنسبة لآذاننا. جعلتْها الجدران الحمراء الداكنة للغرفة بارزة، وعكست الأرضية الرخامية الصقيلة جمالها. كانت قد رأتها كلها مسبقاً، لكن استمتاعها قد تجدد، وكان في أوْجِهِ تماماً، لأنها مسرورة مجدداً بكونها لوحدها في الوقت الراهن. مع ذلك، انقطعَ إنصاتها أخيراً، عاد بفعل التيار الأشد للحياة. فقد دخل سائحٌ عَرَضي، توقف وحدّق لوهلةٍ في المحارب المحتضر، ومن ثم خرج من الباب الآخر وهو يصدر صوتاً على الأرضية الناعمة. عند انقضاء نصف ساعة، ظهر جيلبرت أوزموند مجدداً في مقدمة الرفاق على ما يبدو وتوجَّهَ ناحيتها ببطء ويداه خلف ظهره، وبابتسامته الاستفهامية المعتادة التي برغم ذلك ليست مغرية.

ـ (أنا مندهش من أن أجدكِ وحدكِ، لقد ظننتُ بأن لديكِ رفقة).

ـ (لدي رفقة ـ ومن النوع أفضل) ثم نظرت إلى تمثالي أنطونيوس وفون[1].

ـ (هل تسميهما أفضل رفقة من سيدٍ إنجليزي؟).

فنهضت وهي تقول بشكلٍ ساخر قليلاً: (آه، إن سيدي الإنجليزي قد تركني قبل قليل).

لاحظ السيد أوزموند سخريتها التي أعطت بالنسبة له أهمية لسؤاله.

ـ (أخشى من أن ما سمعتُه في المساء الماضي صحيح؛ وهو أنكِ قاسية قليلاً على ذلك الرجل النبيل).

نظرت إيزابيل لوهلةٍ إلى تمثال المحارب المحتضر.

(1) فون: مخلوق أسطوري نصفه إنسان ونصفه ماعز. (المترجمة)

ـ (إن ذلك ليس صحيحاً. فأنا لطيفة بشكل حي الضمير).

ردَّ جيلبرت أوزموند بنشوة ابتهاج بحيث احتاجت مزحته تفسيراً: (ذلك تماماً هو ما أقصده!).

نحن نعلم بأنه كان مولعاً بما هو أصيل، بما هو نادر، بما هو رفيع واستثنائي؛ والآن، وقد رأى اللورد واربيرتون الذي ظنّه نموذجاً رفيعاً لسلالته وطبقته، شعر بميلٍ جديد لفكرة أن يتخذ لنفسه سيدة شابة جديرة بمجموعته المنتقاة لتزيينها بهبوط يدٍ نبيلة كهذه عليها. كان لدى أوزموند تقدير كبير لطبقة النبلاء الاستثنائية هذه، ليس السبب الرئيسي لذلك هو علوّها الذي تصوَّرَ بأنه من الممكن تخطيه بسهولة، وإنما بسبب واقعيتها الراسخة. إنه لم يسامح نجمه أبداً لأنه لم يختره لدوقية إنجليزية، لاستطاعَ تقدير كل ما هو غير متوقع لسلوكٍ كهذا كسلوك إيزابيل. إذ سيكون من الخطير أن تقوم امرأة قد يتزوجها بعمل شيء من هذا القبيل.

***

الفصل 29

كان رالف تاتشيت، من خلال حديثه مع صديقته الرائعة، قد ميَّز بشكلٍ واضح قليلاً، كما نعلم، الطباع الشخصية لجيلبرت أوزموند؛ لكنه في الحقيقة قد يكون شعر بأنه ضيق الأفق على ضوء تصرُّف هذا الرجل المهذب خلال ما تبقّى من الزيارة إلى روما.

أمضى أوزموند جزءاً من كل يوم مع إيزابيل ورفاقها، واختتمه بالتأثير عليهم كأكثر الرجال الذين تعيش معهم عفويةً. فمن لم يرَ مقدرته على امتلاك الذوق والمرح ـ التي كانت ربما السبب في جعل رالف يوبّخ نفسه على رأيه السابق عنه بأنه اجتماعي بشكل سطحي. حتى قريب إيزابيل الحاسد كان مضطراً لأن يعترف بأنه الآن رفيق ممتع جداً. حسّه الفكاهي كان هادئاً، وإلمامه بالحقائق الثابتة، وصياغته للكلمة المناسبة، هي أمور سهلة بسهولة إشعال عود ثقاب لسيجارتك. واضحٌ جداً بأنه كان مستمتعاً ـ مستمتعاً كما لم يستمتع إنسانٌ يوماً، وجعله ذلك متهللاً. لم يكن السبب هو أن روحه المعنوية عالية بشكل ملحوظ ـ فهو ما كان ليلمس أبداً الطبل الكبير في حفلة موسيقية ممتعة ولو بطرف إصبعه؛ فقد كان لديه كره مفرط للنوتة العالية الصاخبة ولِما أسماه الاهتياج العشوائي. كان يظن أن الآنسة آرتشر أحياناً ذات ميول طائشة، وأنها مثيرة للشفقة لامتلاكها هذا العيب، لأنها لو لم تكن تمتلكه فلن تمتلك شيئاً حقاً؛ ولأصبحت ناعمة بالنسبة لِما يطلبه منها مثلما يكون المقبض العاجي بالنسبة لليد. على أية حال، فهو شخصياً إن لم يكن صاخباً، فهو حصيف، وخلال تلك الأيام الختامية لشهر آيار في روما شعر

بسرورٍ ماثَل تنزهاً وئيداً بلا هدف تحت أشجار الصنوبر لفيلا بورغيزي[1] بين أزهار المرج الجميلة الصغيرة والتماثيل الرخامية المكسوّة بالطحالب. كان مسروراً بكل شيء؛ إذ لم يكن قد سُرَّ من قبل بأشياء كثيرة كهذه في وقتٍ واحد. وتجددت الأفكار القديمة، واللهو القديم؛ ففي إحدى الأمسيات، وهو عائدٌ إلى غرفته في الفندق، كتب سوناتة صغيرة استهلّها بالعنوان «روما التي زرتها ثانيةً».

بعد يوم أو يومين عرض هذه المقطوعة من القصيدة اللائقة والابتكارية على إيزابيل وهو يوضِّح لها بأن هذه هي من العادات الإيطالية، وهي إحياء ذكرى مناسبات معينة في الحياة بواسطة الثناء عليها في الشعر. كان بشكلٍ عام يرفه عن نفسه على انفراد؛ إذ كان يشعر في مراتٍ كثيرة وبشكلٍ مؤلمٍ جداً ـ كان سيعترف بذلك ـ بأن هناك شيئاً ما ظالم، شيئاً بشع؛ وهو أن الندى المنعش لسعادةٍ محتملة نادراً ما يسقط على روحه. لكنه في الوقت الحالي كان سعيداً ـ ربما أسعد مما كان يوماً في حياته، وكان لهذا الإحساس أساس قوي. كان ذلك ببساطة هو إحساس النجاح ـ الإحساس الأكثر عذوبة لقلب الإنسان. لم يكن قد انتاب أوزموند كثيراً؛ فمن هذه الناحية كان ينتابه إحساس الشبع المزعج، مثلما يعرف ذلك جيداً ويذكِّر نفسه به دائماً. لقد اعتاد أن يكرر في دواخل نفسه: (آه، لا. أنا لم أكن خاسراً، لم أكن خاسراً بالتأكيد. إن نجحتُ قبل أن أموت، فأكون قد استحقيتُ ذلك بشكلٍ تام). إذ كان يميل كثيراً إلى أن يعتقد بأن «استحقاق» هذه النعمة يتضمن قبل كل شيء التألم نفسياً لأجلها وبأنها متوقفةٌ على هذه الطريقة. لم تخلُ سيرته أيضاً من ذلك مطلقاً؛ فهو يوحي إلى الناظر هنا وهناك بأنه يرقد على أكاليل غارٍ خيالية. لكن انتصاراته ـ بعضها ـ أصبحت الآن قديمة جداً؛ والأخرى سهلة جداً.

---

(1) فيلا بورغيزي: هي حديقة طبيعية واسعة في روما، صممت وفقاً للطراز الإنجليزي للحدائق. تضم عدداً من المباني والمتاحف. بناها المعماري فلامينيو بونيتسيو. (المترجمة)

إن الانتصار الحالي لم يكن أقل صعوبةً مما هو متوقع، لكنه كان سهلاً ـ أي كان سريعاً ـ فقط لأنه بذل جهداً استثنائياً عموماً، جهداً أكبر مما تصوَّرَ أن بمقدوره أن يبذله.

إن الرغبة بأن يمتلكَ دليلاً مادياً لإثبات «كفاءته» ـ لإثباتها بطريقةٍ أو بأخرى ـ كانت حلم شبابه؛ لكن كلما تمضي السنون، تبدو له الشروط المتعلقة بأي دليل واضح على استثنائيته صعبة وغير مستساغة أكثر وأكثر؛ كابتلاع أكواب البيرة ليثبت المرء ما بإمكانه أن «يتحمّله».

لو كانت هناك لوحة غير معروفة معلقة على جدار متحفٍ ما وقد دبَّ فيها الشعور واليقظة، لشعرَتْ ربما بهذه المتعة العجيبة من كونها أخيراً وفجأةً قد أصبحت معروفة ـ بأنها رُسمت بيد رسّامٍ عظيم ـ من خلال الأسلوب الرفيع جداً وغير الملحوظ جداً. إن «أسلوبه» هو ما اكتشفَتْهُ الفتاة بمساعدة بسيطة؛ والآن عليها، إلى جانب تمتعها هي بذلك، أن تقوم بإعلانه على الملأ بدون أن تصيبه بأي من المتاعب. هي من كان يجب عليها أن تفعل هذا الشيء من أجله، وما كان لينتظر عبثاً.

قبل الوقت المحدد مقدماً لمغادرتها مباشرةً تلقت هذه السيدة الشابة برقية من السيدة تاتشيت وهي كما يلي: (غادري فلورنسا في الرابع من حزيران إلى بيلاجيو واستجيبي إن لم يكن لكِ رأي آخر. لكنني لا أستطيع انتظاركِ إن كنتِ تتسكعين في روما).

كان التسكع في روما أمراً ساراً جداً، لكن لدى إيزابيل رأي آخر، وأعلمت خالتها بأنها ستلحق بها على الفور. فأخبرت جيلبرت أوزموند بأنها فعلت ذلك وأجاب بأنه سينتظر لفترة أطول قليلاً تحت الظلال الهادئة لكاتدرائية القديس بطرس ليقضي العديد من فصول الصيف والشتاء في إيطاليا.

لن يعود إلى فلورنسا لأكثر من عشرة أيام وخلال هذا الوقت تكون قد انطلقتْ إلى بيلاجيو. في هذه الحالة قد تمر عدة أشهر قبل أن يراها ثانيةً.

حدث الحديث هذا في غرفة الجلوس الكبيرة المزينة التي شغلها أصدقاؤنا في الفندق؛ كان الوقت متأخراً من المساء، وكان على رالف تاتشيت أن يعيد ابنة خالته إلى فلورنسا في اليوم التالي. وجد أوزموند الفتاة لوحدها؛ فقد كانت الآنسة ستاكبول قد عقدت صداقة مع عائلة أميركية مرحة في الطابق الرابع، وصعدت السلم الطويل لتزورهم. عقدت هنرييتا خلال الرحلة وبحرية كبيرة عدة صداقات، وكانت قد عقدت في القطار بعضاً منها والتي كانت من ضمن الصداقات المهمة. كان رالف يعدُّ الترتيبات لرحلة اليوم التالي، وجلست إيزابيل بمفردها في غرفة منجّدة بقماش من اللون الأصفر. كانت الكراسي والأرائك برتقالية اللون، والجدران والشبابيك مكسوة باللونين الأرجواني والذهبي، وللمرايا واللوحات أُطُر مزخرفة، وكان السقف مقوّساً بشدة ومرسوماً عليه آلهات الإلهام[1] والشاروبيم[2]. كان المكان بالنسبة لأوزموند قبيحاً لحدِّ الإزعاج؛ فقد كانت الألوان المبهرجة والرونق المتكلف تشبه الحديث السوقي المتصلّف الكاذب.

تناولت إيزابيل كتاباً عن أمبير[3] قد أُهدي إليها من قبل رالف عند وصولهما إلى روما. لكن بالرغم من أنها حملته في حضنها ووضعت إصبعها عليه بشكل أعمى إلا أنها لم تكن متلهفة في متابعة مطالعتها للكتاب. كان هناك إلى جانبها على المائدة مصباح ذو سجفة من قماش حريري خفيف وردي اللون وقد نشر لوناً وردياً باهتاً غريباً على المشهد.

قال جيلبرت أوزموند: (قلتِ بأنكِ ستعودين؛ لكن من يدري؟ أعتقد

---

(1) آلهات الإلهام: هي شخصيات أسطورية إغريقية والمسؤولة عن منح الإلهام أثناء التأليف الموسيقي. (المترجمة)

(2) الشاروبيم: أو الكاروبيم، هي شخصيات أسطورية ونوع من الملائكة مذكورة في الكتاب المقدس، من بين وظائفها العديدة حماية بوابة جنة عدن. (المترجمة)

(3) أمبير: هو أندريه ماري أمبير، فيزيائي فرنسي ويعتبر الأب المؤسس للكهرومغناطيسية، وتكريماً له أطلق على وحدة قياس شدّة التيار الكهربائي بالأمبير. (المترجمة)

على أكثر الاحتمالات بأنكِ ستبدئين رحلتكِ حول العالم. أنت لستِ ملزمة بالعودة؛ يمكنكِ أن تفعلي ما تختارينه تماماً؛ يمكنكِ أن تسافري حول العالم).

أجابت إيزابيل: (حسناً، إن إيطاليا هي جزء من هذا العالم، ويمكنني أن أمرَّ عليها في الطريق).

ـ (في طريقكِ حول العالم؟ كلا، لا تفعلي ذلك. لا تضعينا بين قوسين ـ امنحينا فصلاً كاملاً لنا وحدنا. أنا لا أريد أن أراكِ أثناء رحلاتكِ، أودُّ بدلاً من ذلك أن أراكِ عندما تنتهين منها. يجب أن أراكِ وأنتِ متعَبة ومكتفية).

ثم أضاف أوزموند بسرعة: (أُفضِّلُكِ وأنتِ بهذه الحالة).

قلّبت إيزابيل صفحات كتاب السيد أمبير وقد أرخت نظرها.

ـ (أنتَ تسخر من الأشياء بدون أن يظهر عليكَ بأنكَ تفعل ذلك رغم أنكَ تقصد أن تفعل ذلك على ما أعتقد. أنت لا تحترم قيامي بهذه الرحلات ـ أنت تظنه أمراً سخيفاً).

ـ (من أين لكِ هذا الكلام؟).

واصلت حديثها بنفس النبرة وهي تحكُّ حافة كتابها بفتّاحة الرسائل: (أنتَ ترى جهلي وأخطائي والطريقة التي أسافر بها وكأنَّ العالم يعود لي، لأنه ببساطة...... لأنه أصبح في وسعي فعل ذلك. فأنتَ تعتقد بأن من غير المستحسن أن تفعل امرأةٌ ذلك. أنت تظن الأمر جريئاً وأخرقَ).

قال أوزموند: (أعتقد بأن الأمر رائع. أنت تعرفين رأيي ـ فقد تحاورتُ معكِ بشأن ذلك بما يكفي. ألا تتذكرين قولي لكِ بأن على المرء أن يجعل حياته عملاً فنياً؟ لقد بدوتِ مذهولةً قليلاً في البداية، لكن بعد ذلك أخبرتُكِ أن ذلك تماماً هو ما بدا بالنسبة لي ما يجب أن تحاولي عمله بحياتكِ).

رفعت نظرها من على كتابها.

ـ (إن أكثر شيء في العالم تستهجنه هو عملٌ فنيٌّ سيئ، عملٌ فنيٌّ أحمق).

ـ (ربما. لكن ما تستهجنينه أنت هو أعمال فنية نقية جداً وجميلة جداً).

واصلَتْ حديثها: (لو كنتُ سأذهب إلى اليابان في الشتاء القادم فسوف تضحك علي).

ابتسَمَ أوزموند ـ ابتسامة متفهمة، لكنه لم يضحك لأن نبرة حديثهما لم تكن مازحة. ففي الحقيقة كان لإيزابيل احترامها؛ وهو ما كان قد رآه سلفاً.

ـ (لديكِ خيالٌ يجعل المرء يرتعد!).

ـ (ذلك بالضبط هو ما أتحدث عنه. أنت تظن أن فكرةً كهذه هي فكرة غريبة).

ـ (سوف أؤيدكِ بالذهاب إلى اليابان. فهي إحدى أكثر الدول التي أحب أن أراها. ألا يمكنكِ أن تصدقي ذلك، بولعي بالبضائع المطلية باللّك؟).[1]

قالت إيزابيل: (ليس لدي ولع بالبضائع القديمة المطلية باللّك لتبرر ذهابي).

ـ (لديكِ مبرر أفضل ـ وهو تكاليف الذهاب. أنت مخطئة جداً بنظريتكِ بأنني أضحك عليكِ. لا أدري ما الذي أدخل ذلك في رأسكِ؟).

ـ (لن يكون غريباً لو تصورتَ فعلاً أن من السخافة أن يكون لدي المال لأسافر بينما أنت ليس لديكَ المال؛ لأنكَ تعرف كل شيء وأنا لا أعرف شيئاً).

ابتسم أوزموند.

ـ (عجباً. إنه أهم الأسباب التي يجب أن تجعلكِ تسافرين وتتعلمين).

ثم أضاف وكأنه يريد توضيح نقطةٍ ما: (إضافةً إلى ذلك، أنا لا أعرف كل شيء).

---

(1) اللّك: هو مادة رقيقة لامعة تسمى أيضاً الوارنيش، تستخدم لطلاء الخزف والخشب وغيرها من المواد للحفاظ على لونها ويجعلها مقاومة للماء. وقد اشتهرت بذلك الصين واليابان بشكل رئيسي. (المترجمة).

لم تستغرب إيزابيل من قوله ذلك بشكل جِدّي؛ فقد كانت تعتقد أن أسعد أحداث حياتها ـ أسعدَتْها كثيراً لدرجة أنها وصفت تلك الأيام القليلة في روما والتي أحبَّتْها، بشخصية أميرة صغيرة تنتمي لأحد العصور ذات فستان مغطى بشكلٍ مبالغ به بعباءة ذات أبّهة وتجرُّ ذيل العباءة الذي تطلَّبَ خدماً ومؤرخين ليحملونه ـ كانت مشرفة على الانتهاء.

إن معظم أوقاتها الممتعة هي بسبب السيد أوزموند كانت ملاحظةً لم تجشّم نفسها عناء إدراكها؛ فقد أوفت هذه النقطة حقها مسبقاً. لكنها قالت لنفسها بأنه إن كان هناك احتمال بأن لا يلتقيا ثانيةً أبداً، فربما في النهاية سيلتقيان أيضاً. إن الأحداث السعيدة لا تتكرر، وقد ارتدَتْ مغامرتها مسبقاً الوجه المتقلب، الوجه البحري لجزيرةٍ رومانسية، والتي كانت، بعد استمتاعها بالعنب الأحمر، تؤجل الخروج منها عندما هبَّ النسيم. قد تعود إلى إيطاليا وتجده قد تغير ـ هذا الرجل الغريب الذي أسعدها مثلما هو؛ وسيكون من الأفضل أن لا تعود على أن تهرب من خطر ذلك. لكن إن لم يكن عليها العودة فسيكون من المحزن أن ينتهي الفصل؛ فقد شعرت لوهلةٍ بأسًى أثَّرَ في مصدر الدموع. أبقاها هذا الشعور صامتة، وكان جيلبرت أوزموند صامتاً أيضاً؛ فقد كان ينظر إليها. قال في النهاية بصوت خفيض لطيف: (اذهبي إلى أي مكان؛ افعلي أي شيء؛ استنبطي كل شيء من الحياة. كوني سعيدة ـ كوني منتصرة).

ـ (ماذا تقصد بأن أكون منتصرة؟).

ـ (حسناً، أن تعملي ما تحبين).

ـ (إذن أن أنتصر يبدو لي بأنه يعني أن أفشل! فأن يعمل المرء كل الأشياء التافهة هو أمرٌ مملٌّ جداً عادةً).

قال أوزموند بذكائه الواثق: (بالضبط. كما قلتِ للتو، بأنكِ ستشعرين بالملل يوماً ما).

توقف عن الكلام لبرهة، ثم أكمل: (لا أدري فيما إذا كان من الأفضل أن لا أنتظر حتى ذلك الحين لأن هناك شيئاً أريد قوله لكِ).

أضافت إيزابيل بشكل عرضي: (آه، لا أستطيع أن أنصحكَ بدون أن أعرف ما هو. لكنني أكون بشعة عندما أشعر بالملل).

ـ (أنا لا أصدق ذلك. أنت تغضبين أحياناً ـ ذلك هو ما يمكنني أن أصدقه، وإن لم أرَ ذلك. لكنني متأكدٌ بأنكِ لستِ فظّة أبداً).

ـ (حتى عندما أفقد أعصابي؟).

تكلم أوزموند بجديّة خالصة: (أنتِ لا تفقدينها ـ بل تعثرين عليها، ولا بدّ أن ذلك أمر جميل. ولا بدّ أنها لحظات عظيمة لأراها).

فصرخت إيزابيل بعصبية: (لو فقط تمكنتُ من العثور عليها الآن!).

ـ (أنا لستُ خائفاً، سوف أثني ذراعيّ وأعجب بكِ. أنا أتكلم بجدية).

فانحنى إلى الأمام ويداه على ركبتيه وأرخى نظره للحظاتٍ، ثم واصل كلامه في النهاية: (إن ما أريد أن أقوله لكِ هو أنني اكتشفتُ بأنني واقعٌ في حبكِ).

فنهضتْ على الفور.

ـ (آه، امتَنِعْ عن ذلك حتى أشعر بالملل!).

فجلس هناك وقد رفع نظره نحوها.

ـ (تشعرين بالملل من سماعها من الآخرين؟ كلا. يمكنكِ أن تصغي الآن أو لا تصغي أبداً مثلما يحلو لكِ. لكن برغم ذلك لا بدّ أن أقولها الآن).

فاستدارت مبتعدة، لكن أثناء فعلها ذلك توقفت وأوقعت نظرتها الراسخة عليه.

بقي الاثنان لوهلةٍ بهذا الوضع وهما يتبادلان نظرة طويلة ـ النظرة الطويلة والمرتبكة للساعات الحرجة للحياة. ثم نهض واقترب منها، باحترامٍ شديد، وكأنه كان يخشى بأنه تخطى الرسميات.

(أنا أحبكِ بكل معنى الكلمة).

كان قد كرر هذا التصريح بنبرةٍ متحفّظة قليلاً، كرجلٍ يائس من ذلك والذي تكلم ليريح نفسه أساساً. ملأت الدموع عينيها؛ فهذه المرة استجابت عيناها لحدة الألم الذي أوحى لها بطريقةٍ ما بانزلاق مزلاجٍ صغير ـ إلى الوراء وإلى الأمام ـ لم تتمكن من تحديد ذلك.

إن الكلام الذي قاله وهو واقف هناك جعله رائعاً وشجاعاً، وأحاطه بالمظهر الذهبي لأوائل الخريف. لكن إنْ تحدثنا من ناحية معنوية فهي قد تراجعت عن هذا الكلام ـ وهي لا تزال واقفة بمواجهته ـ مثلما تراجعت في الحالات الأخرى أمام مواجهةٍ مماثلة.

فأجابت بحِدَّةٍ عبرت عن الفزع من اضطرارها في هذه الحالة أيضاً إلى أن تختار وتقرِّر: (أوه، لا تقل ذلك أرجوك).

كان ما أفزعها أكثر هو تحديداً ـ على ما يبدو ـ القدرة التي يجب أن تقضي بها على كل ما هو مفزع ـ أي الإحساس بشيءٍ داخلها، شيء يقبع عميقاً اعتقدتْ بأنه إحساسٌ ملهم وجدير بالثقة كان موجوداً هناك كمبلغ كبير من المال مودّع في بنكٍ وكان يوجد رعب في البدء من الإنفاق، لو لمسَتْهُ فسيخرج كله.

قال أوزموند: (ليس لدي فكرة بأنه سيهمكِ كثيراً. لدي القليل جداً لأقدمه لكِ. إن ما لدي... كافٍ بالنسبة لي؛ لكنه ليس كافياً بالنسبة لكِ. فليس لدي لا الثروة ولا الشهرة ولا المميزات الغريبة. لذا فأنا لا أقدّم شيئاً. أنا أخبركِ بذلك فقط لأنني أعتقد بأن الأمر لا يمكن أن يهينكِ، وفي يومٍ ما قد يبعث بكِ السرور).

واصل كلامه وهو واقف هناك أمامها وقد مال نحوها بحذر وهو يدير قبعته ـ التي كان قد التقطها ـ ببطء بحركةٍ تضمنت رعدةً خفيفة بسبب الارتباك وليس بسبب غرابة الأطوار وهو يُظهر لها وجهه المتماسك واللطيف والمحطم

قليلاً: (إن ذلك يبعث بي السرور، أؤكد لكِ ذلك، ولا يبعث بي الألم لأنه ببساطة أمر تافه تماماً. ستظلين بالنسبة لي دائماً أهم امرأةٍ في العالم).

نظرت إيزابيل لنفسها بهذه الصفة ـ نظرت بشدة، وهي تتخيل بأنها استوفت هذه الصفة بامتيازٍ مؤكد. لكن ما قالته لم يكن أبداً تعبيراً مماثلاً لإطراءٍ كهذا: (أنتَ لا تهينني، لكن عليكَ أن تتذكر بأن المرء قد يكون متضايقاً أو مضطرباً بدون أن يكون قد أُهينَ).

«متضايقاً»: سمعت نفسها وهي تقول ذلك، وقد أدهشتها هذه الكلمة لأنها كلمة سخيفة. لكن ذلك هو ما خطر لها بشكلٍ أحمق.

ـ (أنا أتذكر ذلك تماماً. أنت متفاجئة طبعاً وخائفة. لكن إن كانت المسألة عند هذا الحدِّ فقط فسوف تنتهي. وربما ستترك شيئاً لن أكون خجلاً منه).

قالت إيزابيل بابتسامة باهتة قليلاً: (لا أدري ماذا ستترك. فكما ترى، أنا لا أُقهَر بكل الأحوال. أنا لستُ مضطربة تماماً لأفكر بذلك. وأعتقد بأنني مسرورة بأننا سنفترق ـ لأنني سأغادر روما غداً).

ـ (أنا طبعاً لا أتفق معكِ في هذه النقطة).

أضافت بسرعة: (أنا لا أفهمكَ إطلاقاً).

ثم احمرت خجلاً وهي تسمع نفسها تقول ما قالته للورد واربيرتون قبل عامٍ تقريباً.

ـ (لو لم تكوني مغادِرة لعرفتِني بشكل أفضل).

ـ (سوف أفعل ذلك في وقتٍ آخر).

ـ (آمل ذلك. أنا مطمئن بمعرفة ذلك).

فأجابت على نحوٍ مؤكِّد: (كلا، كلا..... ها أنت لستَ صادقاً. فأنتَ لستَ مطمئناً بمعرفة ذلك. لا يمكن لأحدٍ أن يكون أقل من ذلك).

فضحك.

ـ (حسناً، أنا قلتُ ذلك لأنني أفهم نفسي. قد يكون ذلك تبجُّحاً، لكنني مطمئن فعلاً بمعرفة ذلك).

ـ (محتمل جداً. لكنكَ حكيم جداً).

هتف أوزموند: (وأنتِ كذلك يا آنسة آرتشر!).

ـ (أنا لا أشعر بذلك حالياً. مع هذا، أنا حكيمة بما يكفي لأن أعتقد بأنه يجب عليكَ أن تذهب. عمتَ مساءً).

قال جيلبرت أوزموند وهو يأخذ يدها التي أخفقت في أن تستردَّها: (بارك الله فيكِ!).

وبعدها أضاف: (لو التقينا ثانيةً فسوف تجدينني مثلما تركتِني. وإن لم نلتقِ فسوف أكون كذلك بالرغم من ذلك).

ـ (أشكركَ كثيراً جداً. إلى اللقاء).

كان هناك شي عنيد بشكلٍ مسالم بخصوص ضيف إيزابيل؛ وهو أنه كان من الممكن أن يذهب من تلقاء نفسه، لا أن يُطرَد.

ـ (هناك أمرٌ آخر. أنا لم أطلب منكِ شيئاً، ولا حتى رأياً مستقبلياً؛ لا بدّ أن تنصفيني في ذلك. هناك خدمة أود أن أطلبها. أنا لن أعود إلى البيت لبضعة أيام، فروما رائعة، وهي مكان مناسب لرجلٍ بمثل مزاجي. أوه، أنا أعلم بأنكِ حزينة لأنكِ ستتركينها، لكنكِ على صواب بفعل ما تريده منكِ خالتكِ).

انفجرت إيزابيل بشكلٍ غريب: (إنها حتى لا تطلب ذلك!).

من الواضح أن أوزموند كان على وشك أن يقول شيئاً كان سيشبه هذا الكلام، لكنه غيّر رأيه وأجاب فقط: (آه، حسناً. من الصائب أن تذهبي معها، من الصائب جداً. افعلي كل شيء صائب، أنا أفضّل ذلك. اعذريني كوني متحيّزاً، فأنتِ قلتِ بأنكِ لا تفهمينني، لكن عندما تفهمينني ستكتشفين مقدار تقديسي لما هو صائب).

سألت إيزابيل بتجهّم: (أنتَ لستَ تقليدياً؟).

ـ (أحب الطريقة التي قلتِ بها هذه الكلمة! كلا، أنا لستُ تقليدياً؛ أنا التقليدية نفسها. أنت لا تفهمين ذلك؟ علي أن أفسر الأمر).

فتوقف عن الكلام لوهلة وهو يبتسم. ثم تضرَّع بعفوية مفاجئة وسريعة ومرحة: (عودي ثانيةً، فهناك الكثير جداً من الأشياء التي يجب أن نتحدث عنها).

وقفتْ هناك بعينين منكّستين.

ـ (ما هي الخدمة التي تحدثتَ عنها للتو؟).

قال جيلبرت أوزموند برقة: (أنْ تذهبي وتري ابنتي الصغيرة قبل أن تغادري فلورنسا. إنها في الفيلا بمفردها. لقد قررتُ أن لا أرسلها إلى أختي التي لا تمتلك أفكاراً كأفكاري مطلقاً. أخبريها بأنه يجب عليها أن تحب والدها المسكين كثيراً).

أجابت إيزابيل: (سيكون شرفاً كبيراً لي أن أذهب. سوف أخبرها بما قلتَهُ. إلى اللقاء مرة أخرى).

فانصرف بسرعة وبشكلٍ محترم إثر ذلك.

عندما ذهب، وقفت لبرهة تنظر حولها، وجلست ببطء بمظهر من يفكر في أمرٍ ما. جلست هناك حتى عاد رفاقها ويداها مطويتان وهي تحدق على السجادة القبيحة. كانت ثائرتها ـ التي لم تكن قد هدأت ـ مكبوحة جداً وعميقة جداً. فما حدث كان شيئاً تواجهه مخيلتها على مدى أسبوعٍ مضى؛ لكن هنا، عندما حدث، تحيّرَتْ ـ فذلك الاعتقاد الرفيع قد انهار بطريقةٍ ما. إن نشاط مخيلة هذه السيدة الشابة كان غريباً، ويمكنني فقط أن أقدمه لكم كما أراه، ليس أملاً بجعلها تبدو طبيعية تماماً.

إن مخيلتها الآن، كما قلتُ، متعلقة بالماضي؛ كانت هناك مساحة كبيرة

مبهمة لم تتمكن من اجتيازها ـ منطقة مظلمة غامضة بدت مبهمة وحتى غدّارة قليلاً كمستنقعٍ يُنظَر إليه في ظلمة الشتاء، لكن عليها أن تجتازه رغم ذلك.

***

الفصل 30

عادت في اليوم التالي إلى فلورنسا تحت حراسة ابن خالتها. رغم أن رالف تاتشيت ضجرٌ عادةً من نظام السكة الحديدية إلا أنه كان له رأي طيب عن الساعات المتعاقبة التي انقضت في القطار الذي أسرع برفيقته مبتعداً عن المدينة التي تميزت الآن بتفضيل جيلبرت أوزموند ـ الساعات التي كانت ستشكِّل المحطة الأولى ضمن برنامج رحلة أكبر.

كانت الآنسة ستاكبول قد تخلفت عن المغادرة؛ فقد كانت تخطط لرحلة قصيرة إلى نابولي يجب أن تنفذها بمساعدة السيد بانِلِنْج. كان على إيزابيل أن تقضي ثلاثة أيام في فلورنسا قبل الرابع من حزيران، وهو تاريخ مغادرة السيدة تاتشيت، وقررت أن تكرس آخر تلك الأيام لتنفيذ وعدها بزيارة بانسي أوزموند. رغم ذلك، بدت خطتها لوهلة مرشحة للتبديل مراعاةً لفكرةٍ من أفكار مدام ميرليه. فهذه السيدة كانت لا تزال في منزل تاتشيت، لكنها أيضاً كانت على وشك مغادرة فلورنسا لكون محطتها التالية هي قلعة قديمة في جبال توسكانيا، منزل عائلة نبيلة من تلك البلاد، والتي بدا التعرّف عليها بالنسبة لإيزابيل (كانت قد عرفتهم «دهراً» كما تقول) على ضوء صور معينة لمسكنهم الهائل المزود سوره بفتحات والذي تمكنت صديقتها من أن تريه لها، شرفاً كبيراً. لقد ذكرتْ لهذه السيدة المحظوظة بأن أوزموند قد طلب منها أن تلقي نظرة على ابنته. لكنها لم تذكر بأنه صرّح لها بحبه.

هتفت مدام ميرليه: (آه، هكذا إذن! أنا نفسي كنتُ أفكر بأنه سيكون من اللطف أن تزوري الطفلة زيارة قصيرة قبل أن أذهب).

قالت إيزابيل بتعقُّل: (إذن يمكننا أن نذهب سوية).

أقول «بتعقّل» لأن المقترح لم يكن قد قيل بروح الحماس. إذ كانت قد قررت مسبقاً أن تقوم برحلتها القصيرة تلك لوحدها؛ فهي تحب أن تقوم بها كذلك بشكل أفضل. مع ذلك، كانت مستعدة للتضحية بهذا الشعور المبهم لاحترامها الكبير لصديقتها.

فقالت هذه الشخصية الفريدة بعد أن فكرت ملياً: (مع ذلك، لِمَ يجب على كلينا أن يذهب وكل واحد منا لديه الكثير ليفعله في هذه الساعات الأخيرة؟).

ـ (ممتاز، يمكنني الذهاب بمفردي).

ـ (لا أعلم بشأن ذهابكِ لوحدكِ ـ لمنزل عازبٍ وسيم. لقد كان متزوجاً ـ لكن منذ مدة طويلة جداً!).

فحملقت إيزابيل: (متى كان غياب السيد أوزموند يهم؟).

ـ (إنهم لا يعلمون بأنه غائب، تفهمين ذلك).

ـ (إنهم؟ من تعنين؟).

ـ (كل شخص. لكن ربما لا يهم ذلك).

سألت إيزابيل: (إن كنتِ أنت تذهبين، فلِمَ لا يجب عليّ أنا ذلك؟).

ـ (لأنني امرأة كبيرة في السن ومحافظة، وأنتِ شابة جميلة).

ـ (فلنفترض كل ذلك جدلاً، لكنكِ لم تقطعي وعداً).

قالت المرأة الكبيرة في السن بسخرية خفيفة: (كم تتذكرين وعودكِ!).

ـ (أنا أتذكر وعودي كثيراً. هل هذا يفاجئكِ؟).

ردت مدام ميرليه بصوتٍ مسموع: (أنتِ محقة. أنا فعلاً أعتقد بأنكِ ترغبين بأن تكوني لطيفة مع الطفلة).

ـ (أرغب كثيراً جداً بأن أكون لطيفة معها).

ـ (اذهبي لرؤيتها إذن، فلا يوجد أحد أكثر حكمة، وأخبريها بأنني سآتي إن لم تأتِ).

ثم أضافت مدام ميرليه: (أو بالأحرى، لا تخبريها، فهي لن تهتم).

بينما كانت إيزابيل في طريقها علناً في عربة مكشوفة في الطريق المتعرج الذي يقود إلى قمة تل أوزموند، تساءلت ماذا كانت تقصد صديقتها بـ «**فلا يوجد أحد أكثر حكمة**». من حينٍ لآخر، وعلى فترات متباعدة، تقوم هذه السيدة التي كان تحفّظها في السفر عموماً كأنه تحفّظٌ من بحرٍ شاسع بدلاً من تحفّظٍ من قنالٍ مائية خطرة، بإلقاء تعليقٍ مبهم أو تنقضُّ بملاحظةٍ تبدو مغلوطة. ما الذي يهم إيزابيل آرتشر من الأحكام المبتذلة من أناسٍ غامضين؟ وهل اعتقدت مدام ميرليه بأنها قادرة على فعل شيء أساساً لو كان يجب أن يُفعل خفية؟ بالطبع لا؛ إذ لا بدّ أنها قصدت شيئاً آخر ـ شيئاً لم يكن لديها الوقت لتفسره لضيق الوقت الذي سبق مغادرتها. ستعود إيزابيل إلى هذا الموضوع يوماً ما؛ فقد كانت هناك الكثير من الأمور التي أرادت أن تستوضح بشأنها.

حينما أُدخلتْ إلى غرفة جلوس السيد أوزموند سمعت بانسي وهي تعزف على البيانو في مكانٍ آخر؛ فقد كانت الفتاة الصغيرة «تتمرن» وإيزابيل مسرورة لترى بأنها أدت هذا الواجب بدقة. فدخلت على الفور وهي تعدّل ثوبها، وأدّت اعتبارات الاحترام الخاصة بمنزل والدها بجديّة مهذّبة تبعث على الانشداه. جلست إيزابيل هناك لنصف ساعة، ونهضت بانسي لهذا الحدث كالجنيّة الصغيرة المجنّحة التي ترقص بالإيماء بمساعدة سلك خفي ـ لا تطقطق بل تتكلم وتُظهر الحب نفسه المتّسم بالاحترام تجاه إيزابيل الذي كانت إيزابيل بارعة جداً بإظهاره تجاهها. تعجبت إيزابيل بشأنها؛ إذ لم يسبق أن قُدِّمَتْ إلى أنفها بشكلٍ مباشر هكذا وردة بيضاء ذات أريجٍ أخّاذ. فقالت شابتنا المعجبة: كم هي متعلمة جيداً هذه الطفلة، كم تم توجيهها وتنشئتها بشكلٍ جميل، وأيضاً كم تم إبقاؤها بسيطة، عفوية، وبريئة! كانت إيزابيل مولعة

دائماً بموضوع الشخصية والطبع وبسبر غور، كما يقال، الغموض العميق للشخصية، وقد طاب لها حتى تلك اللحظة أن تشك فيما إذا لم تكن هذه الابنة الرقيقة تعرف كل شيء حقاً. ألم تكن قمة بساطتها سوى اكتمالٍ للوعي الذاتي؟ هل كانت تصنُّعاً لتُسعِد ضيفة والدها، أم هل كانت تعبيراً صريحاً لطبيعةٍ نقية؟ أقول، إنّ الساعة التي أمضتها إيزابيل في غرف السيد أوزموند الجميلة والخالية والمعتمة ـ فقد كانت النوافذ شبه معتمة لإبعاد الحرارة، وينظر نهار الصيف الرائع خلسةً هنا وهناك عبر شقٍّ بسيط مُلقِياً ضوءاً ذا لونٍ باهت أو بريق شاحب في العتمة الشديدة ـ والتقاءها بابنة المنزل قد حَسَما هذا السؤال بشكلٍ فعّال. فقد كانت بانسي فعلاً صفحة بيضاء، صفحة بيضاء نقية، وتم إبقاؤها كذلك؛ فلم يكن لديها لا المكر ولا الخبث ولا الحِدّة ولا الموهبة ـ سوى موهبتين صغيرتين استثنائيتين أو ثلاث: لتتعرّف بها على صديقٍ ما، ولتتفادى بها خطأً ما، ولتعتني بلعبة قديمة أو بفستان جديد. مع ذلك، لكي تكون رقيقاً بهذا الشكل يعني أن تكون ضعيفاً أيضاً، وقد أمكنها أن تشعر بأنها ضحية سهلة للقدر. لم يكن لديها الرغبة ولا القوة لتقاوم، ولا الإحساس بأهميتها الخاصة؛ لذا يمكن إرباكها ببساطة، إذ ستكون قوتها بأكملها مركّزة على معرفة متى وأين عليها أن تتماسك.

تنقلت في أرجاء المكان مع ضيفتها التي طلبت أن تتجول في الغرف الأخرى أيضاً حيث أظهرت بانسي حكمها على عدة أعمال فنية.

تحدثت عن تطلعاتها، انشغالاتها، ونوايا والدها. لم تكن أنانية، لكنها شعرت بصواب تزويد المعلومات التي كانت ستنتظرها بشكل طبيعي ضيفةٌ مميزة كهذه.

قالت: (أرجوكِ، أخبريني، هل ذهب بابا إلى روما لرؤية مدام كاثرين؟ فقد قال لي بأنه سيفعل ذلك لو كان يملك الوقت الكافي. ربما لم يملك الوقت الكافي. إن بابا يرغب بالوقت الكافي.

إنه يريد التحدث عن تعليمي؛ فتعليمي لم ينتهِ بعد، تعلمين ذلك. لا أدري ماذا يمكنهم أن يفعلوا بي أكثر، لكنه يبدو بأنه لن ينتهي. أخبرني بابا في أحد الأيام بأنه يفكر أن ينهيه؛ لأن في السنة أو السنتين الأخيرة، في الدير، يكون المعلمون الذين يعلمون الفتيات الطويلات محبوبين جداً. إن بابا ليس غنياً، وسأكون حزينة جداً إنْ دفع الكثير من المال من أجلي لأنني لا أعتقد بأنني أستحق ذلك. فأنا لا أتعلم بسرعة كافية وليست لدي ذاكرة قوية. بالنسبة لِما يُقال لي، نعم، أتعلمه بسرعة، خاصةً عندما يكون ممتعاً؛ لكن لا ينطبق ذلك على ما أتعلمه من الكتب. كانت هناك فتاة والتي كانت أعز صديقاتي، أبعدوها عن الدير عندما أصبحَتْ في الرابعة عشرة لتجمع ـ كيف يقولونها بالإنجليزية؟ ـ لتجمع المهر. أنتم لا تقولونها بالإنجليزي؟ أرجو أن لا تكون الكلمة خطأً. أنا فقط أقصد بأنهم أرادوا أن يجمعوا المال ليزوّجوها. لا أدري إن كان بابا يجمع المال لهذا السبب ـ ليزوّجني).

واصلت بانسي الكلام بتنهيدة: (إن الزواج يكلّف الكثير! أعتقد بأن في مقدور بابا أن يتدبره. على أية حال، أنا صغيرة جداً على أن أفكر في ذلك الآن، ولا أبالي بأي رجل، أقصد أي أحد سواه. لو لم يكن أبي لوددتُ أن أتزوجه! أود أن أكون ابنته بدلاً من أن أكون زوجة.... زوجة شخص غريب. أنا أفتقده كثيراً جداً، لكن ليس بالقدر الذي تظنينه، لأنني بعيدة عنه كثيراً جداً. كان بابا يتواجد دائماً في أيام العطل بشكل رئيسي. أفتقدُ مدام كاثرين أكثر قليلاً، لكن لا تقولي له ذلك. ألن تريه ثانيةً؟ أنا آسفة جداً، وهو سيكون آسفاً أيضاً. أنا أحبكِ أكثر من أي أحد يأتي إلى هنا. ليس ذلك إطراءً كبيراً لأن ليس هناك أناس كثيرون يأتون إلى هنا. إنه للطفٌ كبير منكِ أن تأتي اليوم ـ من منزلكِ البعيد جداً، لأنني لحدّ الآن مجرد طفلة. أوه، نعم، ولدي فقط اهتمامات طفلة. متى تخليتِ عنها، أعني اهتماماتكِ الطفولية؟

أود أن أعرف كم عمركِ، لكنني لا أعلم فيما إذا كان من الصائب أن أسألكِ.

فقد أخبرونا في الدير بأنه لا يجب أن نسأل أبداً عن العمر. لا أحب أن أفعل أي شيء غير متوقع؛ إذ سيبدو وكأن المرء غير متعلم بشكلٍ لائق. أنا نفسي ـ لا أحب أن أؤخذ على حين غرة. ترك بابا تعليمات بكل شيء. أذهب للنوم مبكراً جداً. عندما تذهب الشمس بذلك الاتجاه أذهب إلى الحديقة. ترك بابا تعليمات صارمة بأن لا يجب أن تسفعني الشمس. أستمتعُ دوماً بالمشهد؛ فالجبال مهيبة جداً. في روما، لا نرى من الدير شيئاً سوى السقوف وأبراج الأجراس. أنا أتمرن ثلاث ساعات. أنا لا أعزف ببراعة تامة. هل تعزفين أنت؟ أود كثيراً أن تعزفي لي شيئاً، فلدى بابا فكرة أنه يجب أن أستمع إلى الموسيقى الجيدة. عزفت مدام ميرليه عدة مرات لي، وذلك هو أكثر شيء أحبه في مدام ميرليه، فلديها براعة كبيرة. أنا لن يكون لدي براعة أبداً. وليس لدي صوت ـ فقط صوت ضئيل كصرير قلم السبورة وهو يكتب).

لبَّتْ إيزابيل هذه الأمنية الموقّرة، فخلعت قفازيها وجلست على البيانو بينما قامت بانسي، وهي تقف إلى جوارها، بمراقبة يديها البيضاوين وهما تتحركان بسرعة على المفاتيح. عندما توقفت عن العزف، قبَّلَت الطفلة قبلة الوداع. وأخذتها بقربها ونظرت إليها طويلاً. فقالت: (كوني طيبة جداً. أسعدي والدكِ).

أجابت بانسي: (أعتقد بأن هذا هو ما أعيش لأجله. إنه ليس سعيداً كثيراً. إنه رجل حزين قليلاً).

أصغت إيزابيل إلى هذا التأكيد باهتمامٍ شعرت أنه من المؤلم أن تضطر لإخفائه. كانت كبرياؤها وإحساسٌ معين من الاحتشام هما ما اضطرّاها إلى ذلك. كانت توجد أيضاً أمور أخرى في ذهنها عن والدها شعرت بدافعٍ قوي ـ قمعَتْهُ فوراً ـ لتقولها لبانسي؛ وكانت هناك أمور سيسعدها أن تسمع الطفلة تقولها ـ أو بالأحرى تجعل الطفلةَ تقولها. لكن ما إنْ أصبحت مدركةً لهذه الأمور حتى أخرسَتْ مخيلتَها بفزعٍ لفكرة استغلال ـ كانت قد اتهمت

نفسها بهذه التهمة ـ الفتاة الصغيرة، ولفكرة أنها تُطلِق في ذلك الهواء الذي لا يزال أوزموند يمتلك ربما تجاهه إحساساً مرهفاً أيَّ نَفَسٍ من حالتها المفتونة.

كانت قد أتت، لكنها مكثَتْ ساعةً فحسب. فنهضت بسرعة من على مقعد البيانو. مع ذلك، تريثت لوهلة حتى ذلك الحين وهي لا تزال تمسك برفيقتها الصغيرة، وتُقَرِّب إليها أكثر الجسد النحيل والجميل للطفلة وتنظر إليها بغبطةٍ قليلاً. كانت مضطرة لأن تعترف لنفسها ـ بأنها نعمت بسعادة عميقة بالتحدث إلى جيلبرت أوزموند والى هذه المخلوقة البريئة الضئيلة الحجم التي كانت متعلقة به جداً. لكنها لم تقل كلمة أخرى، قامت فقط بتقبيل بانسي ثانيةً.

ذهبتا معاً عبر المدخل إلى الباب المفضية إلى الفناء، وهناك توقفتْ مضيّفتُها الصغيرة وهي تنظر خلفها بحزنٍ قليلاً.

(لن أذهب أبعد من ذلك؛ فقد وعدتُ بابا ألا أجتاز هذا الباب).

ـ (لكِ الحق بإطاعته، فهو لن يطلب منكِ أبداً أي شيء غير منطقي).

ـ (سوف أطيعه دائماً. لكن متى ستأتين ثانيةً؟).

ـ (أخشى أنني لن آتي إلا بعد وقتٍ طويل).

قالت بانسي: (أرجو أن تأتي حالما تستطيعين ذلك. أنا فتاة صغيرة وحيدة. لكنني سأنتظركِ دائماً).

ووقفت تلك الهيئة الصغيرة عند المدخل العالي والمعتم وهي تراقب إيزابيل وهي تجتاز الفناء الفارغ الكئيب وتختفي في النور الذي خلف الباب الكبير الذي منح ضوءاً أكثر حالما فُتح.

***

الفصل 31

عادت إيزابيل إلى فلورنسا، لكن بعد بضعة أشهرٍ فقط؛ وهي فترةٌ حافلة بالأحداث بما فيه الكفاية. مع ذلك، فنحنُ لسنا معنيين بإيزابيل في هذه الفترة بالتحديد؛ بل نحن معنيون بيومٍ معين في فصل الربيع الفائت بعد عودتها مباشرةً إلى قصر كريشنتيني، وبعد سنةٍ واحد من تاريخ الأحداث التي رويناها للتو.

في تلك الحادثة كانت لوحدها في واحدة من أصغر الغرف الكثيرة التي خصصتها السيدة تاتشيت للاستخدامات الاجتماعية، وكان هناك في محيّا إيزابيل وتصرفها ما يوحي بأنها كانت تنتظر ضيفاً ما. كانت النافذة الطويلة مفتوحة، ورغم أن ستائرها الخضراء مسدلة جزئياً، إلا أن الهواء الرائق للحديقة قد دخل عبر فجوة عريضة وملأ الغرفة بالدفء والشذى.

وقفت شابتنا بقربها لبعض الوقت وقد شبكت يديها خلفها. حدّقت خارجاً بارتباكٍ مهتاج. وتحركت في دائرة فارغة وهي قلقة جداً من الالتفات رغم أنها تعرف بأنه من غير الممكن أن ترى ضيفها قبل أن يدخل المنزل لأن المدخل إلى المكان لم يكن عبر الحديقة التي سادها دائماً السكون والخصوصية. لقد رغبتْ بالأحرى أن تدرك وصوله مقدماً بطريقة حدسية، ولو حكّمْنا من خلال تعابير وجهها سنجد أن هذه المحاولة قد منحَتْها الكثير لتفعله. وجدَتْ نفسها ساهمة، وبالتأكيد مرهَقة أكثر، وهو شعور شابَهَ شعورها عند انتهاء العام الذي قضَتْهُ في رؤية العالم. قالت لنفسها بأنها طافت الأرجاء ورأت الكثير من البشر، وأصبحت الآن شخصاً مختلفاً جداً عن الفتاة التافهة التي من ألباني

والتي بدأت تكتشف أوروبا على المرج في جاردن كورت قبل سنتين. لقد امتدحَتْ نفسها بأنها حصدت الحكمة وتعلمت كثيراً عن الحياة أكثر حتى مما توقَّعَ هذا المخلوق التافه العقل.

لو مال تفكيرها الآن إلى استذكار الماضي بدلاً من أن ترفرف بأجنحتها بعصبية حول الحاضر لأثارت حشداً من المشاهد المثيرة للاهتمام. ستكون هذه المشاهد مناظر طبيعية وأشخاصاً، مع ذلك سيكون الأخير متعدداً أكثر، مع بضعة مشاهد قد تبرز في إطارٍ كهذا والتي تعرّفنا عليها مسبقاً. سيكون هناك على سبيل المثال مشهد ليلي المصلحجية، وهي أخت بطلتنا وزوجة إدموند لادلو، والتي غادرت نيويورك لتقضي خمسة أشهر مع قريبتها. لقد تركت زوجها وراءها لكنها جلبت أطفالها الذين لعبت معهم إيزابيل بأريحية ورِقّة مماثلتين دور الخالة العانس. تمكّنَ السيد لادلو من أجل الأخيرة أن يختطف بضعة أسابيعٍ من انتصاراته القضائية[1] وأن يجتاز المحيط بسرعة بالغة ليقضي شهراً واحداً مع السيدتين في باريس قبل أن يعيد زوجته إلى المنزل. لم يكن أبناء لادلو الصغار قد بلغوا في ذلك الوقت العمر المناسب للسياحة حتى من وجهة نظر القانون الأميركي، لذا عندما كانت أختها معها قامت إيزابيل بتحديد تحركاتها في دائرة ضيقة. التحقَتْ ليلي والأطفال بها في سويسرا في شهر تموز وأمضوا صيفاً ذا طقسٍ جميل في وادي جبال الألب حيث كانت الأزهار كثيرة في المروج، وصنعَتْ ظلال أشجار الكستناء الضخمة مكاناً للاستراحة من تسلقٍ عالٍ كهذا تقوم به سيدات وأطفال في المساءات الدافئة.

بعد ذلك، وصلوا إلى العاصمة الفرنسية، التي كانت مقدسة بالنسبة لليلي، وهي باهظة، لكنها كانت خالية من الضجيج بالنسبة لإيزابيل التي استأنست في تلك الأيام، في غرفة حارة ومزدحمة، بذكرياتها عن روما بقارورةٍ تحوي شيئاً لاذعاً مخبّأة في منديلها.

(1) السيد لادلو يعمل كمحامٍ كما ورد في بداية الرواية. (المترجمة)

مع أن السيدة لادلو قد قدسَتْ باريس، كما ذكرتُ، إلا أنه مع ذلك كانت لديها شكوك وتساؤلات لا تهمد عن هذا المكان المقدس؛ وبعد أن انضمَّ إليها زوجها وجدت همّاً أكبر في إخفاقه في إلقاء نفسه في خضمّ هذه التساؤلات. فتناولا إيزابيل كموضوع رئيسي؛ لكن إدموند لادلو، وكما كان يفعل سابقاً، امتنع عن أن يكون متفاجئاً أو متضايقاً أو متحيراً أو فرحاً بخصوص أي شيء تفعله أو لم تفعله أخت زوجته. كانت أفكار السيدة لادلو كثيرة بشكلٍ كافٍ؛ فتارةً ترى أنه سيكون من الطبيعي جداً لتلك الشابة أن تعود للوطن وتتخذ منزلاً في نيويورك ـ منازل آل روسيترز مثلاً ـ يحوي على مستنبت زجاجي جميل ولا يبعد كثيراً عن منزلها؛ وتارةً أخرى لا تستطيع إخفاء دهشتها لعدم زواج الفتاة من أحد أعضاء عائلة أرستقراطية عظيمة. عموماً، كانت، كما قلتُ، واقعة في تفكير مليء بالاحتمالات. كانت فرِحةً أكثر بحصول إيزابيل على الثروة وكأن الأموال قد تُركتْ لها؛ فبدا لها أن تقترح فقط التعديل المناسب لمظهر أختها الرديء قليلاً وغير الرفيع كثيراً. فإيزابيل لم تتطور أكثر مما تصورت ليلي أنه ممكن ـ فالتطور بالنسبة لمفهوم ليلي هو أن ترتبط بطريقةٍ ما وعلى نحوٍ أعمى بالقيام بزيارات في الصباح وحفلات في المساء. من ناحية الثقافة، كانت بلا شك قد حققت خطوات كبيرة؛ لكن بدا أنها حققت القليل من تلك الغزوات الاجتماعية التي انتظرت السيدة لادلو أن تُعجب بغنائمها. إن مفهوم ليلي عن تحقيق غزواتٍ كهذه مبهم للغاية، لكن ذلك هو ما كانت تنتظره تماماً من إيزابيل ـ وهو أن تعطيه شكلاً وجسداً. لكن إيزابيل فعلت مثلما فعلَتْهُ في نيويورك؛ فطلبت السيدة لادلو من زوجها أن يعرف فيما إذا كانت توجد أية حظوة تمتعت بها في أوروبا لم يمنحها لها مجتمع تلك المدينة.

نحن نعلم بأن إيزابيل قد عملت غزوات ـ لكن هل كانت أقل أو لا من تلك الغزوات التي قامت بها في وطنها، سيكون تقرير ذلك أمراً حساساً؛

وعندما أذكر ثانيةً بأنها لم تجعل هذه الانتصارات المشرّفة علنية فليس ذلك من باب الشعور بالإطراء عموماً. فهي لم تكن قد أخبرت أختها بقصة اللورد واربيرتون، ولا لمّحتْ لها عن قرار السيد أوزموند، ولم يكن لديها سبب لصمتها أفضل من أنها لا تود الكلام. إذ من الرومانسي أكثر أن لا تقول شيئاً، وأن تتشرّب من الرومانسية خفيةً، ولم تكن ميّالة كثيراً إلى أن تطلب نصيحة ليلي المسكينة لأنها ستغلق هذه الصفحة إلى الأبد. لكن ليلي لم تعرف عن ذلك شيئاً، وتمكنت فقط من أن تقول بأن رحلة أختها عبارة عن خيبة أمل ـ وهو انطباعٌ أكَّدَ حقيقة أن تَكَتُّمَ إيزابيل عن السيد أوزموند مثلاً كان يتناسب طردياً مع تكرار انشغال تفكيرها به. ولأنّ ذلك قد تكرر كثيراً، لذا بدا للسيدة لادلو بأنها فقدت جرأتها. إن نهايةً غريبةً كهذه لحدثٍ مفرحٍ كهذا كوراثة ثروة كان أمراً محيّراً طبعاً بالنسبة لليلي المرحة؛ فقد أضاف ذلك إلى إحساسها العام بأن إيزابيل لم تكن أبداً مثل باقي الناس.

مع ذلك، قد تكون جرأة شابتنا سُلبت عند وصولها لذروتها بعد أن عاد أقاربها لبلادهم. تمكنت من أن تتخيل أموراً أكثر جرأة من قضاء فصل الشتاء في باريس ـ كان لباريس نواحٍ شابهت بها نيويورك إلى حدٍّ كبير، إذ كانت باريس كعمل نثري بارع ودقيق ـ وإن تناغمها الوثيق مع مدام ميرليه قد فعل الكثير ليحفّز تخيلات كهذه.

لم تمتلك أبداً إحساساً أكثر قوة بالاستقلالية والجرأة المطلقة والانغماس في الحرية كما عندما استدارت مبتعدة عن رصيف محطة يوستن في أواخر أيام شهر تشرين الثاني، بعد مغادرة القطار الذي كان سينقل ليلي المسكينة وزوجها وأطفالها إلى سفينتهم في ليفربول. كان يناسبها أن تبتهج، كانت شاعرة جداً بذلك، فقد كانت مدركةً كما نعلم بما كان مناسباً لها، وكان مسعاها هو أن تجد دائماً شيئاً مناسباً تماماً.

ولكي تستفيد من الميزة الحالية حتى آخر لحظة، قامت بالسفر من باريس

مع المسافرين الذين لا تُحسد عليهم. كانت سترافقهم إلى ليفربول كذلك، وكان إدموند لادلو فقط هو من طلب منها، كنوع من المعروف، أن لا تفعل ذلك؛ مما جعل ليلي عصبيةً جداً وطلبت أشياء لاّ تُطاق.

راقبت إيزابيل القطار وهو يتحرك، فقبّلت يد أكبر أبناء أختها، وهو طفلٌ يعبّر عن عواطفه انحنى كثيراً على نحوٍ خطير خارج نافذة العربة وجعل الفراق مناسبةً سعيدة كثيراً.

وبعد ذلك، سارت عائدةً في شوارع لندن المليئة بالضباب. كانت الحياة أمامها ـ ويمكنها أن تفعل أي شيء تختاره. كانت هناك إثارة عميقة في الأمر كله، لكن اختيارها في الوقت الحالي كان حكيماً بشكل مقبول؛ فقد اختارت ببساطة أن تسير عائدةً من ميدان يوستن إلى فندقها. كان الظلام المبكر لمساء تشرين الثاني قد حلَّ مسبقاً، وبدت مصابيح الشارع في الهواء الكثيف البنّي خافتةً وحمراء، وكانت بطلتنا لوحدها وميدان يوستن بعيد عن بيكاديلي. لكن إيزابيل قامت بالرحلة باستمتاع حقيقي بمخاطرها وأضاعت طريقها عن عمد تقريباً لتحظى بالمزيد من الأحاسيس بحيث خاب أملها عندما ضبطها أحد رجال الشرطة اللطفاء. كانت معجبة جداً بمشهد حياة البشر بحيث أُعجبت بمشهد الظلمة المتزايدة في شوارع لندن ـ الحشود المتحركة، العربات المسرعة، المتاجر المضاءة، الأكشاك المزدحمة، والرطوبة الكئيبة واللامعة لكل شيء.

في ذلك المساء في فندقها كتبتْ إلى مدام ميرليه بأنه يجب عليها خلال يوم أو يومين أن تنطلق إلى روما. فشقّت طريقها نحو روما بدون أن تحاذي فلورنسا ـ لأنها ذهبت أولاً إلى البندقية ومن ثم واصلت تقدمها جنوباً عبر أنكونا. لقد أكملت هذه الرحلة بدون مساعدة سوى مساعدة خادمتها لأن حُماتها الطبيعيين لم يكونوا الآن في موقع الحدث؛ إذ كان رالف يقضي الشتاء في كورفو[1]، أما الآنسة ستاكبول فقد استدعيَتْ في أيلول الماضي إلى

(1) كورفو: جزيرة يونانية تعدُّ أكثر جزر البحر المتوسط اكتظاظاً بالسكان. (المترجمة)

أميركا بواسطة برقية من الإنترفيور، إذ منحت هذه الصحيفة مراسلتَها اللامعة موضوعاً جديداً لعبقريتها بدلاً من المدن البالية لأوروبا. وكانت هنرييتا، وهي في طريقها، سعيدة بوعدٍ من السيد بانِلْنج بأنه سيأتي قريباً لرؤيتها.

كتبت إيزابيل إلى السيدة تاتشيت لتعتذر على عدم حضورها إلى فلورنسا لحد الآن، وأجابت خالتُها بشكلٍ مميز تماماً؛ فقد لمّحت السيدةُ تاتشيت بأن المبررات بالنسبة لها لا تنفع أكثر من الفقاقيع، وأنها هي نفسها لا تبحث أبداً في مواضيع كهذه، فالمرء إما يفعل الشيء أو لا يفعله، أما ما «سيفعله» فينتمي إلى دائرة الأمور التي لا علاقة لها بالموضوع. مثل فكرة الحياة الآخرة وأصل الأشياء. كانت رسالتها صريحة، لكن ليست صريحة جداً كما ادَّعَتْ (وهي حالة نادرة للسيدة تاتشيت). لقد سامحت ابنة أختها بسهولة لعدم توقفها في فلورنسا لأنها اعتقدتْ بأن ذلك دليل على أن جيلبرت أوزموند كان هناك مسبقاً أو سيكون هناك. فتابعت طبعاً أخباره لترى إن كان سيجد الآن ذريعةً للذهاب إلى روما، وشعرت بالراحة عند معرفتها بأنه لم يكن مذنباً بالتغيّب.

إن إيزابيل، من جانبها، لم تكن متواجدة في روما لأسبوعين قبل أن تقترح على مدام ميرليه بأن تقوما برحلة حج قصيرة إلى الشرق. لمّحت مدام ميرليه إلى أن صديقتها كانت ضجرة، لكنها أضافت بأنها هي نفسها كانت تستحوذ عليها دائماً رغبة زيارة أثينا والقسطنطينية. وهكذا، قامت السيدتان بالمباشرة بهذه الرحلة الاستكشافية، وقضتا ثلاثة أشهر في اليونان، وفي تركيا، وفي مصر. وجدت إيزابيل الكثير مما يثير اهتمامها في هذه الدول، إلا أن مدام ميرليه استمرت بالتلميح إلى أنه حتى بين المواقع الأكثر كلاسيكية والتي يُعتقد بأنها أكثر المشاهد التي توحي بالهدوء والتأمل، فإن نفوراً معيناً قد يطغى عليها. طافت إيزابيل بسرعة وبشكل مندفع؛ فقد كانت كالشخص الظمآن وهو يكرع الكأس تلو الأخرى، وتلهث مدام ميرليه، التي كانت كوصيفةٍ لأميرةٍ تتجول وهي متخفية، قليلاً خلفها. كانت قد أتت بناءً على

دعوة إيزابيل، وقد منحت كل الاحترام اللازم لمقام الفتاة. لقد لعبت دورها بالبراعة المنتظرة منها، ماحيةً نفسها وقابلة بدور الرفيقة التي دُفعت نفقاتها بسخاء. رغم ذلك، لم يكن للدور صعوبات؛ إذ لم يكن الناس، الذين قابلوا هاتين الاثنتين المتحفظتين وأيضاً المدهشتين في رحلتهما، قادرين على إخباركَ من منهما كانت ولية النعمة ومن هي المُنْعَم عليها؟.

باختصار، إن مدام ميرليه عند التعارف قد حسَّنَتْ قليلاً الانطباع الذي كوّنَتْهُ عن صديقتها التي وجدتها منذ البداية سخية جداً ولطيفة جداً. عند نهاية صحبة ثلاثة أشهر شعرت إيزابيل بأنها عرفتها أكثر؛ فقد أفصحت شخصيتها عن نفسها. وأوفت أيضاً المرأةُ المثير للإعجاب في النهاية وعدها بأن تروي قصتها من وجهة نظرها هي ـ وهو الإيفاء المستحب أكثر، لأن إيزابيل كانت قد سمعت القصة مسبقاً من وجهة نظر الآخرين. كانت هذه القصة قصة حزينة جداً (لدرجة أنها تضمنت قصة السيد ميرليه الراحل، وهو على حدّ قولها طائش حقيقي لكن مع ذلك منطقي جداً في الأساس، والذي كان قد استغل في السنوات السابقة شبابها وسذاجتها التي سيصعب بلا شك تصديقها من قبل أولئك الذين عرفوها الآن فقط)، إذ زخرت أيضاً بأحداث مروّعة وبائسة بحيث اندهشتْ مرافقتُها من أن تتمكن إنسانةٌ، عانت كثيراً، من أن تحافظ كثيراً على نضارتها وعلى اهتمامها بالحياة. وعن نضارة مدام ميرليه هذه، اكتسبت مفهوماً جديداً وكبيراً؛ إذ فهمَتْها على أنها كأنما اتخذتها حرفة، أو كأنها آلية قليلاً وتحملها في كل مكان داخل صندوقها مثل كمنجة الموهوبين، أو مغطاة وملجمة مثل «الحصان المفضّل» للفارس.

لقد أحبتها كثيراً كما هو شأنها دائماً، لكن كان هناك ركن من الستارة لم يُرفَع أبداً؛ وكأنها بقيت في النهاية كالعازفين الذين يعزفون في الشارع، محكوم عليها بأن تظهر بشخصية واحدة وزيٍّ واحد فقط.

لقد قالت في إحدى المرات بأنها أتت من بعيد، وأنها تنتمي إلى العالم «القديم، القديم»، ولم تفقد إيزابيل أبداً انطباعَ أنها كانت وليدة ظروفٍ أخلاقية أو اجتماعية مختلفة عن ظروفها، وأنها كانت قد نشأت تحت نجومٍ أخرى.

إذن لقد اعتقدَتْ بأنها أساساً كانت تمتلك أخلاقيات مختلفة. صحيح أن أخلاقيات الأشخاص المتحضّرين لها نقاط مشتركة، لكن كان لدى شابتنا إحساس داخلها بقيمٍ خاطئة أو، كما يقولون في السوق، رخيصة. لقد فكرت بحدس الشباب بأنّ أخلاقياتٍ تختلف عن أخلاقياتها لا بدّ وتكون أدنى مستوى منها. وكان هذا الاعتقاد عوناً لتلاحظ قسوةً عرضية، وكذباً عرضياً، في حديث إنسانةٍ ارتقت باللطف المرهف لدرجة البراعة، والتي كانت كبرياؤها مترفعة جداً عن الأساليب الهزيلة للخداع. قد يكون مبدؤها عن الدوافع الإنسانية، في صورةٍ معينة، مكتَسَباً من الاحتكام إلى عالمٍ في طور التدهور، وهناك بضعٌ منها في قائمتها لم تكن بطلتنا قد سمعت بها حتى. فهي لم تكن قد سمعت عن كل شيء، كان ذلك واضحاً جداً؛ وكانت هناك أشياء في الحياة ليس من المفيد أن تسمع عنها. لقد انتابها مرة أو مرتين رعب حقيقي؛ إذ أثَّرَ بها بقوة بحيث اضطرت أن تتأوه من صديقتها: (فليسامحها اللّٰه، إنها لا تفهمني!). قد يبدو هذا الاكتشاف غريباً والذي أثَّرَ بها كصدمةٍ، وتركها مرتعبة قليلاً حتى مع قليلٍ من التوجس. هدأ هذا الرعب طبعاً على ضوء برهانٍ سريع على ذكاء مدام ميرليه الملفت للنظر، لكنه كان يشبه أعلى مستوىً للماء في مدّ وجزر الثقة.

أعلنت مدام ميرليه في إحدى المرات بأنها تعتقد بأن الصداقة عندما تتوقف عن الازدهار تبدأ مباشرةً بالانحسار ـ إذ لا توجد هناك نقطة توازن بين أن تحب أكثر أو أن تحب أقل. بكلمات أخرى، إن الشعور الثابت أمر مستحيل ـ إذ يجب أن يتحرك باتجاه معين أو باتجاهٍ آخر. مهما يكن الأمر،

لدى الفتاة هذه الأيام ألف استخدام لحسّها الخيالي والذي كان أكثر فعالية مما كان يوماً. أنا لا ألمّح إلى الإثارة المستشعَرة عند تحديقها على الأهرامات على طول إحدى الرحلات من القاهرة أو عند وقوفها بين الأعمدة المحطمة للأكروبوليس[1] وتثبيت نظرها على النقطة التي قالوا لها بأنها مضيق سلاميس[2]، لأن هذه الأحاسيس قابعة عميقاً وبشكل يمكن تذكّره.

عادت في أواخر شهر آذار من مصر واليونان، وأقامت ثانيةً في روما. بعد بضعة أيام من وصولها، نزل جيلبرت أوزموند في فلورنسا وبقي ثلاثة أسابيع، والتي خلالها أصبحَتْ رؤيته لها يومياً في الواقع أمراً لا يمكن تفاديه لتواجدُها مع صديقته القديمة مدام ميرليه ـ إذ كانت قد ذهبت لتسكن في منزلها.

عندما حلَّ أواخر شهر نيسان، كتبَتْ إلى السيدة تاتشيت بأنها الآن مسرورة بقبول دعوةٍ مُنحتْ لها قبل مدةٍ طويلة. وذهبت لتقوم بزيارةٍ إلى قصر كريشنتيني. وبقيت مدام ميرليه في ذلك الوقت في روما.

وجدت خالتَها لوحدها؛ فقد كان ابن خالتها لا يزال في كورفو. رغم ذلك، كان يُتوقع وصوله إلى فلورنسا من يومٍ إلى آخر، وكانت إيزابيل التي لم تكن قد رأته لما يزيد عن العام مستعدةً لترحّب به أشد الترحيب.

***

(1)الأكروبوليس: هو معبد يوناني قديم يقع في أثينا على قمة تل، ومعنى الاسم هو المدينة العالية. (المترجمة)

(2)مضيق سلاميس: هو المكان الذي حدثت فيه معركة سلاميس البحرية بين اليونان والفرس عام 480 ق. م. (المترجمة)

الفصل 32

مع ذلك، لم يكن هو من كانت تفكر فيه عندما وقفت عند النافذة التي وجدناها بقربها قبل قليل، وليس في أي من المواضيع التي وصفتُها على عجل. لم تكن ملتفتةً للماضي، بل إلى الساعة الحالية الوشيكة الحدوث. كان لديها سبب لتتوقع ثورة غضب، وهي لم تكن تحب نوبات الغضب. لم تكن تسأل نفسها ماذا يجب أن تجيب ضيفها، فهذا السؤال قد أُجيب عنه مسبقاً. إن ما سيقوله هو لها هو المسألة المثيرة للاهتمام. يمكن أن لا يكون شيئاً لطيفاً إطلاقاً ـ فلديها مبررٌ لذلك، وإن الاقتناع بذلك أدخل حزناً على ملامحها. رغم ذلك، بالنسبة لِما تبقّى، فقد خيّم عليها كل الصفاء. فتخلت عن حزنها وسارت بعظمةٍ متألقة غير قليلة. لقد شعرتْ فقط بأنها أكبر سناً ـ أكثر من أي وقتٍ مضى، وكأنها «تستحق أكثر» لأجل ذلك، كتحفةٍ مثيرةٍ للفضول في مجموعةٍ من التحفيات القديمة.

على أية حال، فهي لم تُترَك لقلقها إلى أجلٍ غير مسمّى لأن الخادم في النهاية وقف أمامها مع بطاقةٍ في صينية، فقالت: (دعه يدخل). ثم واصلت التحديق خارج النافذة بعد أن غادر الخادم. لم تنظر حولها إلا عندما سمعت الباب وهو يُغلق خلف الشخص الذي دخل للتو.

وقف كاسبار غودوود هناك ـ وقف وتلقّى لوهلةٍ، من الرأس وحتى القدم، التحديقة البراقة الجافة التي منعت بها تحيةً بدلاً من أن تقدمها. سنقوم ربما حالياً بتأكيد فيما إذا كان إحساسه بالنضج قد تماشى مع إحساس إيزابيل بالنضج. لكن دعوني أثناء ذلك أقول بأنه لم يشر بشيء عن خسارة الوقت

بالنسبة لنظرتها الانتقادية. لم يكن هناك شيء في مظهره التقليدي، القوي، والحازم ما يُفصِح بشكلٍ حقيقي عن الشباب أو السن. إن لم يكن يملك لا السذاجة ولا الضعف، فإذن ليس لديه حكمة عملية. أظهر فكُّه الهيئة نفسها المصمَّمة كما في الأيام الخوالي. لكن مأزقاً كهذا المأزق الحالي، يملك في داخله طبعاً شيئاً قاسياً. كان له مظهر رجلٍ سافَرَ بصعوبة. لم يقل شيئاً في البداية وكأنه منقطع النفس، وقد منح ذلك وقتاً لإيزابيل لتفكر: (صديقٌ مسكين. كم كثيرةٌ هي الأشياء العظيمة التي هو مؤهلٌ لها، كم هو مؤسف أن يضيع قوته الرائعة بشكلٍ بغيضٍ جداً! وكم هو مؤسف أيضاً بأن لا يقتنع المرء بأي شخص!)؛ ومنحَها الوقت لتفعل أكثر ـ ولتقول في النهاية بسرعة: (لا أستطيع أن أؤكد لكَ كم تمنيتُ أن لا تأتي!).

ـ (ليس لدي شكٌّ في ذلك).

ثم بحث حوله عن مقعد. فهو لم يأتِ فقط بل نوى أن يستقر.

قالت إيزابيل وهي تجلس لكي تمنحه فرصته بالجلوس، وبكرمٍ كما ظنت: (لا بدّ أنكَ متعَب جداً).

ـ (كلا، لستُ متعباً على الإطلاق. هل عرفتِني يوماً متعباً؟).

ـ (أبداً. وتمنيتُ لو حصل ذلك! متى وصلتَ؟)

ـ (الليلة الماضية، في وقتٍ متأخرٍ جداً، في نوعٍ من القطارات يسير كالحلزون يسمونه القطار السريع. إن هذه القطارات الإيطالية تسير تقريباً بنفس سرعة جنازة أميركية!).

ـ (ذلك يتماشى مع الأمر ـ فلا بدّ أنكَ شعرتَ وكأنكَ آتٍ لتدفنني!).

وكبتت ابتسامةً مشجعة للمشهد العفوي لموقفهما. لقد فكرتْ في الموضوع جيداً موضِّحَةً تماماً بأنها لم تحنث يميناً ولم تزوّر عقداً، لكن مع كل هذا كانت خائفة من زائرها.

كانت خجلة من خوفها، لكنها كانت ممتنة قلبياً من عدم وجود شيء آخر تكون خجلة منه. نظر إليها بإصراره الثابت، إصراره كان يعوزه التهذيب، خاصةً عندما استقرت عليها الابتسامة الكئيبة الفاترة التي في عينيه كعبء جسدي.

أعلن بصراحة: (كلا، لم أشعر بذلك، لم أستطع أن أتخيلكِ كإنسانة ميتة. وليتني استطعتُ!).

ـ (أشكركَ كثيراً).

ـ (كنتُ أود أن أتخيلكِ إنسانة ميتة بدلاً من إنسانةٍ متزوجةً من رجلٍ آخر).

فردت بحماس ثقةٍ حقيقية: (تلك أنانية كبيرة جداً منكَ! إن لم تكن سعيداً فهناك آخرون لهم الحق بأن يكونوا كذلك).

ـ (من المحتمل جداً أنها أنانية، لكنني لا أمانع إطلاقاً من قولكِ ذلك. لا أمانع أي شيء يمكنكِ أن تقوليه الآن ـ فأنا لا أشعر به. إن أكثر الأمور قسوةً والتي تمكنتِ من التفكير بها لن تكون إلّا كوخزات الدبوس. فبعد ما فعلتِهِ لن أشعر أبداً بأي شيء ـ أعني أي شيء سوى ذلك. ذلك هو ما سأشعر به طوال حياتي).

أبدى السيد غودوود هذه التأكيدات المسترسلة بتأنٍّ ممل بنبرته الأميركية الحازمة البطيئة والتي لم تطرح في الجو حيويةً بشأن مقولةٍ فجّة جوهرياً. إن هذه النبرة جعلت إيزابيل غاضبة بدلاً من أن تتأثّر بها؛ لكن غضبها ربما كان ناجحاً لأنه منحها سبباً آخر لتسيطر به على نفسها. وكان تحت ضغط هذه السيطرة أنها خرجت، بعد قليل، عن الموضوع بقولها:

ـ (متى غادرتَ نيويورك؟).

فرفع رأسه بسرعة وكأنه يفكر.

ـ (قبل سبعة عشر يوماً).

ـ (لا بدّ أنكَ سافرتَ بسرعة بالرغم من قطاراتكَ البطيئة).

ـ (لقد أتيتُ بأسرع ما أستطيع. كنتُ سآتي قبل خمسة أيام لو استطعتُ ذلك).

فابتسمت ببرود.

ـ (لن يشكل ذلك أي فرق يا سيد غودوود).

ـ (ليس بالنسبة لكِ ـ كلا، وإنما بالنسبة لي).

ـ (حسب ما أرى، أنت لم تجنِ شيئاً).

ـ (ذلك أمرٌ أنا من يقرره!).

ـ (طبعاً، فبالنسبة لي يبدو الأمر فقط بأنكَ تعذّب نفسكَ).

ومن ثم، لكي تغيّر الموضوع، سألَتْهُ إن كان قد رأى هنريتا ستاكبول. فبدا وكأنه لم يأتِ من بوسطن إلى فلورنسا ليتحدث عن هنريتا ستاكبول، لكنه أجاب وبشكلٍ واضح تماماً بأن هذه السيدة الشابة كانت معه قبل أن يغادر أميركا مباشرةً.

فاحتجت إيزابيل عندها: (أتت لرؤيتكَ؟).

ـ (نعم. كانت في بوسطن واتصلَتْ بمكتبي. كان ذلك في اليوم نفسه الذي تسلمتُ فيه رسالتكِ).

سألت إيزابيل بقلق: (هل أخبرتَها؟).

قال كاسبار غودوود ببساطة: (أوه، كلا. لم أكن أرغب بفعل ذلك. فهي ستسمع ذلك عما قريب. إنها تسمع كل شيء).

أعلنت إيزابيل وهي تحاول أن تبتسم ثانيةً: (سوف أكتب لها. ومن ثم ستكتب لي وتوبخني).

رغم ذلك، بقي عابساً بصرامة، فقال: (أظن بأنها ستأتي على طول).

ـ (لكي توبخني؟).

ـ (لا أعلم. فقد بدت تعتقد بأنها لم ترَ أوروبا بشكلٍ كامل).

قالت إيزابيل: (أنا مسرورة لأنكَ أخبرتَني بذلك؛ إذ يجب أن أستعدّ لها).

ثبّت السيد غودوود نظراته لوهلةٍ على الأرض ثم رفعها في النهاية، فتساءل: (هل تعرف هي السيد أوزموند؟).

أضافت: (قليلاً. ولم تحبه. لكنني بالطبع لا أتزوج لأُسعد هنريتا).

سيكون من الأفضل، بالنسبة لكاسبار المسكين، لو حاولَتْ أكثر قليلاً إرضاء الآنسة ستاكبول، لكنه لم يقل ذلك بل فقط سأل في الحال متى ستتزوج[1] والذي عليه أجابت بأنها لا تعرف بعد.

(يمكنني فقط أن أقول بأنه سيكون قريباً. لم أخبر أحداً سواك وشخصاً آخر؛ صديقة قديمة من أصدقاء السيد أوزموند).

سأل: (هل هي زيجةٌ لا يحبذها أصدقاؤكِ؟).

ـ (أنا في الحقيقة ليس لدي فكرة. فكما قلتُ، أنا لا أتزوج من أجل أصدقائي).

واصل كلامه بدون أن يبدي تعجّباً ولا تعليقاً، فقط يسأل أسئلةً، ويفعل ذلك بدون رقّةٍ تماماً: (إذن من هو، وما هو، السيد جيلبرت أوزموند؟).

قالت إيزابيل: (من وما؟ لا أحد ولا شيء غير أنه رجلٌ طيبٌ جداً ومحترم جداً. إنه لا يعمل وليس غنياً. إنه غير معروف بأي شيء على وجه التحديد).

لقد كرهت أسئلة السيد غودوود، لكنها قالت لنفسها بأنها مدينةٌ بأن ترضيه قدر الإمكان. مع ذلك، فالرضا الذي أظهره كاسبار المسكين كان قليلاً.

اعتدل في جلسته وهو يحدّق إليها.

ـ (من أين أتى وإلى أين ينتمي؟).

---

(1) أي إيزابيل. (المترجمة)

لم تعجبها أبداً الطريقة التي قال بها «ينتمي».

ـ (لم يأتِ من أي مكان. وقضى معظم حياته في إيطاليا).

ـ (لقد ذكرتِ في رسالتكِ بأنه كان أميركياً. أليس له بلد أصلي؟)

ـ (بلى، لكنه نسيه؛ فقد غادره وهو صبي صغير).

ـ (ألم يعد أبداً؟).

سألت إيزابيل مندفعةً جداً بوضع دفاعي: (لِمَ يجب عليه أن يعود؟ فهو ليس لديه مهنة).

ـ (كان يمكنه أن يعود للمتعة، ألا يحب الولايات المتحدة؟).

ـ (إنه لا يعرفها. ثم إنه مسالمٌ جداً وبسيطٌ جداً ـ إنه راضٍ بإيطاليا).

قال السيد غودوود بصراحةٍ كئيبة وبدون مظهر من يحاول أن يسخر: (بإيطاليا وبكِ).

ثم أضاف بفظاظة: (ماذا فعل يا ترى؟).

أجابت إيزابيل بينما تحوّل صبرها قليلاً إلى قساوة: (لأتزوجه؟ لا شيء على الإطلاق. لو كان قد فعل أموراً عظيمة فهل ستتغاضى عني بعد ذلك؟ اتركني يا سيد غودوود؛ فأنا سأتزوج شخصاً تافهاً مثالياً. لا تحاول أن تشغل ذهنكَ به. فأنتَ لا تستطيع).

ـ (لا أستطيع تقييمه؛ ذلك هو ما تقصدين. ولا تقصدين مطلقاً بأنه تافه مثالي. أنت تظنين بأنه راقٍ، تظنين بأنه عظيم، رغم أن لا أحد آخر يعتقد ذلك).

فامتقع لون إيزابيل؛ إذ شعرت بأن هذا قاسٍ فعلاً من رفيقها، وأنه كان بالتأكيد دليلاً على المساعدة التي قد يقدمها الشغف للمشاعر التي لم تكن تظنها لطيفة.

ـ (لِمَ تعود دائماً إلى ما يعتقده الآخرون؟ لا يمكنني أن أتناقش معكَ عن السيد أوزموند).

قال كاسبار بشكل منطقي: (بالطبع لا يمكنكِ).

وجلس هناك بمظهر العاجز العنيد وكأنّ الأمر ليس حقيقياً فقط بل وكأنه لم يكن يوجد شيء آخر يتناقشانه. لذا، انفجرت في الكلام: (أنتَ ترى كم هو قليلٌ ما تجنيه، وكمْ هي قليلةٌ الراحة التي يمكنني أن أمنحها لكَ).

ـ (أنا لم أتوقع منكِ أن تمنحيني الكثير).

ـ (إذن، لا أفهم لِمَ أتيتَ).

ـ (أتيتُ لأنني أردتُ أن أراكِ مرة أخرى حتى وإن لم تمنحيني الكثير).

ـ (أقدّرُ ذلك. لكن لو انتظرتَ قليلاً، فعاجلاً أم آجلاً من المؤكد بأننا سنلتقي وأن لقاءنا سيكون أكثر سروراً لكل واحد منا مما هو الآن).

ـ (أنتظرُ حتى تتزوجي؟ إن ذلك بالضبط هو ما لا أريد أن أفعله؛ إذ ستكونين عندها شخصاً آخر).

ـ (ليس كثيراً. سأبقى صديقةً وفيّة لكَ. سترى).

قال السيد غودوود بتجهم: (إن ذلك سيزيد الأمور سوءاً).

ـ (آه، أنت لا تُطاق! لا يمكنني أن أعِدَ بأن أكرهكَ لكي أساعدكَ على الاستسلام).

ـ (لن يهمني إنْ فعلتِ ذلك!).

نهضت إيزابيل بحركةٍ تنم عن نفاد صبرٍ مكظوم وسارت نحو النافذة حيث بقيت لوهلةٍ تنظر خارجاً. عندما استدارت، كان زائرها لا يزال قابعاً في مكانه بلا حراك. فتوجهت نحوه ثانيةً وتوقفت وهي تضع يدها على ظهر الكرسي الذي كانت قد تركَتْهُ للتو.

ـ (هل تعني بأنكَ أتيتَ فقط لتراني؟ إن ذلك أفضل بالنسبة لكَ أكثر مما هو بالنسبة لي ربما).

قال: (تمنيتُ أن أسمع نغمة صوتكِ).

ـ (لقد سمعتَهُ وترى بأنه لا يقول شيئاً حلواً جداً).

ـ (لا فرق، فهو يمنحني السعادة).

وبهذا نهض.

كانت قد شعرتْ بالألم وعدم الرضا عند تلقيها في وقتٍ مبكر من ذلك اليوم الأخبار بأنه كان في فلورنسا وأنه سيأتي خلال ساعة واحدة لرؤيتها لو أذنَتْ له بذلك. فغضبت وانزعجَتْ رغم أنها ردت برسالةٍ عن طريق رسوله بأنه يمكنه المجيء عندما يرغب بذلك. لم تكن سعيدة أكثر عندما رأته، فوجوده هناك بأية حال كان مليئاً جداً بالمضامين الثقيلة؛ إذ يتضمن أموراً لا يمكنها أبداً أن تقبل بها؛ تأنيب، اعتراض، تقريع، توقُّعُ جعْلِها تغير رغبتها. رغم ذلك، فلو كانت تلك الأمور مُتَضَمَّنة فلن يُعَبَّرَ عنها.

والآن، بدت سيدتنا الشابة وبغرابة كافية بالاستياء من التحكم الذاتي الملفت للنظر لزائرها. كان يوجد بؤس صامت بشأنه أثارها. كان هناك ثبات رجولي من ناحيته جعل قلبها يدق أسرع، وشعرت باهتياجها يتصاعد وقالت لنفسها بأنها كانت غاضبة بالطريقة التي تغضب بها المرأة عندما تكون على خطأ. إنها لم تكن على خطأ، فهي لحسن الحظ لم تصبها تلك المرارة التي يجب عليها أن تتجرعها. لكن برغم ذلك، فقد ودّتْ أن يشجبها قليلاً. كانت قد تمنت أن تكون زيارته قصيرة؛ إذ لم يكن لها هدف ولا آداب اللياقة. لكن الآن، وقد بدا أنه يستدير مبتعداً، شعرت برعبٍ مفاجئ من مغادرته لها بدون أن ينطق بكلمةٍ كانت ستمنحها فرصةً لتدافع عن نفسها أكثر مما فعلتْ عندما كتبتْ له قبل شهر، كلماتٍ قليلة منتقاة بعناية، لتعلن خطبتها. مع هذا، إنْ لم تكن مخطئة فلِمَ يجب أن ترغب بالدفاع عن نفسها؟ لقد كان إفراطاً في الكرم من جانب إيزابيل في أن تتمنى من السيد غودوود أن يصبح غاضباً. ولو لم يتماسك بقوة في تلك الأثناء لكانت قد جعلَتْهُ كذلك ليسمع النبرة التي صاحت بها فجأة وكأنها كانت تتهمه لاتهامه لها: (أنا لم أخدعكَ! لقد كنتُ عفويةً تماماً!).

قال كاسبار: (نعم، أعرف ذلك).

ـ (لقد نبهتُكَ تماماً إلى أنني سأفعل ما أختارُهُ).

ـ (لقد قلتِ بأنكِ على الأرجح لن تتزوجي أبداً. وقلتِ ذلك بطريقةٍ صدّقتُها تماماً).

ففكرتْ في ذلك لوهلة.

ـ (لا يمكن لأحدٍ أن يندهش أكثر مني على ما أنا عازمةٌ عليه حالياً).

ـ (لقد أخبرتِني بأنني إنْ سمعتُ بأنكِ خُطبتِ فليس عليّ أن أصدق ذلك).

واصل كاسبار كلامه: (لقد سمعتُه منكِ قبل عشرين يوماً، لكنني تذكرتُ ما قلتِهِ، فظننتُ بأنه قد يكون هناك خطأ، ولهذا السبب إلى حدٍّ ما أتيتُ).

ـ (لو وددتَ أن أكرر ذلك شفاهياً فسأفعل ذلك حالاً. لا يوجد خطأ بتاتاً).

ـ (فهمتُ ذلك حالما دخلتُ الغرفة).

فسألتْ بضراوة: (ما الفائدة في أن لا أتزوج؟).

ـ (كنتُ سأفضّل أن لا تتزوجي على أن تتزوجي).

ـ (أنتَ أناني جداً كما قلتُ مسبقاً).

ـ (أعلم ذلك. أنا أناني كالحديد).

ـ (حتى الحديد يلين أحياناً!. لو أصبحتَ متعقّلاً فسوف أراكَ ثانيةً).

ـ (ألا تسمينني الآن متعقّلاً؟)

أجابت بتواضعٍ مفاجئ: (لا أدري ما يجب عليّ أن أقول لكَ).

واصل الشاب كلامه: (لن أزعجكِ أكثر).

فخطا خطوةً نحو الباب، لكنه توقف.

(السبب الآخر لمجيئي هو أنني أردتُ أن أسمع ما كنتِ ستقولينه لتفسري سبب تغييركِ لرأيكِ).

فتخلّى عنها تواضعُها فجأةً.

ـ (أفسّر؟ هل تظنني مُلزَمة بأن أفسِّر؟).

فألقى عليها واحدةً من نظراته الطويلة الصامتة.

ـ (لقد كنتِ حقيقيةً جداً لقد صدقتُ ذلك).

ـ (أنا كذلك. هل تعتقد بأنه يمكنني أن أفسر لو أردتُ ذلك؟).

ـ (كلا، لا أعتقد ذلك).

ثم أضاف: (حسناً. لقد فعلتُ ما أردتُه، وهو أن أراكِ).

فشعرت بالحاجة إلى أن تجيب بسرعة: (كم هو قليلٌ ما جنيتَهُ من هذه الرحلات الشاقّة).

ـ (إن كنتِ خائفة لأنني تعبتُ ـ بهذه الطريقة ـ فاطمئني بشأن ذلك).

فاستدار مبتعداً، بصدقٍ هذه المرة، ولم يتم بينهما تبادل المصافحة بالأيدي ولا علامات الافتراق. فتوقف عند الباب ويده على المقبض وقال بثبات: (سوف أغادر فلورنسا غداً).

أجابت بانفعال: (مسرورة لسماع ذلك!).

بعد خمس دقائق من مغادرته، انفجرت بالبكاء.

***

الفصل 33

رغم ذلك، سرعان ما هدأت نوبتها في النحيب، وتلاشت آثارها عندما فجّرت الخبر بعد ساعة إلى خالتها. أنا أستخدم هذا التعبير لأنها كانت متأكدة من أن السيدة تاتشيت لن تكون مسرورة؛ فقد انتظرت إيزابيل لتخبرها فقط بعد أن ترى السيد غودوود. فقد كان لديها انطباع غريب، وهو أنه لن يكون من الأمانة أن تذيع الحدث قبل أن تسمع ما يقول السيد غودوود بشأنه. لقد قال أقل مما توقعتْ قليلاً، والآن انتابها الشعور بالغضب لتضييعها الوقت. لكنها ما كانت لتفقد المزيد، إذ انتظرتْ حتى دخلت السيدة تاتشيت إلى غرفة الاستقبال قبل إفطار منتصف النهار، ومن ثم ابتدأتْ بالكلام: (لدي شيء أريد أن أقوله لكِ يا خالة ليديا).

وثبت السيدة تاتشيت قليلاً ونظرتْ إليها بقسوة قليلاً.

ـ (لا حاجة لأن تخبريني، فأنا أعرف الموضوع).

ـ (لا أدري كيف تشعرين).

ـ (بالطريقة نفسها التي أشعر بها عندما تكون النافذة مفتوحة ـ من خلال الإحساس بالتيار. سوف تتزوجين ذلك الرجل؟).

تساءلت إيزابيل بأهمية كبيرة: (أي رجل تقصدين؟).

ـ (صديق مدام ميرليه ـ السيد أوزموند).

ـ (لا أدري لِمَ تسمينه صديق مدام ميرليه. هل هذا هو الشيء الأساسي المعروف به؟).

ـ (إن لم يكن صديقها فيجب أن يصبح كذلك بعد ما فعلَتْهُ لأجله!).

ثم صرخت السيدة تاتشيت: (لم أتوقع ذلك منها. أنا خائبة الأمل).

أعلنت إيزابيل ببرودٍ شديد: (إن كنتِ تقصدين بأن لمدام ميرليه أية علاقة بخطبتي فأنتِ مخطئة تماماً).

ـ (تقصدين بأن جاذبيتكِ كانت كافية بدون أن يكون الرجل مدفوعاً من قبل أحد؟ أنت محقة تماماً، فهي هائلةٌ جاذبيتكِ هذه، وهو ما كان أبداً ليتجرأ على التفكير بكِ لو لم تقم هي بإقناعه بذلك، فهو يرى نفسه مهماً. لكنه لم يكن الرجل الذي يسعى لذلك، فمدام ميرليه هي من سعت بدلاً منه).

صاحت إيزابيل بسخريةٍ مقصودة: (إذن فلا بدّ أنه يرى نفسه عظيماً!).

هزّت السيدة تاتشيت رأسها بحدة.

ـ (أعتقد بأنه كذلك رغم كل شيء، لأنه جعلكِ تحبينه كثيراً جداً).

ـ (أعتقد بأنه نال رضاكِ).

ـ (فعل ذلك في إحدى المرات. ولهذا السبب أنا غاضبة منه).

قالت الفتاة: (كوني غاضبة مني وليس منه).

ـ (أوه أنا دائماً غاضبة منكِ، وذلك ليس كافياً! هل كان هذا هو سبب رفضكِ للورد واربيرتون؟).

ـ (أرجوكِ لا تعودي لهذا الموضوع. لِمَ لا يجب علي أن أحب السيد أوزموند، هل لأن الآخرين فعلوا ذلك؟).

شرحت السيدة تاتشيت: (إن الآخرين وهم في أكثر لحظاتهم تهوراً لن يرغبوا أبداً بالزواج منه. إنه غير مهم).

قالت إيزابيل: (إذن لا يمكنه أن يؤذيني).

ـ (هل تعتقدين بأنكِ ستكونين سعيدة؟ لا أحد سعيد بتصرفاتٍ كهذه، يجب أن تعلمي ذلك).

ـ (سأغيّر الطريقة السائدة إذن. ما هو الغرض الذي لأجله يتزوج المرء؟).

ـ (الغرض الذي ستتزوجين أنت من أجله اللّه وحده أعلم به، أما الناس فعادةً يتزوجون ليبدأوا شراكةً ـ ليؤسسوا منزلاً. لكن في شراكتكِ، أنت من سيجلب كل شيء).

سألت إيزابيل: (هل لأن السيد أوزموند ليس غنياً؟ هل هذا هو ما تتحدثين عنه؟).

ـ (ليس لديه مال، ليس لديه شهرة، ليس له أهمية. أنا أقدّر أموراً كهذه ولدي الشجاعة لقول ذلك. أعتقد بأنها أمور ثمينة جداً. يعتقد الكثير من الناس الأمر نفسه ويُظهرونه لكنهم يمنحون سبباً آخر).

ترددت إيزابيل قليلاً: (أعتقد بأنني أُقدِّرُ كل شيء له قيمة. أنا أهتم كثيراً جداً بالمال، ولهذا السبب أود أن يحظى السيد أوزموند بالقليل منه).

ـ (امنحيه إذن المال لكن تزوجي أحداً آخر).

واصلت الفتاة الكلام: (إن اسمه مناسب تماماً بالنسبة لي. إنه اسم جميل جداً. هل سأحظى باسمٍ أنيقٍ كهذا لنفسي؟).

ـ (إن ذلك هو أكبر سبب يفرض عليكِ أن تبدليه. هناك الكثير جداً من الأسماء الأميركية. هل ستتزوجينه بدافع الشفقة؟).

ـ (كان ذلك واجبي وهو أن أخبركِ يا خالة ليديا، لكنني لا أعتقد بأنه من واجبي أن أفسر لكِ. وحتى وإن كان كذلك، فلن أكون قادرة. لذا أرجوكِ لا تعترضي؛ فأنتِ بحديثكِ عن الموضوع تؤذينني. لا يمكنني أن أتحدث عن الموضوع).

ـ (أنا لا أعترض، أنا فقط أجيبكِ؛ إذ لا بدّ أن أبدي ملاحظةً فَطِنة. لقد رأيتُها تخطر لي ولم أقل شيئاً. أنا لا أتدخّل أبداً).

ـ (أنتِ لم تتدخّلي، وأنا ممتنةٌ لكِ كثيراً، لقد كنتِ متفهّمةً جداً).

قالت السيدة تاتشيت: (لم يكن ذلك تفهُّماً ـ إن ذلك زواج مصلحة. لكنني سأتحدث إلى مدام ميرليه).

ـ (أنا لا أفهم لِمَ تستمرين في إدخالها في الموضوع. لقد كانت صديقة طيبة بالنسبة لي).

ـ (ربما، لكنها كانت صديقة حقيرة بالنسبة لي).

ـ (ما الذي فعلَتْهُ لكِ؟).

ـ (لقد خدعَتْني؛ فقد كانت مقنعةً بوعدها لي بمنع خطبتكِ).

ـ (لا يمكنها أن تمنعها).

ـ (يمكنها أن تفعل أي شيء، ولأجل هذا أحببتُها دائماً. أنا أعرف بأنه يمكنها أن تلعب أي دور، لكنني فهمتُ بأنها لعبتهم الواحد تلو الآخر. لم أفهم بأنها كانت ستلعب دورين في الوقت نفسه).

قالت إيزابيل: (لا أعرف أي دور تكون قد لعبَتْهُ عليكِ، فذلك الأمر بينكما. بالنسبة لي، كانت صادقة ولطيفة ومخلصة).

ـ (طبعاً مخلصة؛ فقد أرادت منكِ أن تتزوجي من مرشّحها. لقد أخبرَتْني بأنها كانت تراقبكِ فقط كي تتدخل).

رغم ذلك، أجابت الفتاة وهي مدركة لركاكة التفسير: (لقد قالت ذلك لترضيكِ).

ـ (لترضيني بواسطة خداعي؟ إنها تعرفني أكثر. هل أنا راضيةٌ الآن؟).

كانت إيزابيل مضطرة لأن تجيب: (أنا لا أعتقد بأنكِ رضيتِ كثيراً يوماً. لو تعرف مدام ميرليه بأنكِ ستعلمين الحقيقة فما الذي كسبَتْهُ من كذبها؟).

ـ (لقد كسبت الوقت كما ترين؛ فبينما أنا أنتظرُها لتتدخّل كنتِ أنت تبتعدين بانتظام بمشية عسكرية وهي في الحقيقة كانت تضرب الطبل).

ـ (حسناً لا بأس بذلك. لكن باعترافكِ بأنكِ رأيتِني أبتعد، ما كان عليكِ أن تحاولي إيقافي حتى وإن هي أعطت الإشارة).

ـ (كلا، لكن أحداً ما سيفعل ذلك).

سألت إيزابيل وهي تنظر بقسوة جداً إلى خالتها: (من تعنين؟).

ثبتت عينا السيدة تاتشيت البراقتان الصغيرتان وبشكلٍ مؤثر كما هو معتاد، نظراتها بدلاً من أن تحولها: (هل كنتِ ستصغين إلى رالف؟).

ـ (لن أفعل إن كان سيسيء إلى السيد أوزموند).

ـ (إن رالف لا يسيء إلى الناس وأنتِ تعلمين ذلك تماماً. إنه يهتم كثيراً لأمركِ).

قالت إيزابيل: (أعلم بأنه يفعل ذلك، وسأشعر بقيمة ذلك الآن لأنه يعلم أن كل ما أفعله أفعلُه لسببٍ ما).

ـ (لم يصدق أبداً بأنكِ ستفعلين ذلك. قلتُ له بأنكِ قادرة على ذلك، وخالَفَني وقال بأن الأمر مستبعد).

ابتسمت الفتاة.

ـ (لقد فعل ذلك لغرض الاختلاف. أنت لا تتهمينه بأنه خدعكِ، فلماذا تتهمين مدام ميرليه بذلك؟).

ـ (إنه لم يتظاهر أبداً بأنه سيمنع الموضوع).

صاحت إيزابيل بسرور: (أنا مسرورة لذلك!).

ثم أضافت: (أودُّ بشدة عندما يأتي أن تخبريه أولاً عن خطبتي).

قالت السيدة تاتشيت: (بالطبع سأذكر ذلك ولن أتحدث عن الموضوع معكِ أكثر من ذلك، لكنني أُعْلِمُكِ بأنني سأتحدث إلى الآخرين).

ـ (مثلما يحلو لكِ. أنا قصدتُ فقط أنه من الأفضل أن يصدر الإعلان منكِ بدلاً مني).

ـ (أنا أتفق معكِ تماماً، فذلك أصولي أكثر!).

وعندئذٍ، ذهبت الخالة وبنت الأخت إلى الإفطار حيث كانت السيدة تاتشيت عند وعدها، ولم تلمّح عن جيلبرت أوزموند. رغم ذلك، بعد فترة صمتٍ، سألت رفيقتَها مِنْ مَنْ تلقَّتْ زيارةً قبل ساعة.

فقالت إيزابيل وقد احمرَّتْ وجنتاها: (من صديقٍ قديم ـ رجل أميركي محترم).

ـ (رجل أميركي محترم طبعاً. فقط الرجل الأميركي المحترم هو الذي يقوم بزيارة في الساعة العاشرة صباحاً).

ـ (كانت الساعة العاشرة والنصف. كان في عجلةٍ من أمره؛ إذ سيسافر هذا المساء).

ـ (ألم يكن بمقدوره المجيء يوم أمس، في الوقت المعتاد؟).

ـ (لقد وصل فقط الليلة الماضية).

صاحت السيدة تاتشيت: (ويقضي فقط أربعاً وعشرين ساعة في فلورنسا؟ إنه رجل أميركي محترم بحق).

قالت إيزابيل وهي تفكر بإعجابٍ شديد بما فعله كاسبار غودوود من أجلها: (إنه كذلك فعلاً).

بعد ذلك بيومين، وصل رالف. لكن على الرغم من أن إيزابيل كانت متأكدةً بأن السيدة تاتشيت لم تضيّع الوقت في أن تنقل له الحدث العظيم، إلا أنه في البداية لم يُظهِر علماً بالموضوع. كان حديثهما الخاطف عن صحته طبعاً. كانت لدى إيزابيل الكثير من الأسئلة التي يجب أن تسألها عن كورفو. كانت مصعوقةً من شكله عندما دخل إلى الغرفة. لقد نسيتْ كم بدا مريضاً. فعلى الرغم من كورفو إلا أنه بدا مريضاً جداً الآن، وتساءلت فيما إذا كانت حقاً حالته أسوأ أم أنها ببساطة كانت غير معتادة على العيش مع شخصٍ مريض. لم يقترب رالف المسكين أكثر من الوسامة الاعتيادية

كلما تقدَّمَ في السن، وقد فعل الآن الفقدان التام الواضح لصحته القليل في تخفيف الغرابة الطبيعية لجسده المتردّي والبالي، لكنه لا يزال متجاوباً ولايزال ساخراً. كان وجهه كالفانوس المثقوب والمرقّع بورقة والمثبت بشكل غير مستقر، وارتخى شاربه الهزيل على وجنةٍ ضامرة، وظَهَرَ الانحناء المفرط لأنفه بشكل أكثر حدّة. كان نحيلاً بكل ما في الكلمة من معنى، نحيلاً وطويلاً ومرتخي المفاصل؛ عبارة عن التحام عَرَضي لزوايا سائبة. كانت سترته المخملية البنيّة قد أصبحت مُعَمِّرة، ويداه قد وُضعتا في جيوبها. مشى بتثاقل وتخبُّط وجرَّ قدميه بطريقةٍ أظهرت عجزاً جسدياً كبيراً. ربما كانت هذه المشية الغريبة هي التي ساعدت على وصم شخصيته أكثر من ذي قبل بشخصية المريض الفكاهي ـ المريض الذي كان حتى عجزه جزءاً من دعاباته العامة. كان هذا العجز في الحقيقة، بالنسبة لرالف، السبب الرئيسي لافتقاره إلى الجديّة الذي حدَّدَ نظرته إلى حياةٍ كان سبب استمرار وجوده فيها قد تجاوَزَ المعرفة. ازدادت إيزابيل إعجاباً بدمامته، وأصبحت سماجته محببة لها. لقد أصبحتا جميلتين بالعشرة، وأدهشتاها كشروطٍ مُنحتْ له ليكون فاتناً. كان فاتناً جداً لدرجة أن إحساسها بكونه مريضاً امتلكَ لحد الآن نوعاً من العزاء في داخله؛ فلم تبدُ حالته الصحية كإعاقة بل نوعاً من التميّز الفكري؛ إذ حررَتْهُ من كل الأحاسيس المُتَحَلة والمتعارف عليها وتركت له نعمة أن يكون هو نفسه بشكلٍ خالص. وكانت الشخصية الناتجة بهذه الطريقة رائعة؛ فقد بقي محصّناً من تقدّم المرض، وكان عليه أن يرضى بأن يكون مريضاً بشكلٍ بائس ومع ذلك أفلَتَ بطريقةٍ ما من أن يكون مريضاً بشكل رسمي.

كان ذلك هو انطباع الفتاة عن ابن خالتها. وعندما أشفقتْ عليه كان ذلك فقط بعد تفكيرٍ عميقٍ بالأمر. فكلما فكرتْ كثيراً أشفقتْ عليه أكثر، لكن كان لديها دائماً قلقٌ من أن تفقد هذه الحقيقةَ ـ ذلك الشيء الثمين ـ التي هي مُهمّة

بالنسبة للمشفِق أكثر من أي أحدٍ آخر. رغم ذلك، لم يتطلب الأمر الآن الكثير من الإدراك لتشعر بأن فترة حياة رالف المسكين لن تطول أكثر مما يجب. كان شخصاً مرحاً، تلقائياً، كريماً، ولديه كل استنارة الحكمة وليس ادّعاؤها، ومع ذلك كان يحتضر بشكلٍ يدعو للحزن.

رأت إيزابيل أيضاً أن الحياة بالتأكيد كانت قاسية على بعض الناس، وشعرت بوميضٍ خافت من الخجل عندما فكرت أن الحياة وعدَتْ بأن تصبح رغيدةً لها.

كانت مستعدة لتعلم بأن رالف لم يكن مسروراً بخطبتها، لكنها لم تكن مستعدة لتسمح لهذه الحقيقة بأن تفسد الموقف رغم تعاطفها تجاه رالف. إنها لم تكن حتى على استعداد ـ أو كما اعتقدَتْ هي ذلك ـ لأن تستاء من حاجته للشفقة لأنه سيكون على حق في أن يعثر على خطأ ـ وهو فعلاً اختصاصه الطبيعي ـ في أية خطوة تتخذها للزواج. إذ يُزعَم أن ابن الخالة دائماً يكره زوج ابنة خالته، فقد كان ذلك مألوفاً وتقليدياً؛ وكان ذلك هو دور ابن الخالة، وهو أن يعشق ابنة خالته. لن يكون رالف شيئاً إن لم يكن انتقادياً؛ فرغم أنها ستكون مسرورة بالتأكيد بالزواج لتسعده مثلما تسعد أي أحد (وهذا ينطبق على الأمور الأخرى) إلا أنه سيكون من الغريب أن نعتبر اتفاق خيارها مع آرائه أمراً مهماً. ماذا كانت آراؤه في النهاية؟ لقد زعم بأنه يعتقد بأن من الأفضل لو تزوجت من اللورد واربيرتون، لكن ذلك فقط لأنها رفضتْ ذلك الرجل الممتاز. لو كانت قد قبلت به فسيتخذ رالف بالتأكيد اتجاهاً آخر؛ فهو دائماً يتخذ الاتجاه المعاكس. يمكنكَ أن تنتقد أي زواج، فخلاصة الزواج هي أن تكون عُرضةً للنقد. كم ستنتقد هي نفسها كثيراً زواجها هذا لو فقط فكرتْ به! مع ذلك، كان لديها ملاذ آخر، وكان رالف سيرحب بها ليريحها من الخوف.

كانت إيزابيل على استعداد لتكون صبورة إلى أقصى حدٍّ ومتسامحة

إلى أقصى حدّ. لا بدّ أنه فهم ذلك، وأن عدم قوله شيئاً جعل الموضوع أكثر غرابة. بعد انقضاء ثلاثة أيام بدون أن يتحدث، سئمت شابتنا من الانتظار. ربما قد يكون خضع للرسميات رغم أنه يكرهها. فنحن الذين نعرف عن رالف أكثر من ابنة خالته، يمكننا بلا جدال أن نثق بسهولة بأنه خلال الساعات التي تلت وصوله لقصر كريشنتيني كان قد خضع سرّاً إلى العديد من الرسميات. فأمه كانت قد استقبلته فعلاً بالأخبار العظيمة التي كانت مثبطة للهمّة بشكل كبير حتى أكثر من قبلة السيدة تاتشيت الأمومية. كان رالف مذهولاً ومقهوراً؛ فقد كانت حساباته خاطئة، وكانت أكثر إنسانة في العالم مولعاً بها إلى أقصى حدٍّ قد ضاعت. فاندفع في أرجاء المنزل كالزورق التائه في جدول ماء مليء بالصخور، أو جلس في حديقة القصر على كرسي كبير من الخيزران، وساقاه ممتدتان، ورأسه إلى الوراء، وقبعته مسحوبةٌ فوق عينيه. شعر بلا مبالاة، ولم يكن يفضّل شيئاً أقل من ذلك. ماذا بوسعه أن يفعل؟ ماذا بمقدوره أن يقول؟ إن كانت الفتاة لا يمكن ثنيها عن قرارها فهل يمكنه أن يتظاهر بأنه يستحسن الأمر؟ إن محاولة ثنيها عن قرارها ستكون مقبولة فقط إن كانت المحاولة ستنجح؛ ومحاولة اقناعها بأي شيء دنيء أو خبيث في الرجل الذي استسلمتْ لحيله الغامضة ستكون حكيمة بشكلٍ مقبول فقط في حالة إن كانت ستقتنع، وإلّا ببساطة سيلعن نفسه. فلكي يتظاهر سيكلفه ذلك جهداً مماثلاً في قول رأيه، إذ لا يمكنه لا أن يوافق بصدق ولا أن يرفض بأمل. من ناحية أخرى عرف ـ أو بالأحرى اعتقد ـ بأن الخطيبين كانا يجددان اتفاقهما المتبادل يومياً؛ ففي تلك الأثناء كان أوزموند يظهر لفترة قصيرة في قصر كريشنتيني، لكن إيزابيل تقابله كل يوم في مكانٍ آخر لأنها بعد إعلان خطبتها كان مباحاً لها فعل ذلك. كانت تستأجر كل شهر عربة ـ لكي لا تكون مدينةً لخالتها بتكلفة متابعة طريقٍ لا تستحسنه السيدة تاتشيت ـ وتذهب في الصباح

إلى الكاشينه[1]. كان هذا المكان الواسع الذي يقع في الضاحية خالياً من المتطفلين في الساعات المبكرة. وتجولت قليلاً سيدتنا الشابة مع حبيبها في أكثر أجزائه هدوءاً عبر الظلال الإيطالية الكئيبة وأنصتت إلى العنادل.

***

(1) الكاشينه: هو متنزه عمومي ضخم وتاريخي في فلورنسا على شكل طريق طويل وضيق على طول الضفة الشمالية لنهر آرنو. (المترجمة)

الفصل 34

في أحد الأيام، وعند عودتها من جولتها، قبل الغداء بحوالي نصف ساعة، نزلت من عربتها في باحة القصر، وبدلاً من أن تصعد الدرج الرئيسي، اجتازت الباحة وعبرت من تحت قنطرة أخرى ودخلت الحديقة. لا يمكن تخيّل بقعة أكثر سحراً منها في مثل تلك اللحظة؛ إذ خيّم عليها سكون الظهيرة، وصنع الظل الدافئ الساكن الذي يطوّقها أماكن ظليلة كالكهوف الواسعة. كان رالف جالساً هناك في العتمة الرائقة عند قاعدة تمثال الإلهة تيربسكوري ـ وهي حورية راقصة ذات أصابع مستدقة ورداء منفوش على طراز برنيني[1]. أوحى الاسترخاء البالغ لوضعيته في البداية لإيزابيل بأنه كان نائماً. لم توقظه خطواتها الخفيفة على العشب، وقبل أن تستدير مبتعدة وقفت لبرهةٍ تنظر إليه. خلال هذه اللحظة فتح عينيه، وبعد ذلك جلست على كرسي صدئ يشبه كرسيه. على الرغم من أنها اتهمته أثناء انفعالها باللامبالاة، إلا أنها لم تكن عمياء عن حقيقة أنه كان لديه شيء اكتأب بسببه. لكنها فسرت مظهره الشارد، جزئياً بإعياء ضعفه المتزايد، وجزئياً بالقلق المتعلق بالأملاك التي ورثها من والده ـ نتيجة التدابير الغريبة التي لم تستحسنها السيدة تاتشيت والتي واجهت معارضة الآن من الشركاء الآخرين في البنك، كما أخبرت إيزابيل بذلك. قالت والدته بأنه يجب أن يذهب إلى إنجلترا بدلاً من المجيء إلى فلورنسا، فهو لم يتواجد هناك لأشهر ولم يهتم بالبنك أكثر من ولاية باتاغونيا.

---

(1) برنيني: هو جان لورينزو برنيني، نحات ورسام ومهندس معماري إيطالي من القرن السابع عشر. (المترجمة)

قالت إيزابيل: (آسفة لأنني أيقظتكَ. تبدو متعباً جداً).

ـ (أشعر بالتعب الشديد. لكنني لم أكن نائماً؛ لقد كنتُ أفكر فيكِ).

ـ (هل أنت متعب بسبب ذلك؟).

ـ (كثيراً. إنه لا يؤدي إلى شيء؛ فالطريق طويل ولن أصل أبداً).

وجهت إليه سؤالاً وهي تغلق مظلتها: (وما الذي تريد أن تصل إليه؟)

ـ (إلى موضوع التعبير بشكلٍ صحيح عن ما أفكر فيه بشأن خطبتكِ).

أجابت بلطف: (لا تفكر كثيراً).

ـ (هل تقصدين بأن ذلك ليس من شأني؟).

ـ (ما وراء نقطةٍ معينة، نعم).

ـ (تلك هي النقطة التي أريد أن أحددها. لدي اعتقاد بأنكِ تجدينني أفتقر إلى السلوك المهذّب. فأنا لم أهنئكِ).

ـ (لاحظتُ ذلك طبعاً وتساءلتُ لِمَ كنتَ صامتاً؟).

قال رالف: (كان هناك الكثير جداً من الأسباب. سأخبركِ بها الآن).

فخلع قبعته وألقاها على الأرض، ثم جلس وهو ينظر إليها. اتكأ إلى الخلف تحت حماية برنيني، ورأسه بمواجهة قاعدته الرخامية، وذراعاه مستقرتان على كل جانب منه، ويداه ملقاة على مساند كرسيه الواسع. بدا مرتبكاً ومتضايقاً، فتردّد طويلاً. لم تقل إيزابيل شيئاً، فعندما يكون الناس مرتبكين تكون حزينة بشأنهم عادةً، لكنها عقدت العزم أن لا تساعد رالف بأن يقول كلمة لا تحترم قرارها الحاسم. فواصَلَ كلامه أخيراً: (أعتقد بأنني تغلبتُ على دهشتي بصعوبة. فأنتِ آخر شخص توقعتُ أن أراه مُصطاداً).

ـ (لا أدري لماذا تسميه اصطياداً؟).

ـ (لأنه سيتم وضعكِ في قفص).

أجابت: (إن كنتُ أحبُّ قفصي فلا داعي إلى أن تنزعج).

ـ (ذلك هو ما أنا مندهشٌ بشأنه. ذلك هو ما كنتُ أفكر به).

ـ (إن كنتَ تفكر، فيمكنكَ أن تتخيل كيف فكرتُ بذلك! أنا مقتنعة بأنني أتصرف جيداً).

ـ (لا بدّ أنكِ تغيرتِ بشكلٍ هائل. فقبل عام وضعتِ حريتكِ فوق كل شيء. أردتِ فقط أن تري العالم).

قالت إيزابيل: (لقد رأيتُه. أعترفُ بأنه لا يبدو لي الآن ذلك الامتداد المغري).

ـ (أنا لا أدّعي بأنه كذلك، أنا فقط كان لدي تصوُّر بأنكِ أخذتِ رأياً لطيفاً عنه وأردتِ أن تستكشفي الواقع برمته).

ـ (لقد فهمتُ بأن المرء لا يمكنه أن يفعل شيئاً كبيراً كهذا، بل عليه أن يختار زاوية معينة ويهذبها).

ـ (ذلك هو ما أعتقده. وعلى المرء أن يختار زاوية جيدة قدر الإمكان. لقد تكوّنَتْ لدي فكرة، طوال فصل الشتاء، عندما قرأتُ رسائلكِ الرائعة، بأنكِ كنتِ تقومين بالاختيار. لم تقولي شيئاً عن ذلك، وأدهشني صمتكِ).

ـ (لم يكن ذلك موضوعاً أحب أن أكتب لكَ عنه. إلى جانب ذلك، فأنا لا أعرف شيئاً عن المستقبل. لقد حدث كل ذلك مؤخراً. مع ذلك....).

فسألت إيزابيل: (ماذا كنتَ ستفعل؟).

ـ (لقلتُ لكِ «انتظري قليلاً»).

ـ (أنتظرُ ماذا؟).

قال رالف بابتسامةٍ غريبة نوعاً ما بينما تتحسس يداه طريقهما إلى جيوبه: (حسناً، ضوءاً أكثر قليلاً)

ـ (ومن أين سيأتي الضوء؟ منكَ؟).

ـ (قد أقدحُ شرارةً أو اثنتين).

خلعت إيزابيل قفازيها وعدّلتهما وهما على ركبتها. كانت رقّة هذه الحركة عابرة لأن عبارتها لم تكن رقيقة: (إنكَ تتجنب الخوض مباشرةً في الموضوع يا رالف. أنت تريد أن تقول بأنكَ لا تحب السيد أوزموند، ومع ذلك أنت خائف).

ـ («أريد التجريح ومع ذلك خائفٌ من الضرب؟». أنا أريد أن أجرحه، نعم ـ لكن ليس أن أجرحكِ أنت. أنا خائفٌ منكِ وليس منه. لو تزوجتِ منه فلن تكون طريقة موفقة بالنسبة لي لجعلي أتكلم).

ـ (لو تزوجتُهُ! هل لديكَ أمل بجعلي أعدل عن الموضوع؟).

ـ (طبعاً؛ فهو يبدو لي سخيفاً للغاية).

قالت إيزابيل بعد قليل: (كلا. إنه يبدو لي عاطفياً للغاية).

ـ (الأمر سيّان. فإشفاقكِ عليّ يجعلني سخيفاً جداً).

عدّلَتْ قفازيها الطويلين ثانيةً.

ـ (أنا أعلم بأنكَ تملك تعاطفاً كبيراً تجاهي لا أستطيع أن أتخلص من ذلك).

ـ (لا تحاولي ذلك بحق الله. ضعي ذلك أمام ناظريكِ جيداً وسيقنعكِ ذلك كم أريد بشدة أن تُحسني التصرف).

ـ (وكم تثق بي قليلاً!).

كانت هناك لحظة صمت، وبدت الظهيرة الدافئة بأنها مُصغية.

قال رالف: (أنا أثق بكِ لكنني لا أثق به).

فرفعت عينيها ورمقته بنظرةٍ واسعة وعميقة.

ـ (لقد قلتَها الآن، وأنا مسرورة بأنكَ أوضحتَها. لكنكَ ستعاني بسببها).

ـ (لن أعاني إن كنتِ منصفة).

قالت إيزابيل: (أنا منصفة جداً).

ثم واصلت الكلام وهي تفتخر بهدوئها ومع ذلك تتحدث بنوعٍ من التعالي المكبوت: (ماذا يمكن أن يكون أفضل دليل على ذلك من أنني لستُ غاضبة منكَ؟ أنا لا أعرف ماذا دهاني، لكنني لستُ غاضبة. كنتُ كذلك عندما بدأتَ الحديث، لكنه اختفى. ربما من المستحسن أن أكون غاضبة، لكن السيد أوزموند لن يرجو ذلك. إنه يريدني أن أعرف كل شيء، وهذا هو ما يجعلني أحبه. ليس لديكَ ما تجنيه، أعرفُ ذلك. لم أكن أبداً معكَ لطيفةً جداً كفتاة، بحيث يجب أن يكون لديكَ سبب وجيه لتتمنى لي أن أبقى وحيدة. أنت تمنح النصيحة الجيدة، ولطالما فعلتَ ذلك. كلا، أنا هادئة جداً وقد آمنتُ دائماً بحكمتكَ).

كانت رغبتها الحارة هي أن تكون منصفة، وقد لامَسَ ذلك قلب رالف وأثَّرَ به كتربيتةٍ من مخلوقٍ كان قد آذاه. وتمنى أن يقاطعها ويهدئها؛ ولوهلةٍ أصبح متناقضاً بشكلٍ غريب؛ إذ ودَّ أن يسحب ما قاله.

لكنها لم تمنحه الفرصة، فواصلت الكلام لأنها لمحت ـ كما اعتقدَتْ ـ التصميم القوي ورغبت بالتقدم في ذلك الاتجاه: (أنا أعرف أن لكَ رأياً معيّناً، أودُّ كثيراً أن أسمعه. أنا متأكدة بأنه غير مثير للاهتمام، فأنا أشعر بذلك. من الغريب أن نتحاور بشأنه، وطبعاً يجب أن أقول لكَ وبشكلٍ حاسم إن كنتَ تأمل بأن تجعلني أعدل عن الموضوع فيمكنكَ أن تستسلم. فلن تُحَرِّكَ مني شعرة، لقد وصلتَ متأخراً. وكما قلتَ، لقد تم اصطيادي. صحيح بأنه لن يكون أمراً مُرضياً بالنسبة لكَ أن تتذكر هذا، لكن حزنكَ سيكون في تفكيركَ، ولن ألومكَ أبداً).

قال رالف: (لا أعتقد بأنكِ ستفعلين ذلك، فذلك ليس هو نوع الزواج الذي ظننتُ بأنكِ سترضين به إطلاقاً).

ـ (أرجوك، وأي نوع من الزواج هذا؟).

ـ (حسناً، من الصعوبة قول ذلك. فليس لدي رأي إيجابي عنه تماماً، بل لدي رأي سلبي. لم أتصوَّر بأنكِ ستصممين على...... حسناً، على هذا النوع).

أعلنت الفتاة: (وما العيب بنوع السيد أوزموند، هذا إن كان عيباً؟ فأكثر ما أراه فيه هو أنه مستقل جداً، ومتفرّد جداً. ماذا لديكَ ضدّه؟ فأنتَ بالكاد تعرفه).

قال رالف: (نعم. أنا لا أعرفه كثيراً، وأعترفُ بأنه ليست لدي حقائق ونقاط تثبت بأنه شرير. لكن الأمر سيّان، فأنا لا أحتمل الشعور بأنكِ تتجهين نحو خطرٍ عظيم).

ـ (إن الزواج هو دائماً خطرٌ عظيم، وخطورة أوزموند عظيمة كخطورتي).

ـ (إن ذلك هو شأنه! فإن كان خائفاً فليتراجَعْ. فأنا أتمنى من الله أن يفعل ذلك).

اتكأت إيزابيل على كرسيها وهي تطوي ذراعيها وحدقت قليلاً على ابن خالتها. ثم قالت في النهاية ببرود: (لا أعتقد بأنني أفهمكَ. فلا أدري ما الذي تتحدث عنه).

ـ (لقد حسبتُ بأنكِ ستتزوجين من رجلٍ أكثر أهمية).

يمكنني أن أقول إن نبرتها كانت فاترة، لكن عند هذا الكلام وثب لونٌ بلون اللهب إلى وجهها.

ـ (أكثر أهمية بالنسبة لمن؟ يبدو لي أن زوج المرء يكفي أن يكون مهماً بالنسبة للمرء نفسه!).

فاحمرَّ وجه رالف أيضاً، فرأيه قد أحرجه. فبدأ بتغيير وضعية جسده؛ فاعتدَلَ في جلسته ثم انحنى إلى الأمام واضعاً يداً على كل ركبة وثبَّتَ

نظره على الأرض. كان له مظهر التفكير المتسم بالوقار، ثم قال على الفور: (سأخبركِ حالاً ماذا أعني).

فشعر بالانفعال وبأنه متلهف بشدة، فالآن وقد فتح النقاش رغب بأن يُفرِغ ما في ذهنه. لكنه أراد أيضاً أن يكون لطيفاً بشكلٍ مبالغٍ به. تريثت إيزابيل قليلاً ـ ثم واصلتْ كلامها بشموخ: (إن السيد أوزموند معروف مسبقاً بكل شيء يجعل المرء يهتم بالناس. قد تكون هناك صفات أكثر نبلاً من ذلك، لكن لم يحصل لي الشرف أن أصادف واحدةً منها. إن طبيعة السيد أوزموند هي أرقّ ما عرفتُ، إنه مناسبٌ جداً لي ومثير للاهتمام تماماً وذكي جداً. أنا مندهشة إلى حدٍّ بعيد بما لديه وبما يمثله أكثر من اندهاشي بما يفتقده).

علَّقَ رالف بدون أن يجيب على هذا: (لقد منحتُ نفسي تصوراً رائعاً عن مستقبلكِ. وحرصتُ على أن أخطط لكِ مصيراً رائعاً. لم يكن يوجد شيء من هذا القبيل فيه. لا يجب عليكِ أن تنحدري بهذه السهولة أو بهذه السرعة).

ـ (هل تقول أنحدرُ؟).

قال رالف باندفاع: (حسناً. إن ذلك يترجم إحساسي بما حلَّ بكِ. فقد بدوتِ لي بأنكِ تحلّقين بعيداً في السماء ـ لتكوني فوق رؤوس الناس، تطيرين في الضوء المتألق. وفجأةً أطلق أحدٌ ما إلى الأعلى برعم زهرةٍ ذابلة ـ قذيفةً لا يجب أبداً أن تصل إليك ـ وسقطتِ مباشرةً على الأرض. وقد آلمني ذلك. آلمني وكأنني أنا نفسي سقطتُ!).

ازدادت نظرة الألم والحيرة في وجه رفيقته. فكررت كلامها: (أنا لا أفهمكَ مطلقاً. أنت تقول بأنكَ حرصتَ على أن تخطط لصالح مستقبلي ـ أنا لا أفهم لذلك. لا تحرص كثيراً جداً وإلّا فسأصدق بأنكَ تفعل ذلك على حسابي).

هزَّ رالف رأسه: (أنا لستُ أخشى من عدم تصديقكِ بأن لدي أفكاراً عظيمة لكِ).

فتابعَتْ كلامها: (ماذا تعني بتحليقي وسفري؟ فأنا لم أتحرك إلى مستوى أعلى مما أتحركُ عليه الآن).

ثم قالت إيزابيل المسكينة وهي تتحول إلى واعظة: (فلا يوجد بالنسبة للفتاة شيء أعلى من أن تتزوج ـ شخصاً تحبه).

ـ (إن حبكِ لهذا الشخص الذي نتحدث عنه هو ما أتجرأ أنا بانتقاده يا ابنة خالتي العزيزة. كان ينبغي أن أقول بأن هذا الرجل بالنسبة لكِ كان مؤثراً أكثر، أعظم، وذا طبيعة حرة أكثر).

تردد رالف ثم أضاف: (لا يمكنني تجاوُز إحساس أن أوزموند هو نوعاً ما.... حسناً، تافه).

تلفَّظَ بالكلمة الأخيرة بشجاعة ليست بالكبيرة؛ فقد كان خائفاً من أن تنفجر ثانيةً. لكنها كانت هادئة مما سبَّبَ دهشته، فقد كان لها مظهر شخصٍ يفكّر.

ـ (تافه؟)، قالَتْها بحيث جعلَتْها تبدو جسيمة.

ـ (أعتقدُ بأنه ضيق الأفق وأناني. إنه يعطي لنفسه أهمية!).

قالت إيزابيل: (إن لديه احتراماً كبيراً لنفسه، وأنا لا ألومه على ذلك، وهذا يجعل المرء يتيقن أكثر باحترامه للآخرين).

شعر رالف لوهلة بأنه واثق قليلاً من نبرتها المتزنة.

ـ (نعم. لكن كل شيء هو أمر نسبي؛ إذ على المرء أن يشعر بتعلق المرء بالأشياء ـ بالآخرين. ولا أعتقد بأن السيد أوزموند يفعل ذلك).

ـ (أنا أشعر أساساً بتعلقه بي. فهو متميز في ذلك).

واصل رالف كلامه وهو يفكر بصعوبة كيف يمكنه بشكل أفضل أن يوضح صفات جيلبرت أوزموند الشريرة بدون أن يجعل نفسه مخطئاً من خلال وصفه بفظاظة، فقد رغب أن يصفه بشكل غير شخصي، وعلمي: (إنه عنوان للذوق. إنه يحكم ويقدّر. يستحسن ويستنكر، وفقاً لذلك تماماً).

ـ (إذن من الجيد أن يكون ذوقه استثنائياً).

ـ (إنه استثنائي بالفعل لأنه قاده ليختاركِ كطيره الخاص به. لكن هل رأيتِ يوماً ذوقاً كهذا ـ ذوق استثنائي حقاً ـ وهو مضطرب؟).

ـ (آمل أن يكون نصيبي الإخفاق بإرضاء ذوق زوجي).

عند تلك الكلمات وثب انفعالٌ مفاجئ إلى شفتيّ رالف.

ـ (آه إن ذلك عنيد، ذلك لا يليق بكِ! فلستِ معنيّةً لتكوني كذلك ـ بل أنت معنيّةٌ لشيء أفضل من أن تستمري بحماية أحاسيس فنان هاوٍ أجدب!).

نهضت إيزابيل بسرعة، وفعل ذلك هو أيضاً بحيث وقفا لبرهةٍ وهما ينظران أحدهما للآخر وكأنه طرح تحدياً أو إهانةً. لكنها همست ببساطة: (أنتَ تتمادى كثيراً).

ـ (لقد قلتُ ما في ذهني ـ وقد قلتُه لأنني أحبكِ!).

استحالت إيزابيل شاحبةً؛ فهل كان هو أيضاً على تلك اللائحة المملة؟ لقد تمنت فجأةً أن تشطبه.

ـ (آه، إذن أنت لستَ متجرداً من الأحاسيس!).

قال رالف بسرعة وهو يكبت ابتسامةً وشعوراً عبَّر عنهما في هذا التصريح الأخير أكثر مما كان يقصد: (أنا أحبكِ. لكنني أحبكِ بلا أمل).

ابتعدت إيزابيل ووقفتْ وهي تتطلّع إلى سكون الحديقة المغمور بأشعة الشمس. لكنها بعد قليل استدارت عائدةً له، فقالت بلطف وكأن الغضب الذي انفجرت به للتو قد انحسر الآن: (أخشى أن حديثكَ للتو هو قمة اليأس! أنا لا أفهمه ـ لكن لا يهمّ. أنا لا أتخاصم معكَ. مستحيل أن أفعل ذلك. أنا فقط مرهَقة من الإصغاء إليكَ. أنا ممتنة لكَ كثيراً لمحاولتكَ أن تشرح لي، وكرمٌ منكَ أن تحاول أن تحذّرني إن كنتَ قلِقاً حقاً، لكنني لن أعد بالتفكير في ما قلتَهُ؛ إذ سأنساه بأسرع ما أستطيع. أنت بدوركَ حاوِلْ أن تنساه، فقد فعلتَ

ما عليكَ ولا يمكن لأي إنسان أن يفعل أكثر من ذلك. لا يمكنني أن أفسر لكَ ما أشعر به، وما أعتقد، ولن أفعل ذلك لو استطعتُ).

توقفت قليلاً عن الكلام، ثم واصلت بشكل لامنطقي لاحظه رالف حتى في خضم لهفته في اكتشاف علامة على الإذعان، فكررت القول: (لا يمكنني أن أتدخّل في فكرتكَ عن السيد أوزموند. لا يمكنني أن أنصفها لأنني أراه بطريقة أخرى تماماً. إنه ليس شخصاً مهماً ـ كلا، إنه ليس مهماً. فهو رجلٌ لا يعني له الكثير أن يكون مهماً. إن كان ذلك هو ما تعنيه عندما تطلق عليه «تافهاً» فهو إذن تافه مثلما يحلو لكَ. أنا أُسمّي ذلكَ محترماً ـ إنه أكثر شخص محترم أعرفه. لن أتجرأ بالنقاش معكَ عن شخصٍ سوف أتزوجه. أنا لستُ معنيَّةً مطلقاً بالدفاع عن السيد أوزموند، فهو ليس ضعيفاً جداً لكي يحتاج إلى دفاعي. أعتقد بأنه سيبدو من الغريب حتى بالنسبة لنفسكَ بأن أتحدث عنه بهذا الهدوء والفتور وكأنه أي أحدٍ آخر. ما كنتُ لأتحدث عنه مطلقاً مع أي أحدٍ سواكَ. وبعدما قلتَه... يمكنني فقط أن أجيبكَ مرة واحدة وبصورة نهائية. أرجوكَ، هل تريد مني أن أتزوج عن طمع ـ أو ما يسمونه زواج مصلحة؟ أنا لدي طموح واحد فقط ـ وهو أن أكون حرة في اتباع الإحساس الملائم. كانت لدي مسبقاً طموحات، لكنها انقرضت. هل تشكو من السيد أوزموند لأنه ليس غنياً؟ إن ذلك هو ما أحبه فيه تماماً. أنا لحسن الحظ لدي ما يكفي من المال، ولم أشعر أبداً بأنني سعيدة بسبب ذلك مثلما هو اليوم. هناكَ لحظات أرغب فيها بالذهاب والركوع لدى قبر والدكَ؛ فقد فعل ربما أفضل شيء عندما جعل في مقدوري الزواج من رجلٍ فقير ـ رجلٍ تحمَّلَ فقره بكرامةٍ كبيرة وبلا مبالاة كبيرة. لم يتدافع ولم يتصارع، ولم يهتم بالمكافآت المادية. إن كان ذلك ضِيقاً في الأفق، إن كان ذلك أنانية، إذن ذلك جيد تماماً. أنا لستُ خائفة من هذه الكلمات، أنا لستُ حتى منزعجة، أنا فقط حزينة لأنكَ أخطأتَ. قد يفعل الآخرون ذلك، لكنني مندهشة بأن تفعل أنت ذلك. يمكنكَ

أن تميّز رجلاً محترماً عندما ترى واحداً ـ يمكنكَ أن تميّز قلباً رقيقاً. إن السيد أوزموند لا يخطئ! إنه يعرف كل شيء، إنه يفهم كل شيء، ولديه أرقّ وألطف وأرقى روح. أنت متمسك بفكرةٍ خاطئة. وذلك شيء يدعو للأسف، لكنني لا أحتمل ذلك، فذلك يتعلق بكَ أكثر مني).

توقفت إيزابيل عن الكلام لوهلة وهي تنظر إلى ابن خالتها بعينٍ شَعَّتْ إحساساً اختلَفَ عن الهدوء المتعقّل لهيئتها ـ إحساساً مختلطاً ساهم فيه بالتساوي ألم الغضب الذي أثارَتْهُ كلماتُه، والكبرياء المجروح من احتياجها لتبريرِ خيارٍ تشعر تجاهه فقط بالنبل والنقاء.

رغم أنها توقفت عن الكلام، إلا أن رالف لم يقل شيئاً؛ فقد رأى بأن لديها المزيد لتقوله. كانت حاسمة لكن قلقة بشكلٍ كبير؛ كانت لامبالية لكن منفعلة تماماً.

سألت فجأة: (ما نوع الشخص الذي تمنيتَ مني أن أتزوجه؟ فأنتَ تتحدث عن تحليق المرء وطيرانه، لكن إنْ تزوَّجَ المرء فسيلامس الأرض عموماً. فالمرء يمتلك مشاعر واحتياجات إنسانية، يمتلك قلباً في صدره، ثم يُفرَض عليه أن يتزوج شخصاً محدداً. لم تسامحني والدتكَ أبداً لأنني لم أتفاهم جيداً مع اللورد واربيرتون، وهي مرتعبةٌ من اقتناعي بشخصٍ لا يمتلك امتيازاته العظيمة ـ لا أملاك، لا لقب، لا جاه، لا منازل، لا أراضٍ، ولا مكانة، ولا شهرة، ولا انتماءات برّاقة من أي نوع. إن عدم وجود هذه الأشياء بالضبط هو ما أسعدني. فالسيد أوزموند ببساطة رجلٌ وحيدٌ جداً، مثقفٌ جداً، وصادقٌ جداً ـ إنه ليس صاحب أملاكٍ ضخمة).

أصغى رالف بانتباهٍ كبير وكأنَّ كل شيء قالته يستحق احتراماً عميقاً، لكنه في الحقيقة كان فقط يفكر إلى حدٍّ ما بالأشياء التي قالتها. وبالنسبة للباقي، كان ببساطة يتكيّف مع سطوة تأثيره العام ـ تأثير إيمانها الحقيقي الشديد. لقد كانت مخطئة، لكنها مؤمنة؛ كانت مخدوعة، لكن متماسكة بشكلٍ كئيب.

كان من المميز فيها بشكلٍ رائع هو أنها أحبته ليس لأجل ما امتلكه حقاً، بل لأجل فقره بالذات الذي غُلِّفَ بالتبجيل باختراعها نظرية لطيفة عن جيلبرت أوزموند.

تذكّر رالف ما قاله والده عن أمنيته بجعلها تتمكن من تحقيق ما تحلم به. لقد فعل ذلك، واستفادت الفتاة بالكامل من الثراء. شعر رالف المسكين بالاضطراب، شعر بالخجل. قالت إيزابيل كلماتها الأخيرة باقتناعٍ قليل الجديّة والذي أنهى ظاهرياً النقاش، واختتمته رسمياً بالالتفات مبتعدةً والسير عائدةً إلى المنزل. سار رالف إلى جانبها واجتازا الباحة معاً ووصلا إلى الدرج الرئيسي. هنا، توقف هو، وتوقفت إيزابيل وهي تدير ناحيته وجهاً سعيداً ـ سعيداً بشكلٍ مطلق ومشاكسا. إن معارضته جعلت رأيها عن تصرفها أكثر شفافية بالنسبة لها.

سألت: (ألن تصعد لتناول الإفطار؟).

ـ (كلا. لا أريد إفطاراً، فأنا لستُ جائعاً).

قالت الفتاة: (عليكَ أن تأكل. فأنتَ تعيش على الهواء).

ـ (أنا كذلك فعلاً، وسأعود إلى الحديقة وأستنشق هواءً بملء الفم. أنا أتيتُ إلى هذا الحدّ فقط لأقول هذا. لقد أخبرتكِ في السنة الماضية بأنكِ إنْ وقعتِ في ورطة فسأشعر بخيبة أمل رهيبة. وهذا هو ما أشعر به الآن).

ـ (وهل تظنني في ورطة؟).

ـ (يكون المرء في ورطة عندما يكون على خطإ).

قالت إيزابيل: (حسناً، لن أشكو لكَ أبداً ورطتي!).

وصعدت الدرج، فتابعها رالف بنظراته وهو واقفٌ هناك ويداه في جيوبه. ثم هاجمه البرد الكامن للباحة ذات السور العالي وجعله يرتعش. لذا، عاد إلى الحديقة ليتناول الإفطار على ضوء شمس مدينة فلورنسا.

***

الفصل 35

لم تشعر إيزابيل، عندما تجولت في الكاشينه مع حبيبها، بدافعٍ لإخباره كم هو غير مرغوبٍ به كثيراً في قصر كريشنتيني. فهي عموماً لم تؤثر عليها كثيراً المعارضة المتكتمة من خالتها وابن خالتها على زواجها، ومغزى القصة كان ببساطة هو أنهما لم يحبّا جيلبرت أوزموند. لم يكن هذا الكره مخيفاً لإيزابيل؛ فهي حتى بالكاد تأسفت له لأنه عملَ بشكلٍ رئيسي على أن يوضح وبشكلٍ بالغ الحقيقة المشرّفة جداً من كل الوجوه، وهي أنها تتزوج لتسعد نفسها. فهناك شخصٌ يفعل أموراً أخرى ليُرضي أناساً آخرين، وشخص آخر يفعل ذلك ليُرضي نفسه أكثر. أما رضا إيزابيل فقد تأكَّدَ بالتصرف الحسن المثير للإعجاب لحبيبها. كان جيلبرت أوزموند واقعاً في الحب، وخلال تلك الأيام الهادئة والسعيدة التي عدَّها كل واحد منهما والتي سبقت الاستجابة لآماله، لم يستحق أبداً أقل من الانتقاد القاسي الذي حُكم عليه به من قبل رالف تاتشيت.

كان التأثير الأهم على معنويات إيزابيل والناجم من هذا الانتقاد هو أن إحساس الحب قد فصَل ضحيته بشكلٍ رهيب عن كل شخص عدا الشخص المحبوب؛ فقد شعرت بأنها منفصلة عن أي أحد عرفَتْهُ يوماً فيما مضى ـ عن أختيها اللتين كتبتا لها لتعبّرا عن تمنياتهما المحترمة بالسعادة وعن دهشةٍ مبهمة قليلاً لعدم اختيارها زوجاً يكون بطلاً غنياً كما في القصص؛ وعن هنرييتا التي كانت إيزابيل متأكدة من أنها ستصل بشكل متأخر جداً لتعترض؛ وعن اللورد واربيرتون الذي كان بالتأكيد سيعزّي نفسه؛ وعن كاسبار غودوود

الذي لن يعزّي نفسه ربما؛ وعن خالتها التي امتلكت آراء فاترة وسطحية عن الزواج والتي لم تكن متأسفة من إبداء ازدرائها تجاهه؛ وعن رالف الذي لم يكن حديثه بالتأكيد عن امتلاكه أفكاراً عظيمة لصالحها سوى غطاء غريبٍ لخيبة أملٍ شخصية.

من الواضح أن رالف تمنى أن لا تتزوج أبداً ـ وكان هذا هو المقصود فعلاً ـ لأنه كان مستمتعاً بمشهد مغامراتها كامرأةٍ عزباء. وأن خيبة أمله جعلته يقول أشياء مزعجة عن الرجل الذي فضَّلَتْهُ حتى عليه؛ فأطرت إيزابيل نفسها بأنها جعلت رالف يغضب. كان من الأسهل عليها أن تعتقد ذلك لأن ـ كما قلتُ ـ لديها الآن شعور متحرر قليلاً، أو غير مرتبط بشيء، تجاه الاحتياجات الثانوية، وتقبّلَتْ كحدثٍ طارئ ـ أو في الحقيقة كشيء تفتخر به تماماً ـ أن فكرة تفضيلها لجيلبرت أوزموند بهذا الشكل معناه أن تكسر كل الروابط الأخرى بحكم الضرورة. لقد تذوقت حلاوة هذا التفضيل وجعلَتْها تشعر ـ برهبةٍ قليلاً ـ بالتيار الحاسد والقاسي للحالة الرائعة والأخّاذة، لأن الفضيلة المتهمة والشرف التقليدي للوقوع في الحب كان عظيماً. إن تفضيل شخصٍ مبنيٌّ على ظلمِ شخصٍ آخر؛ ذلك هو الجانب المأساوي للسعادة.

في تلك الأثناء، بعثتْ نشوة النجاح التي بالتأكيد تأججت عالياً الآن داخل أوزموند، دخاناً قليلاً لتأججٍ براق كهذا. فمن جانبه، لم تتخذ الفرصة شكلاً عادياً؛ وكانت الإثارة التي في أقصى الوعي الذاتي للبشر، نوعاً من نشوة التحكم بالذات. رغم ذلك، جعله هذا المزاج عاشقاً مثيراً للإعجاب، ومنحه نظرة راسخة عن الحالة المستحدثة التي انتابته. إنه لم ينسَ نفسه ـ كما قلتُ ـ وكذلك لم ينسَ أن يكون مهذباً ورقيقاً، وأن يرتدي مظهر المشاعر الجيّاشة والنوايا الصادقة. كان مسروراً بشكلٍ هائل بسيدته الشابة، وجعلته مدام ميرليه هديةً لا تُقدّر بثمن، إذ ماذا يمكن أن يكون أجمل شيء تعيش معه من شخصٍ سعيدٍ متناغم مع الرقّة؟ أليست الرقّة هي كل شيء بالنسبة لنفسية المرء،

وإزعاجاً بالنسبة للمجتمع الذي يعظّم مظاهر التعالي؟ ماذا يمكن أن يكون أسعد هبة في الرفيق من عقلٍ ذكي ومذهل يتذكّر من مرة واحدة ويُضفي على أفكار المرء مظهراً لامعاً ورائعاً؟

يكره أوزموند رؤية أفكاره يُعاد استذكارها حرفياً ـ فذلك يجعلها تبدو تافهة وحمقاء، فقد فضَّلَ أن تكون جديدة حتى وإن كان على شكل «تعبيرٍ» عن طريق الموسيقى.

لم يتخذ غروره الشكل الفجّ بالرغبة بزوجةٍ بليدة، فذكاء هذه السيدة كان يجب أن يصبح طبقاً فضيّاً، ليس طبقاً خزفياً ـ بل طبقاً يمكنه أن يجمع به فاكهةً ناضجة، كانت ستُضفي عليه قيمةً جمالية، لذا قد يكون الكلام بالنسبة له نوعاً من الحلوى المقدمة. لقد وجد نوع الفضة بهذا الكمال في إيزابيل؛ إذ تمكّن من النقر على مخيلتها بإصبعه وجعْلِها ترنّ.

لقد علم تماماً، وإن لم يخبره أحد، بأن زواجهما لم يحظَ بالاستحسان الكبير من أقارب الفتاة. لكنه عاملها دائماً كشخصٍ مستقل بحيث بالكاد بدا ضرورياً أن يتأسف لرأي عائلتها. مع ذلك، أبدى في أحد الأيام تلميحاً مفاجئاً عن ذلك، إذ قال: (إنه الفرق في أموالنا هو ما لا يحبونه. فهم يعتقدون بأنني واقعٌ في حب أموالكِ).

سألت إيزابيل: (هل تتحدث عن خالتي ـ عن ابن خالتي؟ كيف تعلم بماذا يفكرون؟).

ـ (أنتِ لم تخبريني بأنهم مسرورون. وعندما كتبتُ إلى السيدة تاتشيت في اليومِ السابق لم تجب أبداً على رسالتي. فلو كانوا مسرورين لحظيتُ بإشارةٍ على ذلك. وحقيقة كوني فقيراً وأنتِ غنية هو التفسير الأكثر وضوحاً لتحفّظهم. لكن عندما يتزوج رجلٌ فقير من فتاةٍ غنية يجب عليه أن يكون مستعداً للاتهامات طبعاً. أنا لا أبالي بها، أنا فقط يهمني شيء واحد ـ أن لا تخامركِ ظلال الشك. أنا لا أهتم بما يعتقده الناس الذين لا أطلب منهم

شيئاً ـ أنا لستُ حتى مستعداً ربما لأن أعرف. أنا لم أقلق أبداً بهذا الشكل، فليسامحني الله، ولِمَ يجب عليَّ أن أبدأ الآن بالقلق بينما استأثرتُ لنفسي تعويضاً مقابل كل شيء؟ أنا لا أزعم بأنني حزين لكونكِ غنية، بل أنا مسرور. فأنا أُسَرُّ بكل شيء تملكينه ـ سواء المال أو الفضيلة. من البشاعة أن نلاحق المال، لكن من الرائع أن نجده. رغم ذلك، يبدو لي بأنني كشفتُ بشكلٍ وافٍ عن حدود تلهّفي تجاهه؛ إذ لم أحاول في حياتي أبداً أن أجني بنساً واحداً، ويجب أن أكون أقل عرضة للشك من معظم الناس الذين يراهم المرء يكدحون وينتهزون الفرص.

أعتقد أن من شأنهم أن يشكّوا ـ أقصد عائلتكِ ـ فعلى العموم من الصائب أن يفعلوا ذلك. سيحبونني يوماً ما لهذا الأمر، وكذلك أنت. وحتى ذلك الحين، لا يحق لي أن أكون حقوداً بل فقط ممتناً للحياة والحب).

وقال في مناسبةٍ أخرى: (لقد جعلَتْني الحياة أحبكِ أكثر، لقد جعلَتْني أكثر حكمة وأكثر لطفاً وأكثر مرحاً وأكثر رضا، وحتى أقوى ـ ولن أتجرأ بإنكار ذلك. لقد اعتدتُ سابقاً أن أطلب الكثير جداً من الأشياء، وأن أصبح غاضباً عندما لا أحصل عليها. نظرياً كنتُ قنوعاً كما أخبرتُكِ آنفاً. لقد أطريتُ نفسي بأنني جعلتُ متطلباتي محدودة، لكنني كنتُ عرضةً للانفعال. فقد اعتدتُ أن أصاب بنوبات رهيبة ومجدبة وكريهة من الجوع ومن الحسرة. أما الآن، فأنا راضٍ حقاً لأنه لا يمكنني أن أحلم بشيءٍ أفضل من ذلك. فالأمر بالضبط يشبه عندما يحاول المرء أن يتهجّى كتاباً في الظلام وفجأةً يأتي المصباح. لقد كنتُ أُجهد عينيّ بشأن كتاب الحياة ولا أجد شيئاً يكافئني على آلامي. لكن الآن، وأنا أستطيع أن أقرأه بصورة صحيحة، أراها قصة رائعة. لا أستطيع أن أصفَ لكِ يا فتاتي العزيزة كم تبدو الحياة هناك ممتدة أمامنا ـ يا له من مساء صيفٍ طويل ينتظرنا. إنه الشطر الأخير لفجرٍ إيطاليٍّ ـ بسديمٍ ذهبي، والظلال قد بدأت للتوّ تزداد طولاً، وتلك الرهافة الفاتنة في الضوء والهواء ومنظر

الطبيعة الذي أحببتُه طوال حياتي والذي تحبينه أنت اليوم. أقسم بشرفي بأنني لا أفهم لماذا لن نستمر، فلدينا كل ما نريده ـ بالإضافة إلى أن كل واحد منا لديه الآخر. لدينا سمة الإعجاب والعديد من القناعات الأساسية. نحن لسنا بليدين، نحن لسنا أنانيين، وليس لنا علاقة بأي نوع من الجهل أو الحزن. أنت قليلة الخبرة بشكلٍ واضح وأنا محنَّك جيداً بشكلٍ واضح. لدينا طفلتي المسكينة تؤانسنا. سنحاول أن نختلق حياةً مصغرة لها، وثيرة تماماً ومرحة ـ وتمتلك صبغة إيطالية).

لقد وضعا الكثير من الخطط، لكنهما أيضاً تركا لنفسيهما الكثير من حرية الاختيار. رغم ذلك، كان أمراً مفروغاً منه أن يعيشا في إيطاليا في الوقت الحالي. ففي إيطاليا كانا قد التقيا، كانت إيطاليا طرفاً في انطباعاتهما الأولى عن بعضهما البعض، ويجب أن تكون إيطاليا طرفاً في سعادتهما. كان لدى أوزموند اتصال بالمعارف الأقدمين، وإيزابيل بالمعارف الجدد، وهو أمرٌ بدا أنه يضمن لها مستقبلاً رفيعاً بمعرفة الأناس الرائعين.

إن الرغبة للتوسع اللامحدود أعقبها إحساسٌ في داخلها بأن الحياة كانت فارغة بدون عملٍ خاص يستجمع طاقات الفرد في نقطة واحدة. كانت قد أخبرت رالف بأنها «رأت العالم» في سنة أو سنتين، وأنها كانت متعَبة الآن ليس من العيش بل من المراقبة. ماذا حلَّ بكل حماسها وطموحاتها ونظرياتها وتقديرها العالي لاستقلاليتها وقناعتها الأولية بأنها لن تتزوج أبداً؟ إن هذه الأسئلة قد اختفت عند أكثر الحاجات بدائية ـ حاجةٍ أزالت الاستجابة لها أسئلة لا تُحصى، مع ذلك أشبعت رغبات لانهائية. لقد بسّطت الموقف بجرّة قلم، ونزلت من الأعلى كالضوء القادم من النجوم ولم تحتَج إلى تفسير. كان هناك تفسير كافٍ في حقيقة أنه كان حبيبها، حبيبها الخاص بها، وأنها يجب أن تكون قادرة على أن تكون ذات نفعٍ له. لقد استسلمَتْ له بنوعٍ من الخنوع، وتزوجَتْهُ بنوعٍ من الكبرياء؛ فهي لم تكن تأخذ فقط، بل كانت تعطي.

جلب معه بانسي مرتين أو ثلاثاً إلى الكاشينه ـ بانسي التي كانت أطول بقليل جداً قبل عام، وليست أكبر سناً بكثير. إن حقيقة كونها ستبقى طفلة دائماً كان اعتقاداً عبّر عنه والدها الذي أمسك يدها عندما كانت في عامها السادس عشر وأخبرها أن تذهب وتلعب ريثما يجلس قليلاً مع السيدة الجميلة.

كانت بانسي ترتدي ثوباً قصيراً ومعطفاً طويلاً، وبدت قبعتها دائماً كبيرة جداً عليها. لقد وجدت متعةً بالمغادرة بخطواتٍ سريعة وقصيرة إلى نهاية الممر ومن ثم بالعودة بابتسامةٍ بدت التماساً للاستحسان. استحسنت إيزابيل ذلك بسخاء، وكان للسخاء اللمسة الشخصية التي نحتتها الطبيعة الحنونة للطفلة. راقبَتْ تعابيرها وكأنها هي نفسها عوّلَتْ عليها كثيراً ـ فبانسي الآن تمثل بذلك جزءاً من الإحسان الذي يمكنها أن تقدمه، وجزءاً من المسؤولية التي يمكنها أن تحملها. راعى والدها أيضاً فكرها الطفولي بحيث لم يشرح لها بعد العلاقة الجديدة التي أقامها مع الآنسة آرتشر الرائعة.

قال لإيزابيل: (إنها لا تعلم. إنها لا تخمّن. إنها تظنه طبيعياً جداً أن نقوم أنت وأنا بالمجيء والتنزه هنا معاً كأصدقاء عاديين فقط. يبدو بالنسبة لي أنه يوجد في ذلك شيء من البراءة الفاتنة. إنها الطريقة التي أحب أن تكون عليها. كلا أنا لستُ فاشلاً كما اعتدتُ أن أعتقد، فقد نجحتُ في أمرين؛ أن أتزوج المرأة التي أعشقها، وأنني ربيتُ ابنتي، كما أردتُ، على الطريقة القديمة).

كان مولعاً جداً بكل الأشياء التي «على الطريقة القديمة». وقد أدهش ذلك إيزابيل كواحدةٍ من ملاحظاته الظريفة واللطيفة والصادقة.

قالت: (يتراءى لي بأنكَ لن تعرف فيما إذا كنتَ نجحتَ أم لا حتى تخبرها. إذ يجب عليكَ أن ترى كيف ستتلقّى أخباركَ. فقد تكون خائفة ـ قد تكون غيورة).

ـ (أنا لستُ خائفاً من ذلك، فبناءً على حديثها فهي معجبة بكِ جداً. يجب أن أتركها في الظلام لفترة أطول قليلاً ـ لكي أرى إن كان سيخطر في ذهنها بأننا إنْ لم نكن مخطوبَيْن فسنكون كذلك).

كانت إيزابيل متأثرةً بفكرة أوزموند الفنية، المبدعة ـ كما بدت كذلك بطريقةٍ ما ـ عن براءة بانسي، فقد كان تقديرها الشخصي للفكرة هو أخلاقي بشكلٍ طاغٍ. ربما لم تكن سعيدةً مطلقاً عندما أخبرها بعد بضعة أيام بأنه أعلَمَ الحقيقةَ لابنته التي قالت كلمةً صغيرة وجميلة: (أوه، إذن سأحظى بأختٍ جميلة!).

لم تكن مندهشة ولا خائفة، ولم تبكِ كما توقَّعَ ذلك.

قالت إيزابيل: (ربما كانت قد خمنت ذلك).

ـ (لا تقولي ذلك، فسأكون مشمئزاً لو اعتقدتُ ذلك. لقد اعتقدتُ بأنها ستكون فقط صدمة صغيرة، لكن الطريقة التي تلقَّتْهُ بها تدل على أن أخلاقها رفيعة. فذلك أيضاً هو ما تمنيتُهُ. سترين بنفسكِ؛ وغداً سوف تهنئكِ بنفسها).

في اليوم التالي، حدث اللقاء في بيت الكونتيسة جيميني حيث تم توصيل بانسي من قبل والدها الذي عرف أن إيزابيل كانت ستأتي في المساء لتردَّ زيارةً قامت بها الكونتيسة جيميني لها عندما علمت بأنهما ستصبحان كنَّتين. فبزيارتها إلى قصر السيدة تاتشيت لم تجد الزائرةُ إيزابيل في البيت، لكن بعد أن أُدخلَتْ شابتنا إلى غرفة استقبال الكونتيسة وصلتْ بانسي لتقول بأن عمتها سوف تحضر على الفور. كانت بانسي تقضي اليومَ مع تلك السيدة التي ظنَّتْ بأنها في سنٍّ يجب أن تبدأ فيه بتعلُّم كيف تتصرف بوجود أحد. كان من رأي إيزابيل أن تُمنح الفتاة الصغيرة دروساً في التصرف مع أقاربها، ولا يمكن أن يوجد ما يبرر هذا الرأي أكثر من التصرف الذي تصرّفَتْهُ بانسي وهما تنتظران الكونتيسة معاً. كان قرار والدها قبل عام هو أن يعيدها أخيراً إلى الدير لتتلقّى البركات الأخيرة، ولتطبّق مدام كاثرين نظريتها بشكل أوضح من أن بانسي يجب أن تنسجم مع هذا العالم.

قالت تلميذة هذه السيدة الممتازة: (لقد أخبرني بابا بأنكِ تكرمتِ ووافقتِ على الزواج منه. أعتقد بأن ذلك أمرٌ باعث على السرور جداً. أعتقد بأنكِ ستنسجمين جيداً).

ـ (تعتقدين بأنني سأنسجم معكِ؟).

ـ (ستنسجمين معي بشكلٍ رائع. لكن ما أقصده هو أنكِ وبابا ستنسجمان مع بعضكما، فكلاكما هادئ جداً ووقور جداً. أنت لستِ هادئة جداً مثله ـ أو حتى مثل مدام ميرليه، لكنكِ أهدأ من آخرين كثيرين. فهو مثلاً لا يجب أن يحظى بزوجةٍ مثل عمتي؛ فهي دائماً في حالة ثوران واهتياج ـ خصوصاً اليوم. سترين ذلك عندما تدخل. لقد أخبرونا في الدير أنه من الخطيئة أن نحكم على الأكبر سناً، لكنني أعتقد بأنه لا ضرر لو حكمنا عليهم بشكل إيجابي. ستكونين رفيقة جميلة لبابا).

قالت إيزابيل: (أرجو أن أكون كذلك لكِ أيضاً).

ـ (لقد تحدثتُ عنه هو أولاً عن قصد. فقد أخبرتكِ مسبقاً رأيي فيكِ؛ لقد أحببتكِ من البداية، لقد أُعجبتُ بكِ كثيراً جداً لدرجة أنني أعتقد بأن وجودكِ أمامي دائماً هو أمرٌ باعثٌ للحظ الجيد. ستكونين قدوتي؛ إذ سأحاول أن أقلدكِ رغم أنني خائفة من أن يكون ذلك أمراً ركيكاً. أنا مسرورة جداً لأجل بابا ـ لقد احتاجَ لشيءٍ أكثر مني، وبدونكِ لا أفهم كيف يمكنه أن يستمر. ستكونين زوجة أبي، لكن لا يجب علينا استخدام هذه الكلمة؛ فقد قيل دائماً بأنهنّ شريرات. لكنني لا أعتقد بأنكِ ستضربينني يوماً أو ترفسينني حتى، أنا لستُ خائفة مطلقاً).

قالت إيزابيل برقّة: (يا عزيزتي بانسي الصغيرة الطيبة، سأكون دائماً لطيفةً معكِ).

اعترَضَ ذلك مشهد أحمق ولا عقلاني لدخولها بطريقة غريبة مع تأثير رعدة.

ردت الطفلة بنبرتها السريعة المتأهبة: (حسنٌ جداً إذن، ليس لدي ما أخافه).

لقد بدا الموقف يشير إلى كمِّ التهذيب الذي حظيَتْ به ـ أو العقوبات التي أرعبَتْها تجاه عدم الاحترام!

إن وصفها لعمتها لم يكن خاطئاً؛ فالكونتيسة جيميني كانت أبعد ما تكون يوماً عن أن تطوي جناحيها؛ إذ دخلت الغرفة مع رفرفةٍ في الهواء وقبّلَتْ إيزابيل أولاً على جبهتها وكأن ذلك مجاراةٌ لشَعيرةٍ قديمة معروفة. فجذبَتِ الضيفةَ إلى الأريكة وبدأت، وهي تنظر إليها من زوايا مختلفة، التحدث كثيراً وكأنها كانت تضيف بفرشةٍ موضوعةٍ في يدها أمام مسند لوحةٍ مجموعةً من اللمسات المدروسة إلى مجموعةٍ من الأشكال المرسومة مسبقاً.

ـ (إن كنتِ تتوقعين مني أن أُهنئكِ فلا بدّ أن ألتمس منكِ العذر؛ إذ لا أعتقد بأنكِ تهتمين سواء فعلتُ ذلك أم لا، فأنا واثقةٌ بأنكِ من المفترض أن لا تهتمي بكل أنواع الأشياء العادية، لكونكِ ذكية جداً. لكنني أنا أهتم إن كنتُ أقول أكاذيب؛ وأنا لن أقولها أبداً ما لم يكن هناك شيء جيد أجنيه من ورائها. أنا لا أدري ماذا يمكن أن أجني من ورائكِ ـ خصوصاً أنكِ لن تصدقيني. لم تعد لدي مهنة أخرى إلّا أن أصنع ورداً من الورق أو أغطيةً مكشكشة للمصابيح ـ لا أعرف كيف ذلك. فأغطية مصابيحي كانت ستحترق بالتأكيد، ووورودي وأكاذيبي ستصبح أكبر من العالم. أنا مسرورة جداً من أجل نفسي بأنكِ ستتزوجين أوزموند، لكنني لن أتظاهر بأنني مسرورة لأجلكِ. أنت ذكية جداً ـ تعلمين بأن تلك هي الطريقة التي يتحدثون بها دائماً عنكِ؛ فأنتِ وريثة وجميلة جداً وأصيلة ولستِ تافهة؛ لذا من اللطيف أن نحظى بكِ في العائلة، فعائلتنا رفيعة تماماً، تعلمين ذلك. سيخبركِ أوزموند بذلك، وأمي كانت مرموقة نوعاً ما ـ كانت تسمى كورين الأميركية. لكننا تدهورنا بشكلٍ مريع، وأعتقد بأنكِ ستنتشلينا. لدي ثقة كبيرة بكِ، هناك دائماً الكثير جداً من الأشياء التي أريد أن أتحدث معكِ عنها. أنا لا أهنئ أبداً أية فتاة بالزواج. أعتقد بأنه يستحسن بهم أن لا يجعلونه بطريقةٍ ما مصيدة معدنية بشكلٍ مريع بهذه الطريقة. أعتقد أنه لا يجدر بپانسي أن تسمع كل هذا، لكن ذلك هو ما أتت إليّ من أجله ـ كي تكتسب أسلوب المجتمع. لا يوجد هناك ضرر في

معرفتها لكمِّ الخوف الذي ستجد نفسها فيه. عندما علمتُ أن أخي مصممٌ عليكِ فكرتُ أن أكتب لكِ كي أنصحكِ وبأقوى العبارات أن لا تصغي إليه. ثم فكرتُ بأن ذلك قد يكون خيانة، وأنا أكره أي شيء من هذا القبيل. إلى جانب ذلك، كما أقول، كنتُ مفتونةً بنفسي، وعلى أية حال أنا أنانيةٌ جداً. بالمناسبة، أنت لن تحترميني، ولو قليلاً، ولن نكون أبداً صديقتين حميمتين. يجب أن أقبل بذلك، لكنكِ لن تفعلي. مع ذلك، فيوماً ما سنصبح صديقتين بشكل أفضل مما تصورتِ في البداية. سيأتي زوجي ويراكِ، رغم أنه ليس على وفاق مع أوزموند كما تعلمين ربما. إنه مولعٌ بالذهاب لرؤية النساء الجميلات، لكنني لستُ خائفة منكِ. ففي المقام الأول، أنا لا أهتم بما يفعله. في المقام الثاني، لن تهتمي له ولو قليلاً. فهو لن يكون أبداً، في أي وقت، علاقتكِ الغرامية، وهو سيراكِ على أنكِ لستِ كذلك لأنه غبي. يوماً ما، إنْ بقيتِ سأخبركِ كل شيء عنه. هل تعتقدين أنه يجب على ابنة أخي أن تخرج من الغرفة؟ اذهبي يا بانسي وتدرَّبي قليلاً في حجرتي).

قالت إيزابيل: (اسمحي لها بالبقاء أرجوكِ. في الواقع، لن أسمع شيئاً لا تسمعه بانسي!).

***

الفصل 36

في أصيل أحد أيام خريف عام 1876، والوقت في طريقه إلى الظلام، دقَّ شابٌّ محبوب المظهر على باب شقةٍ صغيرة في الطابق الثالث لمنزلٍ روماني عتيق. عندما فُتح سأل عن مدم ميرليه. عندئذٍ أدخلَتْهُ الخادمة، وهي امرأة بسيطة مهندمة ذات ملامح فرنسية وسلوك خادمةٍ لسيدة، إلى غرفة استقبال صغيرة وطلبت أن تتشرف باسمه، قال الشاب الذي جلس لينتظر حتى تظهر مضيّفته: (السيد إدوارد غوزييه).

ربما لن يكون القارئ قد نسي أن السيد غوزييه كان مفخرة الجماعة الأميركية في باريس، لكنه قد يتذكر أيضاً بأنه أحياناً تلاشى من أفقه. لقد أمضى جزءاً من فصول شتاء عديدة في بو. ولأنه كان رجلاً ذا عاداتٍ ثابتة واصَلَ لسنواتٍ زيارته السنوية إلى هذا المأوى الساحر. رغم ذلك، في صيف عام 1876 أصابه حادثٌ لم يغير فقط مسار أفكاره بل مسار التسلسل المعتاد لعاداته، فقد أمضى شهراً في إنجادين العليا[1]، وصادف عند سانت موريتز فتاةً شابة ساحرة. فبدأ في الحال بإيلاء اهتمام خاص بهذه الصغيرة. لقد سحرَتْهُ كإلهةَ منزل تماماً والتي كان يبحث عنها طويلاً. لم يكن متهوراً أبداً، وإن لم يكن متعقلاً فهو لا شيء، لذا امتنَعَ في الوقت الحالي عن الإفصاح عن عواطفه. لكن بدا له عندما غادر ـ أنه كان على السيدة الشابة أن تنزل إلى إيطاليا، وعلى معجبها أن ينزل إلى جنيف حيث كان ملزماً بالانضمام

(1) إنجادين العليا: منطقة في سويسرا تحيطها جبال الألب وتتميز بمناخها المشمس وبمناظرها الطبيعية. (المترجمة)

إلى أصدقاء آخرين، وأنه سيكون تعيساً عاطفياً إنْ لم يرها ثانيةً. كانت أسهل طريقة ليفعل ذلك هي أن يذهب في الخريف إلى روما حيث كانت الآنسة أوزموند تقيم مع عائلتها.

بدأ السيد غوزيبه رحلة حجّه إلى العاصمة الإيطالية ووصلها في الأول من تشرين الثاني. كان القيام بها أمراً سارّاً، لكن بالنسبة للشاب، كان يوجد أثر بطولي في هذه المغامرة؛ فقد يكون عرّضَ نفسه قبل الأوان لسموم الجو الروماني الذي يتربّص كثيراً كما هو معروف للجميع في تشرين الثاني. رغم ذلك، فالحظ يحب الشجعان، ولم يكن لهذا المغامر، الذي أخذ ثلاث حبات من الكينين[1] في اليوم في نهاية شهرٍ واحد، سببٌ ليرثي مجازفته. لقد استغل لحدٍّ ما وقته، وكرّسه عبثاً ليجد شائبةً في هيئة بانسي أوزموند. لقد كانت مثالية بشكلٍ يثير الإعجاب. كانت لديها اللمسة الأخيرة. كانت حقاً قطعةً فنية متكاملةً، لقد فكّر بها كثيراً بتأملٍ كأنه يفكر في تمثالِ راعية غنم دريسدن الخزفي.

كانت الآنسة أوزموند تمتلك في الحقيقة وهي في ريعان شبابها، أثراً من الروكوكو[2] الذي لم يتمكن غوزيبه ـ الذي كان ذوّاقاً دائماً لهذا الطراز ـ من أن يخفق في تقديره. يتضح احترامه للإنتاج الفني للفترات التافهة نسبياً، من الاهتمام الذي منحه لغرفة استقبال مدام ميرليه التي رغم أنها مؤثثة بعيّناتٍ من كل صنف، إلا أنها كانت غنية بشكلٍ خاص بأصنافٍ من القرنين الأخيرين. فوضع على الفور نظارته في عينيه ونظر حوله، ومن ثم همهم بحماس: (يا إلهي، إن لديها بعض الأشياء الجميلة والممتازة!).

(1)الكينين: هو دواء عشبي مرّ المذاق يستخرج من لحاء أشجار الكينا. كان يستعمل سابقاً لعلاج الملاريا. (المترجمة)

(2)الروكوكو: هو طراز فني في الرسم والنحت والزخرفة والديكور الداخلي والخارجي، ظهر في فرنسا في القرن 18، وتميزت الأعمال الفنية في فترة الروكوكو هذه بمقاييس جمالية خاصة كالرقة والسلاسة. يُعتقد أن أصل الكلمة يعني المحارة غير المنتظمة الشكل. (المترجمة)

كانت الغرفة صغيرة ومليئة بشكلٍ مزدحم بالأثاث. لقد منحت انطباع الحرير الباهت والتماثيل الصغيرة التي قد تتداعى إنْ تحرَّكَ إحداها. نهض غوزييه وتجوَّلَ في الأرجاء بمشيته المتمهلة وهو ينحني فوق الطاولات المُثقلة بالتحف الصغيرة الرخيصة والمناضد المزيّنة بأذرع فاخرة.

عندما دخلت مدام ميرليه وجدته واقفاً أمام الموقد وأنفه قريب جداً من الحاشية المخرمة الكبيرة المتصلة بالغطاء الحريري لرف المدفأة. كان قد رفعها بلطف وكأنه كان يشمها.

قالت: (إنها من البندقية. إنها جميلة حقاً).

ـ (إنها جميلة جداً لذلك. يستحسن أن ترتديها).

ـ (يقولون لي بأن لديكَ أفضل منها في باريس وبنفس الجودة).

ابتسم الزائر.

ـ (آه، لكنني لا أستطيع أن أرتدي المخرم الخاص بي).

ـ (لا أفهم لِمَ لا يجب أن تفعل ذلك! فلدي قماش مخرم أفضل من هذا الذي ترتديه).

جال نظره بتأنٍّ حول الغرفة ثانيةً.

ـ (لديكِ بعض الأشياء الجيدة جداً).

ـ (نعم، لكنني أكرهها).

فسأل الشاب بسرعة: (هل تريدين التخلص منها؟).

ـ (كلا، فمن المناسب أن تحظى بشيءٍ تكرهه؛ فالمرء نفسه هو من سيتخلص منها!).

قال السيد غوزييه معترفاً عندما جلس هناك محمرّ الوجه: (أنا أحب حوائجي، لكن ليس بشأنها ولا بشأن حوائجكِ هو ما جئتُ أتحدث عنه معكِ).

توقف عن الكلام قليلاً، ثم قال برقّة بالغة: (أنا مهتم بالآنسة أوزموند أكثر من اهتمامي بكل التحفيات في أوروبا!).

فتحت مدام ميرليه عينيها على وسعها.

ـ (هل أتيتَ لتقول لي ذلك؟).

ـ (لقد أتيتُ لأطلب نصيحتكِ).

نظرت إليه بعبوسٍ ودود وهي تدعك ذقنها بيدها البيضاء الكبيرة.

ـ (إن الرجل الواقع في الحب لا يطلب النصيحة، تعلم ذلك).

ـ (لِمَ لا إن كان في موقفٍ صعب؟ فهذه هي الحال دائماً مع رجلٍ واقعٍ في الحب. لقد كنتُ واقعاً في الحب سابقاً وأعرف هذا الأمر. لكن ليس أكثر من هذه المرة ـ ليس أكثر فعلاً. أودُّ أن أعرف على وجه الخصوص ما رأيكِ باحتمالات نجاحي. فأنا أخشى أنني بالنسبة للسيد أوزموند لستُ.... حسناً، جامع تحف حقيقي).

سألت مدام ميرليه وذراعاها الرقيقتان مطويتان، وفمها الجميل مرفوع ناحية اليسار: (هل تريد مني أن أتدخل في الموضوع؟).

ـ (لو تمكنتِ من قول كلمةٍ جيدةٍ بحقي فسوف أكون ممتناً كثيراً. لن تكون هناك فائدة في إزعاج الآنسة أوزموند ما لم يكن لدي سبب وجيه لأعتقد أن والدها سيوافق).

ـ (أنتَ متفهم جداً، وذلك في صالحكَ. لكنكَ تعتقد بطريقةٍ عفوية قليلاً بأنني أعتبركَ غنيمة).

قال الشاب: (أنتِ لطيفة معي، ولهذا السبب أتيت).

ـ (أنا دائماً لطيفة مع الناس الذين على شاكلة لويس الرابع عشر. إنه أمر نادر جداً الآن، ومن المستحيل أن تعرف على وجه الدقة ماذا يمكن للمرء أن يحصل من خلاله).

بهذه الكلمات منحت الجهةُ اليسرى لفم مدام ميرليه تعبيراً عن السخرية. لكن رغم ذلك بدا قلقاً فعلاً ومتحمساً باستمرار.

ـ (آه، لقد ظننتُ بأنكِ تستلطفينني لنفسي!).

ـ (أنا أستلطفكَ كثيراً جداً. لكن لو سمحتَ لن نقوم بتحليل الأمر نفسياً. عذراً إنْ بدوتُ متحزّبة، لكنني أراكَ شاباً مثالياً ومحترماً. مع هذا يجب أن أخبركَ بأنني لستُ من بيده تزويج بانسي أوزموند).

ـ (أنا لم أعتقد ذلك، لكنكِ بدوتِ لي على علاقةٍ وثيقة بعائلتها، وفكرتُ بأنه قد يكون لديكِ تأثيرٌ عليها).

فكرت مدام ميرليه.

ـ (من هم الذين تسميهم عائلتها؟).

ـ (عجباً. والدها، و ـ كيف تقولونها بالإنجليزية ـ زوجة أبيها؟).

ـ (إن السيد أوزموند هو والدها بالتأكيد، لكن زوجته بالكاد نسميها فرداً من عائلتها؛ فالسيدة أوزموند ليس لها علاقة بتزويجها).

قال السيد غوزييه بتنهيدةٍ لطيفة وبحسن نية: (آسف لهذا. تخيلتُ بأن السيدة أوزموند ستساندني).

ـ (من المحتمل جداً ـ إنْ لم يساندكَ زوجها).

فرفع حاجبيه دهشة.

ـ (هل هي تخالفه الرأي؟).

ـ (في كل شيء. إنهما يفكران بشكلٍ مختلف للغاية).

قال غوزييه: (حسناً، أنا آسف لهذا. لكن ذلك ليس من شأني. إنها معجبةٌ ببانسي كثيراً جداً).

ـ (نعم، إنها معجبة ببانسي).

ـ (ولدى بانسي عاطفة كبيرة تجاهها. لقد أخبرتني كم تحبها وكأنها كانت أمها).

قالت مدام ميرليه: (لا بدّ أنكَ حظيتَ بحديثٍ ودّي مع الطفلة المسكينة. هل أفصحتَ عن مشاعركَ؟).

صاح غوزيبه وهو يرفع يده المغطاة بعناية بقفاز: (أبداً! ليس حتى أتأكد من رأي الوالدين).

ـ (هل تنتظر ذلك دائماً؟ إن لديكَ مبادئ ممتازة. أنت تحترم آداب اللياقة).

همهم الشاب وهو يهوي إلى الخلف على كرسيه ويتحسس شاربه الصغير: (أعتقد بأنكِ تهزئين بي. لم أتوقع ذلك منكِ يا مدام ميرليه).

فهزت رأسها بهدوءٍ كشخصٍ فهم أشياء عندما رآها: (أنتَ تظلمني. فأنا أعتقد بأن تصرفكَ ذا ذوقٍ رفيعٍ للغاية وأنه أفضل شيء تتبعه. نعم فهذا هو ما أعتقده).

قال نيد غوزيبه: (ما كنتُ لأسبب لها القلق ـ فقط لأُقلقَها، فأنا أحبها كثيراً من أن أفعل بها ذلك).

واصلت مدام ميرليه الكلام: (على أية حال، فأنا مسرورة لأنكَ أخبرتَني).

ـ (اترك لي الموضوع قليلاً، أعتقد بأنه يمكنني مساعدتكَ).

صاح ضيفها بفرحةٍ صاعقة: (لقد قلتُ بأنكِ الشخص المناسب الذي يجب أن ألجأ إليه!).

ردت مدام ميرليه بشكل جاف أكثر: (لقد كنتَ ذكياً جداً. فعندما قلتُ بأنه يمكنني مساعدتك، قصدتُ عندما نفترض بأن دوافعكَ سليمة. فلنفكر قليلاً إن كانت كذلك).

قال غوزيبه بصدق: (أنا محترم جداً، تعلمين ذلك. لن أقول بأنه ليست لدي عيوب، وإنما سأقول بأنه ليست لدي رذائل).

ـ (كل تلك هي أمور سلبية، وهي أيضاً تعتمد دائماً على ما يطلق عليه الناس رذائل. ما هو الجانب الإيجابي؟ الجانب الفاضل؟ ماذا لديك إلى جانب مخرماتك الإسبانية وأكواب الشاي التي من دريسدن؟)

ـ (لدي ثروة صغيرة كافية ـ حوالي أربعين ألف فرنك سنوياً، مع موهبة التدبير التي أملكها يمكننا أن نعيش بشكل جيد على مورد مالي كهذا).

ـ (بشكل جيد، لا. بشكل كافٍ، نعم. ويعتمد ذلك حتى على أين ستعيشان).

ـ (حسناً، في باريس. كنت سأتعهد بذلك في باريس).

ارتفع فم مدام ميرليه ناحية اليسار.

ـ (لن يكون ذلك شيئاً مميزاً. كان عليك أن تستفيد من أكواب الشاي وإلا فسوف تنكسر).

قال غوزييه بتأمل: (نحن لا نريد أن نكون متميزين. إن كانت الآنسة أوزموند ستحظى بكل ما هو جميل فسيكون ذلك كافياً. فعندما يكون المرء جميلاً مثلها فيمكن للمرء أن يقدّم.... حسناً، خزفاً رخيصاً تماماً. لا يجب أبداً أن ترتدي شيئاً سوى الموسلين ـ بدون المورد المالي).

ـ (ألن تعطيها حتى المورد؟ ستكون ممتنة لك كثيراً على أية حال لتلك النظرية).

ـ (إنها النظرية الصحيحة، أؤكد لكِ ذلك. وأنا متأكد بأنها ستنفذ ذلك. إنها تفهم كل هذا ولهذا السبب أحبها).

ـ (إنها فتاة صغيرة طيبة جداً، ومنظّمة إلى أقصى حدٍّ ـ ومهذبة للغاية أيضاً. لكن والدها، حسب معرفتي المؤكَّدة، لا يمكنه أن يمنحها شيئاً).

لم يعترض غوزييه كثيراً: (أنا لا أتطلع مطلقاً إلى أن يفعل ذلك. لكنني لاحظت بأنه على الرغم من ذلك يعيش كرجل غني).

ـ (إن المال هو مال زوجته. لقد جلبتْ له ثروة كبيرة).

ـ (إن السيدة أوزموند معجبة جداً بابنة زوجها، إذن قد تفعل شيئاً).

هتفت مدام ميرليه وهي تضحك: (لا ينظر العاشق الملتاع إلّا إلى ما حوله!).

ـ (أنا أحترم المهر كثيراً. يمكنني الاستغناء عنه، لكنني أحترمه).

واصلت مدام ميرليه الكلام: (إن السيدة أوزموند على الأرجح ستفضل أن تحتفظ بأموالها لأبنائها).

ـ (لأبنائها؟ ليس لديها أبناء بالتأكيد).

ـ (لا زال بإمكانها أن تحظى بأطفال. كان لديها صبي صغير مسكين مات قبل عامين بعد ستة أشهر من ولادته. لذا قد يأتي آخرون).

ـ (آمل أن تحظى بأطفال إن كان ذلك سيسعدها. إنها امرأة رائعة).

أخفقت مدام ميرليه في أن تندفع في الكلام.

ـ (آه، هناك الكثير يجب قوله بشأنها. أشياء رائعة مثلما تحب! نحن لم نستنتج تماماً بأنك زوج مناسب؛ فغياب الرذيلة ليس مصدراً للمال).

قال غوزييه بوضوح تماماً: (اعذريني، فأنا أعتقد بأنها من الممكن أن تكون كذلك).

ـ (أنتما ستكونان زوجين مؤثرين تعتاشان على براءتكَ!).

ـ (أعتقد بأنكِ تستخفّين بي).

قالت مدام ميرليه: (أنتَ لستَ بريئاً جداً لهذه الدرجة؟ جدياً. إن أربعين ألف فرنك في السنة وشخصية لطيفة هما مزيج يجب تبجيله بالطبع. أنا لا أقول بأنه يجب الموافقة على ذلك، وإنما قد يكون هناك عرض أسوأ. مع هذا، فسيميل السيد أوزموند على الأرجح إلى الاعتقاد بأن بإمكانه أن يفعل شيئاً أفضل).

أضاف غوزييه بلهفة: (ربما يمكنه فعل ذلك. لكن ماذا يمكن لابنته أن تفعل؟ فهي لا يمكنها أن تفعل أكثر من أن تتزوج من الرجل الذي تحب، لأنها تحبني فعلاً، تعلمين ذلك).

ـ (أعلم ذلك ـ أي إنها تحبك).

صاح الشاب: (آه، لقد قلتُ بأنكِ الشخص الذي يجب أن ألجأ إليه).

واصلت مدام ميرليه الكلام: (لكنني لا أعلم كيف تعلم أنت ذلك إذا لم تكن قد سألتَها).

ـ (في هذه الحالة لا توجد حاجة للسؤال والإبلاغ، فكما قلتِ، نحن زوج بريء. كيف علمتِ ذلك؟).

ـ (أنا التي ليست بريئة؟ بكَوْني محتالة جداً. دع الأمر لي، فسوف أستطلعه لك).

نهض غوزييه ووقف وهو يعدل قبعته.

ـ (تقولين ذلك ببرود قليلاً. لا تستطلعي فقط كيف يسير الأمر بل حاولي جعله وكأنه يجب أن يحدث).

ـ (سأفعل ما بوسعي. سأحاول أن أستفيد إلى أبعد الحدود من مميزاتكَ).

ـ (أشكركِ جداً وبشكل بالغ. وحتى ذلك الحين، سأقول كلمة للسيدة أوزموند).

ووقفت مدام ميرليه.

ـ (اهتم بشؤونك! ولا تتخذ أنت الخطوة الأولى وإلّا ستفسد كل شيء).

حدّق غوزييه على قبعته وتساءل فيما إذا كانت مضيّفته في النهاية هي الشخص الصحيح الذي لجأ إليه.

ـ (لا أعتقد بأنني أفهمكِ، فأنا صديق قديم للسيدة أوزموند، وأظن بأنها تفضّل أن أنجح في الموضوع).

ـ (كن صديقاً قديماً كما يحلو لكَ، فكلما كان أصدقاؤها القدامى أكثر كلما كان ذلك أفضل لأنها لا تتماشى جيداً مع بعض أصدقائها الجدد. لكن لا تحاول في الوقت الحالي أن تجعلها تدافع عنكَ، فقد يكون لزوجها رأيٌ آخر. وأنصحكَ كشخصٍ يتمنى لها الخير أن لا تضاعف نقاط الخلاف بينهما).

اتخذ وجه غوزييه المسكين تعبير الخوف؛ فطلَبُ يد بانسي أوزموند للزواج هو قضية أكثر صعوبة حتى مما سمحت به رغبته بتغييرات مناسبة. لكن التفهُّم البالغ الذي أخفاه تحت مظهرٍ يوحي بمظهر الحرص على «أفضل قرار»، قد أتى لصالحه.

صاح: (أنا لا أرى بأنني ملزم بأن آخذ السيد أوزموند بالاعتبار كثيراً!).

ـ (كلا، لكن يجب عليكَ أن تأخذها هي بعين الاعتبار. أنت تقول بأنكَ صديق قديم لها: فهل ستجعلها تعاني؟).

ـ (مستحيل).

ـ (إذن، كن حذراً واترك الموضوع حتى أقوم ببعض الاستقصاءات).

ـ (أتركُ الموضوع يا عزيزتي مدام ميرليه؟ تذكّري بأنني واقعٌ في الحب).

ـ (أوه، إنكَ لن تحترق! لماذا لجأتَ إليّ إنْ لم تكن تهتم بما أقوله؟).

فوَعَدَ الشاب: (أنتِ لطيفةٌ جداً. سأكون مطيعاً جداً).

ثم أضاف بصوته الناعم وهو يتجه نحو الباب: (لكنني أخشى أن يكون السيد أوزموند قاسياً جداً).

أطلقت مدام ميرليه ضحكةً جافة.

ـ (لقد قيل ذلك من قبل. لكن زوجته ليست سهلة أيضاً).

كرر نيد غوزييه كلامه ليغادر: (آه، إنها امرأة رائعة!).

لقد قرر بأن تصرفه يجب أن يكون جديراً بشخصٍ متفائل والذي كان مسبقاً نموذجاً للتعقل، لكنه لم يرَ شيئاً في أي من الوعود التي منحها لمدام

ميرليه تجعل قيامه بزيارة عرضية لمنزل الآنسة أوزموند ليبقى متفائلاً أمراً غير لائق. ففكر باستمرار بما قالته له مرشدته وقلَّب في ذهنه تأثير نبرتها المتحفظة قليلاً. كان قد لجأ إليها لأنها، كما يقولونها في باريس، أهلٌ للثقة، لكن من الممكن أنه كان متهوراً. اكتشف أنه من الصعب أن يتخيل نفسه متهوراً ـ فقد كان من النادر جداً أن يتعرض لهذا التوبيخ؛ لكن الأمر المؤكَّد هو أنه عرف مدام ميرليه فقط في الشهر السابق، وأن اعتقاده عنها بأنها امرأةٌ رائعة لم يكن ـ عندما يفكر المرء في ذلك ـ سبباً ليعتقد بأنها ستكون متلهفة لتدفع بانسي أوزموند إلى أحضانه، مثلما قد تكون هذه العائلة مهيئة بلطفٍ لتستقبلها.

كانت بالفعل قد أظهرت نحوه اللطف، وكانت امرأة محترمة لدى أهل الفتاة، حيث كان لها حضور مدهش قليلاً (اندهش غوزييه أكثر من مرة من كيفية تدبرها لذلك) بكونه وثيقاً بدون أن يكون زائداً عن الحد. لكنه ربما غالى في هذه الميزات. إذ لم يكن هناك سبب معين يجعلها تزعج نفسها من أجله؛ امرأة لطيفة كانت لطيفةً بالنسبة لكل إنسان، وشعر غوزييه بأنه أحمق قليلاً عندما اعتَقَدَ بأنه راقَ لها على أساس أنها جعلَتْهُ مميَّزاً. من المحتمل جداً بأنها في الحقيقة كانت تفكر فقط بتحفياته الصغيرة ـ وإن بدا أنها قالتها مزاحاً. فهل خطر في بالها بأنه قد يقدم لها اثنتين أو ثلاثاً من نفائس مجموعته؟ فلو ساعَدَتْهُ فقط على أن يتزوج الآنسة أوزموند، فسيهدي لها معرضه برمته. لم يتمكن من أن يقول لها ذلك بشكلٍ صريح كثيراً؛ إذ كانت ستبدو رشوة فاضحة جداً. لكن كان يجب أن يستلطفها لتصدق ذلك.

بهذه الأفكار ذهب ثانيةً إلى منزل السيدة أوزموند، فقد كانت لدى السيدة أوزموند «سهرة» ـ تقيمها في يوم الخميس من كل أسبوع، وعندئذٍ يمكن أن يُعزى حضوره الى المبادئ العامة للمجاملة. كانت موضوع العشق المسيطَر جيداً على السيد غوزييه ساكنةً في منزلٍ عالٍ في قلب روما نفسها؛ وهو بناءٌ ضخمٌ يطل على ساحةٍ صغيرة مشمسة بجوار قصر فارنيزي.

في القصر أيضاً عاشت بانسي الصغيرة ـ قصر على الطراز الروماني، والذي لم يكن بالنسبة للعقل المرتبك لغوزييه المسكين سوى زنزانة. لقد بدا له نذير سوء أن تكون السيدة الشابة ـ التي يرغب بالزواج منها والتي لها والدٌ صعب الإرضاء ويشكّ بقدرته على إرضائه ـ أن تكون مسجونة في نوعٍ من القلاع المنزلية؛ مجموعة بنايات حملت اسماً رومانياً قديماً قاسياً والذي يعبق بمآثر تاريخية وبالحرية والخداع والعنف، والذي ذُكر في «دليل موراي السياحي»، وزاره السيّاح الذين باستقصائهم قليلاً عنه، خاب أملهم واكتأبوا، والذي تضمَّنَ أعمالاً جصيّة لكارافاجيو من التصاميم الرفيعة وصفٍّ التماثيل المبتورة والجِرار المغبّرة في الرِّواق الواسع والمقنطر بشكلٍ رفيع والذي يشرف على الباحة الرطبة حيث توجد نافورة تقذف الماء من كوّةٍ مليئةٍ بالطحالب. لو لم يكن مهموماً كثيراً لتمكَّنَ من أن ينصف في وصف قصر روكانيرا، ولتمكَّنَ من أن يتدخّل في رأي السيدة أوزموند ـ التي أخبرَتْهُ في إحدى المرات بأنهما عندما أقاما في روما اختارت هي وزوجها هذا المسكن لحبهما للطابع المحلي ـ ويقول لها بأنه يمتلك طابعاً محلياً تماماً، وأنه رغم أن معرفته عن الهندسة المعمارية كانت أقل من معرفته بتحف ليموج[1] المطلية بالمينا، إلا أنه تمكَّنَ من أن يرى أن نِسَبَ النوافذ وحتى التفاصيل الدقيقة للأفاريز امتلكت مظهراً راقياً جداً.

لكن غوزييه كان مأسوراً بفكرة أنه في الفترات الرومانسية كانت الفتيات الشابات يُحبَسْنَ هناك ليمنعوهنَّ عن حبّهنّ الحقيقي، ومن ثم، وتحت تهديد إلقائهنّ في الأديرة، يُجبَرْنَ على زيجاتٍ مروّعة.

رغم ذلك، كانت هناك نقطة أنصَفَها دائماً عندما وجد نفسه في إحدى المرات في غرف الاستقبال الدافئة والأنيقة المظهر للسيدة أوزموند التي

(1) ليموج: هي مدينة فرنسية اشتهرت لعدة قرون بإنتاجها لمادة المينا التي تستخدم في طلاء التحفيات. (المترجمة)

كانت تقع في الطابق الثاني. فقد صرَّحَ بأن هذه العائلة كانت متميزة في «التحف الجيدة». لقد كان ذلك ذوق السيد أوزموند وليس ذوقها إطلاقاً. كان ذلك هو ما أخبرَتْهُ هي به في المرة الأولى التي أتى بها إلى المنزل عندما كان مضطراً ليعترف على الفور ـ بعد أن سأل نفسه لربع ساعة فيما إذا كان لديهم تحف «فرنسية» أفضل حتى من تحفه في باريس ـ بأن لديهم الكثير جداً، وتغلّب على حسده كما يفعل الرجل المهذّب لدرجة التعبير لمضيّفته عن إعجابه الخالص بكنوزها. لقد علم من السيدة أوزموند أن زوجها جَمَعَ مجموعة كبيرة قبل زواجهما، وأنه على الرغم من أنه أضافَ عدداً من القطع الصغيرة في السنوات الثلاث الأخيرة إلا أنه حاز على أعظم لُقاه في وقتٍ لم يكن لديه شرف نصيحتها. فسَّرَ غوزيبه هذه المعلومة وفقاً لمعتقداته الخاصة، فقال لنفسه بأن «النصيحة» دلّتْ على «الأموال»، وأن حقيقةَ أن جيلبرت أوزموند أسس أرقى غنائمه أثناء فترة إفلاسه أثبت اعتقاده الأثير ـ وهو أن جامع التحف سيكون فقيراً باختياره لو يصبر فقط.

عموماً، عندما حضر غوزيبه في مساء الخميس كان استكشافه الأول هو جدران الصالون؛ كانت هناك ثلاث أو أربع تحف تاقت عيناه فعلاً إليها. بعد حديثه مع مدام ميرليه شعر بالتعقيد البالغ لموقفه؛ والآن، عندما دخل، نظر حوله بحثاً عن ابنة المنزل بلهفةِ رجلٍ محترم سلّمت ابتسامتُه جدلاً حالما تخطّى العتبة بأن كل شيء على ما يرام دائماً.

***

الفصل 37

لم تكن بانسي موجودة في أولى الغرف، وهي حجرة كبيرة ذات سقف مقعّر وجدران مغطاة بالحرير الدمشقي الأحمر العتيق، بل كانت هنا السيدة أوزموند التي جلست عادةً ـ وإن لم تكن في مكانها المعتاد هذه الليلة ـ مع جماعة من أكثر أصدقائها ألفة وقد تجمعوا حول النار. ساد الغرفة سرورٌ هادئ طاغٍ، وتضمنت تحفيات و ـ دائماً قليلاً ـ شذى الأزهار. في هذه الحالة، من المفروض أن تكون بانسي في الغرف المجاورة التي تليها، ملاذ الزوّار الأصغر سناً حيث قُدِّمَ الشاي.

وقف أوزموند أمام الموقد وهو مستند إلى الوراء ويداه خلفه، وإحدى قدميه مرتفعة وكان يحاول تدفئة العقب. انتشرَ بالقرب منه ستة أشخاص كانوا يتحدثون معاً، لكنه لم يكن مشترِكاً في المحادثة؛ فقد اتخذت عيناه تعبيراً ـ وهو ما يحصل عادةً لهما ـ يمثّل بأنهما مهتمتان بأشياء تستحق جهدهما أكثر من المظاهر التي أُقحمتا فيها. أخفق غوزييه، الذي دخل بدون أن ينتبه إليه أحد، في أن يُلفِتَ انتباهه. لكن الشاب؛ الذي كان حريصاً جداً على الشكليات والذي رغم أنه كان هو أيضاً مدركاً بشكل استثنائي بأن الزوجة وليس الزوج هي من أتى لرؤيتها؛ توجّه ليصافحه. مدَّ أوزموند يده اليسرى بدون أن يغير وضعيته.

ـ (كيف حالك؟ إن زوجتي في مكانٍ ما هنا).

قال غوزييه بمرح: (لا تخف، سوف أجدها).

مع ذلك، فقد تحرَّجَ أوزموند؛ إذ لم يشعر أبداً في حياته بأن أحداً تطلّع

إليه بشكلٍ مؤثّر بهذه الطريقة. فكَّرَ غوزييه في سرّه: (لقد أخبرَتْهُ مدام ميرليه، ولم يعجبه الأمر).

لقد تمنى أن تكون مدام ميرليه موجودة، لكنها لم تكن على مرآه، ربما كانت في إحدى الغرف الأخرى أو أنها ستأتي لاحقاً. لم يُسَرّ أبداً بجيلبرت أوزموند بشكلٍ خاص عندما منح نفسه مظهر البراعة. لكن غوزييه لم يكن مستاءً بشكل سريع، فحينما يتعلق الأمر بالتهذيب يكون لديه دائماً حاجة قوية ليكون محقّاً تماماً. نظر حوله وابتسم، بدون اهتمامٍ كبير، ومن ثم قال بسرعة: (رأيتُ تحفةً رائعة ظريفة من كابوديمونتي).[1]

لم يجب أوزموند بشيء في البداية، لكنه رد بسرعة بينما دفّأ عقب حذائه: (لا أهتم ولو قليلاً بكابوديمونتي!).

ـ (أتمنى بأن لا تفقد اهتمامكَ؟).

ـ (بالأوعية والأطباق؟ نعم أنا أفقد اهتمامي).

نسي غوزييه لوهلةٍ حساسية موقفه.

ـ (أنتَ لا تفكر بالتخلي عن تحفةٍ أو اثنتين؟).

قال أوزموند وعيناه لازالتا في عينيّ ضيفه: (كلا، لا أفكر بالتخلي عن أي شيء مطلقاً).

علّق غوزييه بمرح: (آه، أنت تريد أن تحتفظ لا أن تضيف).

ـ (بالضبط. فليس لدي شيء أرغب بمبادلته).

كان غوزييه المسكين مدركاً بأنه احمرَّ خجلاً، كان منزعجاً لافتقاره للشجاعة، وكل ما استطاع هو أن يهمهم: (آه، حسناً، أنا لدي!) وهو يعلم بأن همهمته لم تكن مسموعة جزئياً وهو يستدير مبتعداً.

---

(1) كابوديمونتي: هو مصنع للخزفيات في إيطاليا ابتكر نوعاً من الخزف ما بين عامي 1743 و1759. وهو المصنع الأكثر تميّزاً للخزف الإيطالي القديم. (المترجمة)

توجه نحو الغرفة الملحقة والتقى بالسيدة أوزموند وهي خارجة من المدخل العميق للباب.

كانت ترتدي فستاناً مخملياً أسود اللون. لقد بدت شامخة ورائعة، وأيضاً ـ على حد قوله ـ أوه رقيقة بشكلٍ بهي. نحن نعلم رأي السيد غوزييه بشأنها والتعابير التي عبَّر بها لمدام ميرليه عن إعجابه الذي يشبه إعجابه بابنة زوجها الصغيرة الغالية، والذي كان مبنياً جزئياً على نظرته لشخصيةٍ جميلة، وعلى إحساسه بالأصالة؛ لكن أيضاً على إحساسٍ بسعرٍ غير مسجَّل، وعلى ذلك السر في «بريقٍ» يفوق أية خسارة أو إعادة اكتشاف مسجلتين، والذي لم يتسبب اهتمامه بالسلع الرقيقة في أن يفقد كفاءته في تمييزه. قد تكون السيدة أوزموند في الوقت الحالي مستوفيةً تماماً لأذواقٍ كهذه. لم تؤثر بها السنون إلّا لتقويها، فزهرة شبابها لم تذبل بل بقيت معلقة على ساقها بشكلٍ أكثر هدوءاً. كانت قد فقدت شيئاً من تلك الحماسة المندفعة التي كان زوجها يعترض عليها في داخله ـ كان لديها أكثر من ذلك مظهر القادر على الانتظار.

على أية حال، فالآن، وقد أُحيطَتْ بالمدخل الذهبي للباب كإطارِ صورةٍ، أدهشتْ رجلَنا الشاب كصورة بورتريه لسيدةٍ كريمة.

قال: (أنا نظامي جداً كما ترين، ومن سيكون كذلك غيري؟).

ـ (نعم. لقد عرفتكَ منذ مدة أطول من أي أحد هنا. لكن لا يجب علينا أن نتمادى في ذكرياتٍ رقيقة. فأنا أريد أن أقدمكَ إلى سيدةٍ شابة).

كان غوزييه مؤدباً بشكلٍ هائل، لكن لم يكن ذلك هو ما أتى لأجله.

(إنها تجلس هناك بجوار النار ترتدي الوردي وليس لديها أحد تكلمه).

تردد غوزييه قليلاً: (ألا يستطيع السيد أوزموند أن يتحدث معها؟ إنه على بعد ستة أقدام منها).

ترددت أيضاً السيدة أوزموند أيضاً: (إنها ليست مرحة جداً ولا تحب الناس البليدين).

ـ (وستكون لطيفةً معي؟ آه، ذلك قاسٍ الآن!).

ـ (أنا فقط أعني بأن لديكَ أفكاراً لشخصين. ثم إنكَ مجاملٌ جداً).

ـ (وكذلك زوجكِ).

ـ (كلا، إنه ليس كذلك.... معي) وابتسمت السيدة أوزموند قليلاً.

ـ (هذه إشارة إلى أنه كذلك بشكلٍ مضاعف مع نساءٍ أخريات).

قالت وهي لا تزال مبتسمة: (هذا ما أقوله له).

واصل غوزييه الحديث وهو ينظر بكآبةٍ خلفه: (أريد بعض الشاي).

ـ (ذلك جيد. اذهب وقدِّمْ بعض الشاي إلى سيدتي الشابة).

ـ (حسناً. لكن بعد ذلك سأتركها لقدرها. إن الحقيقة الخالصة هي أنني أتحرّق لأتحدث قليلاً للآنسة أوزموند).

قالت إيزابيل وهي تستدير مبتعدةً: (آه، في هذا أنا لا أستطيع مساعدتكَ!).

بعد خمس دقائق، وبينما قدَّمَ كوباً من الشاي للآنسة التي ترتدي الوردي، والتي كان قد أوصلها إلى الغرفة الأخرى، تساءل فيما إذا كان قد انتهكَ روح وعده لمدام ميرليه بمجاهرته للسيدة أوزموند بما ذكرتُ للتو. إن سؤالاً كهذا جديرٌ بأن يشغل تفكير هذا الشاب لوقتٍ طويل. رغم ذلك، إنْ تحدثنا بشكلٍ نسبي، فقد أصبح في النهاية لامبالياً، إذ لم يهتم كثيراً بالوعود التي قد ينتهكها.

إن القدر الذي هدَّدَ بأن يترك الآنسة المرتدية للوردي له أثبت بأنه لم يكن مريعاً لهذه الدرجة، لأن بانسي أوزموند التي كانت قد قدمت له الشاي من أجل رفيقته ـ كانت بانسي مولعة دائماً بعمل الشاي ـ قد أتت على الفور وتحدثت معها. في هذا الحديث اللطيف تدخَّلَ إدوارد غوزييه قليلاً؛ فجلس بجوارهما بشكلٍ كئيب وهو يراقب حبيبة قلبه الصغيرة.

لو نظرنا لها الآن من خلال عينيه لن نرى أول الأمر الكثير مما يذكّرنا بتلك الفتاة الصغيرة المطيعة التي أُرسلت قبل ثلاث سنوات في فلورنسا لتتجوّل

لمسافة قصيرة في الكاشينه بينما تحدَّثَ والدها والآنسة آرتشر معاً عن أمورٍ مقدسة بالنسبة للأكبر سناً. لكن بعد قليل سندرك؛ أنه إن كانت بانسي في التاسعة عشرة قد أصبحت سيدة شابة فهي لم تستوفِ الدور في الحقيقة؛ وأنها إن أصبحت جميلة جداً فهي قد افتقرت لدرجة محزنة إلى الشكل المعروف والمحترم الذي يتميز به مظهر الفتيات؛ وأنها إن كانت قد ارتدت على أحدث طراز فهي ترتدي ثوبها الأنيق بمظهرِ من يحاول الحفاظ عليه بشكلٍ واضح ـ وكأنه أُعير لها لأجل هذه المناسبة. سيكون إدوارد غوزييه ـ كما سيبدو ـ هو فقط الرجل الذي سيلاحظ هذه العيوب، وفي الحقيقة، لم تكن هناك صفة من أي نوع في هذه السيدة الشابة لم يكن قد لاحظها، وأطلق فقط على صفاتها أسماء من عنده ـ بعضها في الحقيقة كانت موافقة لمقتضى الحال تماماً. واعتاد على أن يقول لنفسه: (كلا، إنها فريدة ـ إنها فريدة بشكلٍ مطلق)، ويمكنكَ أن تكون متأكداً مثلاً بأنه ما كان ليعترف لكَ بأنها كانت تعوزها الأناقة. الأناقة؟ عجباً، كان لها أناقة أميرة صغيرة، وإن لم تتمكن من رؤية ذلك فليس لديك نظر. إذ لم تكن الأناقة من الطراز الحديث، ولم تكن مقصودة، وما كانت لِتُوَلِّدَ انطباعاً في برودواي؛ فبدت الآنسة الرزينة الصغيرة الحجم، بفستانها الصغير المتكلف كأنها إحدى أميرات فيلاثكيث[1] الإسبانيات. كان ذلك كافياً بالنسبة لإدوارد غوزييه الذي رآها بشكلٍ مرح بأنها عتيقة الطراز. كانت عيناها الحزينتان، وشفتاها الساحرتان، وانسيابية قوامها، مؤثّرةً كابتهالاتٍ طفولية. كان لديه الآن رغبة شديدة ليعرف فقط إلى أي مدى أحبَّتْهُ ـ وهي رغبةٌ جعلَتْهُ قلقاً عندما جلس على كرسيه، جعلَتْهُ يشعر بالحماسة بحيث اضطر أن يربت جبهته بمنديله، إذ لم يحدث أبداً أنْ كان قلِقاً بهذا الشكل. لقد كانت شابة مثالية، ولم يتمكن شخصٌ من عمل

(1) فيلاثكيث: هو دييغو فيلاثكيث، رسام إسباني عاش في القرن 17. أصبح رسام بلاط الملك الإسباني فيليب الرابع ورسم بورتريهات الملك وبناته الأميرات. (المترجمة)

التحقيق اللازم بشأن هذه الشابة لإلقاء الضوء على أمرٍ كهذا. شابة كان غوزييه قد حلم بها دائماً ـ شابة لم تكن أيضاً فرنسية، لأنه شعر بأن هذه القومية كانت ستعقّد الموضوع. كان متأكداً من أن بانسي لم تلقِ أبداً نظرةً إلى صحيفة، وأنها إن قرأتْ للسيد والتر سكوت فستكون قد قرأتْهُ على طريقة الحكايات غالباً. شابة أميركية ـ ماذا يمكن أن يوجد أفضل من ذلك؟ ستكون صريحة ومرحة، ومع ذلك ما كانت لتمشي وحدها، ولا أن تتلقّى رسائل من الرجال، ولا أن تؤخذ إلى المسرح لتتفرج على كوميديا الأخلاق[1]. لم يتمكن غوزييه كما بدا الأمر من أن ينكر بأنه سيكون انتهاكاً للضيافة أن يستميل مباشرةً هذه المخلوقة غير المتصنّعة، لكنه الآن كان في خطرٍ وشيك من أن يسأل نفسه إن كان حسن الضيافة هو أكثر شيء مقدس في الحياة. ألم تكن العاطفة التي يضمرها للآنسة أوزموند هي ذات أهمية أكبر بشكلٍ مطلق؟ ذات أهمية أكبر بالنسبة له ـ نعم، لكن على الأرجح ليست بالنسبة لسيد البيت.

كان هناك عزاء وحيد، وهو أنه حتى وإن كان هذا الرجل قد تم إبلاغه من قبل مدام ميرليه، ما كان لينقل هذا البلاغ إلى بانسي، إذ لن يكون جزءاً من خطته أن يدعها تعلم بأن شاباً جذّاباً كان واقعاً في حبها. لكنه كان واقعاً في حبها ذلك الشاب الجذاب، وأن كل إعاقات الحال هذه قد انتهت بانفعاله.

ماذا كان جيلبرت أوزموند قد عنى بتقديمه إصبعين من يده اليسرى؟ إن كان أوزموند فظّاً، فهو نفسه قد يكون جريئاً بالتأكيد. لقد شعر بأنه جريء للغاية بعد أن استجابت الفتاة التافهة ذات المكياج المبهرج جداً باللون الوردي لنداء والدتها التي دخلت لتقول بابتسامةٍ متكلّفة واضحة لغوزييه بأن عليها أن تختطفها لتحتفل بالنجاح.

غادرت الأم والابنة معاً، والآن بقي عليه فقط أن ينفرد قليلاً مع بانسي.

---

(1) كوميديا الأخلاق: هي نوع من المسرحيات تهجو فساد وتصنُّع أخلاق طبقة اجتماعية معينة. (المترجمة)

لم يسبق أن تواجد لوحده معها أبداً، لم يتواجد أبداً لوحده مع فتاةٍ شابة. لقد كانت لحظةً عظيمة، بدأ غوزييه المسكين يربت جبهته ثانيةً.

كانت هناك غرفة أخرى خلف الغرفة التي وقفا فيها ـ غرفة صغيرة تُركت مفتوحة ومُضاءة، لكنها بقيت فارغة طوال المساء لكون الرفاق لم يكونوا كثيرين. كانت لحد الآن فارغة، كانت مفروشة باللون الأصفر الباهت، وفيها مصابيح عديدة، وبدت عبر الباب المفتوح بأنها المحفل المناسب للحب المباح. حدّق غوزييه لوهلة عبر هذه الفتحة، كان خائفاً من أن تهرب بانسي، وشعر قليلاً بأنه قادر على مد يده ليحتجزها، لكنها لبثت حيث تركتهما الآنسة الأخرى، وبدون أن تبدي علامة على الانضمام إلى زمرة الضيوف في الجانب البعيد من الغرفة.

خطر له لوهلةٍ بأنها كانت خائفة ـ خائفة جداً من أن تتحرك ربما. لكن النظرة الثانية أكدت له بأنها ليست كذلك، ومن ثم فكر بأنها غافلة جداً فعلاً عن ذلك. بعد ترددٍ مفرط سألها إن كان يمكنه الذهاب ورؤية الغرفة الصفراء التي بدت جذابة جداً وأيضاً جديدة. سابقاً، كان متواجداً فيها هناك مع أوزموند ليعاين الأثاث الذي كان من عهد الإمبراطورية الفرنسية الأولى، وليعاين بشكلٍ خاص بإعجاب الساعة الجدارية (التي لم يعجب بها في الحقيقة)، وهي تركيب كلاسيكي ضخم من ذلك العهد. شعر أنه بهذا التصرف أنه بدأ يناور.

قالت بانسي: (يمكنك الذهاب، بالتأكيد، وإن أحببتَ سأريك إياها).

إنها لم تكن خائفة ولو قليلاً.

همهم غوزييه: (إن ذلك بالضبط هو ما تمنيتُ أن تقولينه. أنت لطيفة جداً).

فدخلاها سويةً. رأى غوزييه بأن الغرفة قبيحة جداً في الحقيقة وبدت فاترة.

ويبدو أن الفكرة نفسها قد انتابت بانسي، فقالت: (إنها ليست لأمسيات الشتاء، إنها لأمسيات الصيف. إنه ذوق بابا، فلديه ذوق كبير).

فكر غوزييه بأن لديه الكثير من الذوق، لكن القليل منه كان شيئاً سيئاً جداً. نظر حوله، وبالكاد عرف ماذا يقول في موقفٍ كهذا.

فسأل: (ألا تهتم السيدة أوزموند للطريقة التي يتم بها ترتيب غرفها. أليس لديها ذوق؟).

قالت بانسي: (أوه، نعم، إنها تهتم كثيراً، لكنها تهتم أكثر بالأدب ـ وبالجدال. لكن بابا يهتم أيضاً بهذه الأمور. أعتقد بأنه يعرف كل شيء).

صمت غوزييه قليلاً، ثم اندفع في الكلام بسرعة: (هناك شيء واحد أنا متأكد بأنه يعرفه! إنه يعرف أنني عندما أتيتُ إلى هنا فذلك، مع كل احترامي له ومع كل احترامي للسيدة أوزموند الفاتنة جداً.... فذلك...).

فقال الشاب: (فذلك لكي أراكِ!).

ورفعت بانسي عينيها المرتبكتين قليلاً: (لتراني؟).

كرر غوزييه وهو يشعر بنشوة الانفجار مع التحكم: (لكي أراكِ. ذلك هو ما أتيتُ لأجله).

وقفت بانسي وهي تنظر إليه بوضوح، لم يكن هناك حاجة للاحمرار ليجعل وجهها أكثر خجلاً.

ـ (اعتقدتُ بأنه كان لأجل ذلك).

ـ (ولم يكن مزعجاً بالنسبة لكِ؟).

قالت بانسي: (لا يمكنني القول. لم أعلم بذلك. أنت لم تخبرني).

ـ (كنتُ خائفاً من أن أضايقكِ).

همهمت الفتاة الشابة وهي تبتسم وكأنّ ملاكاً قبّلها: (أنتَ لا تضايقني).

سأل غوزييه برقةٍ جداً وهو يشعر بالسعادة البالغة: (أنتِ تحبينني إذن يا بانسي؟).

ـ (نعم.... أنا أحبكَ).

فسارا نحو رف الموقد حيث وُضعت الساعة الإمبراطورية الكبيرة الفاترة. كانا على مودة في الغرفة وبعيدَيْن عن المراقبة من الخارج. بدت النبرة التي قالت بها تلك الكلمات الثلاث بالنسبة له همس الطبيعة نفسها، وإجابته الوحيدة كانت أخْذَ يدها وإمساكها للحظة. ثم رفعها إلى شفتيه. فاستسلمتْ، ولا تزال على ابتسامتها النقية، والواثقة التي كان فيها شيء من الانفعال الذي لا يوصف. لقد أحبَّتْهُ ـ لقد أحبَّتْهُ في اللحظة نفسها، والآن يمكن أن يحدث أي شيء! لقد كانت مستعدة ـ لقد كانت مستعدة دائماً، وهي تنتظره أن يتكلم. إن لم يتكلم لكانت قد انتظرَتْهُ إلى الأبد. لكن عندما تحدّرت الكلمات سقطت كالخوخة من الشجرة المهتزة. شعر غوزييه بأنه لو كان سيجذبها نحوه ويأخذها بين أحضانه لكانت ستستسلم بلا كلمة، ولكان سيرتاح بلا جدال، وستكون هذه في الحقيقة تجربة مندفعة في غرفة الجلوس الإمبراطورية الصفراء. لقد كانت تعرف بأنه لأجلها قد أتى، وأيضاً كسيدةٍ صغيرة بارعة اختطفَتْهُ!.

فهمهم وهو يحاول أن يصدق بأن في النهاية كان يوجد شيء كهذا كحسن ضيافة: (أنتِ غالية جداً بالنسبة لي).

نظرت لوهلةٍ إلى يدها حيث كان قد قبّلها.

ـ (هل قلتَ بأن بابا يعلم؟).

ـ (لقد أخبرتِني تواً بأنه يعرف كل شيء).

قالت بانسي: (أعتقد بأنك يجب أن تتأكد).

همس غوزييه في أذنها: (آه، يا عزيزتي، حالما أتأكد منكِ!).

عندئذٍ استدارت عائدةً إلى الغرف الأخرى بهيئةٍ من الثبات القليل والذي بدا أنه يشير إلى أن تجاذبهما كان فورياً.

في تلك الأثناء أدركت الغرف الأخرى لوصول مدام ميرليه، التي أينما ذهبتْ، تولِّد تأثيراً عندما تدخل. لم يتمكن أكثر المتفرجين انتباهاً من أن يخبركَ كيف تفعل ذلك، لأنها لا تتكلم بصوتٍ عالٍ، ولا تضحك بكثرة، ولا تتحرك بسرعة، ولا ترتدي بفخامة، ولا تثير المستمعين بأية طريقة ملحوظة. كان هناك شيء محترم ولطيف ومرح ومطَمْئن يشع في هدوئها، وعندما يتلفت الناس فذلك بسبب الهدوء الفجائي. في هذه المناسبة، قامت قدر استطاعتها بعمل أكثر الأشياء هدوءاً. فبعد أن قامت بمعانقة السيدة أوزموند، وهو شيء كان أكثر دهشة، جلستْ على أريكةٍ صغيرة لتتهامس مع سيد المنزل. كان هناك تبادل مختصر للملاحظات العادية بين هذين الاثنين ـ فهما يبديان دائماً أمام العلن تقديراً رسمياً معيناً للملاحظات العادية ـ ومن ثم سألت مدام ميرليه، التي كانت تجول بنظراتها، إن كان السيد غوزييه الصغير قد أتى هذا المساء.

قال أوزموند: (لقد وصل منذ ساعةٍ تقريباً. لكنه اختفى).

ـ (وأين بانسي؟).

ـ (في الغرفة الأخرى. هناك عدد من الناس).

قالت مدام ميرليه: (ربما يكون بينهم).

سأل أوزموند بنبرةٍ خاليةٍ من المعنى بشكلٍ مزعج: (هل تودين رؤيته؟).

نظرت مدام ميرليه إليه لوهلةٍ. كانت تعرف كل نبرة من نبراته حتى أدق النبرات.

ـ (نعم، أود أن أقول له بأنني أخبرتكَ بما يريد، وأن ذلك لا يثير اهتمامكَ كثيراً).

ـ (لا تقولي له ذلك، فسيحاول أن يثير اهتمامي أكثر ـ وهو بالضبط ما لا أريده. أخبريه بأنني أكره عرضه بالزواج).

ـ (لكنكَ لا تكرهه).

ـ (لن يعني ذلك شيئاً. فأنا لا أحبه، وقد جعلتُه بنفسي يرى ذلك هذا المساء. لقد كنتُ فظّاً معه عن قصد. إن ذلك النوع من الأشخاص هو إزعاجٌ كبير. لا حاجة للعجلة).

ـ (سوف أخبره بأنكَ ستأخذ وقتكَ لتفكر بالموضوع).

ـ (كلا، لا تفعلي ذلك، فسوف يتشبث بالموضوع).

ـ (إن أثنيتُه عن عزمه فسوف يفعل الشيء نفسه).

ـ (نعم، لكن من ناحية سيحاول أن يتحدث ويشرح، وهو ما سيكون مملاً بشكلٍ متزايد. من ناحية أخرى، سيقوم على الأرجح بإمساك لسانه واختيار لعبة أخرى، وذلك سيتركني مطمئناً، فأنا أكره التحدث مع حمار).

ـ (هل هذا هو ما تطلقه على غوزييه المسكين؟).

ـ (أوه، إنه مزعج... هو وتُحفه الإيطالية التي لا تنتهي).

أرخت مدام ميرليه نظرها وابتسمت قليلاً.

ـ (إنه رجل محترم. إن له طباعاً رائعة. وأخيراً، له مورد مالي قيمته أربعين ألف فرنك!).

انفجر أوزموند في الكلام: (إن ذلك بائس ـ أرستقراطي بائس. ليس ذلك هو ما حلمتُ به لبانسي).

ـ (حسناً إذن. لقد وعدني بأن لا يتحدث إليها).

سأل أوزموند وهو شارد الذهن: (وهل تصدقينه؟).

ـ (تماماً. لقد فكّرَتْ بانسي به كثيراً، لكنني لا أعتقد بأنكَ تعتبر ذلك مهماً).

ـ (أنا لا أعتبره مهماً إطلاقاً، ولكنني أيضاً لا أصدق بأنها فكرت به).

قالت مدام ميرليه بهدوء: (إن هذا الرأي مريح أكثر).

ـ (هل أخبرَتْكِ بأنها تحبه؟).

أضافت مدام ميرليه بسرعة: (ماذا تظنّها؟ وماذا تظنني؟).

رفع أوزموند قدمه وكان يسند كاحله النحيف على الركبة الأخرى؛ أمسك كاحله بيده بطريقةٍ مألوفة ـ بحيث تمكنت سبابته الطويلة والرفيعة، وإبهامه من عمل حلقة ـ وحدّق قليلاً أمامه.

ـ (إن هذه الأمور لن تجدني غير مهيأ لها. فذلك هو ما ربيتُها لأجله. كان كل شيء لأجل هذا ـ وهو عندما تُثار أمورٌ كهذه سوف تنفذ ما أريده أنا).

ـ (لا أخشى بأنها لن تفعل ذلك).

ـ (حسناً إذن، أين تكمن المشكلة؟).

ـ (أنا لا أرى أية مشكلة. لكن برغم ذلك، فقد نصحتُكَ بأن لا تتخلص من السيد غوزييه. احتفظ به، فقد يكون مفيداً).

ـ (لا أستطيع أن أحتفظ به. احتفظي به أنت).

ـ (حسناً جداً. سوف أركنه وأخصص له يومياً الكثير من الوقت).

كانت مدام ميرليه، معظم الوقت الذي تحدثا به تنظر حولها. كانت تلك هي عادتها في هذه المواقف مثلما كانت عادتها في أن تقطع الحديث بوقفاتٍ كثيرة بالنظر حولها بوجهٍ خالٍ من التعابير.

تلت الكلمات الأخيرة التي ذكرتُها جرعة شراب طويلة، وقبل أن تنتهي رأت بانسي تخرج من الغرفة الملحقة يتبعها إدوارد غوزييه. تقدمت الفتاة بضع خطوات ومن ثم توقفت ووقفت وهي تنظر إلى مدام ميرليه وإلى والدها.

واصلت مدام ميرليه كلامها مع السيد أوزموند: (كان يتحدث إليها).

لم يلتفت رفيقها أبداً.

ـ (وسبب ذلك يعود إلى حدٍّ كبير إلى تصديقكِ بوعوده. يجب أن يكون حصاناً... كي يُضرب بالسوط).

ـ (إنه ينوي أن يعترف. الرجل الصغير المسكين!).

نهض أوزموند.

كان الآن يرمق ابنته بنظراتٍ حادة، فهمهم وهو يستدير مبتعداً: (لا يهم).

بعد وهلةٍ اتجهت بانسي إلى مدام ميرليه بطريقتها البسيطة من التأدّب غير المعهود. إن استقبال هذه السيدة لها لم يكن حاراً أكثر، إذ قامت فقط وهي تنهض من الأريكة بمنحها ابتسامة ودودة.

قالت المخلوقة الشابة بلطف: (لقد تأخرتِ كثيراً).

ـ (يا طفلتي العزيزة، أنا لا أتأخر أكثر عن موعدي).

لم تكن مدام ميرليه قد نهضت لتكون عطوفة على بانسي بل توجهت نحو إدوارد غوزييه. لقد أتى ليقابلها وكأنه ليخلّص ضميره بسرعة. فهمس: (لقد تحدثتُ إليها!).

ـ (أعلم ذلك يا سيد غوزييه).

ـ (هل أخبرَتْكِ؟).

ـ (نعم، أخبرَتْني. تصرَّفْ بشكلٍ لائق لبقية الأمسية وتعال لرؤيتي غداً في الساعة الخامسة والربع).

لقد كانت متجهمةً، وكان هناك في الطريقة التي أدارت بها ظهرها له قدر من الإهانة جعلَتْهُ يهمهم بلعنةٍ مهذبة.

لم تكن له نية ليتحدث إلى أوزموند؛ فلا الزمان ولا المكان كانا مناسبين. لكنه سار بشكلٍ غريزي نحو إيزابيل التي كانت جالسةً تتحدث مع سيدةٍ عجوز. فجلس إلى الجانب الآخر منها.

كانت السيدة العجوز إيطالية، وافترض غوزييه جدلاً بأنها تفهم الإنجليزية.

ابتدأ الحديث مع السيدة أوزموند: (لقد قلتِ للتو بأنكِ لن تساعديني. ربما ستشعرين بطريقةٍ مختلفة عندما تعلمين.... عندما تعلمين...!).

فقابلت إيزابيل تردده بالقول: (عندما أعلم ماذا؟).

- (بأنها موافقة).

- (ماذا تقصد بذلك؟).

- (حسناً. إننا تفاهمنا).

قالت إيزابيل: (إنها مخطئة. فذلك لن ينفع).

حدق غوزييه المسكين فيها بشبه تَوَسُّل وبشبه غضب، وأُصيب باحمرار فجائي للوجه نتيجة إحساسه بالجرح.

قال: (لم يحدث أبداً وأنْ عوملتُ بهذه الطريقة. ماذا يوجد هناك ضدي برغم كل ذلك؟ ليست هذه هي الطريقة التي أحترمُها عادةً. إذ بإمكاني أن أتزوج عشرين مرةً).

أضافت إيزابيل وهي تبتسم بلطف: (من المؤسف أنكَ لم تفعل ذلك. لا أقصد عشرين مرة، وإنما مرة واحدة وبشكلٍ مريح. أنت لستَ غنياً بشكلٍ يكفي بانسي).

- (إنها لا تهتم إطلاقاً لمال الشخص).

- (بلى، لكن أباها يهتم).

صاح الشاب: (آه، نعم، لقد أثبتَ ذلك!).

نهضت إيزابيل وهي تستدير مبتعدةً عنه تاركةً سيدتها العجوز بدون رسميات وأشغل هو نفسه في العشر دقائق التالية بالتظاهر بالتفرج على مجموعة جيلبرت أوزموند من المنمنمات والتي رُتبت بدقة على مجموعةٍ من السواتر المخملية الصغيرة. لكنه تفرّج بدون أن يبصر، ووجنتاه متقدتان. لقد كان غاصّاً بإحساسه بالجرح. من المؤكد بأنه لم يُعامَل أبداً بهذه الطريقة من قبل، ولم يكن معتاداً لأن يُعتقد بأنه غير مناسب بشكلٍ كافٍ. كان يعرف كم هو مناسبٌ لبانسي، ولو لم تكن مغالطة كهذه خبيثة جداً لتمكّن من الضحك عليها.

بحث مجدداً عن بانسي، لكنها كانت قد اختفت. وأصبحَتْ رغبته الرئيسية الآن هي أن يخرج من المنزل.

قبل أن يفعل ذلك، تحدث مرة أخرى لإيزابيل؛ إذ لم يكن مستساغاً بالنسبة له ليفكر بأنه قد قال لها للتو شيئاً فظّاً ـ وهي النقطة الوحيدة التي كانت الآن ستبرر رأيهم المتدني عنه.

فابتدأ الكلام: (لقد لجأتُ إلى السيد أوزموند قبل قليل بينما ما كان يجب أن أفعل ذلك. لكن يجب عليكِ أن تتذكري موقفي).

أجابت بفتور: (أنا لا أتذكر ما قلتَهُ).

ـ (آه، أنت أُهِنْتِ، والآن لن تساعدينني أبداً).

لم تجب لوهلةٍ. ثم قالت بنبرة مختلفة: (لن أساعدكَ ليس لأنني لا أرغب بذلك بل ببساطة لأنني لا أستطيع ذلك!).

كان أسلوبها انفعالياً قليلاً.

ـ (لو استطعت، قليلاً فقط، فلن أتحدث ثانيةً عن زوجكِ إلا كملاك).

قالت إيزابيل بشكلٍ ساهِم ـ أو كما قال لنفسه بعد ذلك، بشكلٍ غامض ـ: (إن هذا الإغراء كبير).

ورمَقَتْهُ مباشرةً في عينيه وبشكلٍ غامض أيضاً بنظرةٍ جعلَتْهُ يتذكر بطريقةٍ ما أنه كان قد عرفها وهي طفلة، ومع ذلك كانت النظرة حادّةً أكثر مما أحبَّ.

وغادر.

***

الفصل 38

ذهب في اليوم التالي ليرى مدام ميرليه. ولدهشته، سمحت له بسهولة قليلاً أن ينفّس عن غضبه. لكنها جعلَتْهُ يعدها بأنه سيتوقف إلى هذا الحد حتى يتم إقرار شيء ما. كان لدى السيد أوزموند تطلعاتٍ أعلى. فمن المنطقي جداً أنه بما أنه لم يكن لديه نية بمنح الخيار لابنته، فإن تطلعاتٍ كهذه عُرضة للنقد أو حتى ـ لو شئتَ ـ للسخرية. لكنها كانت ستنصح السيد غوزييه أن لا يتخذ تلك النبرة، وإن كان سيتمالك نفسه فيمكنه أن يصل إلى سعادته. لم يكن السيد أوزموند متجاوباً مع قضيته، لكنها لن تكون أعجوبة لو تفاهم تدريجياً بعد جدال. ما كانت بانسي أبداً لتتحدى والدها، يمكنه أن يثق بذلك، لذا لن يكسب شيئاً بالتهوّر. احتاجَ السيد أوزموند إلى أن يُعَوِّدَ ذهنه على عرضٍ من نوعٍ لم يكن لحد الآن قد فكّر به، ويجب أن تحدث هذه النتيجة تلقائياً ـ إذ لن تنفع محاولة حدوثها بالقوة.

أحَسَّ غوزييه بأن موقفه في هذه الأثناء سيكون أكثر المواقف إزعاجاً في العالم، وأكدَتْ له مدام ميرليه بأنها تعاطفَتْ معه. لكن، وكما صرَّحَتْ هي بحق، بأنه لا يمكن للمرء أن يحظى بكل شيء يريده. لقد كانت قد علَّمَتْ نفسها هذا الدرس. لن يكون هناك فائدة من أن يكتب إلى جيلبرت أوزموند الذي اتهمها بأنها تخبره الكثير. لقد تمنى بأن ينتهي الموضوع خلال بضعة أسابيع، وأنه هو نفسه من سيكتب عندما سيكون لديه شيء قد يَسعَد السيد غوزييه بسماعه.

قالت مدام ميرليه: (إنه لم يحب تحدُّثَكَ إلى بانسي. آه، إنه لم يحب الأمر مطلقاً).

ـ (أنا راغبٌ تماماً بمنحه فرصة ليقول لي ذلك!).

ـ (إن فعلتَ ذلك فسيقول لكَ أكثر مما تريد سماعه. اذهب إلى المنزل في الشهر القادم، أقل ما يمكن، واترُك الباقي لي).

ـ (أقل ما يمكن؟ ومن سيحدد هذا الممكن؟).

ـ (دعني أنا أحدده. اذهب في مساءات الخميس مع بقية الناس، لكن لا تذهب أبداً في أوقات غريبة. ولا تقلق بشأن بانسي، فسوف أستوثق بأن تفهم كل شيء، فلديها طبيعة بسيطة وهادئة وستأخذ كل شيء بهدوء).

لقد قلق إدوارد غوزييه بشأن بانسي كثيراً، لكنه فعل مثلما أُشير عليه، وانتظر مساء خميسٍ آخر قبل أن يعود إلى قصر روكانيرا. كانت هناك حفلة عشاء، لذا على الرغم من أنه ذهب باكراً، إلا أن الضيوف كانوا كثيرين مسبقاً بشكل يمكن احتماله. كان أوزموند، كالعادة، في الغرفة الأولى قرب النار وهو يحدق مباشرةً على الباب بحيث اضطر غوزييه إلى أن يذهب ويتحدث إليه كي لا يكون غير مهذب بشكلٍ واضح.

قال والد بانسي وهو يضيّق قليلاً عينيه الثاقبتين المدركتين: (أنا مسرور بأنكَ تلقيتَ الإشارة).

ـ (أنا لا أتلقّى إشارة بل تلقيتُ رسالة كما هو في العادة أن يحدث على ما أعتقد).

ـ (أنتَ تلقيتَ رسالة؟ من أين حصلتَ عليها؟).

بدا لغوزييه المسكين بأنه كان يُهان، وانتظَرَ قليلاً وهو يسأل نفسه ما مقدار ما يجب على العاشق الحقيقي أن يُذَلّ؟.

ـ (حسب ما فهمتُ، منحَتْني مدام ميرليه رسالةً منكَ ـ لدرجة أنكَ رفضتَ أن تمنحني الفرصة التي أتوق إليها، وهي فرصة أن أوضح لكَ رغبتي) وامتدَحَ نفسه بأنه تكلم بصرامةٍ قليلاً.

ـ (أنا لا أدري ما علاقة مدام ميرليه بالأمر. لماذا تستعين بمدام ميرليه؟).

ـ (لقد طلبتُ منها النصيحة ـ لا شيء أكثر من ذلك. وفعلتُ ذلك لأنها بدت لي أنها تعرفكَ جيداً).

قال أوزموند: (إنها لا تعرفني جيداً مثلما هي تعتقد).

ـ (أعتذرُ عن ذلك لأنها منحَتْني سبباً بسيطاً كي آمل).

حدّق أوزموند على النار قليلاً.

ـ (لقد حددتُ سعراً عالياً لابنتي).

ـ (لا يمكنكَ أن تحدد سعراً أعلى من السعر الذي حددتُه أنا. ألم أُظهره برغبتي بالزواج منها؟).

واصل أوزموند كلامه بوقاحة ساخرة كان أوزموند المسكين سيحترمها لو كان في مزاجٍ آخر: (أنا أتمنى أن أُزوِّجَها زيجةً مناسبة).

ـ (بالطبع، أتجرأ وأقول بأن بزواجها مني تكون قد تزوجت الزيجة المناسبة. فهي لا يمكنها أن تتزوج رجلاً يحبها أكثر.... أو.... أتجرأ وأضيف، تحبه هي أكثر).

ـ (أنا لستُ مجبراً على القبول بنظرياتكَ بخصوص من تحبه ابنتي....)

ونظر أوزموند نحو الأعلى بابتسامةٍ خاطفة وفاترة.

ـ (أنا لا أضع نظريات. إن ابنتكَ قد تكلمَتْ).

واصل أوزموند كلامه وهو الآن ينحني إلى الأمام قليلاً ويرخي نظره إلى عقبيّ حذائه: (ليس لي).

صاح غوزيبه بحدة غضب: (لدي وعدٌ منها يا سيد!).

عندما ارتفعت أصواتهما قليلاً آنفاً جذبت نبرةٌ كهذه انتباه بعض الضيوف. تريث أوزموند حتى تهدأ هذه الجلبة البسيطة، ومن ثم قال وهو منزعج جداً: (أعتقد بأنها لا تتذكر بأنها وَعَدَتْكَ).

كانا واقفين ووجههما تجاه النار. وبعد أن تلفَّظَ بهذه الكلمات الأخيرة استدار سيد البيت نحو الغرفة.

قبل أن يتسنى الوقت لغوزييه أن يجيب أدرك أن رجلاً نبيلاً ـ غريباً ـ قد دخل للتو، ولم يُعلَن عن وصوله وفقاً للعادة الرومانية، وكان على وشك أن يقدم نفسه إلى مضيفه. ابتسم الأخير برقّةٍ لكن بشكلٍ خالٍ من التعبير قليلاً. كان للضيف وجه جميل ولحية كثّة وناعمة، وكان من الواضح أنه رجل إنجليزي. قال بابتسامةٍ معبّرة أكثر من ابتسامة أوزموند: (من الواضح أنكَ لم تعرفني).

ـ (آه، نعم. الآن عرفتكَ. لم أتوقع كثيراً أن أراكَ).

غادر غوزييه وبدأ بملاحقة واضحة لبانسي. بحث عنها كالعادة في الغرفة المجاورة، لكنه قابل ثانيةً السيدة أوزموند في طريقه. لم يحيِّ مضيّفته ـ فقد كان ساخطاً بشكلٍ مبرر، لكنه قال لها بفظاظة: (إن زوجكِ ذو دمٍ بارد بشكلٍ مريع).

فأظهرت الابتسامة الغامضة نفسها التي لاحظها من قبل.

ـ (لا يمكنكَ أن تتوقع من كل شخص أن يكون حاراً مثلكَ).

ـ (أنا لا أتظاهر بالبرود، لكنني هادئ. ماذا يفعل بابنته؟).

ـ (ليست لدي فكرة).

سأل غوزييه وهو يشعر بأنها هي أيضاً مثيرة للانفعال: (ألا تبدين أي اهتمام؟).

لوهلةٍ لم تجب بشيء، ثم قالت بشكلٍ جاف مع بريقٍ ساطع في عينيها ناقَضَ الكلمة: (كلا!).

ـ (اعذريني إن كنتُ لا أصدق ذلك. أين الآنسة أوزموند؟).

ـ (إنها في ركن الغرفة تعدُّ الشاي. أرجوكَ اتركها وشأنها).

وجد غوزييه صديقته على الفور، والتي كانت مختفية بين مجاميع الضيوف المتداخلة. فراقبها، لكن انتباهها كان منصباً بالكامل على عملها. فسأل ثانيةً مناشداً: (ماذا فعل بها؟ فقد أبلغني بأنها تخلت عني).

قالت إيزابيل بنبرة واطئة وبدون أن تنظر إليه: (إنها لم تتخلَّ عنكَ).

ـ (آه، أشكركِ على ذلك! والآن سأتركها وشأنها طالما تعتقدين ذلك مناسباً!).

عندما رأى لونها يتغير، بالكاد تكلم إليها. فأدرك أن أوزموند كان قادماً نحوها مصحوباً بالرجل النبيل الذي كان قد دخل للتو. رأى أن الأخير محرَجٌ قليلاً رغم ميزة المظهر الجميل والذوق الاجتماعي الواضح.

قال زوجها: (لقد جلبتُ لكِ صديقاً قديماً يا إيزابيل).

رغم أن وجه السيدة أوزموند قد اكتسى بابتسامةٍ، إلا أنه كان كوجه صديقها القديم، ليس مطمئناً.

قالت: (أنا سعيدة جداً بأن أرى اللورد واربيرتون).

استدار غوزييه مبتعداً. فالآن، وقد قوطع حديثه معها، شعر بأنه معفي من الوعد التافه الذي قطعه للتو. فقد حظي بانطباعٍ سريع بأن السيدة أوزموند لن تلاحظ ما فعله. في الحقيقة ـ ولكل تنصفه ـ توقفت إيزابيل لبعض الوقت عن مراقبته تماماً. فقد كانت مرتعدة وبالكاد عرفت إن كان ما شعرت به هو سرورٌ أم ألم. مع ذلك، كان اللورد واربيرتون الذي كان معها وجهاً لوجه الآن، متأكداً تماماً وبوضوح من شعوره الشخصي عن الموضوع، كانت عيناه الرماديتان لا تزالان تمتلكان سمتهما الأصلية الحساسة باحتفاظهما ببصيرة وصدق خالصين تماماً. كان أكثر «رزانة» من ذي قبل وبدا أكبر سناً، وقف هناك بثبات جداً وبشكل متزن.

قال: (أعتقد بأنكِ لم تتوقعي رؤيتي. لم أصل إلّا للتو. حرفياً، وصلتُ إلى

هنا فقط هذا المساء، كما ترين. لم أضيّع وقتاً بالمجيء وتقديم احتراماتي لكِ. فقد عرفتُ بأنكِ في البيت في أيام الخميس).

قال أوزموند لزوجته: (إن سمعة أيام الخميس قد امتدت إلى إنجلترا كما ترين).

قالت إيزابيل: (إنه لكرمٌ من اللورد واربيرتون أن يأتي بهذه السرعة، لقد تشرفنا كثيراً).

واصل أوزموند كلامه: (آه، حسناً، إنه أفضل من السكن في واحدةٍ من تلك الفنادق المريعة).

ـ (إن الفندق يبدو جيداً للغاية، أعتقد بأنه هو نفسه الذي رأيتكَ فيه منذ أربع سنوات. أنت تعرف بأن لقاءنا الأول كان هنا في روما، لقد مرّ وقتٌ طويل).

ثم سأل سيادة اللورد مضيّفَه: (هل تتذكر أين ودعتُكَ؟ لقد كان في الكابيتول، في الغرفة الأولى).

قال أوزموند: (أتذكر ذلك. لقد كنتُ هناك في حينها).

ـ (نعم، أنا أتذكركَ هناك. كنتُ حزيناً جداً لمغادرتي روما... حزيناً لدرجة أنها أصبحت بطريقةٍ أو بأخرى ذكرى حزينة، ولم أهتم أبداً بالعودة حتى اليوم).

واصل صديقها القديم حديثه لإيزابيل: (لكنني علمتُ بأنكِ تعيشين هنا، وأؤكد لكِ بأنني فكرتُ فيكِ دائماً).

ثم أضاف وهو ينظر حوله إلى بيتها المشيّد، نظرةً قد تكون فهمَتْ فيها الظل الباهت لحزنه القديم: (لا بدّ وأنه مكانٌ ساحرٌ لتعيشي فيه).

علّق أوزموند بأدب: (سنكون سعداء برؤيتكَ في أي وقت).

ـ (أشكركَ كثيراً. لم أخرج من إنجلترا منذ ذلك الحين، حتى رأيتُ قبل شهر بأن رحلاتي قد انتهت حقاً).

قالت إيزابيل التي قدّرَتْ مسبقاً بكفاءتها النادرة ما يعني الالتقاء به ثانيةً بالنسبة لها: (لقد سمعتُ عنكَ من حينٍ لآخر).

ـ (آمل أنكِ لم تسمعي ما هو مسيء، فحياتي رتيبة تماماً بشكلٍ ملفتٍ للنظر).

أشار أوزموند: (مثل فترات الحكم السعيدة في التاريخ).

يبدو أنه فكّر بأن واجباته كمضيِّف قد انتهت الآن ـ وأنه أدّاها بضميرٍ حي. لا يمكن أن توجد مجامَلة وافية أكثر ومدروسة بشكل مهذب أكثر من مجاملته لصديق زوجته القديم. فقد كانت حريصة على الشكليات، وصريحة، كانت كل شيء عدا أنها لم تكن عفوية ـ وهو عيبٌ من المحتمل أن اللورد واربيرتون، الذي كان هو نفسه يمتلك الكثير من العفوية عموماً، قد شعر به.

أضاف: (سأتركك والسيدة أوزموند، فلديكما ذكريات لا أتدخّل فيها).

عندما ابتعَدَ، ناداه اللورد واربيرتون بنبرةٍ كشفت ربما أكثر مما ينبغي عن إعجابٍ بكرمه: (أخشى بأنكَ ستخسر الكثير!).

ثم وجّه الزائر إلى إيزابيل نظرةً هي أعمق إحساساً، بل الأكثر عمقاً، والتي أصبحت بالتدريج أكثر جدية (أنا حقاً سعيد للغاية برؤيتكِ).

ـ (ذلك رائع جداً. أنت لطيفٌ جداً).

ـ (هل تعلمين بأنكِ تغيرتِ.... قليلاً؟).

فتلعثَمَتْ بسرعة: (نعم..... كثيراً).

ـ (أنا لا أعني طبعاً نحو الأسوأ؛ ومع ذلك كيف يمكنني أن أقول نحو الأحسن؟).

ردت بشجاعة: (أعتقد بأنه لن يكون لدي تحرّج من قول ذلك لكَ).

ـ (آه حسناً، بالنسبة لي، لقد مر وقتٌ طويل. سيكون من المؤسف عدم وجود يء أتباهى به).

فجلسا، وسألَتْهُ عن أخواته، مع أسئلةٍ أخرى مملة بعض الشيء. وأجاب على أسئلتها وكأنها أثارت اهتمامه، ولوهلةٍ فهمَتْ ـ أو ظنَّتْ بأنها فهمَتْ ـ بأنه كان يشدد على أهميته أقل من قبل. لقد أراح الزمن قلبه، ومنحه، بدون أن يرتجف، إحساساً مريحاً وكأنه في الهواء الطلق؛ فشعرت إيزابيل بأن احترامها المعتاد للزمن قد ارتفع إلى أقصاه. كان سلوك صديقها بالتأكيد سلوك رجلٍ مرتاح، رجلٍ يريد من الناس، أو منها على الأقل، أن يعرفوا ذلك.

استأنف كلامه: (هناك شيء ما يجب أن أقوله لكِ بدون تأخير. لقد جلبتُ رالف تاتشيت معي).

كانت دهشة إيزابيل كبيرة.

ـ (جلبتَه معكَ؟).

ـ (إنه في الفندق. كان متعباً جداً ليخرج، فذهب إلى النوم).

قالت على الفور: (سأذهب لرؤيته).

ـ (إن ذلك بالضبط هو ما تمنيتُ أن تفعلينه. فقد علمتُ بأنكِ لم تريه كثيراً منذ زواجكِ، وذلك في الحقيقة لأن علاقاتكِ كانت.... كانت رسمية أكثر قليلاً. لهذا السبب ترددتُ... كبريطانيٍّ خجول).

أجابت إيزابيل: (أنا معجبةٌ برالف كما هو شأني دائماً. لكن لماذا أتى إلى روما؟).

كان التصريح رقيقاً جداً لكن السؤال حاد قليلاً.

ـ (لأنه موشكٌ على الانقضاء يا سيدة أوزموند).

ـ (إذن روما ليست هي المكان المناسب له. لقد سمعتُ منه بأنه قرر أن يتخلى عن عادته بقضاء فصل الشتاء خارج البلاد وأن يبقى في إنجلترا، داخل المنزل، في ما أسماه مناخاً صناعياً).

ـ (المسكين، إنه لا ينفعه الصناعي! لقد ذهبتُ لرؤيته قبل ثلاثة أسابيع في

جاردن كورت ووجدته مريضاً جداً. كانت حالته تزداد سوءاً كل عام، والآن قد خارت قواه. لقد توقف عن تدخين السجائر! لقد خلق مناخاً صناعياً بالفعل؛ فقد كان البيت حاراً مثل كالكوتا. مع ذلك، خطر في ذهنه فجأة أن يتجه نحو صقلية. لم أصدق ذلك... ولا الأطباء ولا أي من أصدقائه. إن والدته، كما أعتقد بأنكِ تعرفين، في أميركا، لذا لم يكن يوجد أحد ليمنعه. كان مُصِرّاً على فكرته بأنَّ قضاء الشتاء في كاتانيا سينقذه. وقال بأنه يمكنه أن يأخذ خدماً وأثاثاً، وأن يريح نفسه، لكنه في الحقيقة لم يجلب شيئاً معه. أردتُ منه على الأقل أن يسافر بحراً ليتفادى الإعياء، لكنه قال بأنه يكره البحر وأنه يود التوقف عند روما. بعد ذلك، رغم أنني اعتقدتُ أن كل ذلك هراء، إلا أنني قررتُ أن آتي معه. فأنا أمثّل ـ ماذا تسمونه في أميركا؟ ـ نوعاً من المهدئ. إن رالف المسكين هادئ الآن. غادرنا إنجلترا قبل أسبوعين، وساءت حالته جداً في الطريق. لا يمكنه أن يبقى دافئاً، وكلما أتينا أكثر نحو الجنوب كلما شعر بالبرد أكثر. لقد استصحب معه رجلاً بارعاً قليلاً، لكنني أخشى بأنه غير بارع في مساعدة البشر. أردتُ منه أن يأخذ معه شخصاً بارعاً... أقصد طبيباً شاباً ذكياً، لكنه لم يكن ليصغي. لو سمحتِ لي أن أقول بأنني أعتقد بأنه وقت غريب للغاية أن تُقرر فيه السيدة تاتشيت الذهاب إلى أميركا).

أصغت إيزابيل بلهفة وكان وجهها مفعماً بالألم والدهشة.

ـ (إن خالتي تفعل ذلك في أوقات محددة ولا تدع شيئاً يثنيها عن عزمها. فعندما يحين الموعد، تنطلق. أعتقد بأنها ستنطلق لو كان رالف يحتضر).

قال اللورد واربيرتون: (أعتقد أحياناً بأنه يحتضر).

وثبت إيزابيل: (إذن سوف أذهب إليه الآن).

فاستوثق منها؛ فقد كان متحيراً قليلاً للتأثير السريع لكلماته: (أنا لم أقصد بأنني فكرتُ في ذلك هذه الليلة، بل على العكس، فقد بدا اليوم في القطار بصحة جيدة بشكلٍ خاص، ففكرة وصولنا إلى روما ـ إنه معجب جداً

بروما، تعلمين ذلك ـ قد منحته القوة. قبل ساعة، عندما حييته تحية المساء، أخبرني بأنه متعب جداً لكن سعيد جداً. اذهبي إليه في الصباح، ذلك هو كل ما أقصده. أنا لم أقل له بأنني آتٍ إلى هنا، فلم أقرر ذلك حتى بعد أن افترقنا. ثم تذكرتُ بأنه كان قد أخبرني بأن لديكِ سهرة، وأنها كانت تقام في هذا الخميس بالذات. فخطر في ذهني أن آتي وأخبركِ بأنه هنا، وأبلغكِ أنه من الأفضل أن لا تنتظريه يتصل. أعتقد بأنه قال بأنه لم يكتب لكِ).

لم تكن هناك حاجة لأن تصرّح إيزابيل بأنها كانت ستعمل بنصيحة اللورد واربيرتون. لقد بدت، عندما جلست هناك، كطائرٍ محبوس.

أضاف زائرها بشجاعة: (بالإضافة إلى ذلك، فأنا أردتُ أن أراكِ).

قالت: (أنا لا أفهم خطة رالف. فقد بدت لي قاسية جداً. كنتُ أُسعَد عندما أفكر بأنه بين تلك الجدران السميكة لجاردن كورت).

ـ (لقد كان وحيداً بالمرة هناك؛ فالجدران السميكة كانت رفيقه الوحيد).

ـ (وأنتَ ذهبتَ لتراه. أنت لطيفٌ للغاية).

قال اللورد واربيرتون: (أوه، يا عزيزتي، لم أفعل شيئاً).

ـ (على العكس، فنحن من نسمع بأنكَ تقوم بأشياء رائعة. فكل شخص يتحدث عنكَ كرجل دولة عظيم، وأنا دائماً أرى اسمكَ في صحيفة التايمز التي ـ بالمناسبة ـ لا تبدو بأنها تحترمه. فمن الواضح بأنكَ راديكالي ثائر كما أنت دوماً).

ـ (أنا لا أشعر تقريباً بأنني ثائر جداً، تعلمين أن العالم يتفق معي في النهاية. استأنفنا، تاتشيت وأنا، نوعاً من الجدال البرلماني طول الطريق من لندن. أنا أقول له بأنه آخر رجل من حزب المحافظين، وهو يطلق عليّ ملك القوط ـ يقول بأنني أملك كل علامات المتوحشين، نزولاً إلى تفاصيل مظهري الشخصي. ها أنت ترين بأن الحياة لا تزال تدبّ فيه).

كان لدى إيزابيل الكثير من الأسئلة عن رالف، لكنها امتنعت عن أن تسألها كلها. فقد كانت ستستوثق بنفسها يوم غد. شعرت بعد قليل بأن اللورد واربيرتون سيملّ من ذلك الموضوع ـ كانت لديه حصيلة عن مواضيع متيسرة أخرى. كانت تقول لنفسها مراراً وتكراراً بأنه قد تعافى، والأهم من ذلك أنها كانت قادرة على قول ذلك بلا مرارة. لقد كان بالنسبة لها فيما مضى مثالاً للاستعجال وللإلحاح ولشيء يجب التصدي له ومجادلته، بحيث إن ظهوره من جديد هدّدها في البداية بمتاعب جديدة. لكنها الآن كانت مطمئنة؛ فقد تمكنت من رؤية أنه راغبٌ فقط بأن يقيم معها علاقة طيبة بحيث فهمتْ بأنه سامحها وكان عاجزاً عن إبداء تلميحات جارحة كريهة. لم يكن ذلك شكلاً للانتقام طبعاً؛ فليس لديها شك برغبته بمعاقبتها بإظهار الخذلان؛ وأنها أنصفَتْهُ عندما تيقنت بأنه خطر له ببساطة بأنها كانت الآن ستبدي اهتماماً كريماً بمعرفتها بأنه قد استسلم. لقد كان استسلاماً ذا طبيعة قوية ورجولية لم تتمكن فيه الجراح المتأثرة من الاندمال أبداً. لقد شَفَتْهُ السياسة البريطانية، كانت تعرف بأنها ستشفيه. لقد فكرت بحسدٍ بمجاميع البشر الأكثر سعادة، الذين كانوا أحراراً دائماً بغمس أنفسهم في المياه الشافية من الأحداث.

تحدث اللورد واربيرتون طبعاً عن الماضي، لكنه تحدث عنه بدون مضامين، حتى أنه ذهب بعيداً في التلميح إلى لقائهما الأول في روما على أنه وقتٌ ظريف جداً. وأخبرها بأنه اندهش بشدة بسماعه عن زواجها، وأنه كان مما يبعث على السرور بالنسبة له أن يتعرف إلى السيد أوزموند ـ لأنه يمكن القول بأنه لم يتعرّف عليه كثيراً في المناسبة الأخرى.

لم يكلمها عن أيام ذلك الحدث في تاريخها، لكنه لم يعتذر لها عن ذلك. كان الشيء الوحيد الذي أشار إليه بأنهما كانا صديقين قديمين، صديقين مقربين.

وكان كالصديق المقرّب كثيراً عندما قال لها فجأة بعد توقفٍ قصيرٍ عن

الكلام شغله بالابتسامة وهو ينظر حوله كشخصٍ مستمتع في حفلة قروية بلعبة بريئة كلعبة الحزورات: (... حسناً، الآن، أعتقد بأنكِ سعيدة جداً وما إلى ذلك؟).

أجابت إيزابيل بضحكةٍ سريعة، فنبرة ملاحظته قد أدهشتها كلهجةٍ كوميدية: (هل تعتقد بأنني إنْ لم أكن سعيدة كنتُ سأخبرك؟).

ـ (حسناً، لا أعلم. لا أرى هناك مانعاً).

ـ (إذن أنا سعيدة. لحسن الحظ أنا سعيدة جداً رغم ذلك).

ـ (لديكِ منزلٌ رائع للغاية).

ـ (نعم، إنه مريحٌ جداً. لكن الفضل ليس لي بل لزوجي).

ـ (تعنين بأنه هو من نظّمه؟).

ـ (نعم، فلم يكن شيئاً عندما أتينا إليه).

ـ (لا بدّ وأنه بارعٌ جداً).

قالت إيزابيل: (لديه عبقرية في التنجيد).

ـ (هناك موضة كبيرة لذلك النوع من الأشياء في الوقت الحالي. لكن لا بدّ وأن لديكِ ذوقاً خاصاً بكِ).

ـ (أنا أستمتع بالأشياء عندما تُنجَز، لكن ليست لدي أفكار. لا يمكنني أن أقترح أي شيء).

ـ (هل تعنين بأنكِ تقبلين بما يقترحه الآخرون؟).

ـ (طواعيةً في معظم الأحيان).

ـ (ذلك أمر من الجيد معرفته. سوف أقترح عليكِ شيئاً).

ـ (سيكون ذلك لطيفاً جداً. مع ذلك، يجب أن أقول بأن لدي مبادرة معينة كخطوة أولى؛ أود على سبيل المثال أن أقدمكَ لبعض هؤلاء الناس).

ـ (أوه، أرجوكِ لا تفعلي ذلك. فأنا أفضّل أن أجلس هنا، ما لم تقدميني إلى تلك السيدة الشابة ذات الفستان الأزرق، فلديها وجهٌ ساحر).

ـ (الفتاة التي تتحدث إلى الشاب المتورّد الوجه؟ إنها ابنة زوجي).

ـ (إن زوجكِ رجل محظوظ. يا لها من صبية صغيرة محبوبة!).

ـ (لا بدّ أن تتعرف إليها).

ـ (حالاً ـ بكل سرور. أحب أن أنظر إليها من هنا).

فتوقف فوراً لينظر إليها. مع ذلك، وعلى الفور، ارتدَّتْ عيناه باستمرار نحو السيدة أوزموند. فواصل كلامه على الفور: (هل تعلمين بأنني كنتُ مخطئاً الآن عندما قلتُ بأنكِ تغيرتِ؟ فإنكِ في النهاية، تبدين لي بأنكِ مثلما كنتِ).

قالت إيزابيل بمرحٍ لطيف: (ومع ذلك أجده تغييراً كبيراً أن أكون متزوجة).

ـ (إنه يؤثر في معظم الناس أكثر مما أثّر بكِ. فأنا لم أنخرط في ذلك كما ترين).

ـ (إنه قليلاً ما يدهشني).

أضاف ببساطة أكثر: (يجب أن تفهمي ذلك يا سيدة أوزموند. لكنني أريد فعلاً أن أتزوج).

قالت إيزابيل وهي تنهض: (يجب أن يكون الأمر سهلاً جداً).

بعد ذلك فكرت، ربما بألمٍ واضحٍ جداً، بأنها بالكاد كانت الشخص الذي يجب أن يقول ذلك. ربما كان السبب هو أن اللورد واربيرتون قد تكهّن بالألم الذي احتملَه هو بكرم ليستدعي انتباهها لعدم مساهمتها آنذاك في تيسير الأمر.

في تلك الأثناء، كان إدوارد غوزييه قد جلس على أحد الكراسي العثمانية بجوار مائدة شاي بانسي. تجرأ في البداية على التحدث إليها عن أشياء تافهة، وسألَته من كان الرجل النبيل الجديد الذي كان يتحدث مع زوجة أبيها؟

قال غوزييه: (إنه لورد إنجليزي، ولا أعرف أكثر من ذلك).

ـ (أتساءل إن كان سيتناول بعض الشاي، فالإنجليز مولعون جداً بالشاي).

ـ (لا تُبالِ بذلك. لدي شيء خاص أقوله لكِ).

قالت بانسي: (لا تتحدث بصوت عالٍ... فسيسمع كل شخص).

ـ (لن يسمعوا إن استمريتِ تنظرين بهذه الطريقة، وكأنّ تفكيركِ الوحيد في الحياة هو أن تتمني الإبريق أن يغلي).

ـ (لقد مُلئ للتو. لن يعلم الخدم أبداً!).

فتنهدت لثقل مسؤوليتها.

ـ (هل تعلمين ماذا قال أبوكِ لي تواً؟ بأنكِ لم تعنِ ما قُلتِهِ قبل أسبوع).

ـ (أنا لا أعني كل شيء أقوله. كيف يمكن لفتاةٍ شابة أن تفعل ذلك؟ لكنني أعني ما أقوله لكَ).

ـ (لقد أخبرني بأنكِ نسيتِني).

قالت بانسي مُظهِرَةً أسنانها الجميلة بابتسامةٍ جامدة: (آه، كلا، أنا لا أنسى).

ـ (إذن كل شيء كما هو تماماً؟).

ـ (آه، كلا، ليس كما هو. فبابا كان قاسياً بشكلٍ مريع).

ـ (ماذا فعل بكِ؟).

ـ (لقد سألني ماذا فعلتَ أنت بي، وأخبرتُه كل شيء. ثم منعني من الزواج منكَ).

ـ (لستِ بحاجة لتهتمي بذلك).

ـ (أوه، بلا، يجب علي أن أهتم في الحقيقة. فلا أستطيع أن أعصي بابا).

ـ (حتى من أجل أحد يحبكِ مثلما أحبكِ أنا، والذي تدّعين محبته).

رفعت غطاء إبريق الشاي وهي تحدق في هذا الوعاء لبرهة ثم ألقت كلمتين في أعماقه الفوّاحة: (أحبكَ كثيراً).

ـ (ماذا سينفعني ذلك؟).

قالت بانسي وهي ترفع عينيها الجميلتين الغامضتين: (آه، لا أعلم).

أنَّ غوزييه المسكين: (أنتِ تخيبين أملي).

صمتت قليلاً وسلّمَتْ كوباً من الشاي لأحد الخدم.

ـ (أرجوكَ أن لا تقول المزيد).

ـ (هل سيكون هذا جزائي؟).

ـ (قال بابا بأنه لم يكن يجب عليّ أن أتحدث معكَ).

ـ (هل تضحّين بي بهذا الشكل؟ آه، إن هذا كثيرٌ جداً!).

قالت الفتاة بصوتٍ واضح تماماً بما يكفي ليكشف عن اضطراب: (أتمنى أن تصبر قليلاً).

ـ (طبعاً، سأصبر إن كنتِ ستمنحينني أملاً، لكنكِ تسلبين حياتي).

واصلت بانسي الكلام: (لن أتخلى عنكَ... أوه لا!).

ـ (سيحاول، ويجعلكِ تتزوجين أحداً آخر).

ـ (لن أفعل ذلك أبداً).

ـ (إذن ما الذي ننتظره؟).

ترددت ثانيةً.

ـ (سأتحدث إلى السيدة أوزموند وسوف تساعدنا) كانت تشير إلى زوجة أبيها في معظم الأوقات بهذه الطريقة.

ـ (إنها لن تساعدنا كثيراً. إنها خائفة).

ـ (خائفة من ماذا؟).

ـ (من والدكِ على ما أعتقد).

هزت بانسي رأسها الصغير.

ـ (إنها لا تخاف من أي أحد. يجب أن نصبر).

أنَّ غوزييه: (آه، إنها كلمة مريعة).

لقد كان متضايقاً بشدة.

أسقط رأسه بين يديه، وجلس، وهو يسنده بمهابة سوداوية، يحدق على السجادة متناسياً عادات المجتمع الراقي. فشعر على الفور بحركةٍ كثيرة حوله، وحينما رفع نظره رأى بانسي وهي تنحني احتراماً ـ كانت لا تزال هذه آدابها من الدير ـ إلى اللورد الإنجليزي الذي قدمته السيدة أوزموند.

***

الفصل 39

على الأرجح لن يدهش القارئ المتأمل أن رالف تاتشيت كان قد رأى ابنة خالته منذ زواجها أقل مما رآها قبل ذلك الحدث الذي اتخذ تجاهه رأياً لم يستطع إثباته. لقد أفصح عمّا بداخله، كما نعلم، وبعد ذلك لزم الصمت لكون إيزابيل لم تستدعه ليستأنفا جِدالاً وَضَعَ حدّاً لمرحلةٍ في علاقتهما. الجدال الذي سبَّبَ خصومةً ـ الخصومة التي خاف منها بدلاً من الخصومة التي توقَّعَها. لم يهزّ الجدال حماسة الفتاة في تنفيذ خطبتها وإنما كان على وشك أن يفسد صداقةً بشكلٍ خطير.

لم يشيرا ثانيةً أبداً بينهما إلى رأي رالف بجيلبرت أوزموند، وتمكنا من الحفاظ على شكلٍ من الصراحة المتبادلة بإحاطة هذا الموضوع بصمتٍ مقدس. لكن كانت هناك خصومة، كما كان رالف يقول لنفسه دائماً ـ كانت هناك خصومة، وإنها لم تسامحه، وما كانت ستسامحه أبداً؛ كان ذلك هو كل ما جناه. لقد ظنت بأنها سامحَتْهُ، لقد كانت واثقة بأنها لم تكن مهتمة؛ وبما أنها كانت كريمة جداً ومغرورة جداً فقد مثلت هذه القناعات حقيقةً أكيدة. لكن سواء كان الحدث قد أنصفه له أم لا، إلا أن رالف جعلها مخطئة في الواقع، وكان الخطأ من النوع الذي تتذكره النساء جيداً. فهي كزوجة لأوزموند لم تتمكن من أن تصبح صديقته ثانيةً أبداً. إن كانت بهذه الكيفية ستتمتع بالسعادة التي توقعَتْها، فلن تكون قد جنت شيئاً سوى ازدراء الرجل الذي حاول، مسبقاً، أن يخرّب سعادةً ثمينة جداً؛ ومن ناحية أخرى، إن كان يجب تبرير تحذيره، فإن العهد الذي كانت قد أخذَتْهُ والذي لن يعرفه أبداً كان سيلقي

على روحها عبئاً ثقيلاً يجعلها تكرهه. كان تكهن رالف عن المستقبل كئيباً جداً خلال السنة التي تلت زواج ابنة خالته؛ وإن بدت تكهناته ضبابية فيجب علينا أن نتذكر بأنه لم يكن في عنفوان صحته. لقد واسى نفسه قدر ما يستطيع من خلال (حسب اعتقاده) التصرف بلطف، وكان حاضراً في المراسم التي زُوِّجَتْ بها إيزابيل للسيد أوزموند، والتي تمت في فلورنسا في شهر حزيران.

لقد علم من والدته بأن إيزابيل فكرت في البداية بالاحتفال بزفافها في وطنها، لكن بما أن السهولة هي ما كانت ترغب بتحقيقه بشكل رئيسي، قررت في النهاية ـ على الرغم من رغبة أوزموند الظاهرية بالسفر إلى أي مكان ـ إن هذه الخاصية كانت ستتحقق بشكل أفضل في أن يتزوجا عند أقرب قسٍّ في أقرب وقت. وهكذا، تم الأمر في الكنيسة الأميركية الصغيرة وفي يومٍ حارٍّ جداً بحضور فقط السيدة تاتشيت وابنها وبانسي أوزموند والكونتيسة جيميني. إن تلك البساطة في الإجراءات التي ذكرتُها تَوّاً نتجت إلى حدٍّ ما من غياب إنسانتين قد نفتقدهما في هذه المناسبة واللتين كانتا ستضفيان عليها فخامة أكيدة.

كانت مدام ميرليه قد دُعيت، لكن مدام ميرليه التي كانت غير قادرة على مغادرة روما قد كتبت رسالة اعتذار رقيقة. أما هنرييتا ستاكبول فلم تُدْعَ لأن مغادرتها من أميركا، التي أعلَمَتْ بها إيزابيل من قبل السيد غودوود، كانت في الحقيقة قد أُحبطت بسبب مهام مهنتها؛ لكنها كانت قد أرسلَتْ رسالة، أقل رقة من رسالة مدام ميرليه، تذكر فيها بأنها لو كانت قادرة على عبور الأطلسي لكانت قد حضرت ليس فقط كشاهدة بل كناقدة. كانت عودتها إلى أوروبا قد حصلت بعد ذلك بقليل، والتقت مع إيزابيل في الخريف في باريس عندما انغمست ـ ربما في تفاهة وبطلاقة ـ في عبقريتها النقدية؛ واحتجَّ أوزموند المسكين، الذي كان موضوع هذا النقد بشكلٍ رئيسي، بحدّة من أن هنرييتا كانت مرغمة لتعلن لإيزابيل بأنها كانت قد أخذت خطوةً لتضع حاجزاً

بينهما. وقد اعتبرَتْ أن من واجبها أن تشير: (ليست المشكلة مطلقاً هو أنكِ تزوجتِ ـ بل المشكلة هي أنكِ تزوجتِهِ هو)؛ وسنرى بأنها بذلك متفقة مع رالف تاتشيت أكثر بكثير مما ظنت، وإن امتلكَتْ قليلاً من ارتباكه وتردده. مع ذلك، يتضح بأن زيارة هنرييتا الثانية إلى أوروبا لم تكن عبثاً؛ لأن في اللحظة نفسها التي أعلن فيها أوزموند لإيزابيل بأن عليه بالفعل أن يحتج ضد صاحبة الصحيفة هذه وردَّتْ عليه إيزابيل بأنه ينتقصها بقسوة جداً، ظهر السيد بانِلْنج الطيب في المشهد واقترح بأنه يجب عليهما أن ينزلا بسرعة إلى إسبانيا.

أظهرت رسائل هنرييتا من إسبانيا بأنها أكثر شيء نشرَتْهُ لحدِّ الآن قبولاً، وكانت هناك واحدة بالخصوص مؤرخة من قصر الحمراء ومعنوَنة «المستنقعات وضوء القمر» والتي اعتبرَتْ تحفتها.

كانت إيزابيل في دواخلها خائبة الأمل لعدم قيام زوجها بأخذ الأمور ببساطة واعتبار الفتاة المسكينة تمزح. حتى أنها تساءلت إن كان مفهومه للمزاح أو المازحين ـ والذي هو نفسه مفهومه لحسّه الفكاهي، أليس كذلك؟ ـ كان مختلاً بالصدفة. لقد نظرتْ للموضوع طبعاً كشخصٍ لم يكن لسعادته الحالية سبب لتشكو لضمير هنرييتا المُنتَهَك. كان أوزموند يرى بأن تحالفهما نوعٌ من الشذوذ؛ فهو لم يستطع تخيل ما هو الشيء المشترك بينهما. فبالنسبة له، كانت رفيقة السيد بانِلْنج السائحة هي ببساطة أكثر النساء سوقيةً، وحكم عليها أيضاً بأنها منبوذة إلى أقصى حدٍّ. كانت إيزابيل قد طعنت بحرارة ضد هذه الفقرة الأخيرة من الحكم بحيث جعلته يندهش مجدداً لشذوذ بعضٍ من أذواق زوجته، وتمكنت إيزابيل فقط من توضيح ذلك بقولها إنها أحبت أن تتعرف إلى أناسٍ يختلفون عنها قدر الإمكان. فتساءل أوزموند: (لماذا إذن لا تتعرفي إلى المرأة التي تغسل ملابسكِ؟) وعلى ذلك ردت إيزابيل بأنها كانت تخشاها فهي لن تبالي بها. أما هنرييتا الآن فهي تبالي كثيراً.

لم يرها رالف طيلة السنتين التي تلت زواجها، وإن فصل الشتاء الذي شكَّلَ بداية سكنها في روما، كان هو قد قضاه ثانيةً في سان ريمو، حيث لحقتْ به والدته في الربيع، والتي بعد ذلك ذهبت معه إلى إنجلترا ليريا ماذا كانوا يفعلون في البنك ـ وهي عمليةٌ لم تستطع أن تحثّه على أدائها. كان رالف قد استأجر منزلاً في سان ريمو؛ وهو فيلّا صغيرة كان قد سكنها ثانيةً في شتاءٍ آخر، لكن لاحقاً في شهر نيسان من هذه السنة الثانية كان قد نزل إلى روما.

كانت تلك هي المرة الأولى منذ زواجها والتي وقف فيها وجهاً لوجه مع إيزابيل؛ فرغبته آنذاك برؤيتها ثانيةً كانت أقوى رغبة. كانت تكتب له من حينٍ لآخر، لكن رسائلها لم تخبره بشيءٍ يريد معرفته. كان قد سأل والدته ماذا كانت فاعلةً بحياتها، وأجابته والدته ببساطة بأنها تعتقد بأنها كانت تستغلها إلى أقصى حدٍّ.

لم يكن لدى السيدة تاتشيت الاهتمام الذي يجعلها تتواصل مع من لا تراه، والآن ادّعت عدم انسجامها مع ابنة أختها التي نادراً ما تراها.

بدا أن هذه الشابة تعيش بطريقةٍ محترمة بما يكفي، لكن السيدة تاتشيت لا زالت مقتنعة برأيها بأن زواجها كان عملاً رديئاً، وأنه لم يمنحها السعادة لتعتقد باستقرار إيزابيل الذي كانت متأكدةً من أنه مسألةٌ واهية جداً. احتكَّتْ من حينٍ لآخر في فلورنسا بالكونتيسة جيميني وهي تحاول دائماً جاهدةً لتقليل التواصل؛ فالكونتيسة تذكّرها بأوزموند الذي يجعلها تتذكر إيزابيل. كان الكلام عن الكونتيسة جيميني قد قلَّ هذه الأيام، لكن السيدة تاتشيت لم تستبشر بذلك خيراً، بل دلَّ فقط على أنه كم كان الكلام عليها كثيراً قبل ذلك. كان هناك رأي قويم أكثر من إيزابيل في شخص مدام ميرليه؛ لكن علاقة مدام ميرليه مع السيدة تاتشيت قد تعرضت إلى تغيير ملموس، وأن خالة إيزابيل أخبرتها وبدون إسهاب بأنها كانت قد لعبت دوراً حاذقاً للغاية. إن مدام ميرليه التي لم تتشاجر أبداً مع أي أحد، والتي تعتقد في الوقت نفسه أن لا

أحد يستحق ذلك، والتي حققتْ معجزة العيش مع السيدة تاتشيت بصورةٍ أو بأخرى لعدة سنوات بدون أن تُظهِر أيّاً من علامات الانفعال ـ قد اتخذت الآن أسلوباً مترفعاً جداً وأعلنت أن هذا كان تهمة لم تستطع أن تتنازل لتدافع عن نفسها منها. رغم ذلك، أضافت (بدون أن تتنازل) بأن تصرفها كان فقط بسيطاً جداً، وأنها كانت تصدق فقط ما تراه، وأنها رأت إيزابيل غير متلهفة لتتزوج وأوزموند لم يكن بدوره متلهفاً ليحب (إن زياراته المتكررة لا تعني شيئاً؛ وكان ضجِراً حتى الموت وهو على قمة تلة وأتى فقط لأجل التسلية). احتفظت إيزابيل بعواطفها في نفسها، وكانت رحلتها إلى اليونان ومصر قد ذرَّتِ الرماد بفعالية في عيون رفيقتها. تقبّلتْ مدام ميرليه الحدث ـ لم تكن مستعدة لتعتبره عملاً مخزياً؛ لكن اعتبارها بأنها لعبت أي دورٍ فيه، مزدوجاً أو مفرداً، كان اتهاماً احتجَّتْ ضده بتعجرف. وبلا شك، نتيجةً لموقف السيدة تاتشيت، وللضرر الذي سبّبَهُ هذا الموقف لعاداتٍ مخصصة في مواسم رائعة كثيرة، اختارت مدام ميرليه بعد هذا أن تقضي أشهراً عديدة في إنجلترا حيث كانت سمعتها غير مشوبة تماماً. كانت السيدة تاتشيت قد جعلَتْها مخطئة، فهناك بعض الأشياء التي لا يمكن أن تُغتفَر. لكن مدام ميرليه عانت بصمت، فقد كان هناك شيء شديد الحساسية في كرامتها.

أراد رالف ـ كما ذكرتُ ـ أن يفهم الأمر بنفسه؛ لكنه حينما خاض في هذا المسعى كان قد شعر الآن مجدداً كم كان أحمق بمهاجمته للفتاة. فقد لعب بالبطاقة الخاطئة، والآن كان قد خسر اللعبة. لا بدّ أنه لم يفهم شيئاً، لا بدّ أنه لم يتعلم شيئاً، فبالنسبة له كانت دائماً سترتدي قناعاً. كان يجب أن تكون خطته الحقيقية هي أن يتظاهر بالسرور لزواجها، وذلك لكي عندما ينهار أساسه لاحقاً ـ حسب تعبير رالف ـ فسيكون لها الشرف بأن تقول له بأنه كان مغفلاً، وسيكون راضياً بسرور أن يبدو مغفلاً ليعرف موقف إيزابيل الحقيقي. رغم ذلك، لم تسخر في الوقت الحاضر من

أفكاره الخاطئة ولم تتظاهر بأن طمأنينتها كانت مبررة؛ فإن ارتدَتْ قناعاً فهو قد غطّى وجهها بشكلٍ كامل. كان هناك شيء جامد وغير عفوي في الطمأنينة المرسومة عليه. قال رالف بأن ذلك لم يكن تعبيراً ـ لقد كان تمثيلاً، لقد كان حتى إنذاراً. كانت قد فقدت طفلها، وذلك أمر محزن، لكن ذلك كان حزناً بالكاد تحدثتْ عنه؛ فقد كان هناك المزيد لتتحدث عنه أكثر مما تمكنتْ من قوله لرالف. علاوةً على ذلك، كان ذلك الحدث يعود للزمن الماضي؛ فقد حصل قبل ستة أشهر وأنها قد أزاحت الآن جانباً تلك الذكرى الحزينة.

لقد بدا عليها بأنها تتصدَّر حياة الناس؛ إذ سمعها رالف تتحدث عن أن لديها «مكانة رائعة». ولاحظ بأنها ولَّدَتِ انطباعاً بأنها مُعَرَّضة للحسد على وجه الخصوص لدرجة كان يُعتقد، بين العديد من الناس، أن حتى التعرف عليها كان أمراً مُشَرِّفاً. لم يكن بيتها مفتوحاً لأي أحد، وأنها تقيم أمسيةً في الأسبوع لا يكون الناس مدعوين إليها بطبيعة الحال. لقد عاشت بفخامة مؤكدة، لكنكَ تحتاج إلى أن تكون عضواً في حلقتها لتدرك ذلك؛ لأنه لم يكن يوجد شيء تندهش منه، لا شيء لتنتقده، لا شيء حتى لتعجب به، في الأحداث اليومية للسيد والسيدة أوزموند.

أحسَّ رالف في كل هذا بيد الزوج، لأنه يعرف بأن إيزابيل لا تمتلك القابلية على توليد انطباعات مدروسة. لقد أدهشَتْهُ بامتلاكها حباً كبيراً للحركة، للمرح، للسهر، للرحلات الطويلة، للتعب؛ وهو شغفٌ ممتع، حماسي، حتى ممل، لتتعرّف على الآخرين، لترى الناس الذين يتم التحدث عنهم، لتستكشف المناطق المجاورة لروما، لتتغلغل في الآثار العتيقة لمجتمعها القديم. في كل ذلك كان هناك حصافة أقل بكثير من الحصافة في الرغبة باستيعاب التطور الذي اعتاد أن يُبدي سخريته بشأنه.

كان هناك نوع من العنف في بعض اندفاعاتها، نوع من القسوة في بعض

تجاربها، والتي سببت له الدهشة؛ حتى أنها بدت بالنسبة له تتحدث أسرع وتتنفس أسرع، مما هو قبل زواجها.

كانت قد انحدرت بالتأكيد في المبالغة ـ وهي التي اعتادت أن تهتم كثيراً بالحقيقة الخالصة. وبينما كانت فيما مضى تُسعَد كثيراً بالجدال الظريف وبالتسلية الفكرية (لم تبدُ أكثر سحراً مثلما تبدو في الحماسة اللطيفة للنقاش وهي تتلقّى ضربة قاضية باتجاه الوجه مباشرةً وتزيحها كالريشة)، بدت الآن تفكر بأن لا شيء يستحق ما يختلف الناس بشأنه أو ما يتفقون عليه.

كانت فيما مضى فضولية، والآن هي لامبالية، وأيضاً بالرغم من لامبالاتها إلا أن حيويتها أصبحت أكثر من ذي قبل.

لا زالت رشيقة، لكن أكثر جمالاً من ذي قبل. لم ينضج وجهها كثيراً، مع ذلك كان هناك اتساعٌ وتألّقٌ في نسقها الشخصي منح لمسةً من التكبّر إلى جمالها. يا لإيزابيل الطيبة القلب المسكينة؛ أي انكسارٍ أصابها؟ لقد جرَّتْ خطوتُها الخفيفة كومةً من الأقمشة وراءها، وبقي رأسها الذكي عبارة عن حليةٍ فخمة. لقد أصبحت الفتاة المتحمسة والحرة شخصاً آخر تماماً؛ فما رآه كان السيدة الرقيقة التي من المفروض أن تمثّل شيئاً ما. سأل رالف نفسه ماذا مثّلَتْ إيزابيل؟ وتمكّن فقط من الإجابة بالقول بأنها مثّلت جيلبرت أوزموند. ثم هتف بحزن: (يا إلهي، يا له من دور!). كان تائهاً بدهشة في غموض الأمور.

لقد رأى أوزموند، كما ذكرتُ؛ رآه عند كل دور. رأى كيف أبقى كل الأشياء ضمن حدود؛ كيف ضبطَ، أدار، حرّك، طريقة حياتهما. كان أوزموند في دوره المناسب؛ فأخيراً حظي بالوسيلة التي سيعمل بها. كان لديه دائماً التطلّع لإحداث تأثير، وكانت تأثيراته ناتجة عن تفكيرٍ عميق. فهي لا تنشأ بوسائل مبتذلة، بل الدافع يكون مبتذلاً عندما تكون الحيلة واسعة. فأن يحيط خصوصيته بنوعٍ من القداسة التي يُحسَد عليها، وأن يؤثر على رفاقه بإحساس

العزلة، وأن يجعل الناس يصدقون بأن منزله كان مختلفاً عن أي منزلٍ آخر، وأن يسبغ على الواجهة التي أظهرها للناس أصالةً رزينة ـ كان ذلك هو المجهود العبقري للشخصية التي نسبت إليها إيزابيل أخلاقيات راقية. قال رالف لنفسه (بأنه يشتغل على وسيلة الرقي. فهي ثروة نفيسة مقارنةً بوسائله السابقة).

كان رالف رجلاً ذكياً، لكن رالف ـ وفقاً لإحساسه الشخصي ـ لم يكن ذكياً بهذه الطريقة مثلما عندما لاحظ ـ بقلبه ـ أن أوزموند عاش حصرياً للناس تحت مظهر الاهتمام فقط بالقيم الروحية. إذ كان خادمهم المتواضع جداً وبعيداً عن أن يكون سيدهم مثلما يتظاهر، وكان المقياس الوحيد لنجاحه هو درجة اهتمامهم. لقد عاش وهو يتطلّع إلى ذلك من الصباح وحتى المساء، وكان الناس أغبياء جداً لعدم ارتيابهم أبداً باللعبة. فكل شيء فعله كان تكلّفاً ـ تكلّفاً بشكلٍ مهذب جداً بحيث إذا لم يكن المرء منتبهاً فسيُخطئه بداهةً.

لم يلتقِ رالف رجلاً عاش في عالم الاستعراض لهذه الدرجة الكبيرة. فأذواقه وأهدافه وإنجازاته ومجموعاته الفنية كانت كلها لغرضٍ ما. إن حياته على قمة تلّة في فلورنسا هي موقفه المرتبك من السنين. فعزلته وضجره وحبه لابنته وأخلاقه الحسنة وأخلاقه السيئة كانت سماتاً كثيرة لصورةٍ ذهنية برزت له على الفور كنموذجٍ لعدم الموضوعية والغموض. لم يكن طموحه هو أن يُرضي الناس بل ليُرضي نفسه بإثارة فضول الناس ومن ثم رفْض إشباع ذلك الفضول. إن احتياله على الناس جعله يشعر بالعظمة دائماً. كان الشيء الذي فعله في حياته ليرضي نفسه بشكلٍ صادقٍ أكثر هو زواجه من الآنسة آرتشر؛ رغم أن الناس السذّج في هذه الحالة بالفعل قد تجسّدوا إلى حدٍّ ما في المسكينة إيزابيل التي كانت مرتبكة إلى أقصى حدٍّ من هواها. شعر رالف طبعاً بكفاءةٍ لكونه ثابتاً على مبدأ؛ إذ كان قد اعتنقَ مبدأً، وبما أنه قد عانى بسببه فلم يتمكن من تركه. أقدّم هذا الوصف البسيط لبنوده لأنها قد تكون نافعة في الوقت المناسب.

من المؤكد بأنه كان ماهراً جداً في جعل الحقائق تتناسب مع نظريته ـ حتى الحقيقة التي تقول إنه خلال الشهر الذي أمضاه في روما في هذه الفترة، بدا زوج المرأة التي أحبَّها أنه لا يعتبره عدوّاً إطلاقاً. بالنسبة لجيلبرت أوزموند، لم تكن لرالف تلك الأهمية. لم يكن الأمر هو أنه ليس له أهمية كصديق بل بالأحرى ليس له أهمية من الأساس. فقد كان ابن خالة إيزابيل وكان مريضاً نوعاً ما بشكلٍ كريه ـ كان أوزموند قد تعامَلَ معه على هذا الأساس. فاستفهم منه عمّا هو مهم، سأل عن صحته، عن السيدة تاتشيت، عن رأيه بمناخ الشتاء، وفيما إذا كان مرتاحاً في فندقه. ولم يقم، في المناسبات القليلة لالتقائهما، بمخاطبته بكلمة واحدة لا معنى لها؛ بل امتلَكَ أسلوبه دائماً التحضُّر اللائق بشخصٍ ناجح وواعٍ بوجود ضعفٍ محسوس. لأجل كل ذلك حظي رالف في النهاية بتصورٍ جوهري واضح من تصورات أوزموند سَهَّلَ على زوجته قليلاً مواصلة استقبال السيد تاتشيت. فهو لم يكن غيوراً ـ لم يكن لديه ذلك العذر؛ فلا أحد يمكن أن يكون غيوراً مع رالف. لكنه جعل إيزابيل تدفع ثمن لطف الأيام الخوالي والذي لا يزال بقي منه الكثير؛ ولأن رالف لا يملك فكرةً عن دفعها ثمناً كبيراً، لذا عندما تأكدتْ شكوكه، سحب نفسه. وبعمله هذا كان قد حرم إيزابيل من عملٍ ممتعٍ جداً؛ فقد كانت تتساءل باستمرار ما هو السبب الجميل الذي كان يبقيه حياً. فاستقرَّ رأيها بأن السبب كان حبه للدردشة؛ فدردشته كانت أفضل مما مضى. كان قد تخلّى عن التجوّل ولم يعد ذلك المتسكع الظريف. وجلس طوال اليوم في كرسي ـ أي كرسي تقريباً سيفي بالغرض، وكان معتمِداً جداً على ما ستفعله له بحيث لو لم يكن حديثه عن ما يراه لكنتَ اعتقدتَ بأنه أعمى.

إن القارئ يعرف مسبقاً عنه أكثر مما كانت إيزابيل ستعرف يوماً، ولذلك يمكن أن يُمنح القارئ المفتاح إلى اللغز. وهو أن ما أبقى رالف

حياً كان ببساطة أنه لم يكن قد اكتفى بعد من رؤية الإنسانة التي أحبّها إلى أقصى حدٍّ في هذه الحياة؛ لم يكن مكتفياً بعد. كان هناك المزيد ليحدث، ولم يكن ينوي ترك ذلك. لقد أراد أن يرى ماذا كانت ستفعل بزوجها ـ أو ماذا كان سيفعل بها زوجها. كان ذلك فقط أول حدث من الدراما، وكان عازماً على الجلوس حتى نهاية المسرحية. كان عزمه ساري المفعول؛ فقد أبقاه مستمراً في العيش حوالي ثمانية عشر شهراً أكثر، حتى وقت عودته إلى روما مع اللورد واربيرتون، ومنحه بالفعل مظهر العزم على العيش لأجلٍ غير مسمًّى لدرجة أن السيدة تاتشيت ـ رغم أنها عُرضة لاضطراب التفكير في موضوع ابنها الغريب، الوحيد، الذي لن يُعَوَّض، أكثر من أي وقتٍ مضى ـ لم تقلق لتبحر إلى أرضٍ بعيدة، كما علمنا.

إن كان رالف قد بقي حيّاً بفعل التشوّق، فإن إيزابيل بقدرٍ كبير من الشعور نفسه ـ وهو قلق التساؤل بأية حالة ستجده ـ كانت تصعد إلى شقته في اليوم الذي تلا إبلاغ اللورد واربيرتون لها بوصوله إلى روما. أمضت ساعةً معه؛ كانت هذه هي الزيارة الأولى من عدة زيارات. زاره جيلبرت أوزموند بانتظام، وأتى رالف أكثر من مرة إلى قصر روكانيرا عند إرسالهما لعربتهما له.

مرَّ أسبوعان، وعند نهايتهما أبلغ رالف اللورد واربيرتون بأنه فكّر في النهاية في أن لا يذهب إلى صقلية. كان الرجلان يتعشيان معاً بعد يومٍ قضاه الأخير بالتجوّل في كامباجنا[1].

كانا قد تركا المائدة، وكان اللورد واربيرتون الذي يقف أمام الموقد يشعل سيجارة والتي أزالها على الفور من شفتيه.

ـ (ألن تذهب إلى صقلية؟ إلى أين ستذهب إذن؟).

---

(1) كامباجنا: بلدة صغيرة تقع جنوب إيطاليا. (المترجمة)

قال رالف، من على الأريكة، بوقاحة تماماً: (حسناً، أظن بأنني لن أذهب إلى أي مكان).

ـ (هل تقصد بأنكَ ستعود إلى إنجلترا؟).

ـ (أوه، لا يا عزيزي، سوف أبقى في روما).

ـ (إن روما لن تنفعكَ؛ فروما ليست دافئة بما يكفي).

ـ (يجب أن تنفعني. سوف أجعلها تنفعني. انظُرْ كم أصبحتُ بحالة جيدة).

نظر اللورد واربيرتون إليه قليلاً وهو يدخن سيجاراً وكأنه يحاول أن يفهم ذلك.

ـ (لقد أصبحتَ أفضل مما كنتَ عليه في الرحلة بالتأكيد. أتساءل كيف عانيتَ ذلك. لكنني لا أفهم حالتكَ. أنصحكَ أن تجرّب صقلية).

قال رالف المسكين: (لا أستطيع أن أجرّب. لقد اكتفيتُ من التجربة. لا أستطيع أن أتحرك أبعد من ذلك. لا يمكنني أن أُجابه هذه الرحلة. تَخَيَّلْني بين سكايلا وكريديس![1] لا أريد أن أموت في الأراضي الصقليّة ـ لكي أُختطَف، مثل بروسيربابن في المكان نفسه، إلى الظلمات البلوتونية).[2]

تساءل سيادة اللورد: (لماذا بحق الشيطان أتيتَ إلى هنا إذن؟).

ـ (لأن الفكرة سلبَتْني. أرى أنها لن تنفع. فلا يهم فعلاً أين أنا الآن. لقد

---

(1) بين سكايلا وكريديس: هما وحشان أسطوريان ذكرهما هوميروس في ملحمته الأوديسة، يعيشان في مضيق مسينا بين صقلية وكلابريا، ويحتل كل واحد منهما أحد جوانب المضيق ويشكلان تهديداً للبحّارة الذين يمرّون عبره من كلا الجانبين، فيصبحون بين تهديد سكايلا وكريديس. وعبارة (بين سكايلا وكريديس) هو مثل يُضرب لمن يجب عليه أن يختار أهون الشرَّين. (المترجمة)

(2) في الأساطير الإغريقية، يعتبر بلوتو إله العالم الأسفل وكان قد اختطف الإلهة بروسيربابن ليجعلها إلهة العالم الأسفل. (المترجمة)

استنفدتُ كل الوصفات، وتجرعتُ كل المناخات. سأبقى هنا كما أنا. ليس لدي ولا بنت خالة واحدة في صقلية ـ ولا حتى ابنة خالة متزوجة).

ـ (إن ابنة خالتكَ عاملٌ محفّز بالتأكيد. لكن ماذا يقول الطبيب؟)

ـ (لم أسأله، ولا أهتم مطلقاً. فلو مِتُّ هنا فسيدفنني أوزموند. لكنني لن أموت هنا).

ـ (آمل أن لا يحصل هذا).

واصَلَ اللورد واربيرتون التدخين متأملاً. فاستأنف الكلام: (حسناً، يجب أن أقول: بالنسبة لي، أنا مسرور جداً بأنكَ لا تصرّ على صقلية، فلدي رعب من تلك الرحلة).

ـ (آه، لكن لا حاجة لأن يكون الموضوع مهماً بالنسبة لكَ فلم أكن أعتزم أن أجرجركَ معي في قافلتي).

ـ (أنا بالتأكيد لم أقصد أن أدعكَ تذهب وحدك).

قال رالف: (يا عزيزي اللورد واربيرتون، لم أنتظر منكَ أبداً أن تأتي إلى أكثر من هذا الحد).

قال اللورد واربيرتون: (يجب أن أذهب معكَ وأراكَ مستقراً).

ـ (أنتَ مسيحي طيب جداً. أنت رجل عطوف جداً).

ـ (ومن ثم أعود إلى هنا).

ـ (ومن ثم تعود إلى إنجلترا).

ـ (كلا، كلا، سوف أبقى).

قال رالف: (حسناً، إن كان هذا هو ما ينوي عليه كلانا فلا أرى أين هي صقلية في الموضوع!).

كان رفيقه صامتاً. فجلس وهو يحدّق على النار. في النهاية، وهو يرفع

نظره، انفجر في الكلام: (قل لي، هل قصدتَ فعلاً الذهاب إلى صقلية عندما بدأنا الرحلة؟).

ـ (آه، أنت تسأل كثيراً! دعني أسأل أولاً، هل أتيتَ معي حبّاً بي؟).

ـ (لا أعلم ماذا تقصد من ذلك. أنا أردتُ أن أسافر خارج البلاد).

ـ (أشك بأن كلانا يلعب لعبته الصغيرة).

ـ (تحدَّثْ عن نفسكَ. أنا لم أُخْفِ رغبتي بتاتاً في أن أتواجد هنا لفترة قصيرة).

ـ (نعم، أتذكرُ بأنكَ قلتَ بأنكَ أردتَ رؤية وزير الشؤون الخارجية).

ـ (لقد رأيتُه ثلاث مرات. إنه ظريف جداً).

قال رالف: (أعتقدُ بأنكَ نسيتَ ما أتيتَ لأجله).

أجاب رفيقه بتجهّمٍ قليلاً: (ربما).

كان هذان الاثنان رجلين من جيلٍ لم يتميز بافتقاد التكتّم، وكانا قد سافرا معاً من لندن إلى روما بدون إشارة واحدة للأمور التي كانت في الصدارة في ذهن كل واحد منهما. كان هناك موضوع قديم كانا قد تناقشا به مرة، لكنه فقد مكانته المعروفة في ذهنهما. وحتى عند وصولهما إلى روما حيث أعادتهم أشياء كثيرة إلى ذلك الموضوع، حافظا على الصمت نفسه شبه الخجول، شبه الكتوم.

واصل اللورد واربيرتون كلامه، بغتةً، بعد توقفٍ قصير: (مع ذلك، أنصحك بأن تأخذ موافقة الطبيب).

ـ (إن موافقة الطبيب ستفسدها. فأنا لا آخذ بها عندما أحتملُ الأمر).

سأل صديقُ رالف: (إذن، ماذا ترتئي السيدة أوزموند؟).

ـ (أنا لم أخبرها. ربما ستقول بأن روما باردة جداً، وحتى أنها ستعرِض عليّ أن تذهب معي إلى كاتانيا. إنها قادرة على ذلك).

ـ (سأحبّ ذلك لو كنتُ مكانكَ).

ـ (لن يوافق زوجها).

ـ (آه، حسناً، يمكنني تخيّل ذلك، رغم أنه يبدو لي بأنكَ لستَ ملزماً لتهتم بما يريده زوجها، فذلك شأنه هو).

قال رالف: (لا أريد أن أسبب المزيد من المشاكل بينهما).

ـ (وهل هناك مشاكل كثيرة مسبقاً؟).

ـ (هنالك استعدادٌ تام لها، ومغادرتها معي كانت ستسبب الانفجار. فأوزموند لا يعجبه ابن خالة زوجته).

ـ (إذن، كان سيفتعل شجاراً بالطبع. لكن ألن يفتعل شجاراً إن بقيتَ هنا؟).

ـ (ذلك هو ما أريد أن أراه. لقد افتَعَلَ واحداً في المرة الأخيرة التي كنتُ فيها في روما ومن ثم فكرتُ أن من واجبي أن أختفي. والآن أظن أن من واجبي أن أبقى وأدافع عنها).

شرع اللورد واربيرتون يقول بابتسامة: (يا عزيزي تاتشيت، إن قواكَ الدفاعية....!) لكنه رأى شيئاً على وجه رفيقه ألجمه عن الكلام. فقال بدلاً من ذلك: (يبدو لي أن واجبكَ، بهذه الافتراضات، مسألة لطيفة قليلاً).

لم يجب رالف بشيءٍ لوهلةٍ، ثم ردَّ أخيراً: (صحيح أن قواي الدفاعية ضئيلة، لكن حينما تكون قواي الشرسة لا تزال أكثر ضآلة، لن يعتقد أوزموند في النهاية بأنني لا أساوي بارود مسدسه).

ثم أضاف: (على أية حال، هناك أشياء أتطلّعُ أن أراها).

ـ (إذن أنت تضحّي بصحتكَ من أجل تطلعاتكَ؟)

ـ (أنا لستُ مهتماً كثيراً بصحتي، وأنا مهتم بشدّة بالسيدة أوزموند).

أضاف اللورد واربيرتون بسرعة: (أنا كذلك. لكن ليس مثلما كنتُ يوماً).

كانت تلك إحدى الإشارات التي لم يجد لحدّ الآن فرصة ليقولها.

تساءل رالف متشجِّعاً بهذه الثقة: (هل أدهشكَ بأنها غير سعيدة جداً؟).

ـ (حسناً، لا أعلم، فبالكاد فكرتُ في ذلك. لقد أخبرَتْني في الليلة السابقة بأنها كانت سعيدة).

صاح رالف مبتسماً: (آه، أخبرَتْكَ، طبعاً).

ـ (لا أعلم ذلك، فقد بدا لي بأنني لم أكن كثيراً ذلك الشخص الذي يمكنها أن تشتكي له).

ـ (تشتكي؟ إنها لن تشتكي أبداً. فقد فعلَتْ ما فعلَتْ وهي تعلم ذلك. إنها لن تشتكي، خصوصاً لكَ. إنها حذرةٌ جداً).

ـ (لن تحتاج لأن تكون كذلك. فأنا لا أقصد التودد لها ثانيةً).

ـ (أنا مسرورٌ لسماع ذلك. فلا يمكن أن يكون هناك شك على الأقل في واجبكَ).

قال اللورد واربيرتون بجدية: (آه، لا مطلقاً!).

واصل رالف الكلام: (اسمح لي أن أسأل، هل أنت لطيفٌ جداً لهذه الدرجة مع الفتاة الصغيرة لتُظهِرَ بأنكَ لا تقصد أن تتودد لإيزابيل؟).

جفل اللورد واربيرتون قليلاً، فنهض ووقف أمام النار وهو ينظر إليها بإمعان.

ـ (هل يدهشكَ هذا لأنه أمرٌ سخيفٌ جداً؟).

ـ (سخيف؟ مطلقاً، إن أنت تحبها حقاً).

ـ (أنا أراها إنسانة صغيرة ومرحة. لا أدري متى أسعدَتْني أكثر فتاةٌ في مثل هذا العمر).

ـ (إنها مخلوقةٌ فاتنة. آه، إنها على الأقل أصيلة).

ـ (هناك طبعاً الفرق في أعمارنا ـ أكثر من عشرين عاماً).

قال رالف: (يا عزيزي واربيرتون، هل أنت جاد؟).

ـ (جاد تماماً ـ بقدر ما وصلتُ إليه).

هتف رالف: (أنا مسرورٌ جداً. وليكن اللّه في عوننا. كم سيكون أوزموند العجوز مسروراً!).

عبس رفيقه: (لا تفسد الأمر. فأنا لن أطلب ابنته للزواج كي أسعده).

ـ (سيعاند ليكون سعيداً رغم ذلك).

قال سيادة اللورد: (إنه ليس معجباً بي وأنا على هذه الحال).

ـ (على هذه الحال؟ يا عزيزي واربيرتون، إن العيب الذي في مركزكَ هو أن الناس ليست بحاجة لأن تكون معجبة بكَ إطلاقاً لتتمنى أن ترتبط بكَ. فأنا الآن، وأنا على هذه الحال، سأثق بسرور بأنهم أحبوني).

بدا اللورد واربيرتون بأنه بالكاد في مزاجٍ يسمح بتقدير بديهيات عامة ـ فقد كان يفكر في مسألة خاصة.

ـ (هل ترى بأنها ستصبح سعيدة؟).

ـ (الفتاة نفسها؟ ستُسعَد بالتأكيد).

ـ (كلا، كلا. أقصد السيدة أوزموند).

نظر إليه رالف لبرهة.

ـ (يا رفيقي العزيز، ما علاقتها هي بالموضوع؟).

ـ (هي ستقرر. فهي مُحِبَّةٌ جداً لبانسي).

ونهض رالف على مهل.

ـ (صحيح جداً ـ صحيح جداً. إنه سؤال مثير للاهتمام ـ إلى أي مدى ستحملها محبتها لبانسي).

فوقف هناك للحظة ويداه في جيوبه وملامحه مكفهرة قليلاً.

(أنتَ تعلم بأنني آمل أن تتأكد جداً ـ جداً. بحق الشيطان! لا أدري كيف أقولها) ثم توقف عن الكلام.

ـ (نعم، قلتَها. أنت تعرف كيف تقول كل شيء).

ـ (حسناً، إنه أمرٌ محرج. آمل أن تتأكد بأن من بين مزايا الآنسة أوزموند في كونها.... آ.... قريبة جداً من زوجة أبيها أنه ليس قرباً جوهرياً؟).

صاح اللورد واربيرتون بغضب: (يا إلهي، يا تاتشيت! إلى أين تأخذني؟).

***

الفصل 40

لم تكن إيزابيل ترى مدام ميرليه كثيراً منذ زواجها، فهذه السيدة قد أفرطت في الغياب المتكرر عن روما. فتارةً تمضي ستة أشهر في إنجلترا، وتارةً أخرى تمضي جانباً من الشتاء في باريس. كانت تقوم بزياراتٍ عديدة إلى أصدقاء بعيدين، وتحبّذ فكرة أنها في المستقبل ستكون رومانية متأصلة بشكل أقل مما هو في الماضي لأنها كانت في الماضي متأصلة فقط بمعنى امتلاكها دائماً لشقّةٍ في واحدة من أكثر الأحياء إشراقاً في البنسيان ـ شقة بقيت دائماً فارغة ـ وأوحى ذلك إلى التطلّع إلى الغياب المستمر تقريباً، وهو خطرٌ كانت إيزابيل في إحدى الفترات ميّالة لأن تستهجنه كثيراً. إن المخالطة قد لطّفَتْ إلى حدٍّ ما انطباعها الأول عن مدام ميرليه، لكنها لم تغيره بشكلٍ جوهري، فلا يزال هناك الكثير من التساؤل الباعث للدهشة فيه. كانت هذه الشخصية مسلّحة من جميع الاتجاهات؛ من الجميل أن ترى شخصيةً متأهبةً للمعارك الاجتماعية. لقد حملَتْ رايتها بحذر، لكن أسلحتها كانت فولاذية لامعة، واستعملَتْها بمهارةٍ أدهشَتْ إيزابيل أكثر وأكثر كمهارةِ شخصٍ محنّك. لم تتعب أبداً، لم يستبدّ بها التبرّم، لم تُظهِر أبداً بأنها بحاجة للراحة أو العزاء. كانت لها آراؤها الخاصة بها، والتي كشفَتْ فيما مضى عن الكثير منها لإيزابيل التي علمَتْ أيضاً أن تحت مظهر التحكّم الذاتي البالغ أخفت صديقتُها المثقفة للغاية حساسيةً عميقة. لكن عزيمتها كانت سيدة حياتها؛ فقد كان هناك شيء شجاع في الطريقة التي استمرَّتْ بها في الحياة. كانت كأنها عرفَتْ سرّ ذلك ـ كأنّ فن الاستمرار في الحياة كان حيلةً بارعةً حَزِرَتْها.

أصبحت إيزابيل، كلما تقدّمت في السن، تعرف النفور والاشمئزاز؛ فقد كانت هناك أيامٌ تبدو فيها الدنيا قاتمة وتسأل نفسها ببعض القسوة عن الشيء الذي كانت تدّعي بأنها تعيش من أجله. كانت طريقتها القديمة هي أن تعيش بالحماسة، أن تقع بشكل مفاجئ في الحب أو في فكرة مغامرة جديدة. عندما كانت أصغر سناً اعتادت على أن تنتقل من شعورٍ بسيط بالسعادة إلى آخر وبالكاد يوجد بين شعور وآخر فترات راكدة. لكن مدام ميرليه كانت قد قمعَتِ الحماسة؛ فهي فلم تقع هذه الأيام في حب أي شيء؛ وعاشت بشكل كلي بالمنطق والحكمة اللتين كانت إيزابيل أحياناً ستدفع أي شيء مقابل دروس فيهما. فلو كانت صديقتها اللامعة بقربها لالتمسَتْ منها ذلك. فقد أصبحَتْ مدركةً أكثر من ذي قبل لفائدة أن تكون كذلك ـ أي أن تصنع لنفسها مظهراً قوياً، نوعاً من درعٍ من الفضّة.

لكن، كما قلتُ، لم يكد يحلّ الشتاء حتى علِمْنا أثناءَه مجدداً ولكن مؤخراً مع بطلتنا أن الشخصية المعنيّة أقامت بصورة دائمة في روما. والآن، كانت إيزابيل تراها أكثر مما فعلَتْ منذ زواجها؛ لكن خلال هذه الفترة كانت احتياجات وميول إيزابيل قد تغيرت بشكلٍ كبير. فما كانت اليوم تستعين بمدام ميرليه من أجل النصيحة؛ فقد فقدت الرغبة في معرفة الحيلة البارعة لهذه السيدة. وإن كان لديها مشاكل، فعليها أن تحتفظ بها لنفسها، وإن كانت الحياة صعبة فلن يسهلها اعترافها بأنها مهزومة.

كانت مدام ميرليه بلا شك ذات فائدة عظيمة لنفسها ومفخرة لأي جماعة. لكن هل كانت ـ أو هل ستكون ـ ذات فائدة لآخرين في أوقات العسر؟

كانت أفضل طريقة لتستفيد من صديقتها ـ هكذا فكرت إيزابيل دائماً في الحقيقة ـ هي أن تقلّدها، أن تكون قوية ومتألقة مثلها. فهي لم تعرف الارتباك، ولا أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار، قررت إيزابيل للمرة الخمسين التخلص من ارتباكها. وبدا لها أيضاً، عند تجدُّد تواصلٍ كان قد انقطع ظاهرياً، أن حليفتها

القديمة كانت مختلفة، كانت تقريباً غير مبقّعة ـ تبالغ في التخلص من خوفٍ معين ومفتَعَل قليلاً من أن تكون غير مهذّبة. كان رأي رالف تاتشيت، كما نعلم، هو أنها ميّالة للتطرّف، أو بالتحديد كما نقول بالعبارات الدارجة: تُبالِغ في فعل الشيء. لم تكن إيزابيل تقبل هذه التهمة ـ لأنها في الحقيقة لم تكن قد فهمَتْها تماماً؛ فتصرُّف مدام ميرليه، وفقاً لتصوّر إيزابيل، حمل دائماً طابع الذوق السليم، وكان دائماً «هادئاً». لكن في موضوع عدم رغبتها بالتدخّل في الحياة المنزلية لعائلة أوزموند، خطر لشابتنا في النهاية بأنها بالغت قليلاً. فلم يكن ذلك طبعاً ذوقاً سليماً، بل كان ذلك شيئاً قاسياً قليلاً.

إن مدام ميرليه تعي كثيراً بأن إيزابيل متزوجة، وأن لديها الآن اهتمامات أخرى، وأنها رغم معرفتها بجيلبرت أوزموند وابنته الصغيرة بانسي جيداً أكثر من أي أحد آخر تقريباً، إلا أنها بعد كل شيء لم تكن من ضمن دائرته المنزلية.

لقد كانت حذرة؛ إذ لم تتحدث أبداً عن علاقتهما حتى يُطلَب منها ذلك، وحتى أنها يُضغَط عليها لتتكلم عندما يكون ما تقوله غير كافٍ؛ وكان لديها خوف من أن تبدو بأنها تتدخّل. كانت مدام ميرليه صريحة كما نعلم، وفي أحد الأيام عبّرَتْ عن هذا الخوف بصراحةٍ لإيزابيل، فقالت: (يجب أن أكون حذرة، فقد أهينكِ بكل سهولة بدون أن أشكّ في ذلك. سيكون من حقكِ أن تنزعجي حتى وإن كانت نواياي بريئة للغاية. لا يجب علي أن أنسى بأنني أعرف زوجكِ لمدة طويلة قبل أن تعرفينه؛ فلا يجب أن أدع ذلك يغرّر بي. لو كنتِ امرأةً سخيفة فستكونين غيورة. لكنكِ لست امرأةً سخيفة، أنا أعلم ذلك تماماً. لكن حتى أنا لستُ سخيفة؛ لذا قررتُ أن لا أدخل في متاعب. فالإساءة البسيطة تحدث بسرعة؛ وزلّة الكلام تحصل قبل أن يشعر المرء بذلك. لو كنتُ أرغب بالتودد إلى زوجكِ كان لدي طبعاً عشر سنوات لأفعل ذلك، ولا يوجد ما يمنع؛ لذا ليس من المعقول أن أفعل ذلك اليوم وأنا أقل جاذبية بكثير مما كنتُ. لكن إن كنتُ سأزعجُكِ لأنكِ تبدين بأنكِ تأخذين مكاناً لا يعود

لي، فلن تفكري بهذه الطريقة، بل كنتِ ستقولين فقط بأنني كنتُ أنسى فروقاً معينة. أنا عازمةٌ على أن لا أنساها. إن الصديق الوفي بالتأكيد لا يفكر في ذلك دائماً؛ فالمرء لا يرتاب في أصدقائه ظلماً. أنا لا أتهمكِ مطلقاً يا عزيزتي؛ لكنني أرتاب في الطبيعة البشرية. لا تعتقدي بأنني أجعل من نفسي مزعجة، فأنا لا أراقب نفسي دائماً. وأعتقد بأنني أُثبتُ ذلك بشكلٍ كافٍ بالحديث معكِ مثلما أفعل الآن. على أية حال، إن كل ما أرغب بقوله هو إن كنتِ ستغارين ـ لأن ذلك هو الشكل الذي سيتخذه الموضوع ـ فسأكون على يقين بأن ذلك سيكون خطئي قليلاً. ولن يكون بالتأكيد خطأ زوجكِ).

استغرقت إيزابيل ثلاث سنوات لتفكّر مراراً وتكراراً في نظرية السيدة تاتشيت من أن مدام ميرليه هي من خططت لزواج السيد أوزموند. ونعلم كيف تلقَّتْ ذلك في البداية. قد تكون مدام ميرليه فعلاً هي من خطّط لزواج جيلبرت أوزموند لكنها بالتأكيد لم تخطط لزواج إيزابيل آرتشر. فقد كان ذلك من عمل.........

بالكاد عرفَتْ إيزابيل عَمَلَ مَنْ كان؛ عمل الطبيعة، عمل العناية الإلهية، الحظ، عمل الغموض الأبدي للأحداث. صحيح أن شكوى خالتها لم تكن بشكل رئيسي من تأثير مدام ميرليه بقدر ما هو من ازدواجيتها؛ إلا أنها رتّبت لهذا الحدث الغريب وبعد ذلك أنكرَتْ ذنبَها. لم يكن ذنب كهذا كبيراً بالنسبة لإيزابيل؛ إذ لا يمكنها أن تجعل من ذنب مدام ميرليه جريمة لكونها السبب المؤدّي لأهم صداقة كوّنَتْها يوماً. كان هذا هو ما خطر لها قبل زواجها مباشرةً بعد نقاشها القصير مع خالتها في وقتٍ كانت لا تزال قادرة فيه على إبداء تلك الإشارة الجوهرية الكبيرة ـ إشارة مؤرّخٍ رصين قليلاً ـ عن تاريخ شبابها القصير.

لو كانت مدام ميرليه قد أحبَّتْ تغيُّرَ حالتها لقالت لها فقط بأنها كانت فكرة سارّة جداً. علاوةً على ذلك، هي معها صريحة تماماً؛ إذ لم تُخْفِ أبداً رأيها الرفيع عن جيلبرت أوزموند.

اكتشفَتْ إيزابيل بعد زواجها بأن زوجها قد تبنّى رأياً مريحاً أقل عن الموضوع، ونادراً ما وافق على أن يشير ـ عند حديثه ـ إلى الحبّة الأكثر بروزاً والأكثر نعومة من مسبحة علاقتهما.

قالت إيزابيل في إحدى المرات: (ألا تحب مدام ميرليه؟ إنها تحترمكَ كثيراً).

أجاب أوزموند: (سأخبركِ مرة واحدة وبشكل نهائي؛ لقد أحببتُها مرة أكثر مما أحبها اليوم. أنا ضجرٌ منها، وأنا خجِلٌ قليلاً من ذلك. إنها طيبة للغاية بشكلٍ غير طبيعي قليلاً! أنا مسرور لأنها ليست في إيطاليا، فذلك يبعث على الراحةَ ـ على نوعٍ من الاسترخاء الروحي. لا تتحدثي عنها كثيراً جداً؛ إذ يبدو بأن ذلك يعيدها. سوف تعود في الوقت المناسب).

في الحقيقة، إن مدام ميرليه قد عادت قبل فوات الأوان ـ أقصد قبل فوات الأوان على استعادة أية فضيلة يمكن أن تكون قد فقدَتْها. لكن في تلك الأثناء إن كانت ـ كما ذكرتُ ـ قد أصبحتْ مختلفة بشكلٍ ملحوظ، فإن مشاعر إيزابيل أيضاً لم تكن هي نفسها تماماً. فإحساسها بالمأزق كان شديداً مثلما هو سابقاً، بل كان ساخطاً كثيراً. والإحساس الساخط نادراً ما يحتاج للمنطق مهما كان ما يفتقده، فهو يتزايد بكثافة كنبات ساق الغراب في حزيران.

إن حقيقةَ كون لمدام ميرليه يداً في زواج جيلبرت أوزموند قد توقفت عن أن تكون واحدة من مواضيعها التي تفكّر فيها، فقد يُكتب في النهاية بأنه لم يكن هناك الكثير لتشكرها عليه. وكلما مرّ الوقت، يكون هناك الأقل ثم الأقل، وقالت إيزابيل مرة لنفسها إنه ربما بدونها ما كانت هذه الأشياء لتحدث. إن هذه الفكرة في الواقع قد قُمعتْ على الفور؛ فقد شعرَتْ برعبٍ سريع لتفكيرها بها.

قالت: (مهما يحدث لي، اسمحي لي أن لا أكون متحاملة. دعيني أحمل همومي بنفسي ولا أزيحها إلى الآخرين!)

وُضعتْ هذه الرغبة، أخيراً، تحت الاختبار بذلك التبرير العبقري لسلوكها الحالي الذي رأت مدام ميرليه بأنه من المناسب أنها أبدَتْهُ، والذي وصفتُه؛ لوجود شيء باعثٍ على الانفعال ـ إذ كان هناك مظهر من السخرية يبدو قليلاً ـ في تحاملها الصرف وقناعاتها الواضحة.

لم يكن هناك شيء واضح اليوم في ذهن إيزابيل؛ إذ كان هناك اضطراب من الأسف، خليط من المخاوف. شعرت بأنها عاجزة وهي تستدير مبتعدةً عن صديقتها التي أبدت للتوّ تلك الملاحظات التي ذكرتُها. كانت مدام ميرليه تعرف القليل جداً عمّا كانت تفكر فيه! وفوق ذلك، كانت هي نفسها غير قادرة حتى على التفسير.

تغار منها وهي مع جيلبرت؟ إن هذه الفكرة لم توحِ في تلك اللحظة بواقعيّة قريبة. لقد تمنت قليلاً لو كانت الغيرة مرجّحة؛ لكان القصد منها هو التجديد إلى حدٍّ ما. ألم تكن الغيرة من علامات السعادة إلى حدٍّ ما؟ رغم ذلك، كانت مدام ميرليه حكيمة، حكيمة جداً بحيث كانت تدّعي بأنها تعرف إيزابيل أفضل مما تعرف إيزابيل نفسها.

كانت هذه الشابة دائماً خصبة في التحليل ـ الكثير منه ذو صبغة رفيعة؛ لكن لم يحدث بأنه أثمر (في أعماق قلبها) بشكل غني أكثر مما هو عليه اليوم.

صحيح بأنه كان لدى جميعهم شكل العائلة، إلا أنه يمكن أن نخلُص إلى قرار إلى أنها إن كانت تعيسة فلن يكون ذلك بسبب خطأ منها. إذ كان دائماً لدى روحها الجريحة المسكينة رغبة كبيرة لعمل ما بوسعها، وأنها لم تُحبَط بجديّة لحد الآن. لذا كانت الأمنية هي التشبث بالعدالة ـ أي أن لا تردّ على ذلك بانتقامٍ تافه. فإدخال مدام ميرليه بخيبة أملها سيكون انتقاماً تافهاً ـ خاصةً عندما ستكون السعادة المستمدة من ذلك غير صادقة تماماً. قد يغذّي هذا الانتقام إحساسها بالمرارة، لكنه لن يُضعِف تماسكها. كان من المستحيل أن

تدّعي بأنها لم تتصرف وعيناها مفتوحتان؛ فإن وُجدت يوماً فتاةٌ كانت دميةً فارغة فإنها هي. والفتاة الواقعة في الحب لا تكون دمية فارغة بالتأكيد، لكن المصدر الوحيد لخطئها كان موجوداً داخلها. لم تكن هناك مكيدة، لم يكن هناك كمين؛ فقد نظرَتْ وفكّرَتْ واختارت. عندما تكون المرأة قد ارتكبت خطأً كهذا فهناك طريقة واحدة فقط لإصلاحه ـ بشكل ممتاز تماماً (أوه، وبأقصى كبرياء!) وهو أن تقبل به. فحماقةٌ واحدةٌ كانت تكفي، خاصةً عندما كانت يجب أن تستمر إلى الأبد؛ وحماقةٌ أخرى لن تصلحها كثيراً.

يوجد في هذا التصريح المتكتم نُبلٌ أكيدٌ ساعد إيزابيل على الاستمرار، لكن مدام ميرليه كانت محقة، في كل ذلك، بأخذها لاحتياطاتها.

في أحد الأيام، بعد شهرٍ تقريباً من وصول رالف تاتشيت إلى روما، عادت إيزابيل من نزهةٍ مع بانسي. لقد كانت ممتنة جداً لبانسي في الوقت الحالي، لم يكن ذلك جزءاً من عزمها على أن تكون منصفة فقط، بل كان أيضاً جزءاً من تعاطفها تجاه الأشياء النقيّة والرقيقة. كانت بانسي عزيزة عليها، ولم يكن يوجد في حياتها شيء آخر امتلكَ صدق التعلّق بهذه المخلوقة الصغيرة أو حلاوة وضوحها بشأن ذلك. لقد كان هذا التعلّق كهديةٍ رقيقة ـ كيدٍ صغيرةٍ في يدها. من جانب بانسي، كان الموضوع أكثر من تعلّق ـ كان نوعاً من الثقة الشديدة القهرية. من جانب إيزابيل، كان شعورها بتعلّق الفتاة أكثر من متعة؛ فقد أثّرَ كفكرةٍ حاسمة عندما تهدد الدوافع بخذلانها. كانت تقول لنفسها يجب أن نلتزم بواجبنا حيث نجده، وأنه يجب علينا متابعته قدر الإمكان. كانت عاطفة بانسي إبلاغاً صريحاً؛ فقد بدت هذه العاطفة تقول بأن هذه فرصة، ليست مهمة ربما لكنها ليست قابلة للخطأ. لكنها بالنسبة لإيزابيل فرصةٌ لتكون نافعةً للطفلة أكثر مما تكون الطفلة نافعة لها.

ابتسمت إيزابيل، في هذه الأيام، لأنها تذكرت بأن رفيقتها الصغيرة كانت يوماً ما غامضة، لأنها فهمت الآن أن غموض بانسي هو ببساطة عِظَم مخيلتها.

لم تكن تستطع أن تتصور أحداً يمكنه أن يهتم بها بهذا القدر الكبير ـ الكبير للغاية بشكلٍ لا يمكن تصوّره ـ لدرجة الرضا. لقد رأت آنذاك هذه القدرة اللطيفة بشكلٍ عملي، وعرفَت الآن كيف يجب أن تقدّرها. لقد قدّرَتْها بأنها الوجود بأكمله ـ بأنها نوعٌ من العبقرية. لم يكن لدى بانسي الغرور ليتدخّل في ذلك، ورغم أنها كانت تُوَسّع تأثيرها باستمرار، إلا أنها لم تعتمد على ذلك.

تواجدت الاثنتان معاً بشكلٍ دائم؛ فنادراً ما تُرى السيدة أوزموند بدون ابنة زوجها. لقد أحبّتْ إيزابيل صحبتها؛ إذ كان لصحبتها تأثيرُ من يحمل إكليلاً مؤلّفاً كله من نوع الزهرة نفسه. وهكذا، لن تفرّط ببانسي، لن تفرّط بها تحت أي ظرف ـ جعلَتْ ذلك فريضة. كان للفتاة كل مظاهر السعادة وهي بصحبة إيزابيل أكثر مما هي بصحبة أي أحد آخر عدا والدها الذي كانت معجبة به بشدةٍ مُبَرَّرَةً ذلك بحقيقةِ أنه كان دائماً متسامحاً بشكلٍ سخي لأن الأبوّة كانت متعة استثنائية بالنسبة لجيلبرت أوزموند.

عرفَتْ إيزابيل كيف أحبت بانسي صحبتها وكيف استقصتْ وسائل إسعادها. كانت قد رأت أن أفضل طريقة لإسعادها كانت سلبية، وأصرَّتْ على عدم التسبب لها بالمتاعب ـ وهو اعتقادٌ لم يتضمن بالتأكيد إشارة إلى متاعب موجودة أصلاً. بناءً على ذلك، أصبحت خاضعة بشكلٍ بارع ومذعنة بشكلٍ خيالي تقريباً؛ فكانت حريصة على أن تَحِدّ من الحماسة التي توافق بها على اقتراحات إيزابيل والحماسة التي قد توحي إلى أنها تعتقد عكس ذلك. لم تقم بالاعتراض على أو التماس مسألةٍ لها علاقة بالمجتمع، ورغم أنها تُسَرُّ بالاستحسان لدرجة أن تستحيل شاحبةً عندما ينتابها، إلا أنها لا تحبس أنفاسها لأجل ذلك. إنها فقط تنظر له بتَوَقٍ مع كآبة ـ وهي هيئةٌ تجعل عينيها، كلما كبرت في السن، الأجمل في العالم.

خلال فصل الشتاء الثاني في قصر روكانيرا، عندما بدأت تذهب إلى

حفلات السمر والى الحفلات الراقصة، كانت دائماً وفي ساعةٍ معقولة أول من يقترح المغادرة لئلا تكون السيدة أوزموند متعَبة، وتقدّر إيزابيل التضحية بالحفلات الراقصة في الوقت المتأخر من الليل لأنها تعرف بأن مرافِقتها الصغيرة تُسَرُّ بحماس بهذه الحفلات وتنجذب خطواتها إلى الموسيقى كالجنيّة الطيبة. علاوة على ذلك، لم يكن لهذه الرفقة بالنسبة لها ما يعيقها، فقد أحبّت حتى الجوانب المرهِقة منها ـ احترار المراقص، رتابة الولائم، الزحام على الباب، الانتظار المرهِق للعربة.

خلال النهار، تجلس في هذه العربة بجانب زوجة أبيها بوضعية جامدة قليلاً، مقرّةً بالجميل، منحنيةً إلى الأمام ومبتسمةً بشكلٍ باهت وكأنها تؤخذ للتنزه لأول مرة. كانتا خلال هذا النهار الذي أتحدث عنه تخرجان من بوابات المدينة، وعند انقضاء نصف ساعة تغادران العربة لتنتظرهما على جانب الطريق بينما تتنزهان على القدمين بعيداً فوق العشب الجاف للكامباجنا المغطاة حتى فصل الشتاء بأزهار رقيقة.

كانت تلك عادة يومية تقريباً بالنسبة لإيزابيل التي كانت مولعةً بالتنزه على القدمين والتي تمتلك خطوة سريعة، وإن لم تكن خطوتها سريعة عند مجيئها لأول مرة إلى أوروبا.

لم تكن تلك هي شكل العادة التي أحبَّتها بانسي إلى أقصى حدٍّ، لكنها أحبتها لأنها أحبت كل شيء؛ وتستجيب بسرعةٍ إلى زوجة أبيها التي بعد ذلك، عند عودتهما إلى روما، أولت تقديراً لرغبتها بالتنزه في البنسيان أو متنزه فيلا بورغيزي. كانت تجمع حفنة من الأزهار في فجوة مشمسة بعيداً عن أسوار روما، وعندما تصل إلى قصر روكانيرا، تذهب مباشرةً إلى غرفتها لتضعها في الماء.

عبَرت إيزابيل إلى غرفة الاستقبال، الغرفة التي تشغلها عادةً، والثانية من حيث التسلسل من الغرفة الأمامية الكبيرة التي كان يتم الدخول إليها

من السلّم، والتي لم تستطع حتى أغراض أوزموند الفاخرة من أن تصحح مظهرها المتعرّي كثيراً.

كانت قد توقفت قليلاً خلف عتبة غرفة الاستقبال مباشرةً. كان سبب فعلها ذلك هو أنها تلقت انطباعاً. لم يكن هذا الانطباع جديداً على وجه التحديد، لكنها أحسّتْهُ كشيء جديد، ومنحتْها خطوتها الصامتة وقتاً لتستوعب المشهد قبل أن تقاطعه. فقد كانت هناك مدام ميرليه بقلنسوتها، وكان جيلبرت أوزموند يتحدث إليها؛ لوهلةٍ لم يكونا مُدركَيْنِ لدخولها. كانت إيزابيل قد رأت ذلك مراراً بالتأكيد، لكن ما لم تكن تراه أو على الأقل ما لم تلاحظه هو أن حديثهما تحوَّل على الفور إلى نوعٍ من الصمت المألوف الذي فهمَتْ منه على الفور أن دخولها كان سيفاجئهما. كانت مدام ميرليه تقف على السجادة بعيداً قليلاً عن النار، وكان أوزموند على الكرسي العميق منحنياً للخلف وينظر إليها. كان رأسها مرفوعاً ـ كالعادة ـ لكن عينيها كانتا ملتفتتين نحو عينيه. كان ما أدهشها في البداية هو أنه كان جالساً بينما مدام ميرليه واقفة؛ إذ كان هناك خروج عن المألوف في هذا أوقفها. ثم فهمت بأنهما وصلا لفاصلٍ عابر في تبادلهما للأفكار وكانا يتأملان، وجهاً لوجه، بحريةِ صديقين قديمين يتبادلان أحياناً أفكاراً بدون كلام. لم يكن يوجد في ذلك شيء يستدعي الصدمة، فقد كانا في الواقع صديقين قديمين. لكن الأمر صنع مشهداً استمر فقط للحظة، أشبه بومضة ضوء فجائية؛ فموضعهما المتقارِب ونظراتهما المحدِّقة المتبادَلة المستغرِقة، أدهشتها كأنها اكتشفت شيئاً. لكن ذلك انتهى كله في الوقت الذي رأتْهُ بوضوح.

رأتها مدام ميرليه ورحّبت بها بدون أن تتحرك؛ من ناحية أخرى، وثب زوجها على الفور. فهمهم على الفور شيئاً عن الرغبة في التنزه، وغادر الغرفة بعد أن استأذن من ضيفتهما.

قالت مدام ميرليه: (لقد أتيتُ لرؤيتكِ ظناً مني بأنكِ موجودة، ولأنكِ لم تكوني موجودة انتظرتُكِ).

سألت إيزابيل بابتسامة: (ألم يطلب منكِ الجلوس؟).

نظرت مدام ميرليه حولها: (آه، فعل ذلك، لكن كنتُ في طريقي للخروج).

ـ (يجب أن تبقي الآن).

ـ (بالتأكيد. لقد أتيتُ لسببٍ، فلدي شيء في ذهني).

قالت إيزابيل: (لقد قلتُ لكِ ذلك من قبل، وهو أنه يتطلب شيئاً غير اعتيادي ليأتي بكِ إلى هذا المنزل).

ـ (وتعلمين ما قلتُه لكِ؛ وهو سواء بأنني أتيتُ أو بقيتُ بعيدة فسيبقى لدي الدافع نفسه ـ وهو المحبة التي أحملها لكِ).

ـ (نعم، لقد قلتِ لي ذلك).

قالت مدام ميرليه: (تبدين الآن وكأنكِ لم تصدقي ذلك).

أجابت إيزابيل: (آه، إن عمق دوافعكِ هو آخر شيء أشك فيه!).

ـ (ستشكّين عاجلاً بصدق كلماتي).

هزت إيزابيل رأسها بشدة.

ـ (أعلم بأنكِ لطيفة معي دائماً).

ـ (بقدر سمحتِ لي. أنت لا تفهمين ذلك دائماً؛ فعلى المرء أن يترككِ لوحدكِ آنذاك. مع هذا، لم آتِ اليوم لأبدي لكِ اللطف؛ إنه موضوعٌ آخر تماماً. لقد أتيتُ لأتخلص من مشكلةٍ من مشاكلي ـ أي لأسلمها لكِ. كنتُ أتحدث إلى زوجكِ بشأنها).

ـ (أنا مندهشة لذلك، فهو لا يحب المشاكل).

ـ (خاصةً مشاكل أناسٍ آخرين، أعرف ذلك تماماً. لكن ولا أنت تعرفين ذلك على ما أعتقد. على أية حال، سواء تعرفين أم لا، يجب أن تساعديني. إنه بخصوص غوزييه المسكين).

قالت إيزابيل وهي تفكر: (آه، إذن إنها مشكلته وليست مشكلتكِ).

ـ (لقد نجح بإثقالي بها. إنه يأتي لرؤيتي عشر مراتٍ في الأسبوع ليتحدث عن بانسي).

ـ (نعم، إنه يريد الزواج منها. أعلم كل شيء عن الموضوع).

ترددت مدام ميرليه.

ـ (لقد فهمتُ من زوجكِ بأنكِ ربما لا تعلمين).

ـ (كيف له أن يعلم ما أعلم؟ فهو لم يتحدث معي أبداً عن الموضوع).

ـ (ذلك ربما لأنه لا يعرف كيف يتحدث عنه).

ـ (إنه مع ذلك نوع من السؤال الذي نادراً ما يُلام بشأنه).

ـ (نعم، لأنه عموماً يعرف جيداً بماذا يفكر، أما اليوم فهو لا يعرف).

قالت إيزابيل: (اعتقدت بأنك قد أخبرتِه؟).

ابتسمت مدام ميرليه ابتسامةً مرحة، ومقصودة.

ـ (هل تعلمين بأنكِ جافة قليلاً؟).

ـ (نعم. ولا يمكنني تحمُّل ذلك. لقد تحدث السيد غوزييه معي أيضاً).

ـ (إن لذلك سبباً ما. وهو أنكِ قريبة جداً من الطفلة).

قالت إيزابيل: (آه، بل بسبب كل العزاء الذي أقدمه له! إن كنتِ تعتقدينني جافة فأتساءل ماذا يعتقدني هو؟).

ـ (أعتقد بأنه يظن أنّ بإمكانكِ فعل أكثر مما فعلتِ).

ـ (لا يمكنني فعل شيء).

ـ (يمكنكِ على الأقل فعل أكثر مما أفعل. لا أدري ما هي العلاقة الغامضة التي اكتشفها بيني وبين بانسي. لكنه أتى إليّ منذ البداية وكأنني أمسك مصيره بيدي. والآن هو مستمر في العودة ليدفعني ليعلم إن كان يوجد أمل ليصبّ مشاعره).

قالت إيزابيل: (إنه واقعٌ في الحب كثيراً).

- (كثيراً جداً - بالنسبة له).

- (يمكنكِ أن تقولي كثيراً جداً بالنسبة لبانسي أيضاً).

أرخت مدام ميرليه نظرها لوهلة.

- (ألا تعتقدين بأنه جذّاب؟).

- (إنه أكثر الشباب المتواجدين هياماً - لكنه محدود التفكير جداً).

- (إنها كل ما تسنّى للسيد غوزييه أن يحب. إن السيد غوزييه ليس محدود التفكير).

قالت إيزابيل: (كلا، إن أهميته هي بأهمية منديل الجيب قليلاً - المناديل الصغيرة ذوات الحافات المخرّمة).

إن حس الدعابة لديها قد انقلب كثيراً مؤخراً إلى سخرية، لكنها سرعان ما خجلت من القيام بذلك بشأن موضوع بريء جداً كموضوع خطيب بانسي.

أضافت بسرعة: (إنه لطيف جداً، وصادق جداً، وهو ليس أحمقَ مثلما يبدو).

قالت مدام ميرليه: (إنه يؤكد لي بأنها معجبة به).

- (لا أعلم، فأنا لم أسألها).

- (أنتِ لم تسبري غورها قليلاً؟).

- (إنه ليس عملي، إنه عمل والدها).

قالت مدام ميرليه: (آه، أنت واقعية جداً!).

- (يجب أن أحكم بنفسي).

ابتسمت مدام ميرليه ابتسامتها أيضاً.

- (ليس من السهل مساعدتكِ).

قالت إيزابيل بجدية: (مساعدتي؟ ماذا تعنين؟).

ـ (إنه من السهل إثارة استياءكِ. ألا ترين كم أنا منتبهة لكي أكون حذرة؟ على أية حال، فأنا أبلغكِ مثلما أبلغتُ أوزموند بأنني أنفض يدي من شؤون حب الآنسة بانسي والسيد إدوارد غوزييه. فأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً! لا يمكنني أن أتحدث مع بانسي عنه).

ثم أضافت مدام ميرليه: (خاصةً وأنا لا أراه نموذجاً مثالياً للأزواج).

فكرت إيزابيل قليلاً؛ بعد ذلك، وبابتسامةٍ قالت: (أنتِ لا تنفضين يدكِ إذن!).

بعد ذلك أضافت ثانيةً وبنبرةٍ مختلفة: (أنتِ لا تستطيعين أن تنفضي يدكِ ـ أنت مهتمة كثيراً جداً).

نهضت مدام ميرليه على مهل، كانت قد حدجت إيزابيل بنظرةٍ سريعة بسرعةِ التلميح الذي وَمَضَ أمام بطلتنا قبل بضع لحظات. لكن هذه المرة لم ترَ الأخيرة شيئاً.

ـ (اسأليه في المرة القادمة وسترين).

ـ (لا يمكنني أن أسأله، لقد توقف عن المجيء إلى البيت. فقد جعله جيلبرت يعلم بأنه غير مرحّبٍ به).

قالت مدام ميرليه: (آه، نعم، لقد نسيتُ ذلك ـ رغم أن ذلك هو وطأة امتعاضه. يقول بأن أوزموند أهانَهُ رغم ذلك).

واصلت الكلام: (إن أوزموند لا يكرهه كثيراً كما يعتقد).

فنهضت وكأنها تُنهي المحادثة، لكنها تلكأت وهي تنظر حولها، وكان من الواضح أن لديها المزيد لتقوله. شعرت إيزابيل بذلك، وحتى أنها فهمت الموضوع المقصود، لكن إيزابيل أيضاً كان لها أسبابها الخاصة بها لأن لا تفتح الطريق.

أجابت مبتسمة: (لا بدّ أن ذلك أسعده، لو كنتِ أخبرتِهِ).

ـ (بالتأكيد أخبرتُهُ، لقد شجعتُه إلى أن يتحقق الأمر ونصحتُهُ بالصبر، وقلتُ بأن قضيته ليست ميؤوساً منها لو فقط أمسك لسانه وأصبح هادئاً. لسوء الحظ قرر أن يصبح غيوراً).

ـ (غيوراً؟).

ـ (غيوراً من اللورد واربيرتون ـ حسب قوله ـ المتواجد دائماً هنا).

كانت إيزابيل، التي كانت مرهَقة، جالسة، لكن عند هذا الكلام نهضت أيضاً وصاحت ببساطة وهي تنتقل ببطء إلى الموقد: (آه!).

راقَبَتْها مدام ميرليه عندما مرت وعندما وقفت لحظةً أمام الموقد وأعادت خصلةً خارجةً من شعرها إلى مكانها.

واصلت مدام ميرليه الكلام: (إن السيد غوزييه المسكين مستمر بالقول بأنه لا يوجد شيء مستحيل في وقوع اللورد واربيرتون في حب بانسي).

كانت إيزابيل صامتة قليلاً، استدارت مبتعدة عن الموقد، فأجابت في النهاية بشكلٍ ساهم وبرقّةٍ أكثر: (هذا صحيح ـ لا يوجد شيء مستحيل).

ـ (إن هذا هو ما يجب أن أعترف به للسيد غوزييه. وزوجكِ يعتقد ذلك أيضاً).

ـ (إن ذلك هو ما لا أعلمه).

ـ (اسأليه وسترين).

قالت إيزابيل: (لن أسأله).

أضافت مدام ميرليه: (اعذريني، فقد نسيتُ بأنكِ أشرتِ إلى ذلك. أنت بالطبع منتبهة بشكلٍ مستمر لتصرفات اللورد واربيرتون أكثر مني).

ـ (لا أرى سبباً لِمَ لا يجب عليّ أن أخبركِ بأنه يحب ابنة زوجي كثيراً؟).

ألقت مدام ميرليه ثانيةً واحدة من نظراتها السريعة.

ـ (يحبها، تقصدين ـ يقصد السيد غوزييه؟).

ـ (لا أعلم ماذا يقصد السيد غوزييه، لكن اللورد واربيرتون أعلمني بأنه مفتونٌ ببانسي).

ـ (وأنتِ لم تخبري أوزموند أبداً؟).

كانت هذه الملاحظة سريعة ومفاجئة، وقد انفجرت تقريباً من شفتيّ مدام ميرليه. فاستقرت عينا إيزابيل عليها.

ـ (أعتقد بأنه سيعرف في الوقت المناسب، واللورد واربيرتون لديه لسان ويعرف كيف يعبّر عن نفسه). أدركت مدام ميرليه على الفور بأنها تكلمت أسرع من المعتاد، وسبَّبَ هذا الإدراك تغيير لونها. فمنحت وقتاً لهذا الاندفاع الغادر كي ينحسر ثم قالت وكأنها كانت تفكر فيه قليلاً: (إن ذلك سيكون أفضل من الزواج من السيد غوزييه المسكين).

ـ (أفضل بكثير، على ما أعتقد).

ـ (سيكون أمراً سارّاً، سيكون زواجاً عظيماً. إن ذلك فعلاً لطف كبير منه).

ـ (لطفٌ كبير منه؟).

ـ (أن يضع عينيه على فتاةٍ صغيرة بسيطة).

ـ (أنا لا أرى ذلك).

ـ (إنه لأمرٌ طيب منكِ. لكن في النهاية، بانسي أوزموند.......).

صاحت إيزابيل: (في النهاية، بانسي أوزموند هي أكثر الأشخاص الذين عرفهم جاذبيةً!).

حدقت مدام ميرليه، وفي الواقع كانت ذاهلة تماماً.

ـ (آه، ظننتُ قبل قليل بأنكِ بدوتِ تحتقرينها قليلاً).

ـ (لقد قلتُ بأنها كانت محدودة التفكير. وهي كذلك. وكذلك اللورد واربيرتون).

ـ (وكذلك كلنا لو فكرتِ في ذلك. إن لم يكن ذلك أكثر مما تستحقه بانسي، فذلك أفضل. لكن إنْ علّقتْ عواطفها على السيد غوزييه فلن أعترف بأنها تستحق ذلك، وسيكون ذلك حماقة).

صاحت إيزابيل بسرعة: (إن السيد غوزييه مزعجٌ).

ـ (أتفقُ معكِ تماماً، وقد سعدتُ بمعرفة أنه لا يُتوقَّع مني أن أؤجج لهيبه. وعندما يزورني في المستقبل سيكون بابي مغلقاً بوجهه).

واستعدت مدام ميرليه للمغادرة وهي تلملم معطفها. رغم ذلك، كانت قد توقفت وهي في طريقها إلى الباب بطلبٍ غير منطقي من إيزابيل: (مع هذا، كوني لطيفة معه).

فرفعت كتفيها وحاجبيها ووقفت تنظر إلى صديقتها.

ـ (لا أفهم تناقضاتكِ! أنا لن أكون لطيفةً معه قطعاً لأنه سيكون لطفاً زائفاً. أنا أريد أن أراها متزوجة من اللورد واربيرتون. من الأفضل أن تنتظري حتى يطلبها للزواج).

قالت مدام ميرليه بسرعة: (إن كان ما تقولينه صحيحاً فسوف يطلبها للزواج، خاصةً إن جعلْتِهِ يفعل ذلك).

ـ (أن أجعله يفعل ذلك؟).

ـ (إن ذلك في مقدوركِ تماماً. فلديكِ تأثيرٌ كبيرٌ جداً عليه).

عبستْ إيزابيل قليلاً.

ـ (من أين علمتِ ذلك؟).

قالت مدام ميرليه وهي تبتسم: (أخبرتني السيدة تاتشيت، وليس أنت... أبداً ليس أنت!).

ـ (أنا بالتأكيد لم أخبركِ أي شيء من هذا القبيل).

ـ (قد تكونين فعلتِ ذلك منذ مدة بعيدة في مناسبةٍ سابقة... عندما كانت

إحدانا تتظاهر بالثقة بالأخرى، لكنكِ في الحقيقة لم تخبريني الكثير. لطالما ظننتُ ذلك من حينها).

كانت إيزابيل قد ظنت ذلك أيضاً، وأحياناً برضا مؤكّد. لكنها لم تعترف بذلك الآن ـ ربما لأنها لم ترغب بالظهور بأنها مبتهجة بذلك.

ردت ببساطة: (يبدو أنكِ حظيتِ بمعلومة ممتازة من خلال خالتي).

ـ (لقد أعلمَتْني بأنكِ رفضتِ عرض زواج من اللورد واربيرتون لأنها كانت غاضبة كثيراً وكانت منزعجة من الموضوع. أنا أعتقد طبعاً بأنكِ عملتِ صالحاً بفعل ما فعلتِ. لكن بما أنك لم تتزوجي اللورد واربيرتون فاصلحي الأمر بمساعدته بالزواج من واحدةٍ أخرى).

أصغت إيزابيل إلى هذا بوجهٍ مصرٍّ على أن لا يعكس التعبير السارّ لوجه مدام ميرليه. لكنها قالت بسرعة وبشكلٍ منطقي ورفيق جداً: (سأكون مسرورة جداً في الواقع لو يكون بالإمكان ترتيب الأمر بخصوص بانسي).

ولقاء هذا الرد قامت رفيقتها، التي بدت بأنها اعتبرتْ ذلك فأل خيرٍ، بمعانقتها برقّةٍ أكثر مما هو متوقّع وغادرت كالمنتصر.

***

الفصل 41

دخل أوزموند في وقتٍ متأخرٍ إلى غرفة الاستقبال، حيث كانت تجلس بمفردها، وبحث هذا الموضوع لأول مرة في ذلك المساء. كانا قد قضيا المساء في البيت، وكانت بانسي قد ذهبت للنوم، وهو كان يجلس منذ العشاء في حجرة صغيرة حيث كان قد رتّب فيها كتبه والتي أسماها غرفة مكتبه.

في الساعة العاشرة دخل اللورد واربيرتون، كما يفعل عادةً عندما يعرف من إيزابيل بأنها كانت في البيت. كان ذاهباً إلى مكانٍ آخر وجلس لنصف ساعة. بعد أن سألته إيزابيل عن أخبار رالف قال القليل جداً عنه عن قصد. أرادت منه أن يتحدث مع ابنة زوجها. كانت تتظاهر بالقراءة، حتى أنها ذهبت بعد قليل إلى البيانو، فسألت نفسها إن لم يكن بإمكانها مغادرة الغرفة.

كانت تقترب شيئاً فشيئاً من استحسان فكرة أن تصبح بانسي زوجة سيد قصر لوكلي الجميل، رغم أن الفكرة بادئ الأمر لم تظهر بطريقةٍ أثارت حماستها. كانت مدام ميرليه في ذلك المساء قد وضعت الثقاب في كومة من المواد القابلة للاشتعال. عندما تكون إيزابيل غير سعيدة، تقوم دائماً بالبحث حولها ـ غريزياً إلى حدٍّ ما ونظرياً إلى حدٍّ ما ـ عن نوعٍ من الفعل البنّاء. إذ لا تستطيع أن تُخَلّص نفسها من إحساس أن عدم السعادة كان نوعاً من المرض ـ من المعاناة، على النقيض من الفعل. فلكي «تفعل» شيئاً ـ لا يهم كثيراً ما هو ـ سيكون ذلك مهْرباً، أو ربما علاجاً إلى حدٍّ ما. إلى جانب ذلك، رغبتْ بأن تقنع نفسها بأنها فعلت كل شيء ممكن لتسعد زوجها؛ فقد كانت مصممةً على أن لا يكون مسكوناً بتخيلاتٍ عن تراخي زوجته التي تمت مناشدتها

في الموضوع. كان سيسعده كثيراً أن يرى بانسي متزوجةً من نبيلٍ إنجليزي، سيسعده تماماً لأن هذا النبيل كان شخصيةً وجيهة.

لقد بدا لإيزابيل بأنها لو جعلت من واجبها تحقيق حدثٍ كهذا فستلعب دور الزوجة الصالحة. لقد أرادت ذلك، أرادت أن تكون قادرة على أن تؤمن بصدق ـ ومع الدليل على ذلك ـ بأنها كذلك. ثم إن مشروعاً كهذا له حسنات أخرى؛ فهو سيشغلها بشيءٍ ما، بل إنه حتى سيسلّيها، وإن تمكنتْ فعلاً من أن تسلّي نفسها، فربما ستنجو. وأخيراً، ستكون هذه خدمةً للورد واربيرتون الذي من الواضح بأنه أُعجب كثيراً بالفتاة الفاتنة. من «الغريب» قليلاً أن يكون كذلك ـ أي أن يكون معجباً بها، لكن لا يوجد هناك تعليل لإعجابٍ كهذا. فبانسي يمكنها أن تفتن أي أحد ـ أي أحد على الأقل عدا اللورد واربيرتون. كانت إيزابيل تظنها صغيرةً جداً في السن على ذلك، وسطحية جداً، وربما حتى متكلّفة جداً. كان يوجد دائماً شيء من الدمية بشأنها، وذلك ليس هو ما كان يبحث عنه. مع ذلك، من يمكنه أن يقول عَمَّ يبحث عنه الرجال دائماً؟ إنهم يبحثون عن ما يجدونه؛ فهم يعرفون ما يسعدهم عندما يرونه فقط. لا توجد نظرية صالحة في قضايا كهذه، ولا يوجد شيء غير مبرر أكثر أو مألوف أكثر من أي شيء آخر. إن كان مهتماً بها، فسيبدو غريباً أن يهتم ببانسي التي كانت مختلفة للغاية؛ لكنه لم يهتم بها كثيراً مثلما تصوَّرَ. أو إن كان مهتماً بها، فيكون قد تجاوز الأمر تماماً، وسيكون من الطبيعي أن يفكر بأنه قد ينجح شيء من نوعٍ آخر تماماً ـ إن كان ذلك الموضوع قد فشل.

إن الحماس، كما قلتُ، لم يأتِ لإيزابيل في البداية، لكنه أتى اليوم وجعلها تشعر بالسعادة قليلاً. إذ كانت مدهشةً كميةُ السعادة التي لا يزال بإمكانها أن تجدها في فكرة جلب السرور لزوجها. رغم ذلك، من المؤسف أن يعترض إدوارد غوزييه طريقهم! عند هذه الفكرة فقدَ الضوء، الذي كان قد ومض فجأةً على ذلك الطريق، شيئاً من شدته. فلسوء الحظ كانت إيزابيل متأكدة بأن بانسي

تعتقد أن السيد غوزييه هو ألطف من كل الشباب وكأنها أجرَتْ حديثاً معها عن الموضوع. كان من المزعج جداً أن تكون متأكدة من ذلك عندما امتنعت بحذرٍ من أن تخبرها؛ بنفس انزعاج غوزييه المسكين تقريباً عندما خطر له ذلك. لقد كان بالتأكيد دون مستوى اللورد واربيرتون. لم يكن الاختلاف في الثروة كبيراً بقدر ما هو الاختلاف في الرجلين؛ فالشاب الأميركي كان حقاً قليل الأهمية. لقد كان من الرجال المرهفين العديمي الفائدة أكثر من النبيل الإنجليزي. صحيح بأنه لا يوجد سبب معين يوجب على بانسي أن تتزوج من رجل دولة؛ لكن مع ذلك، لو أُعجِبَ بها رجل دولة فذلك شأنه، وكانت ستجعل لؤلؤةً صغيرة مثالية امرأةً نبيلة.

قد يبدو للقارئ أن السيدة أوزموند تملَّكَتْها سخرية مفاجئة بشكلٍ غريب لأنها انتهت بأن قالت لنفسها بأن هذه العقبة ربما يمكن تسويتها، فعقبةٌ تجسدت في المسكين غوزييه لا يمكنها بأية حال أن تبدو كعقبة خطيرة، فهناك دائماً وسائل لتسوية العقبات الثانوية. كانت إيزابيل مدركةً تماماً بأنها لم تقدّر عناد بانسي الذي قد يثبت بأنه كبير بشكلٍ مزعج. لكنها كانت تميل لأن تراها حرة ـ تحت الاختيار ـ بدلاً من أن تراها عنيدة تحت الشَّجْب، لأن لديها بالتأكيد قدرة الموافقة مرتفعة إلى درجة عالية جداً أعلى من قدرة الاحتجاج. صحيح أنها ستتشبث، نعم ستتشبث، لكن لا يهمها في الحقيقة كثيراً بما هي متشبثة به. فاللورد واربيرتون سينفع كالسيد غوزييه ـ خاصةً وقد بدت تحبه كثيراً، فقد عبّرتْ عن هذه العاطفة لإيزابيل بدون أي تحفّظ، إذ قالت بأنها ظنت أن حديثه مثير للاهتمام للغاية ـ فقد كان أخبرها كل شيء عن الهند.

إن سلوكه تجاه بانسي كان الأكثر استقامة وعفوية ـ لقد لاحظتْ إيزابيل ذلك بنفسها، كما لاحظت أيضاً بأنه لم يتحدث إليها بطريقة الأمر مطلقاً، وهو يُذَكِّر نفسه بشبابها وعفويتها، لكنها فهمتْ مواضيعه كما تفهم مواضيع

أوبرا عصرية. وذهب ذلك بعيداً إلى الإصغاء للموسيقى والباريتون[1]. لقد كان حريصاً جداً على أن يكون لطيفاً ـ مثلما كان كذلك سابقاً مع فتاةٍ شابة أخرى مضطربة في جاردن كورت. فتاةٍ ربما كانت متأثرة جداً بذلك؛ تذكَرتْ كيف كانت متأثرة وقالت لنفسها بأنها لو كانت بسذاجة بانسي لكان التأثير قد قبع بشكلٍ أعمق. لم تكن ساذجة عندما رفضَتْهُ؛ فتلك العملية كانت معقدة كتعقيد قبولها ـ لاحقاً ـ بأوزموند.

مع هذا، كانت بانسي برغم سذاجتها تفهم حقاً، وكانت مسرورة من أن اللورد واربيرتون يتحدث إليها، ليس عن زملائها وزهورها بل عن أوضاع إيطاليا، ظروف الفلاحين، ضريبة الطحين الشهيرة، مرض البلاجرا، وانطباعاته عن المجتمع الروماني. كانت تنظر إليه، وهي تنتزع إبرة التطريز على طول نسيج التطريز، بنظراتٍ مستسلمة جميلة. وعندما أخفضَتْها نظرت نظراتٍ خاطفة غير مباشرة وهادئة قليلاً لشخصه، ليديه، لقدميه، لملابسه، وكأنها كانت تتفحصه. وقد ذكّرَتْها إيزابيل بأن شخصه كان أفضل من شخص السيد غوزيه. لكن إيزابيل في لحظاتٍ كهذه اكتفت بالتساؤل أين هو هذا الرجل المحترم؛ إذ لم يعد يأتي إلى قصر روكانيرا.

إن ما كان باعثاً على الدهشة، كما قلتُ، هو التأثر الذي استبدّ بها ـ أي فكرة إسعاد زوجها. لقد كانت هذه الفكرة باعثة على الدهشة لعدة أسباب سوف أبحثها فوراً.

في ذلك المساء الذي تحدثتُ عنه، بينما جلس اللورد واربيرتون هناك، كانت على وشك أن تأخذ الخطوة الكبيرة بالخروج من الغرفة وترْك رفاقها بمفردهم. أقول الخطوة الكبيرة لأن جيلبرت أوزموند كان سينظر لها بهذه الصورة، وكانت إيزابيل تحاول بقدرٍ كبير أن تتبنّى رأي زوجها.

---

(1) الباريتون: هو نوع من الغناء الكلاسيكي يؤديه رجل تتراوح درجة صوته بين درجة صوتية تسمى (تينور) ودرجة تسمى (باس). (المترجمة)

لقد نجحت تبعاً لأسلوبٍ معين لكنها لم تبلغ الدرجة التي ذكرتُها. في النهاية، لم تتمكن من الارتقاء إليها؛ فقد أعاقها شيء ما وجعل ذلك مستحيلاً. لم يكن ذلك الشيء دنيئاً بالضبط أو لئيماً، لأن النساء عموماً يمارسن أساليب كهذه بضميرٍ حيٍّ تماماً، وإن إيزابيل كانت بشكلٍ حدسي محقّة أكثر بكثير من أن تكون مخطئة بالنسبة للموهبة المعروفة لبنات جنسها. كان هناك شك مبهم قد تخلل الأمر ـ إحساسٌ لم تكن متأكدة منه تماماً. لذا بقيتْ في غرفة الاستقبال، وبعد برهة، غادر اللورد واربيرتون إلى حزبه الذي وعد بأن يمنح بانسي تقريراً كاملاً عنه يوم غد.

بعد أن غادر تساءلَتْ إن كانت قد منعَتْ شيئاً كان سيحدث لو كانت قد تغيّبَتْ لربع ساعة. ثم قالت ـ في ذهنها دائماً ـ لو كان ضيفهم المميز راغباً منها أن تذهب لوجد بسهولة وسيلةً لإعلامها بذلك.

بعد مغادرته، لم تقل بانسي شيئاً عنه البتة، وتعمّدت إيزابيل أن لا تقول شيئاً لأنها تعهّدت بالتكتم حتى يصرح هو بنفسه. وليفعل ذلك كان قد استغرقَ وقتاً أطول مما بدا منسجماً مع الوصف الذي منحه لإيزابيل عن مشاعره.

ذهبت بانسي إلى الفراش، وكان على إيزابيل أن تعترف بأنها لم تتمكن من التخمين الآن بِمَ كانت تفكر فيه ابنة زوجها؛ إذ لم تكن نوايا رفيقتها الصغيرة الرقيقة في تلك اللحظة معروفة.

بقيت لوحدها، تنظر إلى النار، حتى بعد انقضاء نصف ساعة دخل زوجها. تجوّل في أرجاء الغرفة لوهلةٍ بصمت، ثم جلس. ونظر إلى النار مثلها. لكنها الآن كانت قد حوّلت نظرها من اللهب المتراقص في المدخنة إلى وجه أوزموند، وراقَبَتْهُ بينما كان لا يزال محتفظاً بصمته. كانت هذه المراقبة الخفية قد أصبحت عادةً لديها؛ فالحدس الذي لا نبالغ إنْ قلنا عنه بأنه كان متحالفاً مع حدس الدفاع عن النفس، قد جعل هذه المراقبة فطرية. لقد أرادت قدر الإمكان أن تعرف تفكيره، أن تعرف ماذا سيقول مقدماً، لكي تهيئ إجابتها.

لم تكن تهيئة الأجوبة غايتها الأساسية فيما مضى، إذ كانت نادراً ما تذهب في هذا المجال لأبعد من التفكير بعد ذلك بأمورٍ بارعة يمكن أن تقولها. لكنها تعلمتْ الحذر ـ تعلّمَتْهُ من خلال معيار وجه زوجها نفسه. كان الوجه نفسه الذي تفرّسَتْ فيه بعينين جادّتين ربما، لكن ثاقبتين بشكلٍ أقل، على شرفة الفيلا الفلورنسية، باستثناء أن أوزموند قد ازداد ضخامةً قليلاً منذ زواجه. رغم ذلك، ما زال يدهش المرء كشخصٍ مميزٍ جداً.

سأل على الفور: (هل كان اللورد واربيرتون هنا؟).

ـ (نعم. بقي لنصف ساعة).

ـ (هل رأى بانسي؟).

ـ (نعم. جلس على الأريكة بجانبها).

ـ (هل تحدّث معها كثيراً؟)

ـ (لقد تحدث معها قليلاً فقط).

ـ (يبدو لي بأنه مهتم. أليس ذلك هو ما تسمينه؟).

قالت إيزابيل: (أنا لا أسميه أي شيء. أنا انتظرتُكَ أنت لتسميه).

أجاب أوزموند بعد برهة: (ذلك احترامٌ لا تُظهرينه دائماً).

ـ (لقد قررتُ ـ هذه المرة ـ أن أحاول وأتصرّف مثلما تحب. فقد أخفقتُ دائماً في ذلك).

أدار أزموند رأسه على مهل وهو ينظر إليها.

ـ (هل تحاولين أن تتشاجري معي؟).

ـ (كلا أنا أحاول أن أعيش بسلام).

ـ (لا يوجد شيء أسهل من ذلك. وأنتِ تعلمين بأنني لا أتشاجر).

ـ (ماذا تسميه عندما تحاول إغضابي؟).

ـ (أنا لا أحاول. وإن فعلتُ ذلك فذلك أكثر الأشياء عفويةً في العالم. علاوة على ذلك، أنا لا أحاول ذلك مطلقاً الآن).

ابتسمت إيزابيل.

ـ (ذلك لا يهم. لقد قررتُ أن لا أغضب ثانيةً أبداً).

ـ (ذلك قرار ممتاز. فمزاجكِ ليس جميلاً).

ـ (بلى، ليس جميلاً).

فأبعدت الكتاب الذي كانت تقرؤه والتقطت مجموعة التطريز التي كانت بانسي قد تركَتْها على الطاولة.

قال أوزموند وهو يشير إلى بانسي بطريقةٍ كانت مألوفة له: (ولهذا السبب تقريباً لم أتحدث إليك عن موضوع ابنتي هذا. فقد كنتُ خائفاً من أن أواجه معارضة ـ لأنكِ أنت أيضاً لديكِ آراء بخصوص الموضوع. فطردتُ غوزييه التافه).

ـ (هل كنتَ خائفاً من أن أشفع للسيد غوزييه؟ ألم تلاحظ بأنني لم أتحدث إليك بشأنه؟).

ـ (أنا لم أمنحكِ فرصةً أبداً. فنحن لا نتبادل الحديث كثيراً هذه الأيام. أنا أعلم بأنه كان صديقاً قديماً لكِ).

ـ (نعم، إنه صديق قديم لي).

فانتبهت إيزابيل له أكثر قليلاً من انتباهها للتطريز الذي حملَتْهُ بين يديها؛ لكن ما قاله صحيح، وهو أنه كان صديقاً قديماً، وأنها شعرتْ مع زوجها برغبة عدم إضعاف روابط كهذه. كانت لديه طريقة في التعبير عن ازدرائه لهذه الروابط التي عزّزت وفاءها لها، حتى وإن كانت تافهة بحدٍّ ذاتها كما هو في هذه الحالة. كانت تشعر أحياناً بإحساس الحنان لذكرياتٍ لم تتميز إلّا بأنها تعود لحياتها عندما كانت عزباء.

أضافت بسرعة: (لكنني لم أشجعه بخصوص بانسي).

قال أوزموند: (ذلك من حسن الحظ).

ـ (أعتقد بأنكَ تقصد من حسن الحظ من جانبي، لأن من جانبه لا يهمه كثيراً).

قال أوزموند: (لا فائدة من التحدث عنه. فقد طردتُهُ كما قلتُ لكِ).

ـ (نعم، لكن العاشق في الخارج يبقى دائماً عاشقاً. إنه أحياناً حتى أكثر من عاشق، إذ لا يزال لدى السيد غوزييه أمل).

ـ (إنه مرحّبٌ به لنعزّيه على ذلك! ليس على ابنتي إلّا أن تجلس بهدوء تماماً لتصبح السيدة واربيرتون).

سألت إيزابيل ببراءةٍ لم تكن متصنّعة كما تبدو: (هل ستحب ذلك؟).

لقد كانت عازمةً أن لا تفترض شيئاً لأن لأوزموند طريقة لقلب افتراضاتها ضدّها بشكلٍ غير متوقع. فالشدة التي رغب بها أن تصبح ابنته السيدة واربيرتون كانت هي الأساس نفسه لأفكارها الحالية. لكن ذلك كان بالنسبة لها؛ إذ ما كانت لتفهم شيئاً حتى يصيغ أوزموند الأمر بكلمات، وما كانت لتفترض جدلاً معه بأنه رأى اللورد واربيرتون جائزة تستحق عناءً غير مألوف بين آل أوزموند.

كانت من تلميحات أوزموند المستمرة هي؛ أن بالنسبة له لا يوجد شيء في الحياة يُعتبر جائزة؛ وأنه تعامَلَ مع أغلب الناس المهمين في الحياة بشكلٍ متساوٍ؛ وأن على ابنته فحسب أن تنظر حولها لتلتقط أميراً. لذا كلّفه أن يزوغ عن التمسك بمبدئه أن يقول بوضوح بأنه يتطلع إلى اللورد واربيرتون وبأنّ في حال أفلتَ هذا النبيل فلن يجد مثيله؛ وكان هذا القول علاوة على ذلك من افتراضاته المعتادة بأنه لم يكن أبداً مُخِلّاً بمبادئه. كان يرغب من زوجته أن تتجاوز عن هذه النقطة. لكن مما يبعث على الاستغراب تماماً هو أنها

كانت الآن معه وجهاً لوجه ورغم أنها قبل ساعة كانت قد اخترعَتْ تقريباً خطّةً لإسعاده، إلا أن إيزابيل التي لم تكن تحتمل، ما كانت لتتجاوز عن هذه النقطة. وأيضاً عرفَتْ بالضبط تأثير سؤالها على رأيه؛ إذ كان سيعمل كإذلال.

لا تُبالِ؛ كان قادراً بشكلٍ رهيب على إذلالها ـ وأكثر من ذلك، كان قادراً أيضاً على انتظار الفرص الكبيرة وعلى إظهار أحياناً لامبالاة لا تفسير لها قليلاً تجاه الفرص الصغيرة. ربما استغلَّتْ إيزابيل فرصة صغيرة لأنها ما كانت لتنتفع من فرصةٍ كبيرة.

والآن، برّأ أوزموند نفسه بشكلٍ مشرّفٍ جداً: (سأحبه بشكلٍ بالغ، إذ سيكون زواجاً عظيماً. ثم إن لدى اللورد واربيرتون ميزة أخرى؛ وهي أنه صديق قديم لكِ. وسيسعده أن يدخل إلى العائلة. من الغريب جداً أن يكون كل معجبي بانسي هم من أصدقائكِ القدامى).

ـ (ذلك طبيعي، لأنهم يأتون لرؤيتي. وعند رؤيتهم لي يرون بانسي. ومن الطبيعي عند رؤيتها أن يقعوا في حبها).

ـ (هذا ما أراه. لكنكِ لستِ ملزمة بفعل ذلك).

استمرت إيزابيل في الكلام بصراحة: (إن تزوّجَتْ من اللورد واربيرتون فسأكون مسرورة جداً. إنه رجل ممتاز. مع ذلك أنت تقول بأن عليها فقط أن تجلس ساكنة تماماً، فربما لن تجلس ساكنة تماماً. فإذا خسرَتِ السيد غوزييه قد تقفز!).

بدا أن أوزموند لم يكترث لهذا. وجلس يحدّق على النار.

قال بسرعة بنبرةٍ رقيقة مؤكِّدة: (سترغب بانسي في أن تصبح سيدة عظيمة).

ثم أضاف: (وهي فوق كل شيء تتمنى أن تحقق الرضا).

ـ (رضا السيد غوزييه ربما؟)

ـ (كلا، رضاي).

قالت إيزابيل: (وترضيني أنا أيضاً قليلاً، على ما أعتقد).

ـ (نعم، فلديها رأيٌ طيب عنكِ، لكنها ستفعل ما أريده أنا).

واصلت الكلام: (إن أنت متأكد من ذلك، فذلك جيد).

قال أوزموند: (حتى ذلك الحين أودُّ من ضيفنا المهم أن يتكلم).

ـ (لقد تكلم.... إليَّ. فقد أخبرني بأنه سيكون شرفاً كبيراً له في أن يصدق بأنها تهتم به).

أدار أوزموند رأسه سريعاً، لكن في البداية لم يقل شيئاً، ومن ثم سأل بحدّة: (لِمَ لم تقولي لي ذلك؟).

ـ (لم تكن هناك فرصة، فأنتَ تعرف كيف نعيش. فاستغليتُ أول فرصة سانحة).

ـ (هل قلتِ له شيئاً عن غوزييه؟).

ـ (آه، نعم، القليل).

ـ (لم يكن ذلك ضرورياً).

ـ (اعتقدتُ أنه من الأفضل أن يعلم، لكي، لكي...).

ـ (لكي ماذا؟).

ـ (لكي يتصرف وفقاً لذلك).

ـ (تقصدين لكي يتراجع؟).

ـ (كلا، لكي يتقدم بينما لا يزال الوقت سانحاً).

ـ (يبدو أن ذلك لم يكن له هذا التأثير).

قالت إيزابيل: (عليكَ بالصبر، فأنتَ تعرف بأن الإنجليز خجولون).

ـ (هذا الإنجليزي ليس كذلك. فهو لم يكن خجولاً عندما تودَّدَ اليكِ).

كانت خائفة من أن يتحدث أوزموند عن ذلك، إذ كان أمراً غير مقبول بالنسبة لها. فأجابت: (اسمح لي، لقد كان خجولاً للغاية).

لم يجب بشيءٍ لبعض الوقت، فالتقط كتاباً وقلّب الصفحات بينما بقيتْ صامتة وأشغلت نفسها بتطريز بانسي.

واصل أوزموند حديثه في النهاية: (لا بدّ أن لديكِ تأثيراً عليه. يمكنكِ في اللحظة التي ترغبين بذلك حقاً أن تجبريه على ذلك).

كان ذلك لا يزال مُهيناً أكثر، لكنها شعرت بعفوية كبيرة بقوله ذلك. وعلى أية حال، كان ذلك يشبه كثيراً ما قالته لنفسها.

سألت: (لِمَ سيكون لي تأثيرٌ عليه؟ ماذا فعلتُ يوماً كي أجعله مديناً لي؟).

قال أوزموند وعيناه في كتابه: (إنكِ رفضتِ أن تتزوجيه).

أجابت: (لا يجب أن أستغلّ ذلك كثيراً).

فألقى الكتاب على الفور ونهض، ووقف أمام النار ويداه خلفه.

ـ (حسناً، أعتقد بأن ذلك يقع بين يديكِ وسأتركه هناك. يمكن تدبّر الأمر مع القليل من النيّة الطيبة. فكّري بذلك دائماً وتذكّري كم أُعوّل على ذلك كثيراً).

فانتظرَ قليلاً ليمنحها الوقت لتجيب. لكنها لم تجب بشيء.

فخرج على الفور من الغرفة.

***

الفصل 42

لم تكن قد أجابت بشيء لأن كلماته قد ترجمت الموقف أمامها وكانت مستغرقة بالنظر إليه. فقد كان في كلماته شيء جعلها تضطرب فجأة بعمق بحيث كانت خائفة من أن تركن إلى نفسها لتتكلم.

بعد أن غادَرَ، اتكأت للخلف على كرسيها وأغمضت عينيها وجلست لمدةٍ طويلة في جوف الليل في غرفة الاستقبال الهادئة واستسلمت لتأملاتها. دخل خادمٌ ليعتني بالنار، وأمَرَتْهُ أن يجلب شموعاً جديدة ثم يذهب للفراش.

أخبرها أوزموند بأنها يجب أن تفكر بما قال؛ وفعلَتْ ذلك بالفعل، وأشياء أخرى عديدة. إن التلميح بأن لديها تأثيراً أكيداً على اللورد واربيرتون ـ قد سبَّبَ لها تلك الرعدة التي ترافق معرفة غير متوقعة. فهل كان صحيحاً بأنه لا يزال هناك شيء بينهما قد يكون مُعِيناً ليجعله يُصارِح بانسي ـ استعدادٌ من جانبه بالموافقة، رغبة ليفعل ما يرضيها؟[1]

لم تكن إيزابيل قد سألت نفسها لحدِّ الآن هذا السؤال لأنها لم تكن مدفوعةً لذلك. لكن الآن، وقد تجلّى ذلك لها بوضوح، رأت الإجابة، وقد أرعبَتْها فعلاً. نعم، كان هناك شيء ـ شيء من جانب اللورد واربيرتون. فعندما أتى لأول مرة إلى روما، ظنت أن الحلقة التي ربطَتْهُما مكسورة كلياً، لكن شيئاً فشيئاً فطنَتْ إلى أنه لا يزال لها وجود ملموس. لقد كانت رقيقة كالشعرة، لكن كانت هناك لحظات يبدو بأنها تسمعها تهتز. فبالنسبة لها، لم يكن هناك

(1) أي ليرُضي إيزابيل. (المترجمة)

شيء قد تغير؛ فما فكرتْ فيه يوماً ما تجاهه هو نفسه ما تفكر به دائماً، ولا حاجة لأن يتغير هذا الشعور، فقد بدا لها في الحقيقة بأنه أفضل شعور شعرت به يوماً.

لكن هو؟ ألا تزال لديه فكرة أنها تعني له أكثر من أية امرأة أخرى؟ هل لديه أمنية الانتفاع من ذكرى بضع لحظات من رفقةٍ مرّا بها يوماً؟ شعرت إيزابيل بأنها قرأت بعض العلامات لاستعدادٍ كهذا. لكن ماذا كانت آماله، طموحاته، وبأية طريقة غريبة تختلط مع تقديره الصادق الواضح لبانسي المسكينة؟ هل كان واقعاً في حب زوجة جيلبرت أوزموند، وإن كان كذلك، ما العزاء الذي توقّع أن يستمده من ذلك؟ إن كان واقعاً في حب بانسي فهذا يعني بأنه غير واقع في حب زوجة أبيها، وإن كان واقعاً في حب زوجة أبيها، فهذا يعني بأنه غير واقع في حب بانسي. هل يجب عليها أن تسعى إلى الأفضلية التي تمتلكها ليسلم أمره إلى بانسي وهي تعلم بأنه كان سيفعل ذلك لأجلها وليس لأجل هذه المخلوقة الصغيرة ـ هل كانت هذه هي الخدمة التي طلبها منها زوجها؟ كان هذا على أية حال هو الواجب الذي وجدت نفسها بمواجهته ـ من اللحظة التي اعترفَتْ فيها لنفسها بأن صديقها القديم كان لا يزال لديه حبٌّ غير مجتث لمرافَقَتِها.

لم تكن تلك مهمة لطيفة، بل كانت في الواقع مهمة بغيضة. سألت نفسها بخوفٍ فيما إذا كان اللورد واربيرتون يتظاهر بحب بانسي لكي يسعى إلى إرضاءٍ آخر وإلى ما يمكن أن يسمى فرصة أخرى. فبرَّأتْهُ على الفور من نقاء الازدواجية هذا وفضّلتْ أن تراه بحسن نيّة تماماً. لكن إن كان إعجابه ببانسي وهماً فلن يكون ذلك أفضل من كونه حباً.

تاهت إيزابيل بين هذه الاحتمالات المزعجة حتى فقدت طريقها تماماً؛ فبعضها بدت قبيحةً تماماً حينما واجهَتْها فجأة. ثم أفلتت من متاهتها وهي تفرك عينيها، وأعربت أن خيالها بالتأكيد قد وجّهها قليلاً، وخيال زوجها أيضاً قد وجّهَها بشكلٍ أقل. فاللورد واربيرتون ليس مهتماً بها، وهي لم تعد تعني له

شيئاً. كانت ستستقر على هذا الرأي حتى يَثْبُتَ العكس، يَثْبُتَ بشكلٍ فعّال أكثر مما يثبت بتلميحٍ متهكّمٍ من خيال أوزموند. رغم ذلك لم يجلب لها قرارٌ كهذا هذا المساء راحةً كبيرةً لأن قلبها سكَنَتْهُ مخاوف تزاحمت في طليعة الفكر بالسرعة نفسها التي وجدتْ لها مكاناً. إن ما كان قد حرّك هذه المخاوف فجأةً بنشاط هو سببٌ لم تعرفه، ما لم تكن الفكرة الغريبة التي تلقَّتْها في المساء من كون زوجها على تواصُلٍ مباشر مع مدام ميرليه أكثر مما ارتابت. عادت لها هذه الفكرة من حينٍ لآخر، والآن هي مندهشة من كونها لم تخطر ببالها من قبل أبداً. إضافةً إلى ذلك، كان حديثها القصير مع أوزموند قبل نصف ساعة مثالاً صادماً على قدرته على جعل كل شيء يلمسه يذبل، ويفسد لها كل شيء ينظر إليه. لا بأس مِنْ أن تقوم بمنحه دليلاً على الوفاء؛ فالحقيقة الواقعة هي أن معرفة تَوَقُّعِهِ شيئاً أثارَ افتراضاً معاكساً لهذا الشيء. وكأنه يمتلك عيناً حاسدة، وكأنّ وجوده آفةٌ وخدمته سوء حظ. هل كان الخلل فيه هو نفسه أم فقط في الشك العميق الذي تشعر به تجاهه؟ كان هذا الشك الآن هو أوضح نتيجة لحياتهما الزوجية القصيرة؛ هوّةٌ انفتحت بينهما وينظران من فوقها لبعضهما البعض بنظراتٍ كانت من كليّ الطرفين تصريحاً بالخداع الذي يعانيانه. كانت مواجهةً غريبةً من الندّ الذي لم تكن تحلم به ـ مواجهةً كان فيها المبدأ الأساسي لأحدهما شيء من الازدراء إلى الآخر. لم يكن ذنبها أنها لم تمارس الخداع؛ بل كانت فقط أُعجبت ووَثَقَتْ. كانت قد اتخذت كل الخطوات الأولى في الثقة الخالصة، ومن ثم اكتشفَتْ فجأة أن الأفق اللامتناهي للحياة المزدهرة كانت زقاقاً ضيّقاً ومظلماً نهايته مسدودة. وبدلاً من أن يقود إلى قمة السعادة التي منها سيبدو العالم أنه يقع أسفل المرء، بحيث يمكنه أن ينظر إلى الأسفل بإحساس العظمة والأفضلية، ويحكم ويختار ويشفق، قاد بدلاً من ذلك نحو الأسفل وباتجاه الأرض، نحو عوالم من الضيق والكآبة، حيث كانت أصوات الحيوات الأخرى الأكثر عفوية وحرية، تُسمَع وكأنها آتيةٌ من الأعلى، وحيث قامت بتعميق الإحساس بالفشل.

لقد كان شكّها العميق بزوجها ـ هو ما جعل الحياة قاتمة. إن هذا شعورٌ يظهر بسهولة، لكن لا يُفَسَّر بسهولة كبيرة، ومعقد بطبيعته بحيث يتطلب الكثير من الوقت وأيضاً معاناة أكثر لنضعه موضع الكمال الحقيقي. فالمعاناة، عند إيزابيل، كانت حالة فاعلة؛ إذ لم تكن رعدة أو ذهولاً أو يأساً؛ بل كانت انهماكاً في التفكير، في تكوين الافتراضات، من التصدي لكل شدّة. رغم ذلك، فقد امتدحَتْ نفسها بأنها احتفظَتْ بشكّها به في نفسها ـ بحيث لم يَرْتَبْ أحدٌ بذلك سوى أوزموند. أوه، كان يعلم ذلك، وكانت هناك أوقاتٌ تعتقد فيها بأنه مستمتعٌ بذلك.

إن هذا الشك قد حدث بالتدريج ـ إذ ما أن انتهَتْ أول سنة من حياتهما الزوجية، والتي كانت في البداية حميمةً بشكلٍ يثير الإعجاب، حتى أخذَتْ تقلق. ومن ثم بدأت ظلال الشك بالتجمّع؛ وكأنّ أوزموند يقوم عن عمد ـ أو عن خبثٍ قليلاً ـ بإطفاء الأنوار واحداً تلو الآخر. كانت الظلمة في البداية قليلة ورقيقة، وكان لا يزال بإمكانها أن ترى طريقها فيها. لكنها ازدادت عتمة على نحوٍ ثابت، وإن كانت تُرفَع عَرَضيّاً بين الفينة والأخرى فلا تزال توجد من وجهة نظرها أركان معينة معتمة بشكلٍ لا يمكن اختراقه. لم تكن هذه الظلال تنبثق من ذهنها ـ كانت متأكدة من ذلك ـ فقد عملَتْ ما بوسعها لتكون منصفة وغير متطرفة، فقط لترى الحقيقة. كانت هذه الظلال جزءاً من وجود زوجها نفسه، كانت نوعاً من السبب والنتيجة. لم تكن هذه الظلال هي آثامه أو انحرافاته؛ فهي لا تتهمه بشيء من ذلك ـ بسوى شيءٍ واحد، والذي لم يكن جريمة. فهي تعرف بأنه لم يفعل شيئاً خاطئاً؛ إذ لم يكن عنيفاً، لم يكن قاسياً. لقد آمنت فقط بأنه يكرهها. كان ذلك هو كل ما اتهمَتْهُ به، وكان الجزء البائس من هذا الإيمان بالضبط هو أنه لم يكن جريمة، لأن مقابل الجريمة يمكنها أن تجد تعويضاً. كان قد اكتشفَ بأنها كانت مختلفةً جداً، بأنها لم تكن مثلما تخيّلها أن تكون عليه. لقد ظنّ في البداية بأنه يمكنه أن يغيرها،

وهي فعلَتْ ما بوسعها لتصبح ما يريده. لكنها في النهاية كانت نفسها ـ إذ لم تستطع احتمال ذلك، ولم تعد توجد الآن هناك فائدة من التظاهر، من لبس قناع أو ثوب، لأنه عرفها وكان قد اتخذ قراره. لم تكن خائفة منه؛ إذ لم تخشَ بأنه سيؤذيها، لأن النيّة السيئة التي كان يحملها تجاهها لم تكن من هذا النوع. فهو ما كان ليمنحها العذر أبداً إنْ أمكن، ولا أن يجعل من نفسه مخطئاً. رأت إيزابيل، وهي تتفحّص المستقبل بعينين جامدتين، شاخصتين، بأنه سينتصر عليها هناك. إذ كانت ستمنحه الكثير من الأعذار، وستقوم دائماً بجعل نفسها مخطئة.

هناك أوقات تشفق عليه فيها؛ لأنها إنْ لم تكن خدعَتْهُ عن عمد فهي قد فهمَتْ كيف أنه لا بدّ وأنها فعلَتْ ذلك تماماً في الواقع. فقد ألغت نفسها عندما عرفها بادئ الأمر وجعلَتْ نفسها تافهة، ومتظاهرةً بأدنى مما هي عليه في الحقيقة. حصل ذلك لأنها كانت تحت تأثير السحر فوق العادي الذي، تجشَّمَ ـ من جانبه ـ عناء إظهاره. إنه لم يتغير، لم يُخْفِ نفسه أكثر مما فعلَتْ هي خلال العام الذي كانا مخطوبَيْن فيه. لكنها كانت قد رأت فقط نصف طبيعته آنذاك، مثلما يرى المرء قرص القمر عندما يتغطّى جزئياً بظل الأرض. والآن رأت القمر مكتملاً ـ رأت الرجل بكامله. فبقيت ساكنة، إنْ صح التعبير، لكي يحظى هو بمجالٍ أوسع، وحتى مع هذا فقد أخطأتْ جزءاً من الكل.

آه، لقد كانت تحت تأثير السحر بشكلٍ هائل! إذ لم ينتهِ، لا يزال باقياً هناك؛ كانت لا تزال تعرف تماماً الشيء الذي جعل أوزموند مسروراً عندما قرر أن يكون ساحراً. فقد تمنى أن يكون ساحراً عندما تودَّد إليها. وعندما أرادت هي أن تكون ساحرة لم يكن الأمر رائعاً في ما نجح هو فيه. لقد نجح هو لأنه كان صادقاً، ولن يخطر في ذهنها الآن أبداً أن تنكر عليه ذلك. لقد أُعجب بها ـ وقد قال لها السبب: لأنها كانت أكثر النساء اللواتي عرفهن خيالاً.

قد يكون ذلك صحيحاً تماماً، لأن خلال تلك الأشهر كانت قد تخيّلَتْ عالماً من أشياءٍ ليس لها معنى. كانت قد كوّنَتْ عنه صورة أكثر روعة مصدرها الأحاسيس الرائعة وأوه، مخيّلة متأججةً كهذه! ـ فهي لم تكن قد قرأته بشكلٍ صحيح. لقد أثَّرَتْ بها مجموعة معينة من الصفات كانت قد رأته بها أكثر الشخصيات روعة؛ وهي أنه كان فقيراً ووحيداً وأيضاً كان راقياً بطريقةٍ ما ـ فذلك هو ما أثار اهتمامها وبدا أنه منحها فرصة. كان هناك جمال غامض بشأنه ـ في هيئته، في تفكيره، في وجهه. كانت قد شعرت في الوقت نفسه بأنه كان عاجزاً وبلا فائدة، لكن هذا الشعور كان قد اتخذ شكل التعاطف الذي كان بالذات ذروة الاحترام. كان يشبه المسافر المتحيّر الذي يتجوّل على الشاطئ بينما ينتظر المدّ، يتطلّع إلى البحر ومع ذلك لا يبحر فيه. كانت في كل ذلك قد وجدت فرصتها. إذ كانت سترسل له زورقه إلى البحر، وستكون هي حاميته، سيكون أمراً جميلاً أن تحبه. وقد أحبته، ووهبت نفسها بقلقٍ جداً ومع ذلك باندفاعٍ جداً ـ والسبب إلى حدٍّ كبير هو لِما وجدَتْهُ فيه، لكن إلى حدٍّ كبير أيضاً لِما جلَبَتْهُ له وما يمكن أن يُغْني ما جلبَتْهُ له.

كلما تتذكر عاطفة تلك الأسابيع الحافلة، تشعر فيها بنوعٍ من العاطفة الأمومية ـ بسعادة امرأةٍ شعرت بأنها كانت شريكةً، بأنها أتت بيدين ممتلئتين. ولولا أموالها، كما ترى ذلك اليوم، فإنها ما كانت لتفعل ذلك أبداً. فشرد ذهنها إلى السيد تاتشيت المسكين الراقد تحت المرج الإنجليزي، المحسن، صاحب المحنة الأبدية!

لأن تلك كانت هي الحقيقة الغريبة. ففي الأساس، كانت أموالها عبئاً، كانت عبئاً على تفكيرها الذي كان مشبعاً برغبة نقل ثقل هذا العبء إلى ذمة أخرى، إلى مستلمٍ مهيأ أكثر. فما الذي يمكن أن يخفف ذمتها بشكلٍ فعّال أكثر من أن تتنازل عن ملكيته إلى الرجل صاحب أفضل ذوق في العالم؟ إذ لن يوجد شيء أفضل يمكن أن تفعله له، ما لم تهبها إلى إحدى المستشفيات،

ولا توجد مؤسسة خيرية تهتم بها إيزابيل كثيراً كجيلبرت أوزموند. إذ كان سيستخدم ثروتها بطريقةٍ تجعل إيزابيل تحسن الظن بهذه الثروة ويدعك خشونةً عنيدة ملتصقة بالحظ السعيد لإرثٍ غير متوقع.

لا يوجد شيء خطير جداً في أن ترث سبعين ألف باوند، لكن الخطر كان في قيام السيد تاتشيت بتركها لها. لكن أن تتزوج جيلبرت أوزموند وتجلب له حصةً كهذه ـ فسيكون في ذلك خطر عليها أيضاً. لن يكون هناك خطر عليه ـ كان ذلك مؤكَّداً ـ لكن ذلك شأنه، وإن كان قد أحبَّها فلن يعارض في كونها غنية. ألم يمتلك الشجاعة ليقول بأنه كان مسروراً لأنها كانت غنية؟

توهّجت وجنتا إيزابيل عندما سألت نفسها إن كانت قد تزوجت فعلاً على أساس نظرية كاذبة لتصنع شيئاً بأموالها جديراً بالتقدير. لكنها كانت قادرة على أن تجيب بسرعة جداً بأن هذه كانت فقط نصف الكذبة. لقد كان السبب هو رغبة ملحّة معينة استحوذت عليها ـ الإحساس بصدق عواطفه وإعجابٍ بصفاته الشخصية. كان أفضل من أي أحد آخر. إن هذه القناعة السامية قد ملأت حياتها لأشهر، وبقي ما يكفي منها لتثبت لها بأنها لم تستطع فعل غير ذلك. لقد أصبح أرقى الكائنات الرجولية عرفته يوماً ملْكَها، وإن معرفتها بأن ما عليها إلّا أن تمدّ يدها لتأخذه أصبحت نوعاً من الحب الشديد. لم تكن مخطئة بشأن عقله المذهل؛ فقد فهمت ذلك العضو بشكلٍ تام الآن. لقد عاشت مع هذا العقل، عاشت فيه تقريباً ـ ويبدو بأنه أصبح مسكنها. وإن كانت قد صيدَتْ، فهذا يعني بأن ذلك تطلّب يداً حازمة لتجرّها؛ ربما كان لهذه الفكرة بعض الأهمية. فهي لم تصادف يوماً عقلاً أكثر عبقرية، أكثر مرونة، أكثر ثقافة، أكثر تمرُّساً على الممارسات المثيرة للإعجاب من هذا؛ وكانت تلك هي الحجة الاستثنائية التي عليها أن تركن إليها الآن.

لقد أضاعت نفسها في حيرة لانهائية عندما فكرت في عِظَمِ خداعه. كان مما يبعث على الدهشة، ربما، هو أنه ـ بناءً على ذلك ـ لم يكرهها أكثر.

تذكرت جيداً أول علامة أظهرها على ذلك ـ كانت كبداية إعلان لنهاية الدراما الحقيقية لحياتهما. فقد قال لها في أحد الأيام بأن لديها الكثير جداً من النظريات وأن عليها أن تتخلّص منها. كان قد قال لها ذلك مسبقاً، قبل زواجهما، لكنها عندئذٍ لم تنتبه لذلك؛ وتَذَكَّرَتْهُ فقط بعد حين. وهذه المرة انتبهت له جيداً لأنه عنى ذلك فعلاً. لم تكن الكلمات ظاهرياً شيئاً مهماً، لكن على ضوء الخبرة المتزايدة كانت قد فكّرَتْ فيها، لقد بدت عندئذٍ عجيبة. كان قد عنى ذلك بالفعل ـ فقد أراد منها أن لا تحتفظ بشيءٍ من نفسها سوى مظهرها الجميل.

كان من المعروف عنها بأنها تمتلك الكثير جداً من النظريات، امتلكَتْ حتى أكثر مما اعتقَدَ، أكثر بكثير مما عبّرَتْ له عنها عندما طلب منها أن تتزوجه. نعم، لقد كانت كاذبة، كانت قد أحبته كثيراً، كان لديها الكثير جداً من النظريات لنفسها، لكن ذلك هو تماماً ما يتزوج المرء لأجله، وهو أن يتشاركها مع أحدٍ آخر. لا يستطيع المرء أن يقتلعها من جذورها، وإن تمكّن المرء طبعاً من قمعها، فاحرِصْ على أن لا تتحدث عنها. رغم ذلك، لم يكن هذا هو اعتراضه على آرائها، فهذا لا شيء. فهي لم تكن لديها آراء ـ أبداً، بحيث لن تكون حريصة على التضحية بها إرضاءً لشعور أن تكون محبوبة لأجل ذلك.

إنَّ ما كان قد عناه هو الأمر بمجمله ـ شخصيتها، الطريقة التي تشعر بها، الطريقة التي تحكم بها. كان ذلك هو ما احتفظتْ به مُصاناً، وكان هذا هو ما لم يعرفه حتى وجد نفسه جالساً معها وجهاً لوجه، ـ والباب مغلقة خلفهما إنْ صح التعبير.

كانت لديها طريقة معينة في النظر إلى الحياة والتي اعتبَرَها إهانة شخصية. الله وحده يعلم الآن على الأقل بأنها كانت طريقة متواضعة جداً وملائمة! كان الأمر الغريب هو أنها لم تشكّ في البداية بأن طريقته كانت مختلفة جداً. فقد

ظنت أنها شاملة جداً، مثقفة جداً، مثالية جداً، كطريقة إنسانٍ صادقٍ ومحترم. ألم يؤكِّد لها بأنه لم يكن لديه اعتقادات خرافية، ولا قيود تافهة، ولا أهواء فقدت حداثتها؟ ألم يمتلك كل مظاهر الرجل الذي يعيش بعيداً عن الناس، وغيرَ المُبالي بالاعتبارات التافهة، والذي لا يهتم لسوى الحقيقة والمعرفة ويؤمن بأنهما يجب أن يبحثا سويةً عن الناس الأذكياء جداً، وسواء وجداهم أم لا فسيجدان على الأقل بعض السعادة في البحث؟

كان قد أخبرها بأنه يحب ما هو تقليدي؛ لكن كان يوجد في ذلك معنى بدا به هذا التصريح نبيلاً. فبهذا المعنى ـ معنى حب الانسجام والنظام والتهذيب وكل الأعمال الجليلة للحياة ـ ذهبتْ معه بدون قيد، ولم تتضمن مواعظه شيئاً منذراً بالسوء. لكن بانقضاء الشهور، واتِّباعها له أكثر، كان قد قادها إلى إيوان مسكنه الخاص، عندها، كانت قد رأت أين كانت في الحقيقة. لقد تمكنت من أن تعيشه أكثر من مرة، الرعب المريب الذي كانت قد قدّرَتْ به مسكنها؛ فبين الأربعة جدران تلك، كانت قد عاشت منذ ذلك الحين، كانت ستحيطها هذه الجدران لبقية حياتها. كان منزل الكآبة، منزل الصمت، منزل الاختناق. لم يمنحه عقل أوزموند المذهل لا ضوءاً ولا هواءً، بدا عقل أوزموند المذهل في الحقيقة يبرز من نافذةٍ صغيرة عالية ويسخر منها. لم تكن بالطبع معاناةً جسدية، لأنه يمكن أن يوجد وصفة علاجية للمعاناة الجسدية. كان يمكنها الغدوّ والرواح، كان لها حريتها، كان زوجها مهذّباً تماماً. كان يعتبِر نفسه مهمّاً جداً، كان أمراً مخيفاً. فَتَحْتَ كل ثقافته، ذكائه، مجاملاته، تحت أخلاقه الطيبة، مهارته، ومعرفته بالحياة، تقبع أنانيته مختفيةً كالأفعى في كومةٍ من الأزهار. كانت تعتبره مهمّاً، لكنها لم تكن تعتبره مهماً جداً إلى هذا الحد. فكيف تمكنت من ذلك ـ خاصةً عندما عَرَفَتْهُ بشكلٍ أفضل؟ كان عليها أن تعتبره كما يعتبِر هو نفسه: الرجل المهذّب الأول في أوروبا. لذا، كانت تظنه كذلك في البداية، وكان ذلك في الحقيقة هو سبب زواجها منه. لكنها عندما

بدأت ترى ما تضمّنَهُ الزواج تراجعَتْ، إذ كان يوجد في الرباط الزوجي أكثر مما كانت تقصد أن تُدخِلَ اسمها فيه. لقد تضمّن ازدراءً مطلقاً لكل شخص، عدا حوالي ثلاثة أو أربعة أشخاص رفيعين جداً كان يحسدهم، وازدراءً لكل شيء في الحياة عدا أفكاره الخاصة به. كان ذلك لا بأس به، إذ كانت ستتماشى معه حتى ولمسافة طويلة، لأنه لمَّحَ إليها كثيراً عن دناءة وخسّة الحياة، وفَتَحَ عينيها على وسعهما على غباء، وبؤس، وجهل البشرية، وعلى أنها متأثرة جداً بالسفاهة الأبدية للأحداث وفضيلة أن يُبقي الإنسان نفسه نقياً منها. لكن تَبَيَّنَ أن هذه الحياة الدنيئة الخسيسة كانت في النهاية هي ما يجب على المرء أن يعيش لأجله، ما يجب على المرء أن يضعه نصب عينيه إلى الأبد، ليس لأجل أن يفهمها ويغيرها أو يصلحها، بل ليستمد منها بعض المعرفة عن أهميته. فمن ناحية، كانت خسيسة، لكن من ناحية أخرى تمنح مبدأً. سُر مَن قرأ

كان أوزموند قد تحدّث لإيزابيل عن عزلته، لامبالاته، والطمأنينة التي استغنى بها عن الاهتمام المعتاد بالنجاح. وبدا كل ذلك بالنسبة لها مثيراً للإعجاب. فرأتها بأنها لامبالاة رفيعة، استقلالية استثنائية. لكن اللامبالاة كانت في الحقيقة آخر صفاته؛ إذ لم ترَ أبداً أحداً يفكر كثيراً بالآخرين بهذا القدر.

إن الحياة بالنسبة لها، بصراحة، قد أثارت اهتمامها دائماً، وكانت مراقَبة المخلوقات البشرية شغفها الدائم. مع هذا، كانت ستصبح مستعدة لتتخلى عن كل اهتماماتها وميولها لأجل الحياة الشخصية لو فقط كان الشخص المعنيّ قادراً على جعلها تقتنع بأن ذلك كان فوزاً! كانت تلك على الأقل قناعتها الحالية، وأن الأمر سيكون بالتأكيد أسهل من أن تهتم بمجتمعٍ بالطريقة التي يهتم أوزموند بها.مكتبة .. سُر مَن قرأ

لم يكن قادراً على أن يعيش بدونه، ورأت أنه لم يفعل ذلك حقيقةً؛ فقد كان ينظر إليه من نافذته حتى وإن بدا بأنه منعزلٌ جداً عنه. لقد كانت له مفاهيمه

المثالية مثلما حاولَتْ هي أن يكون لها مفاهيمها المثالية تماماً، كان الغريب فقط هو أن يبحث الناس عن التشابه في شخصين مختلفين كهذين.

كانت مفاهيمه المثالية مبادئ ذات رفاهية وكياسة عاليتين للحياةِ الأرستقراطية، والتي رأت الآن بأنه يعتَبِر نفسه يعيشها، قلبياً على الأقل. فهو لا يرتد عنها ساعة، وما كان ليتبرأ من الخجل من فِعْلِ ذلك. وذلك أيضاً كان لا بأس به، فهنا أيضاً كانت ستتفق معه؛ لكنهما تمسّكا بأفكار مختلفة كهذه، وعلاقات ورغبات مختلفة كهذه، بالصيغة نفسها. فمفهومها هي عن الحياة الارستقراطية كان ببساطة اتحاد المعرفة الواسعة بالحرية الواسعة؛ فالمعرفة ستمنح المرء شعوراً بالمسؤولية، والحرية شعوراً بالمتعة. لكن بالنسبة لأوزموند كان مسألة أسلوب عموماً، مسألة تصرّفٍ واعٍ ومحسوب. كان معجباً بما هو قديم، ومحترم، ومتوارَث؛ وهي كانت كذلك، لكنها تجرأت بأن تفعل ما تختاره إضافةً إلى ذلك. كان لديه احترام هائل للتقاليد، فقد قال لها في إحدى المرات بأن أفضل شيء في الحياة هو أن يكون لديه تقاليد، لكن إن كان المرء سيّئ الحظ كثيراً بعدم امتلاكه لها فعليه أن يتصرف على الفور ليخلقها. لقد عرفَتْ بأنه كان يقصد بذلك بأنها لا تمتلكها، بل كان أحسن حالاً منها. رغم ذلك، لم تعرف أبداً من أي مصدر استقى تقاليده. مع هذا كان لديه مجموعة كبيرة جداً منها؛ كان ذلك أمراً مؤكَّداً جداً. وبعد قليل بدأت تعرف. كان الأمر المهم هو أن يتصرّف وفقاً لها. ليس مهمّاً بالنسبة له فقط، بل بالنسبة لها. إذ كان لدى إيزابيل قناعة مطلقة وهي أن التقاليد يجب أن تكون فاضلة تماماً لتنفع شخصاً آخر غير صاحبها. لكنها مع ذلك أيّدَتْ هذا التلميح بأن عليها هي أيضاً أن تتقدم وفقاً للموسيقى المهيبة التي تنساب من فتراتٍ مجهولة في ماضي زوجها؛ وهي التي كانت خطواتها فيما مضى تلقائية جداً، طائشة جداً، ملتوية جداً، نقيض التقدم بشكلٍ كبير.

كانت هناك أمور معينة عليهما أن يفعلاها، وقفة معينة يجب أن يتخذاها، أناساً معينين يجب أن يعرفاهم ولا يعرفاهم. عندما رأت هذا النظام الصارم يُطْبِقُ عليها، ويلفّها كبساط الحائط المزخرف، تملّكها ذلك الإحساس بالظلمة والاختناق الذي تحدثتُ عنه. لقد بدت محبوسةً مع رائحة النتن والعفن. كانت قد قاوَمَتْ طبعاً؛ في البداية، بمرحٍ، بسخريةٍ، برقّةٍ. ومن ثم، كلما ازداد الموقف صعوبةً أكثر، قاوَمَتْ بتلهفٍ، بانفعالٍ، باستجداء. لقد استجْدَتِ مسألة الحرية، مسألة التصرف وفقاً لِما اختاره، مسألة عدم الاهتمام بوجهة وتسمية حياتهما ـ أي مسألة مواهب وتطلّعات أخرى، مسألة مفاهيم أخرى تماماً.

ثم تتقدم شخصية زوجها التي أثّرتْ مثلما لم تفعل من قبل، وتقف منتصبةً. كانت الأشياء التي قالتها تُلَبّي بازدرائه، وتمكنت من أن ترى بأنه كان خجلاً منها بشكلٍ لا يوصَف ـ هل رآها ـ تافهة، سوقية؟ لقد علم الآن على الأقل بأنها لم يكن لديها تقاليد! فهو لم يكن في تصوّره المسبق عن الأشخاص بأنها ستكشف عن سطحيةٍ كهذه؛ فآراؤها كانت تلائم صحيفةً متطرّفة أو قسّاً توحيديّاً[1].

كانت الإهانة الحقيقة، كما أدركَتْ في النهاية، هو امتلاكها تفكيراً خاصاً بها تقريباً. فتفكيرها كان يجب أن يكون تفكيره ـ مرتبطاً بتفكيره كحديقةٍ صغيرة ـ زريعةٍ بالنسبة لغزالةٍ ـ متنزهاً. كان سيجرف التربة برقّة ويسقي الأزهار؛ كان سيزيل الأعشاب الضارة من أحواض الزرع ويجمع أكاليل نادرة. كانت ستصبح مِلكية جميلة لمالكٍ صعب المنال مسبقاً. لم يرغب بأن تكون غبية، بل على العكس، لقد أسعَدَتْهُ لأنها كانت ذكية، لكنه توقَّعَ ذكاءها أن يعمل لصالحه بشكلٍ كلي. وبعيداً جداً عن رغبته في أن يكون تفكيرها فارغاً،

(1) التوحيدية، هي حركة لاهوتية مسيحية دينية سميت كذلك لأنها ترفض عقيدة التثليث وتستند إلى مفهوم وحدانية الله. (المترجمة)

امتدحَ نفسه بأن تفكيرها سيصبح مستقبِلاً بعمق. لقد توقَّعَ من زوجته أن تشعر معه ولأجله، أن تفكر في آرائه، طموحاته، رغباته؛ فكانت إيزابيل مجبَرة على الاعتراف بأن هذا لم يكن تعجرفاً كبيراً من رجلٍ مشذَّبٍ اجتماعياً، وزوجٍ في الأساس رقيقٍ جداً على الأقل. لكن كانت هناك أشياء معينة لم تتمكن أبداً من استيعابها. قبل كل شيء، كانت هذه الأشياء قذرةً بشكلٍ مخيف. لم تكن[1] سليلة البيوريتان[2]، لكن على الرغم من ذلك، آمنتْ بأشياء مثل العفّة وحتى الاحتشام. سيتضح بأن أوزموند كان بعيداً عن عمل أي شيء من هذا القبيل؛ فبعض تقاليده جعلتها تدفع حاشيات ثوبها إلى الوراء.

هل كان لجميع النساء عشّاق؟ هل كلهن يكذبن وحتى أفضلهن لها سعرها؟ هل توجد فقط ثلاث أو أربع لم يخدعن أزواجهنّ؟ عندما سمعت إيزابيل أشياء كهذه شعرتْ بازدراءٍ لها أكبر من ثرثرة صالونات القرية ـ ازدراءٍ تجدَّدَ بمظهرٍ معيبٍ جداً. فهناك كان عيب أخت زوجها؛ فهل كان زوجها يحكم من خلال الكونتيسة جيميني فقط؟ فهذه السيدة تكذب دائماً، وكانت تمارس الخداع الذي لم يكن كلامياً فقط. كان ذلك كافياً لتجد هذه الحقائق مُسَلَّماً بها بين تقاليد أوزموند ـ كانت كافية بدون أن تُضفي عليها تعميماً عاماً. كان ازدراؤها لافتراضاته هو ما جعله مستقيماً. لقد كان منغمساً في الازدراء، وكان من الملائم أن تكون زوجته كذلك؛ لكن يجب عليها أن تردَّ ازدراءها إلى مفهومه الخاص عن الأشياء ـ وكانت هذه مخاطرة لم يسمح بها. فقد كان واثقاً من أنه نظّم مشاعرها قبل أن تُقْدِمَ على ذلك، وتمكنت إيزابيل بسهوله من تخيل كيف استشاطت أذناه لدى اكتشافه بأن ثقته كانت زائدة عن

---

(1) أي إيزابيل. (المترجمة)

(2) البيوريتان: أو المتطهّرون، هم أتباع المذهب البيوريتاني أو التطهيري، وهو مذهب مسيحي بروتستانتي تتضمن تعليماته تحريات كثيرة وتزمُّتاً كبيراً يسيطر على حياتهم ومجتمعهم. (المترجمة)

الحد. عندما يكون للمرء زوجة تمنحه هذا الإحساس، فلن يتبقّى شيء إلّا أن يكرهها.

لقد كانت متيقنةً الآن فعلياً بأن هذا الإحساس بالكراهية الذي كان في البداية ملاذاً وترويحاً قد أصبحَ شغل ومتعة حياته. كان الإحساس عميقاً لأنه كان صادقاً. فقد تجلّى له بأن في النهاية بإمكانها أن تستغني عنه. إن كانت الفكرة بالنسبة له مخيفة، وإن بدت في البداية كنوعٍ من الخيانة، من القدرة على التدنيس، فما هو التأثير اللانهائي الذي لا يمكن توقّعُهُ عليه؟ إنه بسيط جداً. لقد ازدراها، لم يكن لديها تقاليد ولا أفق أخلاقي لقسٍّ توحيدي. مسكينة إيزابيل، التي لم تكن قادرة أبداً على فهم التوحيدية!

كانت هذه هي القناعة التي كانت تعيش بها لمدة من الزمن بحيث توقفت عن تقدير حجمها. فما الذي سيحدث ـ ماذا كان يوجد أمامهما؟ كان هذا هو سؤالها الدائم. ماذا كان سيفعل ـ ماذا يجب عليها أن تفعل؟ عندما يكره رجلٌ زوجتَه إلامَ يقود ذلك؟ إنها لا تكرهه، هذا هو ما كانت متأكدةً منه، لأنها في كل برهة تشعر برغبة عميقة في منحه مفاجأة سارّة. رغم ذلك، شعرَتْ بالخوف معظم الأوقات، وقد اعتاد أن ينتابها، كما ألمحتُ مسبقاً، بأنها خدعَتْهُ منذ البداية. لقد تزوجا بشكلٍ غريبٍ بكل الأحوال، وكانت حياةً مريعة. فحتى هذا الصباح لم يكن قد تحدث معها منذ أسبوع؛ كان أسلوبه جافاً كنارٍ منطفئة. كانت تعرف بأن هناك سبباً خاصّاً، لقد كان منزعجاً من مكوث رالف تاتشيت في روما. إذ كان يعتقد بأنها ترى ابن خالتها أكثر من اللازم ـ فقد أخبرها قبل أسبوعٍ من ذلك بأنه من غير المحترم أن تذهب إليه في فندقه. كان سيقول أكثر من ذلك لو لم تجعل حالةُ رالف المريضة التنديدَ به أمراً قاسياً، لكن لو لم يضبط نفسه لزاد فقط من ازدرائه. قرأت إيزابيل كل ذلك كما كانت ستقرأ الوقت على وجه الساعة. كانت مدركةً تماماً إلى أن مشهد اهتمامها بابن خالتها قد أثارَ غضب زوجها

وكأنَّ أوزموند حبسها في غرفتها ـ وهو ما كانت متأكدةً من أن ذلك هو ما أراد فعله. كان اعتقادها الصادق عموماً هو أنها لم تكن شُجاعة، لكنها لم تستطع بالتأكيد أن تتظاهر بأن تكون لامبالية برالف. لقد كانت واثقةً بأنه كان يحتضر في النهاية وأنها لن تراه ثانيةً أبداً، ومَنَحَها هذا عطفاً تجاهه لم تعرفه من قبل. لم يكن يوجد شيء يسعدها الآن، كيف يمكن لأي شيء أن يسعد امرأةً تعرف بأنها تُضيّع حياتها؟ كان هناك عبءٌ دائم على قلبها ـ كان هناك نورٌ طفيف على كل شيء. لكن زيارة رالف القصيرة كانت مصباحاً في الظلام، لأن في الساعة التي تجلس فيها معه أصبح إشفاقها على نفسها إشفاقاً عليه بطريقةٍ ما. لقد شعرت اليوم بأنه أخوها. لم يكن لديها أخ أبداً، لكن لو كان لديها أخ وكانت في محنة وكان يحتضر، فسيصبح عزيزاً عليها مثل رالف. آه، نعم، لو كان جيلبرت غيوراً منها فربما كان هناك سبب ما. فجلوس جيلبرت لنصف ساعة مع رالف لم يجعله يبدو بأفضل حال. ليس السبب بأنهما تحدثا إليه ـ لم يكن هذا هو ما اشتكَتْ منه، فاسمُهُ لم يُذكَر بينهما. كان السبب ببساطة هو أن رالف كان كريماً وأن زوجها لم يكن كذلك. كان هناك شيء ما في حديث رالف، في ابتسامته، في مجرد تواجده في روما، جَعَلَ الحلقة البغيضة التي تدور حولها واسعة أكثر. لقد جعلَتْها تشعر بخير الحياة، جعلتها تشعر بما قد يحدث. على أية حال، لقد كان ذكياً مثل أوزموند ـ باستثناء أنه كان أفضل كثيراً. وبهذا، بدا لها إخفاء بؤسها عنه تصرّفاً صالحاً. لقد أخفته عمداً؛ إذ كانت دائماً أثناء حديثهما تقيم الحُجُب وترصف السواتر. لقد عاد إلى الحياة أمامها ثانيةً ـ إذ لم يكن لديه الوقت ليموت ـ ذلك النهار في الحديقة في فلورنسا عندما حذّرها من أوزموند. كان عليها فقط أن تغلق عينيها لترى المكان، لتسمع صوته، لتشعر بدفء وعذوبة الهواء. كيف تمكّن من معرفة ذلك؟ يا لها من حكمة غامضة، يا لها من حكمة مدهشة! هل هو ذكي كجيلبرت؟ لقد كان أذكى بكثير ـ ليتوصل إلى حكمٍ كهذا. لم يكن جيلبرت حكيماً جداً وصائباً جداً أبداً.

لم يكن يجب على رالف أبداً أن يعرف منها على الأقل فيما إذا كان محقّاً، وكان هذا هو ما كانت تحرص عليه الآن. لقد منحها ذلك الكثير لتفعله؛ كان فيه حماسة، إجلالاً، عقيدة.

تجد النساء عقيدتها أحياناً في ممارساتٍ غريبة؛ فقد كان لدى إيزابيل في الوقت الحالي ـ بلعبها دوراً أمام ابن خالتها ـ اعتقاد بأنها كانت تُحسن إليه. ربما سيكون ذلك إحساناً لو كان ـ ولو للحظةٍ ـ مغفلاً.

في الحقيقة، تضمَّنَ هذا الإحسان بشكلٍ رئيسي محاولتها جعْله يعتقد بأنه في إحدى المرات جرحها بعمق وأن الحدث كان قد أخجله، لكن لأنها كانت متسامحة جداً وهو مريض جداً، لم تحمل له ضغينة، وحتى أنها امتنعت بشكلٍ مُتَفَهّم عن التفاخر بسعادتها أمامه. ابتسم رالف وهو يتكئ على سريره على هذا الشكل فوق الاعتيادي لهذا التفهّم، لكنه سامحها لأنها سامحته. لم ترغب أن يتألم بمعرفته أنها لم تكن سعيدة؛ فقد كان ذلك هو الشيء المهم، ولم يكن مهمّاً أن معرفةً كهذه كانت ستجعله على حقٍّ قليلاً.

لبثت في الصالون الهادئ بعد انطفاء النار بوقتٍ طويل. لم يكن هناك خطر بشعورها بالبرد، فقد كانت مصابة بالحمى. سمعت الساعات الصغيرة تدق، ومن ثم الساعات الكبيرة، لكن سهرها لم يُبالِ بالوقت. كان ذهنها الذي هاجمته التخيلات في حالةٍ من النشاط غير العادي، وقد تكون تخيلاتها أيضاً قد خطرت لها هناك، حيث جلست لتستقبلها، مثلما تستقبلها وهي على الوسادة لتسخَر من النوم. لقد اعتقدَتْ ـ كما ذكرتُ ـ بأنها لم تكن شُجاعة، وماذا يمكن أن يكون أفضل دليل على ذلك من أن تلبث هناك نصف الليل وهي تحاول أن تقنع نفسها بأنه لم يكن يوجد سبب في أن لا تتزوج بانسي مثلما كنتَ ستضع رسالة في دائرة البريد؟

عندما دقت الساعة الرابعة نهضت، كانت ذاهبة إلى الفراش أخيراً، لأن المصباح مضى على انطفائه مدة طويلة واحترقت الشموع على آخرها. لكن

حتى عند ذلك توقفت ثانيةً في وسط الغرفة ووقفت هناك وهي تركّز على مشهدٍ تذكّرَتْهُ ـ مشهد زوجها ومدام ميرليه وهما متقاربان بشكلٍ لاشعوري وبطريقةٍ رافعة للكلفة.

***

الفصل 43

بعد ثلاث ليالٍ من هذا، أخذت إيزابيل بانسي إلى حفلة كبيرة والتي لم يرافقهم إليها أوزموند الذي لا يذهب أبداً إلى حفلات رقص.

كانت بانسي مستعدةً لحفلات الرقص كما هو شأنها دائماً؛ فلم تكن ذات ميول متشعّبة، ولم تمتد إلى متعٍ أخرى رأت أن الحظر قد فُرض على تلك الخاصة بالحب. إن كانت تترقّب فرصتها المناسِبة أو تأمَل لتتحايل على والدها، فيجب أن تتكهن أولاً بموافقته. ظنت إيزابيل بأن هذا شيء لا يُحتمل؛ إذ كان الشيء المحتمل أكثر بكثير هو أن بانسي ببساطة قررت أن تكون فتاة طيبة. فهي لم تحظَ بفرصةٍ كهذه أبداً، وكان لديها احترام كبير للفرص. لقد تصرَّفَتْ ليس أقل حذراً من المعتاد، وراقبت ليس أقل انتباهاً من المعتاد الجزء السفلي المتطاير من ثوبها؛ أمسكت باقتها بقوة وأحصت الأزهار مراراً وتكراراً للمرة العشرين. لقد جعلت إيزابيل تشعر بأنها كبيرة في السن، وبدا كأنه مرّ وقت طويل منذ أن كانت مضطربة من حفلةٍ راقصة. لم تكن أبداً بانسي، التي كانت مثيرة جداً للإعجاب، بحاجة إلى من يشاركها الرقص، وبعد وصولهما مباشرةً منحت إيزابيل، التي لم تكن ترقص، باقتها لتمسكها. أسدت إيزابيل لها هذه الخدمة لبضع دقائق عندما أصبحت مدركة لوجود إدوارد غوزييه القريب. فوقف أمامها؛ كان قد فقد ابتسامته اللطيفة واكتسى مظهره بالصرامة العسكرية تقريباً. كان هذا التغيّر في مظهره سيجعل إيزابيل تبتسم لو لم تكن تشعر أن موضوعه في الأساس موضوع صعب؛ كانت تفوح منه دائماً رائحة نبات رقيب الشمس أكثر من البارود. نظر إليها للحظةٍ بشكلٍ

شرس قليلاً وكأنه ليُعْلِمَها بأنه كان خطِراً، ومن ثم أوقَعَ نظره على باقتها. بعد أن تفحّصها، رقّتْ نظرتُه وقال بسرعة: (إنها كلها أزهار الثالوث. لا بدّ أنها تعود لها!).[1]

ابتسمت إيزابيل بلطف.

ـ (نعم. إنها تعود لها. لقد أعطتها لي كي أحملها).

طلب الشاب المسكين: (أتسمحين لي أن أحملها قليلاً يا سيدة أوزموند).

ـ (كلا، فأنا لا أستطيع أن أثق بكَ. إذ أخشى بأنكَ لن تعيدها).

ـ (لستُ متأكداً بأنني سوف أعيدها. إذ سأغادر بها المكان على الفور. لكن ألا يمكنني على الأقل أن أحظى بزهرةٍ واحدة؟).

ترددت إيزابيل لوهلة، ومن ثم مدّت الباقة وهي لا تزال مبتسمة.

ـ (اختر واحدةً بنفسكَ. إنه لمخيفٌ ما أفعلُه من أجلكَ).

هتف غوزييه ونظاراته على عينيه وهو يختار زهرته: (آه، ليتكِ تفعلين ما هو أكثر من هذا! يا سيدة أوزموند).

قالت: (لا تضعها في عروة سترتكَ، لا تفعلْ ذلك أبداً!).

ـ (أودُّ أن تراها. لقد رفضتْ أن ترقص معي، لكنني أرغب بأن أريها بأنني لا زلتُ وفياً لها).

ـ (لا بأس أن تريها لها، لكنه ليس المكان المناسب لتريها للآخرين، فقد أمرها والدها أن لا ترقص معكَ).

قال الشاب بنبرةٍ تلميحية رقيقة: (وهل هذا هو كل ما يمكنكِ فعله لأجلي؟ لقد انتظرتُ منكِ ما هو أكثر من ذلك يا سيدة أوزموند، فأنتِ تعلمين بأن تعارفنا يعود لمدةٍ طويلة جداً ـ بالتحديد إلى أيام طفولتنا البريئة).

---

(1) أي تعود لبانسي. وكلمة (بانسي) في اللغة الإنجليزية تعني (زهرة الثالوث)، وهي نوع من الأزهار المنحدرة من جنس نبات البنفسج. (المترجمة)

أجابت إيزابيل بصبر: (لا تجعلني كبيرة في السن جداً. أنت تعود إلى هذا الموضوع دائماً، وأنا لا أرفض ذلك أبداً. لكنني يجب أن أخبركَ، لأننا أصدقاء قدامى، بأنكَ لو شرّفتَني بأن تطلب مني الزواج منكَ لرفضتُكَ على الفور).

ـ (أنتِ لا تحترمينني إذن. قولي حالاً بأنكِ تعتقدينني مجرد باريسي عابث!).

ـ (أنا أحترمكَ كثيراً جداً، لكنني لستُ واقعة في حبكَ. إن ما أقصده بذلك طبعاً هو أنني لستُ واقعةً في حبكَ من أجل بانسي).

ـ (جيد جداً، لقد فهمتُ. أنت تشفقين عليّ، هذا كل ما في الأمر).

ونظر إدوارد غوزييه حوله، بشكل غير منطقي، بنظارته. فتراءى له أن الناس لا ينبغي أن يكونوا مسرورين أكثر، لكنه كان على الأقل متفاخراً جداً بأن يُظهِرَ بأن الخلل أدهشه لأنه خلل عام.

لم تقل إيزابيل شيئاً لوهلةٍ. إذ لم يمتلك أسلوبه ولا مظهره درجة المأساة العميقة. كانت نظارته الصغيرة، من بين أشياء أخرى، عكس ذلك. لكنها شعرت فجأة بالتأثُّر، فقد كان لتعاستها شيء مشترك مع تعاسته، وخطر لها مراراً وتكراراً أكثر من قبل بأنه يوجد هنا أكثر الأشياء المؤثرة في العالم بشكل يمكن تمييزه، إن لم يكن بشكل رومانسي ـ حُبٌّ غَرٌّ يقاوم الصعاب.

في النهاية، سألت بنبرة منخفضة: (هل ستكون فعلاً لطيفاً جداً معها؟).

فأرخى نظره بخشوع ورفع الزهرة الصغيرة التي يمسكها بأصابعه إلى شفتيه. ثم نظر إليها.

ـ (أنتِ تشفقين عليّ لكن ألا تشفقين عليها قليلاً؟).

ـ (لا أعلم. لستُ متأكدة. فهي ستتمتع دائماً بالحياة).

قال السيد غوزييه بشكلٍ مؤثر: (ذلك سيعتمد على ما تسميه حياة! فهي لن تتمتع بأن يتم تعذيبها).

ـ (لن يكون هناك شيء من هذا القبيل).

ـ (أنا مسرور لسماع ذلك. إنها تعرف ما هي مقبلة عليه. سترين ذلك).

ـ (أعتقد بأنها كذلك، وهي لن تعصي والدها أبداً. لكنها ستعود لي).

أضافت إيزابيل: (ويجب أن أتوسل إليك كي ترحل).

لبث غوزبيه لوهلةٍ حتى ظهرت بانسي على مرمى بصره وهي تمسك بذراع الشخص الذي يرقص معها. فوقف طويلاً بما يكفي ليرى وجهها. ثم غادر وهو رافعٌ رأسه. إن الطريقة التي نفّذ بها هذه التضحية أقنعت إيزابيل بأنه كان عاشقاً بشدة.

تريثت بانسي، التي نادراً ما تضطرب عند الرقص، قليلاً ثم استعادت باقتها وهي تبدو متنعشة تماماً وهادئة بعد هذه الحفلة. راقبتها إيزابيل ورأت بأنها كانت تعدُّ أزهارها، أثناء ذلك قالت لنفسها بأنه قطعاً كانت هناك قوة فاعلة أعمق من التي تعرفها. كانت بانسي قد رأت غوزبيه وهو يستدير مبتعداً، لكنها لم تقل شيئاً عنه لإيزابيل. تحدثت فقط عن زميلها في الرقص بعد أن انحنى وابتعد؛ وعن الموسيقى، الأزهار، وسوء الحظ النادر الذي مزّق ثوبها الآن. رغم ذلك، كانت إيزابيل متأكدة من أنها اكتشفت بأن عاشقها انتزع زهرة. مع هذا، لم يكن هذا الاكتشاف ضرورياً ليعلل الموافقة اللطيفة التي استجابت بها لدعوة زميلها التالي في الرقص. إن هذه الرقة المثالية تحت الارتباك الحاد كانت جزءاً من أسلوب محترم.

اقتيدت ثانيةً من قبل شاب متورد الوجه، هذه المرة وهي تحمل باقتها. ولم تكن غابت بضع دقائق عندما رأت إيزابيل اللورد واربيرتون وهو يتدافع عبر الحشد. فاقترب منها على الفور وحيّاها تحية المساء. لم تكن قد رأته منذ اليوم السابق. نظر حوله ومن ثم سأل: (أين الصبيّة الصغيرة؟).

كان قد أسس العادة البريئة بالإشارة إلى الآنسة أوزموند بهذا الأسلوب.

قالت إيزابيل: (إنها ترقص. ستراها في مكانٍ ما).

فنظر بين الراقصين، وفي النهاية لمح عين بانسي، فأشار عندها: (إنها تراني لكنها لا تميّزني. ألا ترقصين؟).

ـ (أنا جالسة لوحدي كما ترى).

ـ (ألن ترقصي معي؟).

ـ (أشكركَ. كنتُ أودُّ أن ترقص مع الصبيّة الصغيرة).

ـ (ليس المرء بحاجة لأن يقاطع الأخرى ـ خاصةً عندما تكون منشغلة).

ـ (إنها ليست منشغلة بأي شيء، ويمكنكَ أن تحتاط لنفسكَ. فهي ترقص باجتهادٍ كبير وأنتَ ستكون المبتدئ).

قال اللورد واربيرتون وهو يتابعها بنظراته: (إنها ترقص بشكلٍ رائع).

ثم أضاف: (آه، أخيراً، لقد ابتسمتْ لي).

فوقف هناك بهيئته الوسيمة، اللطيفة، الرزينة. كلما راقَبَتْهُ إيزابيل يخطر ببالها مراراً وتكراراً، مثلما يحدث من قبل، أنه من الغرابة أن يقوم رجلٌ بحماسته بالاهتمام بصبيّةٍ صغيرة. فقد أدهشها ذلك لأنه تناقُضٌ كبير؛ فلا انجذاب بانسي القليل، ولا لطفه، ولا دماثة أخلاقه، ولا حتى احتياجه للتسلية والذي كان مفرطاً ومستمراً، كانت كافية لتعلل ذلك.

واصل كلامه بسرعة وهو يستدير عائداً لإيزابيل: (أودُّ أن أرقص معكِ. لكنني أفضّل أيضاً أن أتحدث معكِ).

ـ (نعم. ذلك أفضل. وهو جديرٌ أكثر بمقامكَ. فرجل الدولة العظيم لا يجب أن يرقص الفالس).

ـ (لا تكوني قاسية. لماذا إذن نصحتِني بأن أرقص مع الآنسة أوزموند؟).

ـ (آه، ذلك أمر مختلف؛ فإن رقصتَ معها فسيبدو ذلك ببساطة جزءاً من اللطف ـ أي وكأنكَ تفعل ذلك لأجل الترفيه عنها. أما لو رقصتَ معي فستبدو وكأنكَ تفعل ذلك لأجل نفسكَ).

ـ (أرجوكِ، أليس لي الحق بالترفيه عن نفسي؟).

ـ (كلا، ليس لكَ الحق في ذلك وشؤون الإمبراطورية البريطانية بين يديكَ).

ـ (اللعنة على الإمبراطورية البريطانية! أنت دائماً تسخرين منها).

قالت إيزابيل: (رفِّهْ عن نفسكَ بالتحدث معي).

ـ (لستُ واثقاً بأنه حقاً ترفيه. أنت قاسية جداً، عليَّ دائماً أن أحمي نفسي. وأنتِ تدهشينني لأنكِ خطرةٌ الليلة أكثر من المعتاد. ألن ترقصي نهائياً؟).

ـ (لا أستطيع أن أغادر مكاني، إذ يجب أن تجدني بانسي هنا).

صمت قليلاً، ثم قال فجأة: (أنتِ طيبةٌ معها بشكلٍ رائع).

حدّقت إيزابيل قليلاً وابتسمت.

ـ (هل يمكنكَ أن تتخيل شخصاً لا يكون طيباً معها؟).

ـ (كلا في الحقيقة. فأنا أعرف كيف لشخصٍ أن يُفتن بها. لكن لا بدّ أنكِ تفعلين الكثير لأجلها).

قالت إيزابيل وهي لا تزال مبتسمة: (لقد أخرجتُها معي. ورأيتُ أن لديها الملابس المناسبة).

ـ (لا بدّ أن رفقتكِ ذات نفعٍ كبيرٍ لها؛ فأنتِ تتحدثين معها، تنصحينها، تساعدينها على أن تتطور).

ـ (آه، نعم، إنْ لم تكن هي الزهرة فقد عاشت بقربها) فضحكتْ وضحك مرافقها كثيراً. لكن كان هناك انشغالٌ واضح في وجهه تداخَلَ مع البهجة الكبيرة.

قال بعد لحظة تردد: (كلنا يحاول أن يعيش بقربها قدر ما يستطيع).

استدارت إيزابيل مبتعدةً، فبانسي كانت على وشك أن تعود إليها، لكنها رحّبت برقصةٍ أخرى.

نحن نعلم كم أحبت اللورد واربيرتون، فقد رأته أكثر لطفاً حتى من مجمل صفاته المبررة. كان هناك شيء في صحبته بدا كثروةٍ في حالة فقرٍ لامحدود، كامتلاكِ رصيدٍ كبير في البنك. لقد شعرتْ بسعادة أكبر عندما كان في غرفة الرقص، كان هناك شيء مُطَمْئِن في قدومه. ذكّرَتْها نبرة صوته بلطف الطبع. رغم كل ذلك، لم يُرضِها أن يكون قريباً منها جداً، وأنْ يستخفَّ كثيراً بحسن نيتها. كانت خائفة من ذلك، لقد جَنَّبَتْ نفسها ذلك، وتمنت بأن لا يفعل ذلك. لقد شعرتْ بأنه إنْ تقرَّبَ إليها كثيراً، كما رأينا، فستنفجر غضباً وستأمره بالابتعاد.

عادت بانسي إلى إيزابيل مع شَقٍّ آخر في ثوبها، والذي كان العاقبة الحتمية للأولى، والذي أَرَتْهُ لإيزابيل بنظراتٍ جديّة. فقد كان هناك الكثير جداً من الرجال المحترمين ببزّاتهم الرسمية وهم يرتدون تلك الأوسمة المدببة المربعة التي كانت مُدَمِّرَةً لثياب الصبايا الصغيرات. بهذا، أصبح واضحاً أن ذرائع النساء لا تُحصى. فانهمكت إيزابيل بثوب بانسي المنتَهَك، فبحثتْ عن دبوسٍ وأصلحت الضرر. ابتسمت وأصغت لقصة مغامراتها. كان إصغاؤها وتعاطفها سريعين وفاعلين، وكانت في تواصلٍ مباشر مع إحساسٍ مرتبطتين به قطعاً ـ حدسٌ حيّ بشأن فيما إذا كان اللورد واربيرتون يحاول أن يتودد لها. إذ لم تكن فقط كلماته عندئذٍ ما دلّتْ على ذلك، بل أشياء أخرى أيضاً، لقد كانت الإشارة والتواصل. كان هذا هو ما فكرت به عندما كانت تحاول إصلاح ثوب بانسي بالدبوس. إن كان الأمر كذلك، كما خشيَتْ، فلم يكن يقصد بالطبع، إذ هو نفسه لم يأخذ رغبته بعين الاعتبار. لكن ذلك لم يعد يجعل الموقف سعيداً، بل جعله مستحيلاً تقريباً، وكلما أسرَعَ بالعودة إلى استعادة العلاقات الصحيحة بالأشياء كلما كان ذلك أفضل.

بدأ على الفور بالتحدث إلى بانسي ـ التي كان من المحيّر بالتأكيد بالنسبة لها أن ترى بأنه ألقى ابتسامةً بصدقٍ طاهر. تجاوبت بانسي كالمعتاد بمظهرٍ

قليل من التشوق الوجداني. اضطرَّ أن ينحني كثيراً نحوها أثناء الحديث، وجال نظرها كالمعتاد صعوداً ونزولاً على جسده المتين وكأنه عرضه عليها ليظهره لها. لقد بدت دائماً خائفة قليلاً، مع هذا لم يكن خوفها ذا طابع جارح يوحي بالنفور، بل على العكس، بدت وكأنها تعلم بأنه يعرف بأنها أحبّتْهُ. تركتهما إيزابيل معاً قليلاً وسارت نحو صديقٍ رأته قريباً منها والذي تحدثت معه حتى بدأت موسيقى الرقصة التالية التي علمتْ أن بانسي ستشارك بها أيضاً. انضمت إليها الفتاة على الفور باندفاعٍ مضطربٍ قليلاً، وسلّمَتْها إيزابيل، التي تبنت بقلق رأي أوزموند عن خضوع ابنته التام، إلى زميلها المحدد في الرقص كتسليفٍ ثمين ومؤقت. فعن هذا الموضوع كانت لها تصوراتها الخاصة وتحفّظاتها الخاصة. كانت هناك لحظات يقوم فيها تَعَلُّق بانسي البالغ بإظهارهما ـ وفقاً لإحساسها ـ كحمقاوين. لكن أوزموند منحها قليلاً صورة عن وضعها كوصيفة مسنّة لابنته، والتي تألفت من تعاقب حنون من التساهل والتشدد. وكانت هناك تعليمات منه أرادت أن تعتقد بأنها أطاعتها حرفياً. ربما ـ فيما يخص بعضها ـ لأن بفعلها ذلك تبدو بأنها تُحوّلُها إلى تعليمات تافهة.

بعد أن اقتيدت بانسي بعيداً، وجدت اللورد واربيرتون يتقرب إليها ثانيةً. أبقت نظراتها عليه بثبات، تمنت لو تمكنت من سبر غور أفكاره، لكن ليس له مظهر الارتباك.

قال: (لقد وَعَدَتْني بأن ترقص معي لاحقاً).

ـ (أنا مسرورة لذلك. أعتقد بأنكَ وعدتَها برقصة الكوتيليون).

عند هذا بدا محرجاً قليلاً.

ـ (كلا، أنا لم أطلب منها ذلك. بل طلبتُ منها الرقصة الرباعية).

قالت إيزابيل بغضبٍ قليلاً: (آه، أنت لستَ ذكياً جداً! لقد أخبرتُها بأن تتجنب الكوتيليون في حال طلبتَ منها ذلك).

ـ (الصبية الصغيرة المسكينة، أنا معجب بذلك!) وضحك اللورد واربيرتون جهراً.

(سأطلب منها ذلك لو أحببتِ).

ـ (لو أحببتُ؟ أوه، إن كنتَ سترقص معها فقط لأنني أحبُّ ذلك....!).

ـ (أخشى بأن أسبّب لها الملل. إذ يبدو أن لديها الكثير من الرفاق الشباب في قائمتها).

أرخت إيزابيل نظرها وهي تفكر بسرعة. وقف اللورد واربيرتون هناك وهو ينظر إليها، وشعرتْ بعينيه على وجهها. شعرت بأنها ميّالة كثيراً لتطلب منه إزاحتهما. رغم ذلك، لم تفعل هذا بل قالت له فقط، بعد دقيقة، وقد رفعت نظرها: (أرجوك دعني أفهم).

ـ (تفهمين ماذا؟).

ـ (أنتَ أخبرتني قبل عشرة أيام بأنكَ تودُّ أن تتزوج ابنة زوجي. أنت لم تنسَ ذلك!).

ـ (أنسى ذلك؟ لقد كتبتُ للسيد أوزموند عن ذلك هذا الصباح).

قالت إيزابيل: (آه، لم يذكر لي بأنه تلقّى منكَ خبراً).

تلعثم اللورد واربيرتون قليلاً.

ـ (أنا.... أنا لم أرسل رسالتي).

ـ (ربما لأنكَ نسيتَ ذلك).

ـ (كلا، لم أكن مقتنعاً بها. إنها نوعٌ أخرق من الرسائل كي تُكتَب، تعلمين ذلك. لكنني سأرسلها الليلة).

ـ (عند الثالثة صباحاً؟).

ـ (أعني بعد ذلك؛ أثناء النهار).

ـ (جيد جداً. لا زلتَ تتمنى الزواج منها؟).

ـ (في الحقيقة، كثيراً).

ـ (ألستَ خائفاً من أنكَ ستسبب لها الملل؟).

وحينما ركّز مرافقها على هذا السؤال أضافت إيزابيل: (إن هي لا تستطيع أن ترقص معكَ نصف ساعة، فكيف ستكون قادرة على أن ترقص معكَ طوال الحياة؟).

قال اللورد واربيرتون بسرعة: (آه، سأسمح لها بأن ترقص مع أناسٍ آخرين!. بالنسبة لرقصة الكوتيليون، فكرتُ بأنكِ.... بأنكِ...).

ـ (بأنني سأرقصها معكَ؟ لقد قلتُ لكَ بأنني لن أرقص).

ـ (بالضبط، لذا بينما يكون الرقص دائراً يمكنني أن أجد ركناً هادئاً حيث يمكننا أن نجلس ونتحدث).

قالت إيزابيل بتجهّم: (أوه، أنت مهتم كثيراً جداً لأمري).

عندما حان دور رقصة الكوتيليون، وُجدت بانسي تشغل نفسها، مُعتَقِدَةً وبكل تواضع أن اللورد واربيرتون لم تكن لديه نية للرقص. نصحَتْهُ إيزابيل أن يبحث عن زميلةٍ أخرى للرقص، لكنه أكّد لها بأنه لن يرقص مع أحد سواها. رغم ذلك، بما أنها رغم احتجاجات مضيّفتها رفضتْ دعوات أخرى للرقص على أساس أنها لم تكن ترقص إطلاقاً، فلم يكن معقولاً بالنسبة لها أن تعمل استثناءً لصالح اللورد واربيرتون.

قال: (على أية حال، أنا لا أهتم بالرقص. إنها وسيلة ترفيه بربرية؛ أودُّ كثيراً بدلاً من ذلك أن أتحدث).

وقد ألمَحَ بأنه كان قد اكتشف الركن الذي كان يبحث عنه تماماً؛ زاوية صغيرة في واحدة من أصغر الغرف التي ستصل إليها الموسيقى بشكلٍ منخفض ولا تتعارض مع الحديث. كانت إيزابيل قد قررت السماح له بتنفيذ

فكرته، إذ رغبتْ بأن تكون مقتنعة. فسارت معه مبتعدةً عن صالة الرقص رغم أنها تعرف بأن زوجها أراد أن لا تغيب ابنته عن نظرها. على أية حال، فقد كانت مع خطيب ابنته، وذلك لا بأس به بالنسبة لأوزموند.

صادفَتْ وهي في طريقها خارج صالة الرقص إدوارد غوزييه الذي كان واقفاً عند المدخل وذراعاه مطويتان وهو ينظر إلى الرقص بطريقةِ شابٍ واقعي. توقفت لحظةً وسألَتْهُ إن لم يكن قد رقص، فأجاب: (بالتأكيد لا، إنْ لم أستطع أن أرقص معها!).

قالت إيزابيل بطريقة الناصح الطيب: (من الأفضل إذن أن تغادر).

ـ (لن أغادر حتى تغادر هي!) وسمح للورد واربيرتون بالمرور بدون أن ينظر إليه. رغم ذلك، لاحَظَ هذا النبيلُ الشابَ الكئيب وسأل إيزابيل عن من يكون صديقها الحزين هذا، مشيراً إلى أنه كان قد رآه في مكانٍ ما من قبل.

ـ (إنه الشاب الذي أخبرتُكَ عنه، الذي يعشق بانسي).

ـ (آه، نعم، تذكرتُ. إنه يبدو بحالة سيئة قليلاً).

ـ (إن له أسبابه. فزوجي لا يصغي إليه).

تساءل اللورد واربيرتون: (ما خطبه؟ إنه يبدو غير مؤذٍ تماماً).

ـ (ليس لديه المال الكافي. وهو غير مناسب).

أصغى اللورد واربيرتون باهتمام، إذ بدا مندهشاً لقصة إدوارد غوزييه هذا.

ـ (ويحي، بدا شاباً مهندماً)

ـ (إنه كذلك، لكن زوجي استثنائي جداً).

ـ (أوه، أفهمُ ذلك).

ثم توقف اللورد واربيرتون عن الكلام لوهلة، ثم تجرأ بالسؤال: (ما مقدار المال الذي يكسبه؟).

ـ (حوالي أربعين ألف فرنك سنوياً).

ـ (ألف وستمائة باوند؟ آه، لكن ذلك جيد جداً، تعلمين ذلك).

ـ (وهذا ما أعتقدُهُ. مع ذلك، فزوجي لديه خطط أكبر).

ـ (نعم، لاحظتُ أن لدى زوجكِ خططاً كبيرة جداً. هل الشاب مجنون حقاً؟)

ـ (مجنون؟ أبداً. إنه فاتن. فعندما كان بعمر الثانية عشرة أنا نفسي وقعتُ في حبه).

ردّ اللورد واربيرتون بقصدٍ مبهم وهو ينظر حوله: (إنه لا يبدو اليوم أكثر من الثانية عشرة بكثير).

ثم سأل بقصدٍ أوضح: (ألا تظنين بأنه يمكننا الجلوس هنا؟).

ـ (حيثما شئتَ).

كانت الغرفة نوعاً من البهو الصغير يعمها ضوءٌ خافت زهري اللون، خرجت منها سيدة ورجل حالما دخل صديقانا.

قالت إيزابيل: (إنه لطفٌ كبير منكَ أن تولي اهتماماً كهذا بالسيد غوزييه).

ـ (ذلك لأنه يبدو لي بأنه عومِلَ بقسوة. له وجه مكفهرّ، أتساءلُ ما الذي أزعجَه).

قالت إيزابيل: (أنتَ رجل نزيه. فلديكَ اهتمام لطيف حتى بمنافس).

استدار اللورد واربيرتون فجأة وهو محدق.

ـ (منافس! هل تسميه منافسي؟).

ـ (بالتأكيد... فكلاكما يرغب بالزواج من الشخص نفسه).

ـ (نعم... لكن، بما أنه ليس لديه فرصة!).

ـ (أنا أحبكَ أيّاً كان الأمر لأنكَ تضع نفسكَ مكانه. ذلك يدل على خيال).

ونظر اللورد واربيرتون إليها نظرة متحيّرة.

ـ (تحبينني لأجل ذلك؟ أعتقد بأنكِ تقصدين بأنكِ تضحكين عليّ لأجل ذلك).

ـ (نعم، أنا أضحك عليكَ قليلاً، لكنني أحبكَ كشخصٍ أضحكُ عليه).

ـ (آه، حسناً إذن. دعيني أتغلغل في حالته أكثر. ماذا تعتقدين بأنه يمكن للمرء أن يفعل لأجله؟).

قالت إيزابيل: (بما أنني أمتدحُ خيالكَ فسوف أترككَ تتخيل بأنه ليس أنت. وستحبكَ بانسي أيضاً لأجل ذلك).

ـ (الآنسة أوزموند؟ آه، أنا أجاملُ نفسي بأنها تحبني مسبقاً).

ـ (كثيراً جداً على ما أعتقد).

تريَّثَ قليلاً، فلا يزال يستفهم من خلال وجهها.

ـ (حسناً إذن، أنا لا أفهمكِ. أنت تعنين بأنها تهتم لأمره؟).

ـ (لقد أخبرتُكَ بالتأكيد بأنني أعتقد بأنها تهتم).

اندفع احمرارٌ سريع إلى ملامحه.

ـ (لقد أخبَرْتِني بأنها لن ترغب بسوى ما يرغب به والدها. ووفقاً لِما فهمتُ فهو سيفضّلني...!).

فتوقف قليلاً عن الكلام، ثم أشار إلى احمراره: (ألا ترين؟).

ـ (نعم، أخبرتُكَ بأن لديها رغبة هائلة بإرضاء والدها، وذلك ربما سيأخذها بعيداً جداً).

قال اللورد واربيرتون: (يبدو ذلك لي رأياً مستحسناً).

ـ (بالتأكيد. إنه رأيٌ مستحسن جداً).

بقيت إيزابيل صامتة لبضع لحظات؛ ظلت الغرفة فارغة؛ وصل لها صوت الموسيقى وقد خفَّتْ شدته بفعل الحجرات المتداخلة. ثم قالت في النهاية: (لكن بالكاد يدهشني كرأي أن يتمنى رجلٌ أن يكون مديناً لزوجةٍ).

ـ (لا أدري. إذا كانت الزوجة زوجةً طيبة وهو يظن أنها تحسن الصنع!).
ـ (نعم، يجب أن تعتقد ذلك طبعاً).
ـ (نعم، أنا أعتقد ذلك. فلا سيطرة لي على الأمر. ستسمين ذلك طبعاً رأياً بريطانياً جداً).
ـ (كلا، لن أفعل. أعتقد بأن بانسي ستحسن صنعاً بشكلٍ رائع بزواجها منكَ، وأنا لا أعلم من يمكنه أن يعلم ذلك أفضل منكَ. لكنكَ لستَ واقعاً في الحب).
ـ (آه، بلى. أنا واقع في الحب يا سيدة أوزموند!).
فهزت إيزابيل رأسها.
ـ (أنتَ تحب أن تعتقد بأنكَ كذلك بينما أنت تجلس هنا معي. لكنكَ لا تدهشني بذلك).
ـ (أنا لستُ كالشاب الموجود عند المدخل. أنا أقرُّ بذلك. لكن ما الذي يجعل الأمر غير طبيعي للغاية؟ هل يمكن لأي أحد في العالم أن يكون محبوباً أكثر من الآنسة أوزموند؟).
ـ (لا أحد، ربما. لكن الحب ليس له علاقة بالأسباب المعقولة).
ـ (أنا لا أتفق معكِ. فأنا مسرورٌ لامتلاكي أسباباً معقولة).
ـ (طبعاً أنت مسرور. فإن كنتَ حقاً واقعاً في الحب فلن تهتم بالأسباب المعقولة مطلقاً).

صاح اللورد واربيرتون وهو يثني ذراعيه ويحني رأسه إلى الخلف ويمط نفسه قليلاً: (آه، واقع في الحب حقيقةً... واقع في الحب حقيقةً! عليكِ أن تتذكّري بأن عمري اثنان وأربعون عاماً. أنا لن أتظاهر بأنني مثلما كنتُ يوماً).
قالت إيزابيل: (حسناً، إنْ كنت متأكداً فذلك أمرٌ جيد).
لم يُجِبْ بشيء. جلس هناك ينظر أمامه ورأسه إلى الخلف. رغم ذلك، غيّر وضعيته بسرعة؛ فاستدار بسرعة نحو صديقته.

ـ (لماذا أنت عنيدة جداً، ومرتابة جداً؟).

فواجَهَتْ عينيه، وللحظةٍ نظر أحدهما للآخر بشكلٍ صريح. إن كانت تتمنى أن تكون مقتنعة، فقد رأت شيئاً أقنعها؛ لقد رأت في تعابيره وميض فكرةٍ كانت قلقةً بسببها ـ بل حتى خائفة ربما. لقد أظهر ذلك ريبةً وليس أملاً، لكن إن كان الأمر كذلك، فقد أخبرها بما أرادت معرفته. فلا يجب عليه ولو للحظة أن يشكّ بأنها تعرف أن عرض زواجه من ابنة زوجها يتضمن تقرُّباً إليها هي، أو بأنها تعتقد على ضوء اكتشافٍ كهذا بأن هذا الزواج نذير شؤم. مع ذلك، تبادلا بتلك النظرة المقتضبة والخاصة جداً معاني أكثر عمقاً مما كانا مُدرِكَيْنِ لها في تلك اللحظة.

قالت وهي تبتسم: (يا عزيزي لورد واربيرتون، بإمكانكَ، على حدِّ علمي، أن تفعل أي شيء يخطر ببالكَ).

وبهذا، نهضت وسارت نحو الغرفة الملحقة حيث رآها مرافقها وهي تتحدث مع رجلين، شخصيتين بارزتين في العالم الروماني، واللذين استقبلاها وكأنهما كانا يبحثان عنها. وبينما تحدثَتْ معهما وجدت نفسها نادمةً لأنها كانت قد تحركت من مكانها؛ إذ بدا الأمر قليلاً وكأنه هَرَبٌ ـ لم يتبعها اللورد واربيرتون مثلما حصل من قبل. مع ذلك، كانت مسرورة من ذلك؛ وعلى أية حال، كانت راضية. كانت راضية أكثر أيضاً عندما وجدت بمرورها عائدةً إلى صالة الرقص، إدوارد غوزييه وهو لا يزال مزروعاً عند مدخل الباب. فتوقفت وتحدثت معه ثانيةً: (لقد فعلتَ ما هو صائب بعدم مغادرتكَ، فلدي بعض العزاء لكَ).

فولوَلَ الشاب برفق: (أنا أحتاج إليه عندما أراكِ غليظةً معه بشكلٍ مريع!).

ـ (لا تتحدث عنه، فسوف أفعل ما أستطيع فعله من أجلكَ. أخشى أنه لن يكون بذي أهمية، لكنني سأفعل ما أقدر عليه).

نظر إليها نظرة جانبية كئيبة.

ـ (ما الذي جعلكِ فجأةً تقفين إلى صفّي؟).

أجابت وهي تبتسم عندما اجتازته: (شعوري بأنكَ عقبة عند مدخل الباب!).

بعد نصف ساعة، غادرت مع بانسي، وانتظرت السيدتان قليلاً، مع عدة ضيوفٍ مغادرين آخرين، عربتهما. حالما وصلت، خرج اللورد واربيرتون من المنزل وساعدهما في صعود عربتهما. وقف لوهلةٍ عند باب العربة وهو يسأل بانسي فيما إذا كانت قد استمتعت. وبإجابتها له، هوت إلى الوراء بمظهرٍ يسيرٍ من الإعياء.

ثم همهمت إيزابيل برفقٍ عند النافذة وهي تحاول إبطاءه بحركةٍ من إصبعها: (لا تنسَ أن ترسل رسالتكَ إلى والدها!).

***

الفصل 44

كانت الكونتيسة جيميني دائماً ضجرة للغاية ـ وعلى حدِّ قولها، ضجرة إلى حدِّ الهلاك. رغم ذلك فهي لم تهلك، وتصارعت بشجاعة كافية مع قَدَرها الذي زَوَّجَها رجلاً فلورنسياً غير مناسب والذي أصرَّ على العيش في بلدته الأصلية حيث استمتعَ بالفكرة التي قد تلازِمُ رجلاً لا تمتلك مهارتُه في الخسارة في لعب الورق فضيلة كونها عَرَضيّة بالنسبة لطبعٍ كريم. لم يكن الكونت جيميني محبوباً حتى من قبل أولئك الذين يكسبونَ منه؛ وقد حمل اسماً يشبه العملة المحلية للولايات الإيطالية القديمة، والتي لها قيمة في فلورنسا لكن لا يتم تداولها في الأجزاء الأخرى لشبه الجزيرة الإيطالية.

في روما، كان مجرد رجل فلورنسي غبي، وليس من العجيب أن لا يهتم بالقيام بزيارات دائمة إلى مكانٍ حيث ـ للقيام بها ـ يحتاج غباؤه تفسيراً أكثر مما كان مريحاً. فعاشت الكونتيسة وهي تتطلّع إلى روما، وكان تذمُّر حياتها الدائم هو أن ليس لديها مسكن هناك. كانت تخجل من أن تقول كم هو نادرٌ أن تُتاح لها زيارة تلك المدينة، وبالكاد هوَّنَ عليها الأمر أن أعضاء آخرين من عوائل فلورنسية نبيلة لم يذهبوا إلى هناك مطلقاً. كانت تذهب كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً؛ كان ذلك هو كل ما تمكنَتْ من قوله. أو بالأحرى لا تذهب مطلقاً، لكن كل ما تقوله هو شيء تستطيع قوله. في الحقيقة، كان لديها أكثر بكثير مما تقوله بشأن ذلك، وكانت تُبيِّن دائماً سبب كرهها لفلورنسا ورغبتها بقضاء حياتها في ظل كاتدرائية القديس بطرس. رغم ذلك، فهي أسبابٌ لا

تهمنا بشكلٍ مباشر، وقد اختَصَرَتْها بتصريحاتها بأن روما باختصار كانت المدينة الخالدة، وأن فلورنسا كانت مجرد مكان صغير جميل كأي مكانٍ آخر.

من الواضح أن الكونتيسة احتاجت أن تربط فكرة الخلود مع وسائل استمتاعها. فهي كانت مقتنعة بأن المجتمع في روما كان مثيراً للاهتمام أكثر بكثير بشكل لامتناهٍ، حيث تلتقي بمشاهير طوال فصل الشتاء، في حفلات المساء. بينما لا يوجد مشاهير في فلورنسا، ولا حتى واحد على الأقل سمعَتْ عنه.

منذ زواج أخيها، كان نفاد صبرها قد ازداد بشكل كبير، إذ كانت متأكدة جداً بأن زوجته كان لها حياة أكثر بريقاً من حياتها. لم تكن مثقفة جداً كإيزابيل، لكنها كانت مثقفة بما يكفي لتنصف روما ـ وليس بقايا الآثار وسراديب الموتى، ولا حتى ربما النُّصُب والمتاحف، شعائر الكنيسة والمناظر الطبيعية، وإنما أنصفت كل ما تبقّى بالتأكيد.

لقد سمعت الكثير عن زوجة أخيها، وعرفت تماماً بأن إيزابيل كانت تقضي وقتاً ممتعاً. كانت قد رأت كل ذلك بالتأكيد بنفسها في المناسبة الوحيدة التي كانت قد تمتعت بها بضيافة قصر روكانيرا. إذ كانت قد قضت أسبوعاً هناك خلال أول شتاء من زواج أخيها، لكن لم يتم تشجيعها على تجديد هذا الإشباع. لم يكن أوزموند يريدها ـ هذا هو ما كانت مدركةً له تماماً. لكن مع هذا كانت ستذهب، لأن في النهاية لا تهتم بتاتاً بأوزموند. لقد كان زوجها هو الذي لا يسمح لها بالذهاب، وكانت قضية المال دائماً مشكلة. كانت إيزابيل لطيفة جداً، ولم تكن الكونتيسة جيميني، التي أحبّتْ زوجة أخيها منذ البداية، قد أعماها الحسد تجاه مزايا إيزابيل الشخصية. فقد لاحظت دائماً بأنها تنسجم بشكلٍ أفضل مع النساء الذكيات أكثر من النساء التافهات مثلها هي، فالنساء التافهات لا يستطعن فهم حكمتها أبداً، بينما النساء الذكيات ـ النساء الذكيات حقاً ـ يفهمن دائماً تفاهتها. لقد بدا لها بأنها هي وإيزابيل، رغم أنهما

كانتا مختلفتين في المظهر الخارجي والأسلوب العام، إلا أنهما تمتلكان رقعة أرض مشتركة كانتا ستطآنها في النهاية. لم تكن كبيرة، لكن كانت صلبة، وستعرف كلتاهما ذلك عندما تطآنها حقاً يوماً ما. وهكذا، عاشت مع السيدة أوزموند تحت تأثير مفاجأةٍ سارّة؛ إذ كانت تتوقع باستمرار بأن إيزابيل كانت «ستنظر لها من فوق». ومع ذلك، كلما رأت بأن هذه العملية تؤجَّل باستمرار، كانت تسأل نفسها متى ستبدأ، وكأنها مفرقعات، أو فترة الصوم، أو موسم الأوبرا؛ ليس خوفاً بل دهشةً لسبب تأخرها. لم تنظر لها زوجة أخيها بأية نظرة سوى نظرة مساواة، وأظهرَتْ تجاه الكونتيسة المسكينة أقل ازدراء بقدر الإعجاب.

في الحقيقة، كانت إيزابيل ستفكر بازدرائها بالسرعة نفسها التي تتجاوز بها عن حكمٍ أخلاقي لحشرة. مع ذلك، لم تكن مستهينة بأخت زوجها؛ بل كانت بالأحرى خائفة منها قليلاً. كانت تتعجب بشأنها؛ فقد رأتها استثنائية. إذ بدت الكونتيسة بالنسبة لها بأنها لا تمتلك روحاً؛ إذ كانت كصدفةٍ برّاقة نادرة ذات سطحٍ لامع وتجويفٍ ورديٍّ ملفتٍ للنظر، بداخلها شيء ما سيخشخش عندما تهزّه، وكانت هذه الخشخشة هي العقيدة الروحية للكونتيسة بشكلٍ واضح، لَوْزَةٌ صغيرة حرة الحركة تتقلّب بداخلها. كانت غريبة جداً من أن يزدريها أحد، غريبة جداً من أن يقارن أحد نفسه بها.

كانت إيزابيل ستدعوها ثانيةً (لم يكن هناك اعتراض على دعوة الكونت) لكن أوزموند بعد زواجه لم يتورّع عن القول بصراحة بأن إيمي كانت حمقاء من أسوأ نوع ـ حمقاء ولحماقتها جموح شخصٍ عبقري. وقال في وقتٍ آخر بأن ليس لديها قلب، وأضاف بسرعة لأنها وهبَتْهُ كله تماماً ـ على شكل قطعة صغيرة، ككعكة الزواج المجمَّدة.

إن حقيقة عدم دعوتها كانت طبعاً عقبة أخرى لذهاب الكونتيسة مرة أخرى إلى روما. لكن في الفترة التي يجب أن تتطرّق لها هذه القصة الآن، كانت قد

استلمَتْ دعوةً لقضاء بضعة أسابيع في قصر روكانيرا. كانت الدعوة صادرة من أوزموند نفسه الذي كتب إلى أخته بأنها يجب أن تستعد لتكون هادئة جداً.

على أية حال، لقد وجدَتْ في هذه العبارة كل الخسّة التي دسّ فيها، والتي أنا غير قادر على قولها، لكنها قبلت الدعوة تحت أي شرط. علاوة على ذلك، كانت فضولية بشأن أحد انطباعات زيارتها السابقة، وهي أن أخاها قد وجد الزوجة المناسبة له. قبل الزواج، كانت متأسفةً لأجل إيزابيل، متأسفةً جداً لكونها امتلكَتْ أفكاراً جادّة ـ إن كانت أي من أفكار الكونتيسة جادّة ـ تُفاجَأ بها. لكنها تجاوَزَتْ عن ذلك، وبعد فترة قصيرة اطمأنَّتْ. كان أوزموند متعجرفاً كما هو حاله دائماً، لكن زوجته ما كانت لتصبح ضحيةً سهلة. لم تكن الكونتيسة دقيقة تماماً في حكمها، لكن بدا لها بأن إيزابيل لو تعجرَفَتْ فستصبح الأطول نفساً من الاثنين. كان ما أرادت معرفته الآن هو فيما إذا أصبحت إيزابيل متعجرفة؛ فسيمنحها ذلك سعادة هائلة أن ترى أوزموند وقد تم التفوق عليه.

قبل بضعة أيام من انطلاقها إلى روما، جلب لها خادمٌ بطاقة زائر ـ بطاقة مكتوب عليها فقط «هنرييتا س. ستاكبول». ضغطت الكونتيسة أطراف أصابعها على جبهتها؛ فهي لا تتذكر بأنها تعرف أي هنرييتا كهذه. ثم أشار الخادم أن السيدة طلبت منه أن يقول إنْ لم تعرفها الكونتيسة فستعرفها جيداً عندما تراها.

في الوقت الذي ظهرت فيه أمام زائرتها تذكرَتْ في الحقيقة بأنه كانت هناك في إحدى المرات سيدة أديبة في منزل السيدة تاتشيت، وهي السيدة الوحيدة المراسِلة التي قابلَتْها يوماً ـ أي السيدة الوحيدة المتحضّرة، لأنها كانت ابنة شاعرةٍ متوفاة. فعرفت الآنسةَ ستاكبول على الفور، وفوق ذلك فإن الآنسة ستاكبول بدت بأنها لم تتغير أبداً. وفكرت الكونتيسة، التي كانت لطيفة جداً، أنه من اللطيف قليلاً أن يزورها شخص بهذا التميّز. فتساءلت فيما إذا كانت

ستاكبول قد أتت بسبب والدتها ـ فيما إذا كانت قد سمعت بكورين الأميركية. لم تكن أمها كصديقة إيزابيل أبداً، فالكونتيسة تمكنَتْ بلمحةٍ من أن ترى أن هذه السيدة كانت أكثر عصرية بالتأكيد، وتلقّت فكرةً بالتحسّن الحاصل ـ في البلدان البعيدة بشكل رئيسي ـ في طابع السيدات الأديبات (الطابع المهني). فقد كانت والدتها معتادة على ارتداء وشاحٍ روماني مُلقىً على كتفين عاريين بشكلٍ مفزع من المخمل الأسود الضيّق (أوه، الملابس السوداء!)، وإكليل من الغار الذهبي مثبت على جدائل الشعر الكثيفة اللامعة. كانت تتحدث برقّة وبشكلٍ قليل، وبلهجة أسلافها «الكريول»[1] كما كانت تعترف هي بذلك دائماً. كانت تندب كثيراً ولم تكن جريئة مطلقاً. لكن الكونتيسة تمكنت من أن ترى أن ملابس هنرييتا كانت مزررة بعناية وجدائلها مضفورة بإحكام. كان هناك شيء مفعماً بالحيوية وعملياً في مظهرها، كان سلوكها متخطياً للرسميات قليلاً بشكلٍ مربك. كان من المستحيل تخيّلها يوماً تندب قليلاً مثلما هو من المستحيل تخيُّل رسالة وهي تُرسَل بدون عنوان.

لم تتمكن الكونتيسة إلّا أن تشعر بأن مراسِلة الإنترفيوَر كانت أكثر نشاطاً من كورين الأميركية. لقد شرحت بأنها زارت الكونتيسة لأنها كانت الشخص الوحيد الذي تعرفه في فلورنسا، وأنها عندما زارت مدينة أجنبية أحبت أن ترى شيئاً أكثر من المسافرين السطحيين. كانت تعرف السيدة تاتشيت، لكن السيدة تاتشيت كانت في أميركا، وحتى لو كانت في فلورنسا، ما كانت هنرييتا لتتعب نفسها من أجلها، لأن السيدة تاتشيت ليست أحد الأشخاص المثيرين للإعجاب بالنسبة لها.

فسألت الكونتيسةُ بلياقة: (هل تقصدين بذلك بأنني إحدى الأشخاص المثيرين للإعجاب بالنسبة لكِ؟).

---

(1) الكريول: هو مصطلح يُطلق غالباً على سكان المستعمرات المولودين محلياً من آباء أجانب. (المترجمة)

قالت الآنسة ستاكبول: (حسناً، أحبكِ أكثر مما أحبها. يبدو بأنني أتذكر بأنني عندما رأيتكِ مسبقاً كنتِ مثيرة للاهتمام جداً. لا أدري هل كان ذلك صدفةً أم هو نمطكِ المعتاد. على أية حال، فقد كنتُ مندهشة كثيراً بما قلتِه. لقد استفدتُ منه بعد ذلك طباعةً).

صاحت الكونتيسة محدقةً وشبه مندهشة: (ويحي! لم يكن لدي فكرة بأنني قلتُ يوماً أي شيء مهم! تمنيتُ لو عرفتُ ذلك في وقتها).

أشارت الآنسة ستاكبول: (كان عن حال المرأة في هذه المدينة. فقد ألقيتِ على الموضوع ضوءاً كبيراً)

ـ (إن حال المرأة صعب للغاية. هل هذا هو ما تقصدين؟ وأنتِ كتبتِهِ ونشرْتِهِ؟).

واصلت الكونتيسة الكلام: (آه، دعيني أراه!).

قالت هنرييتا: (سوف أكتب إليهم ليرسلوا لكِ الصحيفة لو أحببتِ. أنا لم أذكر اسمكِ، بل ذكرتُ فقط سيدة من طبقة راقية. ومن ثم استشهدتُ بآرائكِ).

ألقت الكونتيسة نفسها بسرعة إلى الوراء وهي ترمي للأعلى يديها المتشابكتين: (هل تعلمين بأنني متأسفة قليلاً بأنكِ لم تذكري اسمي؟ كنتُ سأحب كثيراً أن أرى اسمي في الصحف. لقد نسيتُ ماذا كانت آرائي، فلدي الكثير جداً منها! لكنني لستُ خجلةً منها. فأنا لستُ مثل أخي إطلاقاً ـ أعتقد بأنكِ تعرفين أخي؟ إنه يرى وضْع اسمه في الصحيفة نوعاً من الفضيحة. إن كنتِ ستستشهدين به فلن يسامحكِ أبداً.

قالت الآنسة ستاكبول بتحفّظٍ مهدئ: (لاحاجة لأن يكون خائفاً، فلن أشير إليه أبداً).

ثم أضافت: (هناك سببٌ آخر في مجيئي لرؤيتكِ. أنت تعرفين بأن السيد أوزموند متزوج من أعزّ صديقاتي).

ـ (آه، نعم. أنت صديقةٌ لإيزابيل. كنتُ أحاول أن أفكر ماذا أعرفُ عنكِ).

أعلنت هنرييتا: (من المُرضي جداً أن تكون معروفاً بذلك. لكن ذلك ليس هو ما يحب أخوكِ أن يعرفني به. لقد حاول أن يُنهي علاقتي مع إيزابيل).

قالت الكونتيسة: (لا تسمحي له بذلك).

ـ (ذلك هو ما أريد أن أتحدث عنه. فأنا ذاهبةٌ إلى روما).

صاحت الكونتيسة: (أنا كذلك! سنذهب سوية).

ـ (بكل سرور. وعندما أكتب عن رحلتي، سوف أذكركِ بالاسم كرفيقةٍ لي).

قفزت الكونتيسة من كرسيها وأتت وجلسَتْ على الأريكة بجانب ضيفتها.

ـ (آه، يجب عليكِ أن ترسلي إليَّ الصحيفة! إن زوجي لن يحب ذلك، لكن لا داعي لأن يراها. إلى جانب ذلك، فهو لا يعرف القراءة).

أتسعت عينا هنرييتا الكبيرتان.

ـ (لا يعرف القراءة؟ هل يمكنني أن أدرج ذلك في رسالتي؟).

ـ (في رسالتكِ؟)

ـ (للإنترفيوَر. فتلك هي صحيفتي).

ـ (أوه، نعم. لو تحبين ذلك، باسمه. هل ستبقين مع إيزابيل؟).

رفعت هنرييتا رأسها وهي تحدّق قليلاً في صمتٍ نحو مضيّفتها.

ـ (إنها لم تطلب مني ذلك. لقد كتبتُ لها بأنني آتية وأجابت بأنها ستجهّز غرفةً لي في فندق ولم تُعطِني سبباً).

أصغت الكونتيسة باهتمامٍ شديد وأشارت بتحامُل: (السبب هو أوزموند).

قالت الآنسة ستاكبول: (يستحسن على إيزابيل أن تتخذ موقفاً. أخشى بأنها تغيرت كثيراً. لقد أخبرتُها بأنها ستتغير).

ـ (آسفة لسماع ذلك. لقد تمنيتُ أن يكون لها طريقتها الخاصة).

أضافت الكونتيسة بسذاجة: (لماذا لا يستلطفكِ أخي؟).

ـ (لا أدري ولا يهمني. إن عدم استلطافه لي مرحّبٌ به جداً. فأنا لا أريد من كل شخص أن يحبني؛ إذ سأظن بنفسي سوءاً إنْ أحبَّني بعض الناس. فالصحفي لا يمكنه أن يأمل بإنجاز الكثير ما لم يحصد كراهية كثيرة، فهذه هي الطريقة التي يعرف بها بأن عمله يتقدم. والأمر نفسه تماماً ينطبق على السيدة. لكنني لم أتوقع ذلك من إيزابيل).

تساءلت الكونتيسة: (هل تعنين بأنها تكرهكِ؟).

ـ (لا أدري، أريد أن أفهم. وهذا ما أنا ذاهبةٌ إلى روما لأجله).

صاحت الكونتيسة: (ويحي، يا لها من مَهَمّة مُرهِقة!).

ـ (إنها لا تكتب لي بالطريقة نفسها. من السهولة رؤية أن هناك اختلافاً).

واصلت الآنسة ستاكبول الكلام: (إن كنتِ تعرفين أي شيء، فأودُّ أن أسمعه مقدماً كي أقرر الاتجاه الذي سأتخذه).

فأبرزت الكونتيسة لها شفتها السفلى وهزّة الكتفين اللامبالية المعتادة.

ـ (أعرف القليل جداً. أرى وأسمع القليل جداً عن أوزموند. إنه لا يستلطفني أكثر مما يستلطفكِ).

قالت هنريتا بتفكُّر: (مع أنكِ لستِ مراسلة صحفية).

ـ (أوه، لديه الكثير من الأسباب. مع ذلك، فقد دعياني كي أبقى في المنزل!) وابتسمت الكونتيسة بشكلٍ مفرط تقريباً.

إن ابتهاجها ـ ولوهلةٍ ـ لم يأخذ بعين الاعتبار كثيراً خيبة أمل الآنسة ستاكبول. مع ذلك، نظرت هذه السيدة للموضوع برباطة جأش.

ـ (ما كنتُ لأذهب لو طلبَتْ هي مني ذلك. فذلك ما أفكر أن لا أفعله. وأنا مسرورة بأنه لم يكن عليَّ أن أقرر، لكانت قضية صعبة جداً. إذ لن أحب أن

أبتعد عنها، ومع ذلك لستُ سعيدةً تحت سقفها. إن الفندق سيناسبني أكثر. لكن ليس هذا هو كل شيء).

قالت الكونتيسة: (إن روما ممتعة جداً اليوم. فهناك كل أصناف الأناس اللامعين. هل سمعتِ يوماً عن اللورد واربيرتون؟).

تساءلت هنرييتا: (سمعتُ عنه؟ أنا أعرفه جيداً. هل تعتبرينه لامعاً جداً؟).

ـ (أنا لا أعرفه، لكن قيل لي بأنه سيدٌ رفيعٌ جداً. إنه يتودد إلى إيزابيل).

ـ (يتودد إليها؟).

قالت الكونتيسة بمرح: (هكذا قيل لي، ولا أعلم التفاصيل. لكن إيزابيل حذرة جداً).

حدّقت هنرييتا بجديّة على رفيقتها. لم تقل شيئاً لوهلة، ثم تساءلت بشكلٍ مباغت: (متى ستذهبين إلى روما؟).

ـ (أخشى بأنه ليس قبل أسبوع).

قالت هنرييتا: (سوف أذهب غداً. أظن من الأفضل أن لا أنتظر).

ـ (ويحي، أنا آسفة. فأنا أصنع بعض الثياب. قيل لي بأن إيزابيل تستقبل أناساً كثيرين جداً. لكنني سأراكِ هناك، سوف أزوركِ في فندقكِ).

جلست هنرييتا ساكنةً ـ كانت مستغرقةً في تفكيرها، وفجأة صاحت الكونتيسة: (آه، لكن إن لم تذهبي معي فلن تستطيعي وصف رحلتنا!).

بدت الآنسة ستاكبول غير مبالية بهذه الفكرة؛ فقد كانت تفكر في شيء آخر وعبّرت عنه على الفور: (لستُ متأكدة بأنني أفهمكِ بخصوص اللورد واربيرتون).

ـ (تفهمينني؟ أنا أقصد بأنه لطيفٌ جداً. ذلك كل شيء).

تساءلت هنرييتا بوضوحٍ غير معهود: (هل تعتبرين التودد إلى نساء متزوجات أمراً لطيفاً؟).

حدّقت الكونتيسة، ومن ثم أضافت بضحكةٍ قويةٍ قليلاً: (من المؤكد أن جميع الرجال اللطفاء يفعلون ذلك. تزوجي وسترين!).

قالت الآنسة ستاكبول: (إن هذه الفكرة ستكون كافية لتتحاشاني. أنا سأرغب فقط بزوجي، ولن أرغب بأحدٍ آخر. هل تقصدين بأن إيزابيل مذنبة.... مذنبة....؟) وتوقفت عن الكلام قليلاً وهي تختار عباراتها.

ـ (هل أقصدُ بأنها مذنبة؟ أوه لا يا عزيزتي، ليس بعد على ما آمل. أنا أقصد فقط أن أوزموند ممل جداً وأن اللورد واربيرتون، على ما أسمع، في المنزل معظم الوقت. أخشى بأنكِ تشوهين سمعتها).

قالت هنرييتا: (كلا، أنا فقط قلقة).

ـ (آه، أنت لا تحترمين إيزابيل كثيراً! يجب أن يكون لديكِ ثقة أكبر).

أضافت الكونتيسة بسرعة: (سأخبركِ بأنه إن كان يريحكِ أن أتعهّد بجعله يتراجع).

أجابت الآنسة ستاكبول في البداية فقط بنظرتها الكئيبة الأكثر عمقاً، ثم قالت بعد برهة: (أنتِ لا تفهمينني ليست لدي الفكرة التي يبدو أنك تقترحينها. أنا لستُ خائفة على إيزابيل... بهذه الطريقة. أنا أخشى فقط بأنها غير سعيدة... ذلك هو ما أريد أن أصل إليه).

أدارت الكونتيسة رأسها مراتٍ عديدة؛ فقد بدت نافدة الصبر ومتهكّمة؛ فقد بدأت الآنسة ستاكبول تُضجرها قليلاً.

ـ (قد يكون لا بأس بذلك. أما من جانبي فأودُّ أن أعرف فيما إذا كان أوزموند سعيداً).

واصلت هنرييتا الكلام: (إن كانت حقاً قد تغيرتْ، فلا بدّ أن ذلك حصل على هذا الأساس).

قالت الكونتيسة: (سترين. ستخبركِ).

ـ (ربما لن تخبرني... وذلك هو ما أنا خائفة منه!).

ردت الكونتيسة: (حسناً، إن لم يكن أوزموند مُسلّياً، على طريقته القديمة، فسأجاملُ نفسي بأنني سأكتشف ذلك).

قالت هنرييتا: (لا يهمني ذلك).

ـ (أنا يهمني بشكلٍ هائل! فإن كانت إيزابيل غير سعيدة، فأنا حزينة لأجلها، لكنني لا أحتمل ذلك. يمكنني أن أقول لها شيئاً يجعلها بحالٍ أسوأ، لكن لا يمكنني أن أقول لها أي شيء سيواسيها. لماذا اختارَتْهُ وتزوّجَتْهُ؟ لو كانت قد أصغت إليَّ لكانت قد تخلصت منه. مع ذلك، سأسامحها إن اكتشفتُ بأنها جعلت الأمور عليه قاسية! أما لو سمحتْ له ببساطة أن يدوس عليها فلا أشعر بأنني حتى سأشفق عليها. لكنني لا أعتقد بأن ذلك محتمل جداً. أنا أضع في حسابي أن أكتشفَ بأنها إن كانت تعيسة، فهي على الأقل قد جعلَتْهُ كذلك).

نهضت هنرييتا؛ فقد بدت لها طبعاً هذه توقعات مخيفة جداً. فهي واثقةٌ بصدق بأن ليس لديها رغبة برؤية السيد أوزموند تعيساً. وفي الحقيقة، لا يمكن أن يكون كذلك، فالموضوع بالنسبة لها شطحات خيالية. عموماً، كانت خائبة الأمل قليلاً بشأن الكونتيسة التي تحرِّكَ تفكيرها في حلقة أضيق مما كانت قد تخيلت، وبقابلية على القسوة. فقالت على سبيل إضفاء التأثير الحسن: (سيكون من الأفضل إن كانا يحبان بعضهما البعض).

ـ (لا يمكنهما ذلك. فهو لا يحب أي أحد).

ـ (وأنا ظننتُ الأمر كذلك، لكن ذلك يضاعف خوفي على إيزابيل. سوف أنطلق غداً بالتأكيد).

قالت الكونتيسة وهي تبتسم بحيوية جداً: (إن لدى إيزابيل بالتأكيد مُحِبّين. أؤكد بأنني لا أُشفق عليها) تابعت الآنسة ستاكبول الكلام وكأنّ من المناسب أن لا تخامرها التخيلات: (قد لا يكون بإمكاني مساعدتها).

ـ (يمكنكِ لو أردتِ ذلك بأية حال، فذلك شيء مهم).

أضافت الكونتيسة فجأة: (أنا أعتقد بأن هذا هو ما أتيتِ من أميركا لأجله).

قالت هنريتا بهدوء: (نعم، فقد أردتُ أن أعتني بها).

وقفت مضيّفتُها هناك وهي تبتسم لها بعينينِ صغيرتين برّاقتين وبأنفٍ متلهف المظهر ووجنتين تصاعدت حمرةٌ على كلٍّ منهما.

ـ (آه، ذلك جميل جداً... ذلك جميل جداً! أليس هذا هو ما يطلقون عليه بالصداقة؟).

ـ (لا أدري ماذا يطلقون عليه. فقد فكرتُ أن من الأفضل أن آتي).

واصلت الكونتيسة الكلام: (إنها سعيدة جداً... إنها محظوظة جداً. إضافةً إلى ذلك لديها آخرون).

ثم انفجرت في الكلام بانفعال: (إنها محظوظة أكثر مني! أنا تعيسة مثلها ـ لدي زوجٌ سيّئ جداً. إنه أسوأ كثيراً من أوزموند، وليس لدي أصدقاء. ظننتُ بأن لديّ لكنهم تلاشوا. فلا أحد، رجلاً أو امرأة، كان سيفعل لي ما تفعلينه لها).

تأثرت هنرييتا؛ فقد كانت توجد قوة في هذا التدفق المر. فحدّقتْ نحو رفيقتها لحظةً، ومن ثم قالت: (دعيني أوضّح لكِ أيتها الكونتيسة، سوف أفعل لأجلكِ أي شيء تحبينه. سوف أنتظر أكثر وأرحل معكِ).

أجابت الكونتيسة بتغيّرٍ سريع في النبرة: (لا عليكِ. فقط اذكريني في الصحيفة!).

مع هذا، كانت هنرييتا، قبل مغادرتها لها، مضطرة لأن تجعلها تفهم بأنها لا يمكنها أن تقدم تقريراً خيالياً عن رحلتها إلى روما. فقد كانت الآنسة ستاكبول صحفية دقيقة بشكلٍ صارم.

عندما تركَتْها، أخذت الطريق المؤدي إلى لونغارنو، رصيف الميناء

المشمس الذي يقع بجانب النهر الأصفر حيث انتصبَتِ الفنادق جميعها، ذات الواجهات المشرقة والمعروفة للسيّاح، في صفٍّ واحد. كانت قد استكشفَتْ طريقها قبل هذه المرة عبر شوارع فلورنسا (كانت سريعة جداً في قضايا كهذه)، وبهذا، كانت قادرة على أن تستدير، بحركةٍ ذات تصميمٍ كبير، خارج الميدان الصغير الذي يشكّل الطريق إلى جسر هولي ترينيتي. واصلت نحو اليسار باتجاه جسر بونتي فيكيو، وتوقفت أمام أحد الفنادق التي تطل على ذلك الهيكل الرائع. هنا انتزعت دفتر جيب صغير وأخذت منه بطاقة وقلماً، وبعد تفكيرٍ للحظات، كتبت بضع كلمات.

من حقنا أن ننظر من فوق كتفها، وإذا فعلنا ذلك فسنقرأ السؤال المختصر: «هل يمكنني رؤيتكَ لهذا المساء لبضع دقائق لأمرٍ هام؟». وأضافت هنرييتا بأنه يجب عليها أن تنطلق إلى روما يوم غد. فتقدمت، وهي مسلحةٌ بهذه الوثيقة الصغيرة، نحو الحمّال الذي كان يحتل موقعه عند المدخل، وسألت إن كان السيد غودوود في الفندق. أجاب الحمّال، كما يجيب الحمّالون دائماً، بأنه خرج قبل حوالي عشرين دقيقة. وعندها، قدمت هنرييتا بطاقتها وتوسلت بأن تُسَلَّمَ إليه لدى عودته. وغادرت الفندق وتابعت طريقها على طول رصيف الميناء إلى الرواق المُعمّد لمعرض أوفيزي الذي من خلاله وصلت بسرعة إلى مدخل الصالة الشهيرة للوحات. فصعدت السلّم العالي الذي يقود إلى الحجرات العلوية وهي تشق طريقها نحو الداخل. منح الرواق الطويل المزجج من جانبٍ واحد والمزيّن بتماثيل نصفية عتيقة، والذي مثّل المدخل لهذه الحجرات، مشهداً خالياً تلألأ فيه الضوء الشتائي الساطع فوق الأرض الرخامية. كانت الصالة باردة جداً، ونادراً ما تُزار خلال أسابيع منتصف الشتاء.

قد تبدو الآنسة ستاكبول في سعيها للجمال الفني أكثر حماساً مما أدهشتنا به لحدّ الآن، لكن في النهاية لديها ما تفضّله وما تحبه. من ضمن الأخيرة،

كانت لوحة عشق المسيح الطفل للرسام كوريجيو ـ وفيها تركع العذراء أمام الوليد المقدس الذي يستلقي في مهدٍ من القش وهي تصفق بيديها له بينما هو يضحك ويصيح بسرور. كان لهنريتا اهتمام خاص بهذا المشهد الحميم ـ فقد رأتها اللوحة الأكثر جمالاً في العالم. ففي الوقت الراهن، وهي في طريقها من نيويورك إلى روما، كانت تقضي ثلاثة أيام فقط في فلورنسا، ومع ذلك تذكرت بأن هذه الأيام الثلاثة يجب أن لا تذهب سُدًى بدون أن تقوم بزيارة أخرى إلى عملها الفني المفضّل. كان لديها حس كبير بالجمال بكل الطرق، وشمل الكثير جداً من المهام الثقافية.

كانت على وشك أن تنتقل إلى الرواق عندما خرج منه رجلٌ، عندئذٍ صاحت قليلاً، ووقفت أمام كاسبار غودوود.

قالت: (كنتُ للتو عند فندقكَ. تركتُ لكَ بطاقة).

أجاب كاسبار غودوود وكأنه فعلاً يعني ذلك: (تشرفتُ بذلك كثيراً).

ـ (لم أفعل ذلك لتتشرف به. لقد زرتُكَ مسبقاً وأنا أعلم بأنكَ لا تحب ذلك. فعلتُ ذلك كي أتحدث معكَ قليلاً عن شيء ما).

نظر لوهلةٍ إلى المشبك الذي في قبعتها.

ـ (سأكون مسروراً بسماع ما تريدين قوله).

قالت هنريتا: (أنتَ لا تحب التحدث معي، لكني لا أبالي بذلك، فأنا لا أتحدث لكي أرفّه عنكَ. لقد كتبتُ لكَ رسالة لأطلب منكَ أن تأتي وأراك. لكن بما انني التقيتُ بكَ هنا فهذا سينفع أيضاً).

صرّح غودوود: (كنتُ خارجاً لتوي. لكنني سأمتنع طبعاً). كان مهذّباً لكن ليس مندفعاً.

رغم ذلك، لم تترقب هنريتا تصريحات كبيرة، وكانت ممتنة كثيراً بجديّة بأنه سيستمع لها تحت أية شروط. مع هذا، سألَتْهُ أولاً فيما إذا كان قد تفرّجَ على كل اللوحات.

ـ (كل ما أردتُ رؤيته، فقد كنتُ هنا لمدة ساعة).

قالت هنرييتا: (أتساءل إن كنتَ قد رأيتَ لوحة كوريجيو التي أحبها، فقد أتيتُ خصيصاً لأنظر إليها).

فدخلت الرواق ورافقها ببطء.

ـ (أعتقد بأنكِ رأيتِها، لكنني لم أعلم بأنكِ تحبينها).

كانت قد أشارت إلى عملها الفني المفضّل، وسألها إن كان كوريجيو هو ما أرادت أن تتحدث معه عنه.

قالت هنرييتا: (كلا، إنه عن شيء أقل تآلفاً!).

كانت الصالة الصغيرة اللامعة بالنسبة لهما عبارة عن خزانة رائعة من الكنوز. كان هناك فقط المسؤول عن المعرض وهو يحوم حول تمثال فينوس ميديتشي.

واصلت الآنسة ستاكبول الكلام: (أريدُ منكَ أن تسدي لي خدمة).

عبس كاسبار غودوود قليلاً، لكنه لم يُظهِر حرجاً لشعوره بأنه لا يبدو متلهفاً. كان وجهه وجه رجلٍ أكبر في السن كثيراً من وجه صديقنا سابقاً.

قال بصوت عالٍ قليلاً: (أنا متأكد بأنها شيء لن أحبه).

ـ (كلا، لا أعتقد بأنكَ ستحبها. إن أحببتَها فلن تكون خدمة).

واصل حديثه بنبرة رجلٍ مدركٍ جداً لمدى صبره: (حسناً، لنسمعها).

ـ (قد تقول بأنه لا يوجد هناك سبب معين يجعلكَ تُسدي لي خدمة. في الواقع أنا فقط أعرفُ خدمة واحدة وهي: إنْ أسديتَ لي خدمة فسأُسدي لكَ خدمة بسرور).

كان لنبرتها الرقيقة والواثقة، والتي لم يكن يوجد فيها محاولة للتأثير، وضوحٌ بالغٌ. وكان مرافقها، برغم إظهاره وجهاً صارماً قليلاً، عاجزاً عن التأثر بها. رغم ذلك، فعندما يتأثر، نادراً ما يُظهر ذلك بالعلامات المعتادة. فهو لن

يحمرَّ وجهه، لن يشيح بنظره، ولن يبدو خجلاً. إنه فقط سيثبت انتباهه بشكلٍ واضحٍ أكثر، وسيبدو بأنه يفكر بصرامة إضافية. لذلك واصلت هنريتا الكلام بفتورٍ وبدون إحساس بالفائدة: (في الواقع، يمكنني أن أقول الآن.... إذ يبدو الوقت مناسباً.. بأنني إن أزعجتُكَ يوماً «أعتقد بأنني أفعل ذلك أحياناً» فذلك لأنني أعرف بأنني كنتُ راغبة بأن أحتمل الانزعاج لأجلكَ. لقد سببتُ لكَ المشاكل.. بلا شك. لكنني كنتُ سأبذل جهداً لأجلكَ).

تردد غودوود: (أنتِ تبذلين جهداً الآن).

ـ (نعم، أنا أبذل جهداً... قليلاً. أريدكَ أن تفكر فيما إذا سيكون من الأفضل عموماً أن تذهب إلى روما).

أجاب بسذاجة قليلاً: (لقد خمنتُ بأنكِ ستقولين ذلك!).

ـ (لقد فكرتَ بالأمر إذن؟).

ـ (بالطبع فكرتُ، وبدقة جداً. لقد نظرتُ للموضوع من جميع جوانبه. وإلا ما كنتُ أتيتُ من مسافةٍ بعيدة كهذه. ولهذا السبب مكثتُ في باريس شهرين. إذ كنتُ أفكر في الموضوع مراراً وتكراراً).

ـ (أخشى أنكَ قررتَ مثلما أردتَ. قررتَ أن ذلك هو الأفضل لأنكَ كنتَ تميل إلى ذلك أكثر).

سأل غودوود: (أفضل بالنسبة لمن تعنين؟).

ـ (حسناً، بالنسبة لكَ أولاً، وبالنسبة للسيدة أوزموند ثانياً).

ـ (أوه، لن ينفعها ذلك بأي شيء! أنا لا أجامل نفسي).

ـ (هل سيعود عليها ذلك بالأذى؟.. ذلك هو السؤال).

ـ (أنا لا أفهم كيف سيهمها ذلك. فأنا لا شيء بالنسبة للسيدة أوزموند. لكن لو تعلمين، فأنا أريد أن أراها بنفسي).

ـ (نعم، ولهذا السبب سوف تذهب).

ـ (طبعاً. وهل يمكن أن يوجد سبب أفضل؟).

قالت الآنسة ستاكبول: (كيف سيساعدكَ ذلك؟... ذلك هو ما أريد أن أعرفه).

ـ (إن ذلك هو بالضبط ما لا أستطيع أن أقوله لكِ. فهو ما كنتُ أفكر به تماماً في باريس).

ـ (سيجعلكَ هذا مستاءً أكثر).

سأل السيد غودوود وهو عابس قليلاً: (لماذا تقولين «أكثر» بهذه الطريقة؟ كيف تعرفين بأنني ساخط؟).

قالت هنرييتا وهي مترددة قليلاً: (حسناً، لم تبدُ يوماً بأنكَ رغبتَ بشيءٍ آخر).

فصاح وقد احمرّ وجهه: (كيف تعلمين بما أرغب به؟ أنا راغبٌ الآن بالذهاب إلى روما).

نظرت هنرييتا له بصمت بتعبيرٍ حزين ومع ذلك سارّ، وقالت في النهاية: (حسناً، أردتُ فقط أن أخبركَ بما أفكر فيه. فهو يدور في ذهني. أنت تعتقد طبعاً بأن الأمر ليس من شأني. لكن، استناداً إلى هذا المبدأ، لا شيء هو من شأن أي شخص).

قال كاسبار غودوود: (ذلك لطفٌ منكِ. أنا ممتن جداً لكِ لاهتمامكِ. سوف أذهب إلى روما ولن أؤذي السيدة أوزموند).

ـ (أنتَ لن تؤذيَها ربما. لكن هل ستساعدها؟.. تلك هي القضية الحقيقية).

سأل بأناةٍ وبنظرةٍ ثاقبة: (وهل هي بحاجة للمساعدة؟).

قالت هنرييتا بمراوغة مربكة وبإطلاق تعميمات أقل أملاً من المعتاد: (معظم النساء يحتجْنَ دائماً للمساعدة).

أضافت: (إن كنتَ ستذهب إلى روما، فأرجو أن تكون صديقاً حقيقياً... وليس صديقاً أنانياً!).

ثم استدارت وبدأت تتفرّج على اللوحات.

سمح لها كاسبار غودوود بالذهاب ووقف وهو يراقبها بينما تتجوّل حول الصالة. لكن بعد برهة ردّ عليها: (لقد سمعتِ عنها شيئاً هنا).

ثم استأنف الكلام: (أحب أن أعرف ماذا سمعتِ).

لم تكن هنرييتا قد راوغت في حياتها، وعلى الرغم من وجود لياقة بفعل ذلك في هذه الحالة، إلا أنها قررت بعد التفكير لبضع دقائق أن لا تعمل استثناءً ظاهرياً.

أجابت: (نعم، سمعتُ. لكن بما أنني لا أريد منكَ أن تذهب إلى روما فلن أخبركَ).

قال: (كما تشائين. سوف أعرف بنفسي).

ومن ثم، وبشكلٍ متعارض، أضاف: (سمعتِ بأنها غير سعيدة!).

صاحت هنرييتا: (أوه، لن تعرف ذلك!).

ـ (لا أرجو ذلك. متى تنطلقين؟).

ـ (يوم غد، بالقطار. وأنتَ؟).

تأخر غودوود في الرد، إذ لم تكن لديه الرغبة بالرحيل إلى روما برفقة الآنسة ستاكبول. فعدم اكتراثه بهذا الفضل لم يشبه طابع عدم اكتراث جيلبرت أوزموند، لكن كان له في تلك اللحظة الوضوح نفسه. كان يتعمد ذكر فضائل الآنسة ستاكبول إكراماً لها بدلاً من الإشارة إلى عيوبها. كان يراها رائعة جداً، لامعة جداً، ولم يكن لديه ـ نظرياً ـ اعتراضاً على الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها. وقد بدت له المراسِلات الصحفيات جزءاً من النظام الطبيعي للأشياء في بلدٍ متقدم. وعلى الرغم من أنه لم يقرأ رسائلهن أبداً، إلا أنه يعتقد بأنها أفادت بطريقةٍ ما الرخاء الاجتماعي.

لكن أهمية موقفهما هذا بالذات هو ما أراد من الآنسة ستاكبول أن لا تُسَلِّم

به كثيراً جداً. فهي تفترض بشكلٍ مُسلّم به بأنه راغبٌ دائماً بأي تلميح عن السيدة أوزموند؛ فقد فعلَتْ ذلك عندما التقيا في باريس، بعد ستة أشهر من وصوله إلى روما، وكانت تكرر هذا الافتراض في كل مناسبة لاحقة. لم تكن لديه رغبة بتاتاً بالتلميح إلى السيدة أوزموند، فهو لم يكن يفكر بها دائماً، لقد كان واثقاً جداً من ذلك. لقد كان أكثر الرجال تكتُّماً وأقلّهم حديثاً عنه، وكانت هذه الأديبة المتحرّية تشعل مصباحها بشكلٍ دائم في الظلمة الساكنة لروحه. لقد تمنّى لو لم تكن مهتمة بهذا القدر، وحتى أنه طلب أن تتركه وشأنه، وإن بدا ذلك قاسياً قليلاً. رغم ذلك، إنه يفكر الآن تفكيراً آخر ـ والذي أظهرَ كم هو مختلف بشكلٍ كبير، من حيث التأثير، رداءة طبعه عن رداءة طبع جيلبرت أوزموند.

أراد أن يذهب على الفور إلى روما، وكان يريد الذهاب بمفرده في قطار الليل. كان يكره عربات السكة الحديدية الأوربية التي يجلس فيها المرء لساعات مشدوداً، والركبة مع الركبة، والأنف مع الأنف، مع شخصٍ غريبٍ يجد المرء نفسه على الفور معترضاً معه بكل ما أوتي من قوة على رغبته بفتح النافذة. وإذا حلَّ الليل ستكون الأمور أسوأ مما حتى في النهار، لكن المرء سيتمكن على الأقل في الليل من أن ينام ويحلم بسيارة صالون أميركية. لكنه لن يستطيع أخْذ قطار الليل بينما كانت الآنسة ستاكبول ستنطلق في الصباح، إذ خطر له بأن ذلك سيكون إهانة لامرأةٍ لا تتمتع بالحماية. ولا يمكنه أن ينتظر حتى بعد ذهابها ما لم ينتظر لمدة أطول مما له صبر عليه. فلن ينفع أن ينطلق في اليوم التالي.

لقد سبّبت له القلق والإرهاق؛ ففكرة قضاء اليوم معها في عربة سكة حديد أوربية سبّبَت مضايقات عديدة. مع ذلك، فقد كانت سيدةً تسافر لوحدها، وكان من واجبه أن يتعب نفسه لأجلها، إذ لا يمكن أن يختلف اثنان على ذلك، فقد كان ضرورةً واضحةً تماماً.

بدا ساهماً للغاية بضع لحظات، ومن ثم قال بدون تباهٍ بالشهامة مطلقاً، لكن بنبرة واضحة جداً: (إن كنتِ ذاهبةً يوم غد فسأذهب أيضاً بالطبع، لأنني قد أكون مفيداً لكِ).

ردت هنريتا بهدوء: (حسناً يا سيد غودوود، أرجو ذلك!).

***

الفصل 45

كان لدي مسبقاً سبب لأذكر أن إيزابيل كانت تعرف بأن زوجها منزعجٌ من إطالة رالف لزيارته إلى روما. كانت هذه المعرفة جليّةً جداً بالنسبة لها عندما ذهبت إلى فندق ابن خالتها في اليوم الذي تلا فيه دعوتها اللورد واربيرتون ليقدّم دليلاً ملموساً على صدقه. وفي هذه اللحظة، كما في غيرها، كان لديها فهمٌ كافٍ لأسباب معارضة أوزموند. فقد أراد منها أن لا تحظى بحرية الفكر، وهو يعرف تماماً بأن رالف كان رسول الحرية. قالت إيزابيل لنفسها بأنه من المريح أن تذهب وتراه، فقط لأنه كان كذلك. سنرى بأنها شاركت بهذا الترويح بالرغم من معارضة زوجها لذلك، وذلك لأنها ـ مثلما امتدحت نفسها ـ تفعل ذلك بحذر. فهي لحدّ الآن لم تتصرف باعتراضٍ واضح لرغباته، فقد كان هو سيدها المُنَصَّب والمكتوب عليها. أحياناً تحدق بنوعٍ من الذهول المعبِّر عن الشك على هذه الحقيقة. رغم ذلك، فقد أثقل هذا على مخيلتها؛ إذ يخطر باستمرار لذهنها كل الاحتشام التقليدي للزواج وحرماته. وإن فكرة انتهاك ذلك ملأتها بالخجل وكذلك بالذعر، لأن عندما تكشف عن نواياها بدون قصد، يكون قد غاب عن ذهنها احتمالية حدوث ذلك الانتهاك مع إيمانها التام بأن رغبات زوجها كثيرة كرغباتها. مع ذلك، يبدو أنها ترى اليوم الذي ستستعيد فيه شيئاً كانت قد منحَتْهُ بقدسية يقترب سريعاً. إن مراسم كهذه ستكون مؤذية وبشعة، فحاولت أثناء هذا أن تغلق عينيها عن ذلك. ولن يفعل أوزموند شيئاً ليسهل ذلك بأن يبدأ هو أولاً، إذ كان سيضع ذلك العبء عليها حتى النهاية.

لم يمنعها لحدّ الآن رسمياً من أن تزور رالف، لكنها كانت متأكدة بأنه لو لم تكن مغادرة رالف قريبة لكان قد صَدَرَ هذا المنع. كيف يمكن لرالف المسكين أن يغادر؟ فالطقس لحدّ الآن قد جعل ذلك مستحيلاً.

لقد تمكنتْ تماماً من تَفَهُّم رغبة زوجها للحدث. ولكي أكون منصفاً؛ فهي لم تفهم كيف يمكنه أن يحب رؤيتها مع ابن خالتها. لم ينطق رالف أبداً كلمةً ضده، لكن مع ذلك كان الاحتجاج المتضايق والصامت لأوزموند قائماً. فلو حاول أن يتدخل بشكلٍ حقيقي، أو حاول أن يفرض سلطته، فسيكون عليها أن تقرر، ولن يكون ذلك أمراً سهلاً. إن هذا المشهد جعل قلبها يخفق ووجنتيها تتوهجان، كما قلتُ ذلك مقدماً؛ لذا كانت هناك لحظات تجد فيها نفسَها راغبة بأن يغادر رالف حتى وهو في حالة خطرة، لرغبتها بتفادي قطيعة صريحة. ولا فائدة من أن تطلق على نفسها شخصية ضعيفة أو جبانة عندما تتمسك بهذه الفكرة. لم يكن السبب هو أنها أحبت رالف بشكل أقل، بل لأن أي شيء تقريباً بدا أفضل من أن تفسخ أكثر العقود أهمية ـ العقد المقدس الوحيد ـ في حياتها. يبدو أن ذلك قد جعل المستقبل كله بشعاً. فأنْ تنفصل عن أوزموند مرة، يعني أن تنفصل إلى الأبد؛ فأي اعتراف صريح بمشاكل لا يمكن إصلاحها، سيكون اعترافاً بأن تجربتهما بمجملها قد أثبتت فشلها. فبالنسبة لهما، لا يمكن أن يوجد تسامح، لا تسوية، لا سهو بسيط، لا إعادة تسوية شكلية. كانا قد جرَّبا شيئاً واحداً فقط، لكن هذا الشيء الواحد كان يجب أن يكون استثنائياً. وحالما أخطآه لم ينفع شيء آخر؛ إذ لم يكن يوجد هناك بديل ممكن تصوره لهذا النجاح.

في الوقت الحالي، كانت إيزابيل تذهب إلى فندق باريس كلما ترى ذلك مناسباً؛ إذ كانت مقاييس الأصول هي في اتباع الذوق، ولا يمكن أن توجد مصداقية أفضل من أن الأخلاقيات، إنْ صح التعبير، هي مسألة تقديرٍ صادق. كان تطبيق إيزابيل لهذه المقاييس خالياً من القيود اليوم بشكلٍ خاص لأن

بالإضافة إلى الحقيقة المطلقة بأنها لا يمكنها أن تترك رالف يموت وحيداً، فهي لديها شيء مهم تستفسر عنه. كان هذا الشيء في الحقيقة يخص جيلبرت مثلما يخصها هي. فوصلتْ سريعاً جداً إلى ما أرادت أن تتحدث عنه: (أريدكَ أن تجيبني على سؤال. إنه بخصوص اللورد واربيرتون).

أجاب رالف من على كرسيه المتحرك الذي برزت منه ساقاه الهزيلتان بشكلٍ أطول من السابق: (أعتقد بأنني حزرتُ سؤالكِ).

ـ (من الممكن جداً أن تكون قد حزرْتَهُ. إذن أجِبْ عليه أرجوكَ).

ـ (أوه، أنا لا أدّعي بأنه يمكنني فعل ذلك).

قالت: (أنتَ مقرَّب منه، ولديكَ الكثير من الملاحظات عنه).

ـ (صحيح جداً. لكن فكِّري كم يجب عليه أن يتظاهر!).

ـ (لِمَ يجب عليه أن يتظاهر؟ فذلك ليس طبعه).

قال رالف بنغمة التسرية عن النفس: (آه، يجب أن تتذكري أن الظروف غريبة).

ـ (نعم ـ لكن إلى حدٍّ ما. لكن هل هو حقاً واقع في الحب؟).

ـ (كثيراً جداً، حسب اعتقادي. يمكنني رؤية ذلك).

قالت إيزابيل بسخرية أكيدة: (آه!).

نظر إليها رالف وكأنّ مرحه اللطيف قد تأثر بالارتباك.

ـ (تقولين ذلك وكأنكِ خائبة الأمل).

نهضت إيزابيل وهي تُعدّل قفازيها على مهل وتنظر إليهما وهي تفكر

ـ (على أية حال، فذلك ليس شأني).

قال ابن خالتها: (أنتِ متفلسفة جداً).

ثم أضاف بسرعة: (أيمكنني أن أتساءل عمَّ تتحدثين؟).

حدّقت إيزابيل.

ـ (لقد اعتقدتُ بأنكَ تعرف. أخبرني اللورد واربيرتون بأنه يريد من بين كل الأشياء في العالم، أن يتزوج من بانسي. لقد أخبرتُكَ ذلك من قبل بدون أن أستنبط تعليقاً منكَ. يمكنكَ أن تخاطر بواحدٍ هذا الصباح، على ما أعتقد. هل باعتقادكَ بأنه يهتم فعلاً لأجلها؟).

صاح رالف بشكلٍ متأكدٍ جداً: (آه، لأجل بانسي، كلا!).

ـ (لكنكَ قلتَ للتو بأنه يهتم).

تريث رالف لوهلة. ثم قال: (قصدتُ أنه يهتم لأجلكِ يا سيدة أوزموند).

هزت إيزابيل رأسها ساهمة.

ـ (ذلك هراء، تعلم ذلك).

ـ (بالطبع إنه كذلك. لكن الهراء يخص واربيرتون ولا يخصني).

قالت وكأنها تداهن نفسها برقّةٍ كبيرة: (سيكون ذلك مزعجاً جداً).

واصل رالف الكلام: (يجب علي أن أخبركِ في الحقيقة بأنه أنكرَ الأمر لي).

ـ (من اللطيف منكما أن تتحدثا بالموضوع معاً! هل أخبَرَكَ أيضاً بأنه يحب بانسي؟).

ـ (لقد تحدث عنها بشكلٍ جيد جداً ـ بشكلٍ لائق. فقد أعلمني طبعاً بأنه يعتقد بأنها ستنفع تماماً في لوكلي).

ـ (هل هو يعتقد ذلك فعلاً؟).

قال رالف: (أن ما يعتقد واربيرتون في الحقيقة....!)

عادت إيزابيل إلى تعديل قفازيها ثانيةً، فقد كانا قفازين طويلين وفضفاضين أمكنها أن تنفق عليهما بسخاء. على أية حال، سرعان ما رفعت ناظريها ومن ثم صاحت بسرعة وبانفعال: (آه، يا رالف، أنت لا تساعدني!).

لقد كانت المرة الأولى التي نوّهَتْ بها إلى حاجتها للمساعدة، وهزت الكلمات ابن خالتها بقوتها. فأصدر همهمة طويلة من الارتياح، من الشفقة، من الرقة. فقد بدا بالنسبة له بأن الهوّة التي بينهما قد وُصِلَتْ أخيراً. وكان هذا هو ما جعله يصيح بسرعة: (كم يجب عليكِ أن تكوني تعيسة؟).

كان بمجرد أن تحدث، استعادت سيطرتها على نفسها، وكان أول شيء استفادت منه هو أن تتظاهر بأنها لم تسمعه. فقالت بابتسامة سريعة: (عندما أتحدث عن مساعدتكَ لي فأنا أهذُر بهراءٍ كبير. أهذر بفكرة إزعاجي لكَ بأموري الأسرية المحيّرة! إن الأمر بسيط للغاية؛ يجب على اللورد واربيرتون أن يتابع الأمر بنفسه. إذ لا يمكنني أن آخذ على عاتقي أن أستشفَّ من خلاله).

قال رالف: (يجب عليه أن ينجح بسهولة).

ناقشت إيزابيل: (نعم... لكنه لا ينجح دائماً).

ـ (صحيح جداً. مع هذا فأنتِ تعلمين كم يدهشني ذلك دائماً. هل الآنسة أوزموند قادرة على أن تفاجئنا؟).

ـ (إن المفاجأة ستصدر منه بدلاً من ذلك. يتراءى لي بأنه سيترك الموضوع في النهاية).

قال رالف: (لن يفعل شيئاً مخزياً).

ـ (أنا متأكدة جداً من ذلك. إذ لا يمكن أن يوجد شيء مشرّف أكثر بالنسبة له من أن يترك الطفلة المسكينة وشأنها. إنها تهتم لأمر شخصٍ آخر، وإنه لأمرٌ قاسٍ أن نحاول رشوتها بعروض زواج مذهلة لتتركه).

ـ (قاسٍ بالنسبة للشخص الآخر ربما ـ الشخص الذي تهتم لأجله. لكن واربيرتون ليس مضطراً لأن يعارض ذلك).

قالت إيزابيل: (كلا، إنه قاسٍ بالنسبة لها. إذ ستكون تعيسة جداً إنْ سمحتْ لنفسها بأن يتم إقناعها بترك السيد غوزييه المسكين. يبدو بأن هذه

الفكرة تضحككَ، فأنتَ لستَ واقعاً في حبه طبعاً. إنه، بالنسبة لبانسي، له الشرف بأنه واقع في حب بانسي. يمكنها أن ترى من نظرة واحدة أن اللورد واربيرتون غير واقع في حبها).

قال رالف: (سيكون مناسِباً جداً لها).

ـ (إنه طيبٌ معها مسبقاً. لحسن الحظ، أنه لم يقل كلمةً تشوشها. يمكنه المجيء ويودّعها غداً بكل أدب).

ـ (كيف سيحب زوجكِ الأمر؟).

ـ (لا يحبه مطلقاً، وقد يكون محقاً باستيائه من الأمر. عليه فقط أن يحصل على الموافقة بنفسه).

تجرأ رالف بالسؤال: (وهل فوّضكِ بالحصول عليها؟).

ـ (كان من الطبيعي كصديقةٍ قديمةٍ للورد واربيرتون ـ صديقة أقدم، أقصد أقدم من جيلبرت ـ أن أحرص على رغباته).

ـ (تقصدين أن تحرصي على تركه لها؟).

ترددت إيزابيل وعبست قليلاً.

ـ (دعني أفهم، هل أنت تدافع عن قضيته؟)

قال رالف مبتسماً: (مطلقاً. أنا مسرور جداً بأنه لن يصبح زوج ابنة زوجكِ، فذلك سيخلق علاقة غريبة معكِ! لكنني متوتر قليلاً لئلا يعتقد زوجكِ بأنكِ لم تدفعيه بما يكفي).

شعرت إيزابيل بأنها قادرة على أن تبتسم مثله، فقالت بمرح: (إنه يعرفني بما يكفي لأن لا يتوقع مني أن أدفع. فهو نفسه ليس لديه نية للدفع على ما أظن. أنا لستُ أخشى بأنني سأكون عاجزة عن التبرير!).

كان قناعها قد سقط على الفور، لكنها لبِسَتْهُ ثانيةً مما سبّب خيبة أمل رالف الأبدية. كان قد شاهَدَ خطفاً وجهها الطبيعي ورغب بشدة أن يتفرّس

فيه. كانت لديه رغبة ضارية تقريباً لأن يسمعها تشتكي من زوجها ـ أن يسمعها تقول بأنها ستكون مسؤولة عن قرار اللورد واربيرتون. كان رالف متيقناً بأن هذا كان موقفها، فقد عرف بالحدس، مقدماً، الشكل الذي كان سيتخذه انزعاج أوزموند من حَدَثٍ كهذا، إذ سيتخذ في النهاية أكثر الأشكال حقارة وقساوة. كان يرغب بأن يخبر إيزابيل بذلك ـ أن يجعلها تفهم على الأقل كيف حَكَمَ بذلك وكيف يعرف ذلك. لم يكن السبب هو لكي تعرف إيزابيل بشكلٍ أفضل، وإنما تَطَلُّعُهُ ليبيّن لها بأنه لم يكن مخدوعاً، وذلك ليرضي نفسه أكثر من إرضائها هي. حاوَلَ مراراً وتكراراً أن يجعلها تكشف أوزموند؛ ولقد شعر بالوحشية، بالقسوة، بالخزي قليلاً بفعله ذلك. لكن لم يكن الأمر مهماً، لأنه فقط فشل فيه. ما هو الشيء الذي أتت لأجله إذن، ولماذا تبدو تقريباً بأنها تعرض عليه فرصة لينتهكَ اتفاقهما المضمر؟ لماذا تطلب نصيحته إن لم تمنحه الحرية ليجيبها؟ كيف يمكنهما أن يتحدثا عن مشاكلها الأسرية ـ مثلما تحب أن تشير إليها مازحةً ـ إنْ لم يجب أن يُذكَر السبب الأساسي؟ لم تكن هذه المتناقضات نفسها سوى مؤشرٍ على مشكلتها، وكان نداؤها للمساعدة الشيء الوحيد الذي يجب عليه التفكير فيه.

قال بسرعة: (برغم ذلك، ستكونين متناقضة بالتأكيد).

وعندما لم تجب بشيء، وقد بدت وكأنها لم تفهم شيئاً، واصَلَ كلامه: (ستجدين نفسكِ تفكرين بشكلٍ مختلفٍ جداً).

ـ (إن ذلك قد يحدث بسهولة بين معظم المتزوجين!).

فالتقطت مظلتها، لقد رأى بأنها كانت متوترة، خائفة مما قد يقوله.

أضافت: (مع ذلك، فهي مسألة بالكاد يمكننا الشجار بشأنها، لأن الموضوع برمته يصب في مصلحته. وذلك أمر طبيعي، فبانسي في النهاية هي ابنته وليست ابنتي).

ثم مدت يدها لتودعه.

قرر رالف في دواخل نفسه بأنه لا يجب عليها أن تغادر بدون أن يُعْلِمَها بأنه يعرف كل شيء؛ فقد بدت فرصة كبيرة جداً من أن يفقدها.

سأل وهو يأخذ يدها: (هل تعلمين ماذا ستجعله مصلحته يقول؟).

فهزت رأسها بشكلٍ متحفّظٍ قليلاً ـ وليس بشكلٍ مشجّع.

واصل كلامه: (ستجعله يقول بأن افتقادكِ للحماسة سببه الغيرة).

فتوقف قليلاً عن الكلام؛ فقد أخافه وجهها.

ـ (الغيرة؟).

ـ (الغيرة من ابنته).

فاحتقنَ وجهها وألقت رأسها إلى الوراء وقالت بصوتٍ لم يسمعه قط على شفتيها: (أنتَ لستَ لطيفاً).

أجاب: (كوني صريحةً معي وسترين).

لكنها لم تجب؛ بل قامت فقط بسحب يدها من يده التي لا زالت ممسكةً بها، وانسحبت بسرعة من الغرفة.

قررت أن تتحدث إلى بانسي. فاستغلت الفرصة في اليوم التالي وهي متوجهة إلى غرفة الفتاة قبل العشاء.

كانت بانسي مرتديةً ثيابها مسبقاً، فقد كانت دائماً سابقة لزمانها؛ وبدا أن ذلك يوضح صبرها الجميل والهدوء اللطيف اللذين بهما استطاعت أن تجلس وتنتظر.

والآن، كانت جالسةً بهندامها الأنيق أمام موقد غرفة النوم. كانت قد أطفأت شموعها عند الانتهاء من زينتها تماشياً مع العادات الاقتصادية التي كانت قد رُبِّيَتْ عليها والتي كانت الآن حريصة على الالتزام بها أكثر من ذي قبل، لذا، كانت الغرفة مضاءة فقط بقليلٍ من الحطب.

كانت الغرف في قصر روكانيرا واسعة جداً كما هي كثيرةٌ جداً، وكانت

تعريشة بانسي البتولية حجرة واسعة جداً، ذات سقفٍ داكن، وألواح خشبية كثيرة. لم تبدُ سيدتها الصغيرة في وسطها سوى بقعة بشرية.

حالما نهضت بإذعانٍ سريع لترحّب بإيزابيل، كانت الأخيرة مندهشة أكثر من السابق من خشوعها الخجول. كان لدى إيزابيل مَهَمّة صعبة ـ والشيء الوحيد المهم هو أن تنجزها بسهولة قدر الإمكان.

شعرت بالمرارة والغضب، لكنها حذّرت نفسها من إظهار هذا الغضب. لقد كانت خائفة حتى من أن تبدو حادّة جداً، أو على الأقل متجهّمة جداً. كانت خائفة من أن تتسبب بالذعر. لكن يبدو أن بانسي قد ظنت بأنها أتت كمعترِفة بعض الشيء، لأنها بعد أن قرَّبَتِ الكرسي الذي كانت تجلس إلى النار قليلاً واحتلت إيزابيل مكانها عليه، ركعت على وسادةٍ أمامها وكانت رافعةً نظرها وواضعةً يديها المشتبكتين على ركبتي زوجة والدها. إن ما رغبت إيزابيل أن تفعله هو أن تسمع من شفتيها هي أن ذهنها غير مشغول باللورد واربيرتون؛ لكنها لو تريد التأكد لشعرتْ بنفسها على أية حال بأن لها مطلق الحرية بأن تثيره. كان والد الفتاة سيَعتَبِر ذلك بمرتبة الخيانة؛ وفي الحقيقة كانت إيزابيل تعرف بأنه إن كانت بانسي ستُظهِر أدنى استعداد لاستمالة اللورد واربيرتون فإن واجبها هو أن تمسك لسانها. من الصعوبة أن تقوم بالاستفهام بدون أن تبدو بأنكَ تطلب؛ إذ أضفت براءة بانسي الفائقة ـ وهي براءةٌ رأتها إيزابيل بأنها الأكثر مثالية لحدّ الآن ـ على الاستفهام الأكثر تردداً شيئاً من أثر اللوم. فبينما هي راكعة هناك، تحت ضوء الموقد الباهت، بفستانها الجميل اللامع بشكلٍ خافت، ويديها المطويتين بشبه استعطاف وبشبه استسلام، وعينيها المرفوعتين والجامدتين، المليئتين بجدية الموقف، نظرتْ نحو إيزابيل كطفلةٍ شهيدة مزيّنة لأجل أن يُضَحّى بها وبالكاد تجرأت حتى على أن تأمل بتفادي ذلك.

عندما قالت لها إيزابيل بأنها لم تتحدث معها لحدّ الآن عما قد يحدث

بخصوص تزويجها، وإن صمتها لم يكن عدم اكتراث أو جهلاً بالموضوع وإنما لرغبتها بأن تترك لها مطلق الحرية؛ انحنت بانسي إلى الأمام ورفعَتْ وجهها أقرب أكثر فأكثر وبهمهمةٍ بسيطة عبّرت بوضوحٍ عن تَوَقٍ عميق، أجابت بأنها كانت تتمنى منها بشدة أن تتكلم وأنها توسلَتْ إليها لتنصحها الآن.

ردت إيزابيل: (من الصعب عليّ أن أنصحكِ، فأنا لا أعلم كيف يمكنني أن أتكفّل الأمر. ذلك من اختصاص والدكِ؛ إذ عليكِ أن تطلبي نصيحته، وفوق كل شيء يجب أن تتصرفي وفقاً لها).

أرخت بانسي عندئذٍ نظرها، لم تقل شيئاً لوهلةٍ، ثم أشارت بسرعة: (أعتقد بأنني سأفضّل نصيحتكِ أكثر من نصيحة بابا).

قالت إيزابيل ببرود: (لا يجب أن يكون الأمر كذلك. أنا أحبكِ كثيراً جداً، لكن والدكِ يحبكِ أكثر).

أجابت بانسي بمظهرِ من يقول شيئاً معقولاً جداً: (ليس السبب هو أنكِ تحبينني ـ بل إن السبب هو لأنكِ سيدة. فالسيدة يمكنها أن تنصح فتاةً شابّة أفضل من الرجل).

ـ (إذن، أنصحكِ أن تُبدي أقصى احترام لرغبات والدكِ).

قالت الطفلة بلهفة: (آه، نعم، يجب أن أفعل ذلك).

واصلت إيزابيل الكلام: (لكن إنْ تحدثتُ معكِ الآن عن زواجكِ فذلك ليس لأجلكِ، بل لأجلي. فلو حاولتُ أن أعرف منكِ ما تأملينه وما ترغبين به، فذلك فقط لكي أتصرف وفقاً له).

حدقت بانسي، ثم سألت بسرعة: (هل ستنفّذين كل شيء أريده؟).

ـ (قبل أن أقول نعم، يجب أن أعلم ما هي تلك الأشياء).

أخبرَتْها بانسي على الفور بأن الشيء الوحيد الذي أرادته في الحياة هو أن تتزوج من السيد غوزييه. كان قد طلب منها الزواج وأخبرَتْهُ بأنها ستفعل ذلك إنْ سَمَحَ لها والدها بذلك. والآن، ما كان أبوها ليسمح لها بذلك.

قالت إيزابيل: (حسناً إذن، فالأمر مستحيل).

قالت بانسي بدون تنهيدة وبالاهتمام الفائق نفسه في وجهها الصغير البرئ: (نعم، إنه مستحيل).

واصلت إيزابيل الكلام: (عليكِ أن تفكري بشخصٍ آخر إذن).

لكن بانسي أخبرَتْها وهي تتنهد بسبب ذلك بأنها كانت قد حاولت ذلك العمل البطولي بدون أدنى فائدة.

قالت بابتسامةٍ باهتة: (أنتِ تفكرين بمن يفكر بكِ).

ـ (أعلم بأن السيد غوزييه يفكر بي).

قالت إيزابيل بتكبّر: (لا يجب عليه أن يفعل ذلك. فوالدكِ طلب بوضوح أن لا يفعل ذلك).

ـ (إنه لا يَحتمل ذلك، لأنه يعرف بأنني أفكر به).

ـ (لايجب عليكِ أن تفكري فيه. أما بالنسبة له، فربما لديه عذر. لكن أنت ليس لديكِ عذر).

صاحت الفتاة وكأنها كانت تبتهل للسيدة العذراء: (أتمنى أن تحاولي إيجاد عذر).

قالت السيدة العذراء بفتورٍ غير معتاد: (يجب أن أعتذر بشدة عن محاولتي لذلك. لو عرفتِ أن شخصاً آخر يفكر بكِ، فهل ستفكرين به؟).

ـ (لا أحد يمكنه أن يفكر بي كما يفكر بي السيد غوزييه. فليس لأحدٍ الحق في ذلك).

صاحت إيزابيل بشكلٍ كاذب: (آه، لكنني لا أعترف بحق السيد غوزييه!).

حدقت بانسي إليها فقط وهي متحيّرة كثيراً بشكلٍ واضح. فبدأت إيزابيل، مُستَغِلَّةً ذلك، بشرح التبعات السيئة لعصيان والدها. عند ذلك، أوقفتها بانسي عن الكلام بتأكيدها لها بأنها لن تعصيه أبداً، وبأنها لن تتزوج بدون موافقته.

وأعلنت بأصدق وأبسط نبرة بأنها حتى وإن لم تتزوج السيد غوزييه، فهي لن تتوقف عن التفكير به أبداً.

يبدو بأنها قبلت بفكرة العزوبية الأبدية، لكن إيزابيل طبعاً كانت مسترسلةً في التفكير بأنها ليس لديها فهم لمعنى ذلك. كانت صادقة جداً؛ فقد كانت مستعدة لتتخلى عن حبيبها. قد تبدو تلك خطوة مهمة نحو اتخاذ خطوة أخرى، لكن بالنسبة لبانسي، من الواضح بأنها فشلت في أن تقود إلى ذلك الاتجاه. لم تشعر بالمرارة تجاه والدها، ولم تكن توجد مرارة في قلبها، كانت هناك فقط حلاوة الوفاء لإدوارد غوزييه، والتلميح الغريب والاستثنائي بأنها يمكنها أن تثبت ذلك بشكلٍ أفضل بالبقاء عزباء من الزواج منه حتى.

قالت إيزابيل: (إن والدكِ يريد أن تتزوجي أحسن زيجة. وثروة السيد غوزييه ليست كبيرة مطلقاً).

ـ (ماذا تعنين بأحسن ـ إن كان ذلك كافياً تماماً؟ أنا نفسي لدي القليل جداً من المال، فلِمَ يجب أن أبحث عن ثروة؟).

ـ (إن امتلاككِ القليل جداً سببٌ للبحث عن الكثير جداً).

كانت إيزابيل بهذا الكلام ممتنة لعتمة الغرفة؛ فقد شعرت وكأنّ ملامحها مخادعة جداً، والسبب هو ما كانت تفعله لأجل أوزموند؛ أوما كان يجب على المرء أن يفعله لأجل أوزموند!

لقد أخجلَتْها تقريباً عينا بانسي الوقورتان المثبتتان في عينيها. كانت خجلة من أن تفكر بأنها استخفَّتْ كثيراً بما تريده الفتاة.

سألت مرافقتُها برفق: (ماذا تودين مني أن أفعل؟).

كان السؤال سؤالاً عسيراً، فالتجأت إلى عدم الوضوح الهيّاب: (أن تتذكري كل السرور الذي في مقدوركِ أن تمنحيه لوالدكِ).

ـ (تقصدين أن أتزوج أحداً آخر ـ إنْ طلب مني ذلك؟).

لوهلةٍ ستبدو إجابة إيزابيل متوقعة، ثم سمعت نفسها تنطق في السكون الذي خلقه إصغاء بانسي: (نعم ـ أن تتزوجي أحداً آخر).

أصبحت نظرات الطفلة ثاقبة أكثر، وتخيلت إيزابيل بأنها تشك في صدقها، واكتسب الانطباع قوة من نهوضها المتمهّل من وسادتها. فوقفت هناك للحظة ويداها الصغيرتان كانتا مرتخيتين، ثم ارتجفتا.

ـ (حسناً، أرجو أن لا يطلب أحدٌ ذلك مني!).

ـ (يوجد طلبٌ بخصوص ذلك. فهناك أحدٌ آخر سيكون مستعداً ليطلب ذلك منكِ).

قالت بانسي: (لا تتخيلي بأنه يمكنه أن يكون مستعداً).

ـ (سيكون كذلك... لو تأكّدَ بأنه سينجح).

ـ (لو تأكّدَ؟ إذن فهو ليس مستعداً!).

رأت إيزابيل أن ذلك قاسٍ بعض الشيء، فنهضت هي أيضاً وتوقفت قليلاً وهي تنظر نحو النار، فاستأنفت الكلام: (إن اللورد واربيرتون قد أظهر تجاهكِ اهتماماً كبيراً. أنت تعرفين طبعاً بأنني أتحدثُ عنه).

وجدتْ نفسها ـ خلافاً لتوقعها ـ قد وُضعتْ في موقفِ من يبرر نفسه، والذي قادها إلى تقديم هذا النبيل بشكلٍ أكثر قسوة مما كانت تنوي.

ـ (لقد كان لطيفاً جداً معي، وأنا أحبه كثيراً جداً. لكن إن كنتِ تقصدين بأنه سيعرض عليّ الزواج، فأعتقد بأنكِ مخطئة).

ـ (ربما أكون مخطئة، لكن أباكِ سيرغب بالأمر كثيراً).

هزت بانسي رأسها بابتسامةٍ حكيمة باهتة.

ـ (لن يعرض اللورد واربيرتون الزواج فقط لكي يسعد بابا).

واصلت إيزابيل الكلام بشكل تلقائي: (يريد والدكِ منكِ أن تستميليه).

ـ (كيف يمكنني أن أستميله؟).

ـ (لا أدري. على والدكِ أن يخبركِ ذلك).

لم تقل بانسي شيئاً لوهلةٍ، بل فقط واصلت الابتسام وكأنما يتملّكها اطمئنانٌ واضح. فأعلنت في النهاية: (لا يوجد ضرر.. لا ضرر!).

كانت هناك قناعةٌ في الطريقة التي قالت بها ذلك، وثقةٌ في اعتقادها بذلك، مما أثار إحراج إيزابيل. فقد شعرت بأنها متهمة بالخيانة، وأن الفكرة كانت مثيرة للاشمئزاز. ولكي تجدد احترامها لنفسها كانت على وشك أن تقول بأن اللورد واربيرتون كان قد أعلمها بأنه يوجد ضرر. لكنها لم تقل ذلك، بل قالت فقط وهي محرجة أكثر قليلاً مما يجب بأنه بالتأكيد الأكثر لطفاً، والأكثر تآلفاً.

أجابت بانسي: (لقد كان لطيفاً جداً، ولأجل هذا أحببتُه).

ـ (لِمَ إذن هذا التردد الكبير؟).

ـ (كنتُ على ثقة دائماً من معرفته عدم رغبتي ب... ماذا قلتِ بأنه يجب عليّ أن أفعل؟... باستمالته. إنه يعرف بأنني لا أريد أن أتزوج، وهو يريدني أن أعرف بأنه لن يزعجني لهذا السبب. ذلك هو ما أقصده بلطفه. فكأنه قد قال لي: «أنا أحبكِ كثيراً جداً، لكن إن كان ذلك لا يسركِ فلن أقوله ثانيةً». أعتقد بأن ذلك لطيف جداً، ونبيلٌ جداً).

واصلت بانسي الكلام بإيجابية متعمقة: (ذلك هو كل ما قلناه لبعضنا البعض. وهو لا يهتم لأمري أيضاً. آه، لا، لا يوجد ضرر).

كانت إيزابيل متأثرةً بدهشةٍ بعمق الوعي الذي كانت متفوقةً به هذه الإنسانة الصغيرة المذعنة. لقد شعرت بالخوف من حكمة بانسي ـ فبدأت تتراجع قليلاً من أمامها.

أشارت بتحفّظ: (يجب أن تخبري والدكِ بذلك).

أجابت بانسي بدون تحفّظ: (أفكر أن لا أفعل).

ـ (لا يحسن بكِ أن تجعليه يبني آمالاً زائفة).

قالت الفتاة ببلاغة: (ربما لا يحسن. لكن سيكون من المناسب لي أن يفعل ذلك. فطالما يعتقد بأن اللورد واربيرتون ينوي شيئاً من هذا القبيل الذي تقولينه فلن يقترح بابا أن أتزوج أي أحدٍ آخر، وسيكون ذلك ذا فائدةٍ لي).

كان هناك شيء ذكياً في بلاغتها جعل رفيقتها تسحب نفساً طويلاً أراح هذه الصديقة ذات المسؤولية الثقيلة. كان لدى بانسي نور كافٍ، وشعرت إيزابيل بأنها لم يكن لديها الآن نور لتتزود به من مخزونها الصغير. مع ذلك، لا زالت متعلقة بها فكرة أنها يجب أن تكون وفيّة لأوزموند، وإنها كانت تتصرف مع ابنته بشرف.

تحت تأثير هذه العاطفة، ألقت برأيٍ آخر قبل أن تغادر ـ رأيٍ بدا لها أن به فعلَتْ أقصى ما في وسعها: (إن والدكِ يسلّم جدلاً على الأقل بأنكِ تفضّلين الزواج من رجلٍ نبيل).

وقفت بانسي عند المدخل المفتوح، كانت قد أرخت الستارة لإيزابيل لكي تمر، فأشارت بشكلٍ جادٍّ جداً: (أعتقد بأن السيد غوزييه واحد منهم!).

***

الفصل 46

لم يَرَ أحدٌ اللورد واربيرتون في غرفة استقبال السيدة أوزموند لعدة أيام، ولم تخفق إيزابيل في أن تلاحظ أن زوجها لم يقل شيئاً بخصوص استلامه رسالة منه. وأيضاً، لم تخفق في ملاحظة أن أوزموند كان في حالة تَرَقُّب، وأنه يعتقد بأن صديقهم المميز قد جعله ينتظر طويلاً جداً للغاية رغم أنه لم يكن من المحبب بالنسبة له أن يُظهِر ذلك.

بعد انقضاء أربعة أيام، لمَّحَ إلى غيابه: (ماذا حلَّ باللورد واربيرتون؟ ماذا يعني بمعاملته رجلاً كتاجر فاتورة؟)

قالت إيزابيل: (لا أعرف شيئاً عنه. رأيتُه الجمعة الفائتة في حفلة الرقص الألمانية. أخبَرَني عندئذٍ بأنه يعتزم أن يكتب لك.)

ـ (لم يكتب لي أبداً).

ـ (وهذا ما اعتقدتُهُ من عدم إخبارِكَ لي).

قال أوزموند بشكلٍ متفهّم: (إنه شخص غريب).

وعندما لم تجب إيزابيل واصَلَ كلامه يتساءل فيما إذا كان سيادة اللورد يستغرق خمسة أيام ليكتب رسالة: (هل يؤلّف كلماته بهذه الصعوبة؟).

كانت إيزابيل مختصِرة في الإجابة: (لا أعلم، فلم أستلم رسالةً منه).

ـ (لم تستلمي رسالة؟ لدي فكرة بأنكما كنتما ذات مرة في تراسُلٍ وثيق).

فأجابت بأن الأمر لم يكن كذلك، وتركت المحادثة.

مع ذلك، خاض زوجها في اليوم التالي في الحديث ثانيةً وهي تدخل إلى غرفة الاستقبال في وقتٍ متأخرٍ من المساء.

سأل: (عندما أخبركِ اللورد واربيرتون عن عزمه على الكتابة، ماذا قلتِ له؟).

فارتبكت على الفور.

ـ (أعتقد بأنني أخبرتُه أن لا ينسى ذلك).

ـ (هل اعتقدتِ بوجود ضرر من ذلك؟).

ـ (كما قلتَ؛ إنه شخص غريب).

قال أوزموند: (من الواضح بأنه نسي الأمر).

ـ (لكن كن طيباً جداً عندما يتذكر).

ثم سألت: (هل تريد مني أن أكتب له؟).

ـ (ليس لدي مانع بتاتاً).

ـ (أنتَ تأمل مني الكثير).

ـ (آه، نعم، أنا آمل الكثير منكِ).

قالت إيزابيل: (أخشى بأنني سأخيب أملكَ).

ـ (إن آمالي قد نجت من الكثير من خيبات الأمل).

ـ (أعرف ذلك طبعاً. تخيّلْ كم سيخيب أملي أنا!. إن كنتَ تريد حقاً الحصول على اللورد واربيرتون فعليكَ أن تفعل ذلك بنفسكَ).

لم يجب أوزموند لدقيقتين، ومن ثم قال: (إن ذلك لن يكون سهلاً وأنتِ تعملين ضدي).

جفلت إيزابيل، وشعرت بأنها بدأت ترتجف. كان لديه طريقة بالنظر إليها عبر عينين شبه مغمضتين، وكأنه يفكر بها لكن بالكاد ينظر إليها، والتي أظهرت بأن لديه نية شريرة بشكلٍ عجيب. بدا بأنه ينظر إليها كفكرة ضرورية مزعجة، لكن يتجاهل وجودها في الحال. إن هذا التأثير لم يكن واضحاً بهذه الطريقة مثلما هو واضح الآن.

ردت: (أعتقد بأنكَ تتهمني بشيءٍ دنيء جداً).

ـ (أنا أتهمكِ بكونكِ غير جديرة بالثقة. ففي النهاية إنْ لم يتقدم فسيكون السبب أنكِ أبعَدْتِهِ. لا أعتقد بأن ذلك دنيء؛ فهذا نوعٌ من الأمور التي تعتقد المرأة بأنها يمكنها أن تفعلها دائماً. وليس لدي شك بأن لديكِ أفضل الأفكار بشأن ذلك).

واصلت الكلام: (لقد قلتُ لكَ بأنني سأفعل ما باستطاعتي).

ـ (نعم، وذلك أكسبكِ الوقت).

خطر لها، بعد أن قال هذا، بأنها ذات مرة ظنتهُ رائعاً.

صرخت بسرعة: (كم هو كثيرٌ ما تريده لكي تتأكد منه!).

ما إنْ تكلمتْ حتى أدركت المدى البالغ لكلماتها التي لم تكن واعية في تلفّظها بها. فقد عملت هذه الكلمات مقارنة بين أوزموند وبينها واستدعَتْ حقيقةَ أنها كانت قد حملت يوماً هذا الكنز المرغوب فيه بين يديها وشعرت بأنها غنية لتفلته. استحوذت عليها غبطة مؤقتة ـ سرورٌ مريع، بأنها جرحَتْهُ. لأن وجهه أخبرها على الفور بأن لا شيء من بطش صراخها قد ضاع. مع ذلك، لم يُظهِر شيئاً غير ذلك، بل قال فقط: (نعم، أريده بشكلٍ هائل).

في هذه اللحظة، دخل خادمٌ ليعلن عن زائرٍ، وأُتبِعَ في اللحظة التي بعدها باللورد واربيرتون الذي تلقّى ردعاً واضحاً عند رؤية أوزموند، فحوَّلَ نظره بسرعةٍ من سيد المنزل إلى سيدة المنزل؛ وهي حركةٌ بدا أنها دلَّتْ على كرهه لمقاطعتهما أو حتى شعوره بحالةٍ نذيرة بالشؤم. ثم تقدّم بزيه الإنجليزي الذي أظهر التحفّظ المبهم الذي فيه أثَرَ النسب الأصيل، والذي كان العيب الوحيد الذي فيه هو صعوبة التغيير.

كان أوزموند محرجاً؛ فلم يجد شيئاً ليقوله، لكن إيزابيل أشارت بسرعة كافية بأنهما كانا بصدد الحديث عن ضيفهما. أضاف زوجها على هذا بأنهما لم يعرفا ماذا حلّ به ـ وبأنهما خشيا أن يكون قد رحل.

فشرح وهو يبتسم وينظر إلى أوزموند: (كلا، أنا على وشك الرحيل).

ومن ثم ذكر بأنه وجد نفسه فجأة مُستَدعًى إلى إنجلترا؛ لذا عليه أن ينطلق في الغد أو بعد غد. وانتهى بإعلانه: (أنا حزين جداً لترك تاتشيت المسكين!).

لم ينطق رفيقاه للحظة؛ اتكأ أوزموند فقط إلى الخلف على كرسيه وهو يصغي. لم تنظر إيزابيل إليه بل استطاعت فقط أن تُعجب بمظهره. كانت نظراتها على وجه زائرها، حيث كانت مستقرة بحرية أكبر، بحيث تفادتها بحرصٍ نظراتُ سيادة اللورد. مع ذلك، كانت إيزابيل متأكدة بأنها لو لاقت نظراتَه لوجدَتْها مُعَبِّرة. سمعت زوجها يقول بسرعةٍ وباستخفافٍ كافٍ: (من الأفضل أن تأخذ تاتشيت المسكين معكَ).

أجاب اللورد واربيرتون: (من الأفضل له أن ينتظر الطقس الدافئ. لا يجب أن أنصحه بالرحيل الآن).

جلس هناك لربع ساعة وهو يتحدث وكأنه لن يراهما ثانيةً في وقتٍ قريب ـ ما لم يأتيا في الحقيقة إلى إنجلترا، وهو مشوارٌ نصح به بشدة. لِمَ لا يأتيان إلى إنجلترا في الخريف؟ ـ إن ذلك قد أدهشه كفكرةٍ سارّةٍ جداً. إذ كان سيسره أن يفعل ما بوسعه لهما ـ إنْ يأتيا ويقضيا شهراً معه. كان أوزموند، باعترافه، قد ذهب إلى إنجلترا مرة واحدة فقط، مما كانت حالة غريبة لرجلٍ بفراغه وذكائه. كانت بالنسبة له هي البلد الوحيد ـ التي سيتأكد بأن يكون له علاقة طيبة معها.

ثم سأل اللورد واربيرتون إيزابيل إن كانت تتذكر الوقت الرائع الذي قضته هناك وإن لم تكن ترغب بأن تجرب ذلك ثانيةً. ألم تكن ترغب برؤية جاردن كورت مرة أخرى؟ كانت جاردن كورت حقاً جميلة جداً. لم يهتم تاتشيت بها بالشكل المناسب، لكنها كانت من نوع الأمكنة التي بالكاد يمكنكَ أن تفسدها بتركها. لِمَ لا يأتيان ويزوران تاتشيت؟ لا بدّ أنه طلب منهما ذلك بالتأكيد. ألم يطلب منهما ذلك؟ يا له من شريرٍ سيّئ الطباع! ـ ووعد اللورد واربيرتون أن

يزجر مالك قصر جاردن كورت. فذلك طبعاً مجرد حادث عرضي؛ إذ كان سيُسَرّ بأن يطلب منهما ذلك. فبقضاء شهرٍ مع تاتشيت وشهرٍ معه، ورؤية باقي الناس الذين لا بدّ أنهم يعرفونهم هناك، لن يجدوا الأمر حقاً شبه سيئ. أضاف واربيرتون بأن ذلك سيسلّي الآنسة أوزموند كذلك، التي أخبرَتْهُ بأنها لم تذهب إلى إنجلترا والتي أكّد لها بأنها كانت بلاداً تستحق أن تراها.... إنها طبعاً لا تحتاج إلى أن تذهب إلى إنجلترا لتكون معجبة بها ـ فذلك كان قدرها في كل مكان، لكنها ستكون شخصاً ناجحاً هناك، بالتأكيد ستكون كذلك، إن كان ذلك يشكل أي إغراء.

سأل إن لم تكن موجودة في البيت؛ ألا يمكنه أن يقول وداعاً؟ ليس لأنه يحب الوداع ـ فهو يكتئب من ذلك دائماً. فعندما غادر إنجلترا في الأيام السابقة لم يودّع أي مخلوق. كان شبه عازم على مغادرة روما بدون أن يزعج السيدة أوزموند بلقاءٍ أخير. إذ ما الذي يمكن أن يكون أكثر كآبة من اللقاءات الأخيرة؟ فالمرء لن يقول الأشياء التي أراد أن يقولها ـ بل يتذكرها كلها بعد ذلك بساعة. من ناحية أخرى، يقول المرء عادةً أشياءً كثيرة لا يجب عليه أن يقولها، لمجرد إحساسه بأنه يجب أن يقول شيئاً. فذلك الإحساس يبعث على الاستياء، ويربك ذاكرة المرء.

كان لديه هذا الإحساس في الوقت الحالي، وكان ذلك هو التأثير الذي سبّبه له. إن لم تعتقد السيدة أوزموند بأنه تحدّث كما يجب، فلا بدّ أنها ستعزو ذلك إلى الارتباك، فمفارقة السيدة أوزموند ليس أمراً هيناً. كان حقاً حزيناً جداً لكونه سيغادر. لقد فكّر في الكتابة لها بدلاً من أن يزورها ـ لكنه كان سيكتب لها على أية حال، ليخبرها بالكثير من الأمور التي من المؤكد بأنها ستحصل له حالما يغادر المنزل. لا بدّ لهما أن يفكرا بجديّة بشأن المجيء إلى لوكلي.

إن كان هناك أي شيء مربك في ظروف زيارته أو في إعلانه عن مغادرته،

فقد فشل في أن يظهر على السطح. إذ تحدّث اللورد واربيرتون عن ارتباكه، لكنه لم يظهره بطريقةٍ أخرى، وقد رأت إيزابيل بأنه منذ أن قرر الانسحاب، كان قادراً على تنفيذ ذلك بشهامة. كانت مسرورة جداً لأجله، لقد أحبته بما يكفي تماماً لتتمنى له أن يبدو وكأنه قد تجاوز الأمر. كان سيفعل ذلك في أية مناسَبة ـ ليس عن وقاحة، بل ببساطة عن عادة النجاح، وشعرت إيزابيل أن ليس في مقدور زوجها أن يحبط هذه العادة.

دارت عملية معقدة في ذهنها وهي جالسة هناك؛ فمن جهة كانت تصغي لزائرهما، وتقول ما هو مناسب له، وتقرأ بصورةٍ أو بأخرى ما بين الأسطر لِما قاله، وتتساءل كيف كان سيتحدث لو وجدها لوحدها. من جهةٍ أخرى، كان لديها فهمٌ تام لإحساس أوزموند. لقد شعرت تقريباً بالحزن من أجله، إذ كان محكوماً عليه بالمعاناة الشديدة للخسارة وبدون أن يريحه اللعن من ذلك. كان لديه أمل كبير، والآن، وقد رآه يتلاشى كالدخان، كان مضطراً لأن يجلس ويبتسم ويبرم إبهاميه. لم يزعج نفسه بالابتسام بسرور، بل عامَلَ صديقهما عموماً بمُحَيّا خالٍ من التعبير كما يُظهره أي رجلٍ بارع. كان ذلك في الحقيقة جزءاً من براعة أوزموند بأنه تمكّنَ من أن يبدو غير مكشوف تماماً. مع هذا، لم يكن مظهره الحالي اعترافاً بخيبة الأمل، بل كان ببساطة جزءاً من نظام العادات لأوزموند والذي يجب أن يكون خالياً من التعبير تماماً تناسُباً مع ما يعتزمه بالفعل. كان عازماً على هذه الجائزة منذ البداية، لكنه لم يسمح لتلهفه من أن يظهر على وجهه الدقيق. فقد عامَلَ زوج ابنته المحتمل كما يعامِل أي شخص ـ أي بمظهر المهتم به فقط لأجل مكانته وليس لأجل أية منفعة متاحة لشخصٍ محصّن مسبقاً بشكلٍ مطلق جداً وتامٍّ جداً كأوزموند. فما كان الآن ليُبدي أي إشارة لغيظٍ داخلي والذي يكون نتيجةً لتطلعٍ متلاشٍ من الاستفادة ـ ولا حتى أكثر الإشارات خفوتاً أو حذقاً. بإمكان إيزابيل أن تكون متأكدة من ذلك، إن كان ذلك يشكّل أي ارتياحٍ لها.

من الغريب، الغريب جداً، أن يكون ذلك مريحاً لها، إذ أرادت أن ينتصر اللورد واربيرتون أمام زوجها، وأرادت في الوقت نفسه أن يكون زوجها متشامخاً جداً أمام اللورد واربيرتون. كان أوزموند، بطريقته، مثيراً للإعجاب؛ إذ كان مثل ضيفهما، يمتلك فائدة عادةٍ مكتسبة. لم تكن عادة الفوز، بل كانت شيئاً جيداً بالقدر نفسه ـ وهي عادة عدم محاولة الفوز.

عندما اتكأ إلى الخلف في مكانه مُصغياً لكن قليلاً إلى العروض الودودة للآخر والتفسيرات المُضمَرة التي إن كان من اللائق أن يفترض بأنها موجّهة أساساً لزوجته ـ كان قد تبقّى لديه على الأقل (لأن ما تبقّى له قليلٌ جداً) عزاء التفكير كم أُبْعِدَ شخصياً وبشكلٍ بارعٍ عن الموضوع، وكيف امتلَكَ مظهر اللامبالاة الذي كان الآن قادراً على أن يرتديه، الجمال الفائق للتماسك.

كان شيئاً ستكون قادراً على ملاحظته، وكأنّ حياة المغادِر[1] لا تهمه. لقد فعل الأخير ما هو مناسب بالتأكيد، لكن أداء أوزموند كان مصقولاً أكثر بطبيعته. كان موقف اللورد واربيرتون في النهاية موقفاً عفوياً. إذ لم يكن هناك مطلقاً سبب في عدم مغادرته روما. كانت لديه أهواءٌ خيّرة، لكنها لم تثمر، فهو لم يقترف ذنباً، وكان شرفه مصاناً.

بدا أن أوزموند لم يهتم إلّا قليلاً بمقترح ذهابهم وبقائهم معه وبتلميحه إلى الفوز الذي قد تخرج به بانسي من زيارتهم. فهمهم باعترافٍ بالجميل، لكنه ترك إيزابيل تقول بأنه موضوعٌ يتطلّب تفكيراً جديّاً. تمكنت إيزابيل، حتى عندما أبدت هذه الملاحظة، من أن ترى المشهد الكبير الذي انبثق فجأة من ذهن زوجها، وصورة بانسي الصغيرة تظهر في وسطه.

طلب اللورد واربيرتون الإذن ليودّع بانسي، لكن لا إيزابيل ولا أوزموند قد أصدرا أية حركة ليرسلا في طلبها. فاتخذ هيئةً توحي بأن زيارته يجب أن

(1) المغادِر: يقصد اللورد واربيرتون الذي سيغادر روما متوجهاً إلى إنجلترا. (المترجمة)

تكون قصيرة؛ فجلس على كرسي صغير وكأنّ المدة فقط هي لحظة واحدة واضعاً قبعته في يده. بل انتظَرَ أكثر وأكثر، وتساءلت إيزابيل ما الذي كان ينتظره. ففكرتْ بأن السبب لم يكن ليرى بانسي، كان لديها انطباع بأنه عموماً لن يرى بانسي في الواقع. كان السبب طبعاً هو ليراها هي على انفراد ـ كان لديه شيء ما ليقوله لها. لم يكن لدى إيزابيل رغبة كبيرة لسماعه لأنها كانت خائفة من أن يكون توضيحاً، وهي يمكنها تماماً أن تستغني عن التوضيحات. مع ذلك، نهض أوزموند على الفور كرجلٍ حسن الذوق خطر له أن زائراً عريقاً للغاية يرغب بأن يقول فقط كلمة أخيرة للسيدتين.

قال: (لدي رسالة يجب أن أكتبها قبل العشاء، اعذراني. سأرى إن كانت ابنتي غير منشغلةٍ بشيء. وإن كانت منشغلة فسوف تعرف بأنكَ هنا. عندما تأتي إلى روما ستزورنا طبعاً. ستتحدث معكَ السيدة أوزموند عن رحلات الاستكشاف الإنجليزية؛ فهي من يقرر كل تلك الأشياء).

كانت الإيماءة ـ بدلاً من المصافحة ـ التي اختتم بها هذا الحديث اليسير ربما في الحقيقة شكلاً ضئيلاً من التحية. لكن عموماً كان ذلك هو كل ما تَطَلَّبَه الموقف. فكّرتْ إيزابيل بأنه بعد أن غادر الغرفة لن يكون للورد واربيرتون ذريعة ليقول «إن زوجكِ غاضب جداً»، والذي سيكون غير مقبول للغاية بالنسبة لها. مع ذلك، إن كان سيفعل هذا فستقول: «أوه، لا تكن خائفاً. فهو لا يكرهكَ أنت؛ آه بل أنا التي يكرهها!».

حالما تُركا لوحدهما أظهر صديقها ارتباكاً قليلاً أكيداً ـ وهو يجلس على كرسيٍّ آخر يتلمّس اثنتين أو ثلاثاً من الحاجات التي كانت على مقربة منه، فأشار على الفور: (آمل أن يجعل الآنسة أوزموند تأتي، فأنا أرغب كثيراً برؤيتها).

قالت إيزابيل: (أنا مسرورة بأنها المرة الأخيرة).

ـ (أنا كذلك. إنها لا تهتم بي).

ـ (بلى، إنها لا تهتم بكَ).

أجاب: (لستُ مندهشاً من ذلك).

ثم أضاف بشكلٍ عَرَضي: (ستأتين إلى إنجلترا، أليس كذلك؟).

ـ (أعتقد أنه من الأفضل أن لا نفعل ذلك).

ـ (آه، أنت تدينين لي بزيارة. ألا تذكرين بأنه كان يجب أن تأتي إلى لوكلي ذات مرة ولم تفعلي؟).

قالت إيزابيل: (لقد تغيّر كل شيء منذ ذلك الحين).

ـ (لم يتغير نحو الأسوأ بالتأكيد.. طالما نكون مهتمين. فأنْ أراكِ تحت سقف بيتي...)، فتردد في الكلام للحظة فقط، (... سيكون ترضيةً كبيرة).

لقد خافَتْ من التوضيح، لكن ذلك كان الإيضاح الوحيد الذي حدث. تحدثا قليلاً عن رالف. وفي اللحظة التي تلتها دخلت بانسي وكانت مرتديةً مسبقاً استعداداً للعشاء وثمة بقعةٌ حمراء صغيرة على كل وجنة. صافحت اللورد واربيرتون ووقفت تنظر إلى وجهه بابتسامةٍ ثابتة ـ ابتسامةٍ عرفَتْها إيزابيل بأنها شبيهة قليلاً بالانفجار بالبكاء، رغم أن سيادة اللورد ربما لم يشتبه بذلك.

قال: (أنا راحلٌ. أريد أن أودعكِ).

ـ (إلى اللقاء يا لورد واربيرتون)، وارتجف صوتها بشكلٍ محسوس.

ـ (وأريد أن أخبركِ بأنني أتمنى كثيراً أن تكوني سعيدة).

أجابت بانسي: (أشكركَ يا لورد واربيرتون).

تلكأ للحظة وألقى نظرة على إيزابيل.

ـ (يجب أن تكوني سعيدة جداً.. فلديكِ ملاكٌ حارس).

قالت بانسي بنبرة شخصٍ كانت قناعاته دائماً بهيجة: (أنا متأكدة بأنني سأكون سعيدة).

ـ (إن قناعةً كهذه ستأخذكِ إلى طريقٍ عظيم، لكن إنْ حدث وخَذَلَتْكِ يوماً، فتذكّري... تذكّري...). وتلعثم محدثها قليلاً. فقال بضحكةٍ مبهمة: (أنْ تفكّري بي في بعض الأحيان، تعلمين!).

ثم صافح إيزابيل بصمت وغادر على الفور.

عندما غادر الغرفة توقعتْ تدفقاً من الدموع من ابنة زوجها، لكن في الواقع تطرقتْ بانسي لشيءٍ مختلفٍ للغاية. صاحت بشكلٍ لطيفٍ جداً: (أعتقد بأنكِ أنت ملاكي الحارس!).

هزت إيزابيل رأسها.

ـ (أنا لستُ ملاكاً من أي نوع. أنا إلى أقصى حدٍّ صديقتكِ المخلصة).

ـ (أنتِ إذن صديقة مخلصة جداً... لتطلبي من بابا أن يكون لطيفاً معي).

قالت إيزابيل مندهشة: (لم أطلب شيئاً من والدكِ).

ـ (لقد أخبرني للتو أن آتي إلى غرفة الاستقبال، ومن ثم منحني قبلة لطيفة جداً).

قالت إيزابيل: (آه، كانت تلك هي فكرته هو فعلاً!).

لقد فَهِمَتْ ايزابيل الفكرةَ تماماً، كانت مميزة جداً، وكان عليها أن ترى المزيد منها، فحتى مع بانسي لم يتمكن مطلقاً من أن يجعل نفسه مخطئاً.

كانوا يتناولون العشاء خارج المنزل ذلك اليوم، وبعد العشاء ذهبوا إلى تسلية أخرى، لذا ما إنْ حلَّ المساء حتى رأته إيزابيل لوحده. عندما قَبَّلَتْهُ بانسي قبل أن تذهب للنوم، ردَّ عناقها حتى بأكثر من كرمه المعتاد، وتساءلت إيزابيل إن كان يقصد بذلك التلميح بأن ابنته قد تأذّتْ من مكائد زوجة أبيها.

على أية حال، كان ذلك تعبيراً جزئياً عن ما واصَلَ توقعه من زوجته. كانت على وشك أن تتبع بانسي، لكنه أشار بأنه يريد منها أن تبقى، فلديه شيء ما يجب أن يقوله لها.

ثم تجوّل في غرفة الاستقبال قليلاً بينما وقفت هي تنتظر بعباءتها.

قال بسرعة: (أنا لا أفهم ما الذي تنوين فعله. أودُّ أن أعرف.. كي أعرف كيف أتصرف).

ـ (أنوي الآن أن أذهب للنوم. فأنا متعبة جداً).

ـ (اجلسي واستريحي، فلن آخذ من وقتكِ كثيراً. ليس هناك.. اتخذي مكاناً مريحاً).

ورتّب مجموعةً من الوسائد كانت مبعثرة، بشكلٍ يناسب موضوع لوحة، فوق أريكةٍ واسعة. مع هذا، لم يكن هذا هو المكان الذي جلست عليه، بل ألقت بنفسها على أقرب كرسي. كانت النار قد انطفأت، والأنوار في الغرفة الكبيرة قليلة. لفّتْ نفسها بعباءتها؛ فقد شعرت بالبرد بشدة.

واصل أوزموند الكلام: (أعتقد بأنكِ تحاولين إذلالي. إنه الإجراء الأكثر غرابة).

أجابت: (ليس لدي أدنى فكرة عمّا تعنيه)

ـ (لقد لعبتِ لعبة خفيّة جداً، لقد دبّرتِها بشكلٍ بارع).

ـ (ما هو ذلك الشيء الذي دبرتُه؟)

ـ (مع هذا، فإنكِ لم تسوِّ الأمر تماماً، وسنراه ثانيةً).

ووقف أمامها ويداه في جيوبه وهو ينظر إليها بتفكُّرٍ بطريقته المعتادة التي بدت تشير إلى إعلامها بأنها لم تكن موضوعاً للتفكير بل حدثاً مزعجاً قليلاً للتفكير به.

قالت إيزابيل: (إن كنتَ تقصد بأن اللورد واربيرتون ملزم بالعودة، فأنتَ مخطئ. إنه غير ملزم البتة).

ـ (ذلك هو تماماً ما أشكو منه. لكن عندما أقول بأنه سيعود، لا أقصد بأنه سيأتي بسبب إحساسٍ بالواجب).

ـ (لا يوجد شيء آخر يجعله يعود، إذ اعتقد بأنه استنفد روما).

ـ (آه، لا، أن ذلك حكم سطحي. فروما لا تُستنفَد).

وبدأ أوزموند يجول في الغرفة ثانيةً، ثم أضاف: (مع هذا، ربما لا داعي للعجلة بشأن ذلك. ففكرته جيدة قليلاً بذهابنا إلى إنجلترا. لولا خوفي من أن أجد ابن خالتكِ هناك لحاولتُ إقناعكِ).

قالت إيزابيل: (ربما لن تجد ابن خالتي).

ـ (أود أن أتأكد من ذلك. مع هذا سأتأكد قدر استطاعتي. أريد في الوقت نفسه أن أرى منزله، ذلك الذي أخبرتِني الكثير جداً عنه في إحدى المرات؛ ماذا أسميته؟.. جاردن كورت. لا بدّ أنه شيء ساحر. ثم أنت تعلمين بأن لدي إخلاصاً لذكرى زوج خالتكِ؛ فقد جعلتِني أعجب به كثيراً. أودّ أن أرى أين عاش ومات. فذلك في الحقيقة مهم. كان صديقكِ على حق. يجب على بانسي أن ترى إنجلترا).

قالت إيزابيل: (ليس لدي شك بأنها سوف تستمتع بذلك).

واصل أوزموند الكلام: (لكنها وحتى ذلك الوقت ستكون مدة طويلة، فالخريف القادم بعيد جداً. وحتى ذلك الحين هناك أشياء ستثير اهتمامنا أكثر قليلاً).

ثم سأل فجأة: (هل تظنينني فخوراً جداً؟)

ـ (أعتقد بأنكَ غريبٌ جداً).

ـ (أنتِ لا تفهمينني).

ـ (بلى، حتى عندما تهينني).

ـ (أنا لم أهنكِ، أنا لستُ قادراً على ذلك. أنا فقط أتحدث عن حقائق معينة، وإذا كانت التلميحات تضرّكِ فليس الذنب ذنبي. فالحقيقة المؤكَّدة هي أنكِ أبقيتِ كل هذا الموضوع بين يديكِ تماماً).

سألت إيزابيل: (هل ستعود لموضوع اللورد واربيرتون؟ أنا ضجرة جداً من اسمه).

ـ (سوف تسمعينه ثانيةً قبل أن ننتهي من موضوعه).

تحدثتْ عن إهانته لها، لكن بدا لها فجأة بأن هذا توقَّفَ عن أن يكون ألماً. كان يضغط أكثر فأكثر. إن تخيُّلَ ضغطٍ كهذا جعلها طائشة قليلاً؛ كان هذا هو الألم الوحيد. كان غريباً جداً، مختلفاً جداً، إنه لم يؤثر فيها. مع ذلك، كان انفعاله المروّع غير اعتيادي، وشعرت بفضولٍ متزايد لتعرف على أي أساس رأى أن الحق إلى جانبه. فردت بسرعة: (يمكنني أن أقول لكَ بأنني لا أرى بأن لديكَ شيئاً تقوله لي يستحق السماع. لكنني ربما أكون مخطئة. فهناك شيء يستحق سماعي.. وهو أن أعرف بأوضح الكلمات ما تتهمني به).

ـ (أتهمكِ بمنعكِ زواج بانسي من واربيرتون. هل هذه الكلمات واضحة؟).

ـ (على العكس، لقد أوليتُ الموضوع اهتماماً عظيماً، لقد أخبرتُكَ بذلك. وعندما قلتَ لي بأنكَ تعتمد عليّ..أعتقدُ أن ذلك هو ما قلتَهُ.. قبلتُ بالمَهمّة. كنتُ حمقاء بفعلي ذلك، لكنني فعلتُها).

ـ (لقد تظاهرتِ بفعل ذلك، وحتى أنكِ تظاهرتِ بالمعارضة لتجعلينني راغباً أكثر بالوثوق بكِ. ثم بدأتِ باستخدام براعتكِ لتبعديه عن الطريق).

قالت إيزابيل: (أعتقدُ بأنني فهمتُ ما تقصده).

سأل زوجُها: (أين الرسالة التي قلتِ لي بأنه كان يكتبها لي؟).

ـ (ليس لدي أدنى فكرة، فلم أسأله).

قال أوزموند: (لقد منعتِ وصولها).

نهضت إيزابيل على مهل وهي تقف هناك بعباءتها البيضاء التي غطتها حتى قدميها. لقد مثّلَتْ ملاك الكبرياء، ابن العم الأول لملاك الرحمة.

صاحت بهمهمة طويلة: (أوه، يا جيلبرت، أنت بحق الرجل الذي كان رائعاً جداً...!).

ـ (لم أكن رائعاً جداً مثلكِ. فقد فعلتِ كل شيء تريدينه. لقد أبعَدْتِهِ عن الطريق بدون أن تَظهَري بأنكِ فعلتِ ذلك، وقد وضعْتِني في الموقف الذي تمنيتِ أن تريني فيه... موقف رجلٍ حاوَلَ أن يزوّج ابنته للوردِ، لكنه فشل بشكلٍ بشع).

قالت إيزابيل: (إن بانسي لا تهتم لأمره. وهي مسرورة جداً لأنه رحل).

ـ (ليس لذلك علاقة بالموضوع).

ـ (وهو لا يهتم ببانسي).

ـ (لن يفيد ذلك، فقد أخبَرْتِني بأنه مهتم. لا أدري لماذا مِلْتِ إلى هذه الإجابة المحددة).

واصل أوزموند الكلام: (كان يمكنكِ أن تتخذي إجابة أخرى. لا يبدو لي بأنني كنتُ متمادياً.. أي إنني اعتبَرْتُهُ أمراً مسلّماً به جداً. لقد كنتُ طبيعياً جداً بشأن الموضوع، وهادئاً جداً. لم تبدأ الفكرة مني، بل هو من بدأ بإظهار أنه يحبها قبل حتى أن أفكر بذلك. لقد تركتُ الموضوع برمته لكِ).

ـ (نعم، كنتَ مسروراً جداً بتركه لي. ثم كان عليكَ أن تنشغل بهذه الأشياء بنفسكَ).

نظر إليها برهةً، ثم استدارَ مبتعداً.

ـ (لقد ظننتُ بأنكِ كنتِ مُحِبَّةً جداً لابنتي).

ـ (لم أكن أكثر حباً لها مما هو اليوم).

ـ (إن حبكِ محفوفٌ بقيود هائلة. مع هذا، ربما كان ذلك أمراً طبيعياً جداً).

سألت إيزابيل وهي تأخذ شمعة كانت منتصبة على إحدى الموائد: (هل هذا هو كل ما أردتَ قوله لي؟)

ـ (هل أنت راضية الآن؟ هل أنا خائب الأمل بما يكفي بالنسبة لكِ؟).

ـ (لا أعتقد بأنكَ خائب الأمل بالمرة، بل حصلتَ على فرصة أخرى لتحاول إذهالي).

ـ (ليس كذلك، بل إنها أثبتتْ بأن بانسي يمكنها أن تطمح عالياً).

قالت إيزابيل عندما استدارت مبتعدةً مع شمعتها: (مسكينة بانسي الصغيرة!).

***

الفصل 47

علمَتْ من هنرييتا ستاكبول كيف أتى كاسبار غودوود إلى روما؛ وهو حَدَثٌ حصل بعد ثلاثة أيام من مغادرة اللورد واربيرتون. كان هذا الحدث الأخير مسبوقاً بحدثٍ طارئ ذي أهمية لإيزابيل ـ وهو الاختفاء المؤقت، مرة أخرى، لمدام ميرليه التي كانت قد ذهبت إلى نابولي لتمكث مع صديق، وهو المالك السعيد لفيلا في بوسيليبو. كانت مدام ميرليه قد توقفت عن الاهتمام بسعادة إيزابيل التي وجدت نفسها تتساءل فيما إذا لم تكن أكثر النساء حكمة أكثرهن خطراً أيضاً بدون قصد.

تنتابها أحياناً في الليل رؤًى غريبة، إذ بدا أنها ترى زوجها وصديقتها في أُلفة باهتة، غير واضحة. ويبدو أن هذه الرؤى لا تتركها؛ إذ يبدو أن لهذه السيدة شيئاً تخفيه. انصرف خيال إيزابيل بنشاط إلى هذه المرحلة المربكة، لكن من حينٍ لآخر كان يُعاق هذا الخيال من خوفٍ مجهول بحيث عندما تكون هذه المرأة الفاتنة بعيدة عن روما تحظى قليلاً بإحساسٍ من الراحة.

كانت قد علمَتْ مسبقاً من الآنسة ستاكبول بأن كاسبار غودوود موجودٌ في أوروبا؛ إذ قامت هنرييتا بالكتابة لها لتُبلِغَها على الفور بذلك بعد أن قابَلَتْهُ في باريس. فهو نفسه لم يكتب لإيزابيل، وعلى الرغم من أنه كان في أوروبا، إلا أنها ظنت أنه من المحتمل جداً بأنه لا يرغب برؤيتها. ففي لقائهما الأخير قبل زواجها كان قد اكتسى بمظهر الانكسار التام، وقال: إن كانت إيزابيل تتذكر بشكلٍ صحيح بأنه أراد أن يحظى بنظرة أخيرة لها. فمنذ ذلك الوقت كان هو

أكثر المعارضين الباقين من أيامها السالفة ـ الشخص الوحيد في الحقيقة الذي تعلَّقَ به ألمٌ دائم. كان قد تركها ذلك اليوم بإحساسٍ فائق من الصدمة؛ يشبه ارتطام القوارب في وضح النهار ولم يكن يوجد هناك ضباب ولا تيار خفي يسبب ذلك، وكانت تريد فقط أن تتّجه بعيداً، ورغم ذلك كان قد ارتطم بمقدم مركبها بينما يداها كانتا على الدفّة، وـ لإكمال التشبيه ـ سبَّبَ في القارب الخفيف الحركة أثراً لا يزال يكشف عن نفسه بصريرٍ خافت. كان من المريع رؤيته، لأنه يمثّل الضرر الخطير الوحيد الذي فعَلَتْهُ في حياتها يوماً (حسب اعتقادها)؛ إذ كان هو الشخص الوحيد الذي كان غير راضٍ عنها. لقد جَعَلَتْهُ تعيساً، ولم تتمكن من احتمال ذلك، وكانت تعاسته حقيقة قاسية. كانت قد بكت بانفعال بعد أن تركها، والسبب: بالكاد عرفَتْهُ. حاوَلَتْ أن تتصور أن السبب هو افتقاره للمراعاة؛ فقد أتى إليها بتعاسته عندما كانت هي في قمة سعادتها؛ وكان قد فعل ما بوسعه ليجعل صحو تلك الأيام الصافية مكفهراً. إنه لم يكن قاسياً، ومع ذلك كانت هناك قسوة في الطباع. كانت هناك قسوة على أية حال في شيء ما تقريباً؛ ربما فقط في نوبتها في النحيب وما بعد ذلك ـ أن إحساساً من هذا القبيل يستمر ثلاثة أو أربعة أيام.

باختصار، كان تأثير التماسه الأخير قد تلاشى، وكان طوال السنة الأولى من زواجها قد سقط من حساباتها. كان شخصاً جاحداً لتشير إليه، فمن المزعج أن تفكر في شخصٍ كان متألماً ومتجهماً بشأنك، والذي مع ذلك لا تستطيع أن تفعل شيئاً لتُهدِّئه. سيكون الأمر مختلفاً لو كانت قادرة على أن تشكّ ولو قليلاً بحالته الصعبة الإصلاح مثلما شكَّتْ بحالة اللورد واربيرتون، لكن لسوء الحظ فقد كانت هذه الحالة فوق الشبهات، وكان هذا المظهر العدائي والعنيد لها هو ما جعلها غير جذّابة. لم تستطع أن تقول لنفسها بأن لديها هنا ضحية عانت من الضرر مثلما تقول ذلك لنفسها في حالة خاطِبِها الإنجليزي. إذ لم يكن لديها اعتقاد بتعويض السيد غودوود ولا مراعاة لهذا

التعويض. لم يكن مصنع القطن تعويضاً لأي شيء ـ على الأقل إخفاقه في الزواج من إيزابيل آرتشر. وأيضاً، فوق ذلك، بالكاد عرفت ماذا خسرَ ـ عدا طبعاً صفاته الأصيلة. أوه، لقد كان أصيلاً جداً، إذ لم تتخيل حتى أنه يبحث عن صفات مصطنَعة. إن تَوَسَّعَ في عمله ـ ذلك، حسب اعتقادها، هو الشكل الوحيد الذي يمكن للعمل أن يستحوذ عليه ـ فسيكون السبب هو لأن التوسع شيء جريء أو لأنه مفيد للعمل نفسه؛ وليس مطلقاً لأنه يأمل أن ذلك سيخنق الماضي. لقد منح هذا شخصيتَه نوعاً من التجرُّد والكآبة جعلَ ملاقاتها في الذاكرة أو الإدراك مصادفة غريبة؛ إذ كانت تفتقر إلى الغطاء الاجتماعي الذي يغطي بشكل مألوف قساوة التواصل الإنساني في عصرٍ متحضّرٍ جداً. إن صمتَه التام، وفوق ذلك، حقيقةَ أنها لم تسمع منه شيئاً ونادراً جداً ما سمعَتْ أي ذكرٍ عنه، قد عمَّقا هذا الانطباع عن وحدته. كانت تسأل ليلي من حينٍ لآخر عن أي أخبارٍ عنه، لكن ليلي لا تعرف شيئاً عن بوسطن ـ فاهتمامها كان منحصراً تماماً بالشرق، بحي ماديسون.

كلما يمرّ الوقت، تفكر إيزابيل به أكثر وبتحفّظٍ أقل؛ فتخطر لها أكثر من مرة فكرة الكتابة له.

لم تكن قد أخبرتْ زوجها عنه ـ لم تجعل أوزموند يعلم بزياراته لها إلى فلورنسا، وهو تكتُّمٌ لم يفرضه في البداية افتقار الثقة في أوزموند، بل ببساطة بسبب اعتبارها أن خيبة أمل الشاب لم تكن سرّها هي بل سرّه هو. لذا اعتقدَتْ أنه سيكون من الخطأ من جانبها أن تنقله إلى شخصٍ آخر، وفي النهاية لن تحظى شؤون السيد غودوود باهتمامٍ كبير لدى جيلبرت.

عندما نأتي إلى موضوع عدم كتابتها له أبداً؛ بدا لها أن ـ تأخذ حزنه بعين الاعتبار ـ أدنى شيء يمكن أن تفعله هو أن تتركه وشأنه. مع ذلك، كانت ستُسعَد لتكون بطريقةٍ ما قريبة منه أكثر. لم يكن ذلك يعني أنه خطر لها بأنْ تتزوج منه، فحتى بعد أن اتضحت لها نتائج زواجها الراهن، لم تكن لهذه

الفكرة الخاصة ـ وإن انهمكَتْ فيها كثيراً ـ أن تتواقح لتكشف عن نفسها. لكن عندما تجد نفسها في محنة، سيصبح غودوود عضواً من دائرة الأشخاص الذين ترغب أن تعيد بهم اتزانها.

لقد ذكرتُ كم احتاجت بشدة إلى أن تشعر بأن تعاستها ما كانت يجب أن تحصل لها بسبب خطئها هي. لم يكن لديها تطلُّع حميم للموت، وأيضاً أرادت أن تتصالح مع الحياة ـ أي أن تُصلح شؤونها الروحية.

يعود إلى ذاكرتها أحياناً بأن هناك حساباً يجب تصفيته مع كاسبار، وترى نفسها أحياناً ميّالة أو قادرة على تصفيته اليوم بشروطٍ أسهل بالنسبة له من ذي قبل. مع ذلك، عندما علمَتْ بأنه آتٍ إلى روما، شعرتْ بالخوف كثيراً؛ إذ سيكون من المزعج جداً بالنسبة له أكثر من أي أحدٍ آخر أن يعدّ فاتورة بالفوضى العميقة لشؤونها، لأنه سيكتشف ذلك ككشف حساب مزوّر أو شيء من هذا القبيل. لأنها آمنت في أعماقها بأنه استثمَرَ شؤونه كلها في سعادتها، بينما استثمَرَ الآخرون فقط جزءاً قليلاً. لقد كان مرة أخرى الشخص الذي يجب أن تخفي عنه كربتها. رغم ذلك، فقد اطمأنت بعد وصوله لروما، لأنه أمضى عدة أيام بدون أن يأتي لرؤيتها.

ربما سيُعتقَد كثيراً بأن هنريتا كانت دقيقةً أكثر بكثير، وأن إيزابيل قد أُنعِمَ عليها إلى حدٍّ كبير برفقة صديقتها. لقد تمادت في ذلك، لأنها تلمّح الآن إلى إبقاء ضميرها صافياً، فتلك كانت طريقة لإثبات أنها لم تكن سطحية ـ لأن السنين، بانقضائها بسرعة، تدعم بدلاً من أن تفسد تلك الخصال التي تُنتَقد بظرافة من قبل أشخاص أقل شأناً من إيزابيل، الخصال التي لا تزال ملحوظة بما يكفي لتمنح الوفاءَ نكهةَ البطولة.

كانت هنريتا متحمسة وذكية ومفعمة بالنشاط كما هو حالها دائماً، وأنيقة ومرحة وجميلة. وكانت عيناها الواسعتان بشكل ملفت للنظر، واللامعتان كمحطات قطار كبيرة مُزجَّجة، مفتوحتين دائماً على وسعهما؛ لم تفقد

ملابسُها شيئاً من أناقتها، ولا آراؤها شيئاً من تلميحاتها الوطنية. مع ذلك، فهي ليست كما هي تماماً، فقد أدهش إيزابيل بأنها ازدادت غموضاً. فهي فيما مضى لم تكن غامضة، حتى وإن تولّت عدة تحقيقات في وقتٍ واحد، فهي تتدبّر الأمر لتكون شاملة وواضحة فيما يخص كل واحد منها. كان لديها سبب منطقي لكل شيء تفعله؛ فهي محفوفة بالدوافع بشكلٍ تام.

سابقاً، عندما أتت إلى أوروبا، كان السبب هو لأنها تمنت أن تراها، لكن الآن، وقد رأتها مسبقاً، لم يكن لديها عذر كهذا. وهي لم تدَّعِ ولو للحظة بأن الرغبة في تفقُّد الحضارات البائدة له أية علاقة بمشروعها الحالي، وأن رحلتها كانت تعبيراً عن استقلاليتها عن الحياة القديمة بدلاً من الإحساس بالمزيد من الارتباط بها.

قالت لإيزابيل: (إن المجيء إلى أوروبا بسيط جداً؛ إذ لا يبدو لي بأن المرء يحتاج إلى الكثير جداً من الأسباب لأجل ذلك. فالأمر شبيه ببقائكِ في وطنكِ. وهذا أهم بكثير).

لذلك فإهداؤها لنفسها رحلة أخرى إلى روما لم يكن نابعاً من حسّها بفعل شيء مهم جداً؛ كانت قد رأت المكان من قبل واستكشَفَتْهُ بدقة، وإن تصرفها الحالي كان ببساطة علامة على تآلفها مع المكان، على معرفتها كل شيء بشأنه، على امتلاكها الحق لتتواجد هناك كأي أحدٍ آخر.

كان كل ذلك لا بأس به، لكن كانت هنرييتا قلقة؛ وإن وصل الأمر إلى هذا الحدّ، فهي أيضاً لديها كل الحق لتصبح قلقة. لكن في النهاية كان لديها سبب أفضل للمجيء إلى روما من أنها مهتمة بها قليلاً. وعرَفَتْهُ صديقتُها بسهولة، وعرفَتْ معه قدر وفاء الأخرى. فقد اجتازت المحيط العاصف في منتصف فصل الشتاء لأنها خمنت أن إيزابيل كانت حزينة. خمنت هنرييتا كثيراً، لكنها لم تخمن بشكلٍ ملائم بهذه الطريقة. كانت سعادة إيزابيل الآن قليلة، لكن حتى وإن كانت كبيرة جداً فسيبقى هناك شيء من السعادة الشخصية في إحساسها

بكونها محقّة في احترامها الدائم لهنرييتا. لقد مَنَحَت امتيازات كبيرة تخص هنرييتا، ومع ذلك أصرَّتْ بأنها ـ مع كل الخصم ـ كانت ثمينة جداً. مع ذلك، لم يكن انتصارها هو ما وجدَتْهُ مريحاً، بل كان ببساطة راحة الاعتراف لهذه الصديقة، التي هي أول شخص تعترف له بذلك، بأنها لم تكن سعيدة مطلقاً. كانت هنرييتا قد توصلت بنفسها إلى هذه النقطة بأسرع ما يمكن، وكانت قد اتهمتها في حضورها بكونها شريرة. لقد كانت إنسانة، كانت أختاً؛ لم تكن رالف، ولا لورد واربيرتون، ولا كاسبار غودوود، وتمكنت إيزابيل من الكلام، فقالت ببرودٍ شديد: (نعم، أنا شريرة).

لقد كرهتْ أن تسمع نفسها تقول ذلك، فحاوَلَتْ أن تقولها بشكلٍ مميز قدر الإمكان.

سألت هنرييتا وهي عابسة، وكأنها تحقق في عمليات طبيبٍ دجّال: (ماذا فعل بكِ؟).

ـ (لم يفعل شيئاً. لكنه لا يحبني).

صاحت الآنسة ستاكبول: (إنه صعب الإرضاء! لِمَ لا تتركينه؟).

قالت إيزابيل: (لا أستطيع أن أغيّر موقفي بهذه الطريقة).

ـ (لِمَ لا، أودُّ أن أعرف؟ أنت لن تعترفي بأنكِ ارتكبتِ خطأً. أنت متعجرفة جداً).

ـ (لا أدري إن كنتُ متعجرفة جداً. لكنني لا أستطيع أن أعلن عن خطئي. لا أعتقد بأن ذلك لائق. كنتُ سأودُّ الموت بدلاً من ذلك).

قالت هنرييتا: (لن تعتقدي ذلك دائماً).

ـ (لا أدري ما هي التعاسة الكبيرة التي قد يجلبها لي ذلك الإعلان، لكن يبدو لي بأنني سأبقى دائماً خجلة. على المرء أن يقرّ بأفعاله. لقد تزوجتُه أمام كل الناس، كنتُ حرةً تماماً، كان من المستحيل أن أفعل أي شيء مدروس أكثر).

ثم كررت إيزابيل: (لا يستطيع المرء أن يغيّر موقفه بهذه الطريقة).

ـ (لقد تغيرتِ، برغم المستحيل. آمل أنكِ لا تقصدين أن تقولي بأنكِ تحبينه).

فكرت إيزابيل: (كلا، أنا لا أحبه. يمكنني أن أقول ذلك، لأنني مرهقة من سرّي. لكن ذلك يكفي، لا يمكنني أن أعلن ذلك من على أسطح المنازل).

ضحكت هنريتا: (ألا تعتقدين بأنكِ حذرة جداً بعض الشيء؟).

أجابت إيزابيل: (لستُ حذرةً منه... بل من نفسي!).

لم يكن مما يدعو للدهشة أن لا يرتاح جيلبرت أوزموند للآنسة ستاكبول، فحدسه قد جعله معارِضاً لسيدةٍ شابة قادرة على أن تنصح زوجته بالانشقاق عن بيت الزوجية. فعندما وصلتْ إلى روما قال لإيزابيل بأنه يأمل أن تترك صديقتها المراسِلة وشأنها، وأجابت إيزابيل بأن ليس لديه على الأقل ما يخافه منها.

قالت لهنرييتا، بما أن أوزموند لا يحبها فلن يمكنها أن تدعوها على العشاء، لكن يمكنهما بسهولة أن يريا بعضهما البعض بطرقٍ أخرى.

استقبلت إيزابيل الآنسةَ ستاكبول بمطلق الحرية في غرفة جلوسها، وأخذتها أكثر من مرة في جولة بالعربة وجهاً لوجه مع بانسي التي، وهي متّكئة قليلاً إلى الأمام على المقعد المقابل للعربة، حدّقت في الكاتبة الشهيرة باهتمام متسم بالاحترام والذي وجدته هنرييتا أحياناً مزعجاً. واشتكت لإيزابيل بأن للآنسة أوزموند نظرة ضيقة وكأنّها ستتذكر كل شيء يقوله المرء.

أعلنت الآنسة ستاكبول: (لا أريد أن يتذكرني أحد بهذه الطريقة. أنا أعتبر كلامي يدل فقط على اللحظة الحاضرة، مثل صحف الصباح. تبدو ابنة زوجكِ وهي جالسة هناك وكأنها تحفظُ كل الأعداد القديمة لإحدى الصحف وستنشرها يوماً ما ضدّي).

لم تستطع أن تُعلِّمَ نفسها التفكير بشكل إيجابي بانسي التي بدا افتقادها لروح المبادرة وللحديث وللمطالب الشخصية، غير طبيعي وحتى غريباً في الفتاة ذات العشرين عاماً.

فهِمَتْ إيزابيل على الفور بأن أوزموند سيودّ منها أن تجادل قليلاً في موضوع صديقتها، ويصرّ قليلاً على استقبالها لكي يظهر بأنه يُقاسي لأجل الأخلاق الحميدة. إن تَقَبُّلَها الفوري لانتقاداته قد أظهره كثيراً على خطأ ـ فإحدى مضار التعبير عن الازدراء في حقيقة الأمر هي عدم استطاعتكَ في الوقت نفسه الاستمتاع بفضيلة التعبير عن التعاطف. لقد تمسَّكَ أوزموند بفضيلته، وأيضاً تمسَّكَ بانتقاداته ـ والتي كانت كلها عناصر صعبة الإصلاح. سيكون الأمر الصائب هو أن تأتي الآنسة ستاكبول للعشاء في قصر روكانيرا مرة أو مرتين لتحكم بنفسها كم أن ذلك لن يسرّه كثيراً (على الرغم من مجاملته السطحية التي هي دائماً كبيرة جداً). رغم ذلك، فمنذ اللحظة التي لم تتفق فيها هاتان السيدتان، لم يتبقَّ شيء لأوزموند إلّا أن يطلب من السيدة التي من نيويورك أن ترحل. كان الأمر المفاجئ هو الاستهجان الذي حظي به من أصدقاء زوجته؛ فقد انتهز الفرصة ليلفت انتباه إيزابيل لذلك.

قال لها في أحد الأيام، ليس بخصوص موضوع معين في الوقت الراهن، لكن بنبرة تأنٍّ بالغ خالية من كل فظاظة وحشية: (أنتِ بالتأكيد غير موفَّقة في رفاقكِ. أتمنى أن تصنعي مجموعة جديدة. يبدو وكأنكِ تجشمتِ عناء التقاط الناس في العالم الذين ليس لدي معهم أشياء مشتركة. فابن خالتكِ أراه دائماً كحمار متعجرف ـ إلى جانب كونه أكثر الحيوانات التي أعرفها بشاعة. ثم إنه من المزعج بشكل لا يُحتمل أن لا يستطيع المرء أن يخبره بذلك؛ إذ على المرء أن يرحمه بسبب صحته. يبدو لي بأن صحته هي أفضل جانبٍ فيه؛ فهي تمنحه امتيازات لا يتمتع بها أحدٌ آخر. إن كان مريضاً بشكلٍ ميؤوسٍ منه، فهناك طريقة واحدة لإثبات ذلك، لكنه يبدو بأنه لا يهتم بذلك. لا أستطيع أن

أقول أكثر من ذلك عن واربيرتون العظيم. فعندما يفكر المرء حقاً بالأمر يرى أن الوقاحة الباردة لتلك التمثيلية كانت شيئاً غريباً! يأتي وينظر إلى ابنة الرجل وكأنها مجموعة شقق؛ يختبر مقابض الأبواب ويراقب من النوافذ، يطرق على الجدران ويعتقد تقريباً بأنه سيأخذ المكان. هلا تكرمْتَ وحددتَ الإيجار؟ ثم بعد ذلك، يقرر عموماً أن الغرف صغيرة جداً؛ لا يعتقد أنه يستطيع العيش في الطابق الثالث؛ يجب عليه أن يبحث عن طابقٍ أفضل. ثم يغادر بعد أن سكن شهراً في الشقة الصغيرة المسكينة مقابل لا شيء. رغم ذلك، فإن الآنسة ستاكبول هي اختراعكِ الأكثر روعة. إنها تدهشني كنوعٍ من الوحوش، إذ لا يملك المرء عصباً في جسده لا تجعله يرتجف. تعلمين بأنني لا أعترف أبداً بأنها امرأة. هل تعلمين بِمَ تُذكّرني؟ بقلمٍ معدني جديد... أكثر شيء غرابة في الطبيعة. إنها تتحدث كما يكتب القلم المعدني. بالمناسبة، أليست رسائلها على ورق مخطط؟ إنها تفكر وتتحرك وتمشي وتنظر مثلما تتحدث تماماً. ربما ستقولين بأنها لا تؤذِيني لأنني لا أراها. أنا لا أراها، لكنني أسمعها؛ أسمعها طوال اليوم. فصوتها في أذني، لا أستطيع التخلص منه. أعرف تماماً ماذا تقول، وكل تغيير في النبرة التي تقول بها ذلك. إنها تقول أشياء رائعة عني تمنحكِ ارتياحاً كبيراً. لا أحب مطلقاً أن أتخيل بأنها تتحدث عني.. إذ أشعر كما سأشعر عندما أعرف بأن الخادم كان يرتدي قبعتي).

لقد تحدثت هنرييتا عن جيلبرت أوزموند، كما أكدت له زوجته، لكن بشكل أقل مما يظن.

كان لديها الكثير من المواضيع الأخرى أعتقد أن القارئ مهتم باثنين منها بشكلٍ خاص:

لقد أبلَغَتْ صديقتها بأن كاسبار غودوود قد اكتشف بنفسه بأنها كانت تعيسة، رغم أن براعتها في الحقيقة كانت عاجزة على أن تشير إلى مقدار العزاء الذي تمنى أن يمنحه لها بالمجيء إلى روما ومع ذلك لا يزورها.

لقد قابلتاه مرتين في الشارع، لكن لا يبدو بأنه قد رآهما؛ فقد كانتا تتجولان بالعربة، وهو كانت له عادةُ النظر بشكلٍ مستقيم أمامه وكأنه يعتزم على اختيار شيء واحد فقط في وقت واحد.

تمكنت إيزابيل من أن تتخيل بأنها رأته في اليوم السابق. لا بدّ أنه كان تماماً بذلك الوجه وتلك المشية التي خرج بها من باب السيدة تاتشيت عند انتهاء مقابلتهما الأخيرة. كان مرتدياً تماماً مثلما كان يرتدي في ذلك اليوم. تذكرت إيزابيل لون ربطة عنقه، وأيضاً برغم مظهره المألوف، كان هناك شيء غير مألوف في شكله أيضاً، شيء جعلها تشعر مجدداً بالخوف قليلاً من مجيئه إلى روما. لقد بدا أكثر ضخامة وأكثر طولاً من قبل، وفي تلك الأيام قد وصل بالتأكيد إلى الطول الكافي. ولاحظت أن الناس الذين يمر بهم ينظرون إلى الوراء خلفه. لكنه يذهب إلى الأمام بشكل مستقيم رافعاً نحوهم وجهاً شبيهاً بسماء شباط.

كان الموضوع الآخر للآنسة ستاكبول مختلفاً تماماً؛ لقد منحت إيزابيل آخر الأخبار عن السيد بانِلِنْج. كان مسافراً خارج البلاد في الولايات المتحدة العام السابق، وكانت سعيدة لتقول بأنها كانت قادرة على إيلائه اهتماماً كبيراً. لم تعلم كم استَمتَعَ بذلك، لكنها كانت ستلجأ إلى القول بأن ذلك حسّن مزاجه. لم يكن عندما غادر الرجل نفسه الذي كانه عندما أتى. فقد فتح ذلك عينيه وبيّن له بأن إنجلترا لم تكن كل شيء. كان محبوباً كثيراً جداً في معظم الأماكن، ورأوه بسيطاً للغاية ـ أكثر بساطة مما كان يُعتَقَد عن الإنجليز عادةً. كان هناك أناس يرونه متصنعاً؛ لم تعلم فيما إذا قصدوا أن بساطته كانت تصنُّعاً. كانت بعض أسئلته محبِطة؛ فقد ظن أن كل الخادمات هن بنات الفلاحين ـ أو كل بنات الفلاحين هن خادمات ـ لم تستطع أن تتذكر بالضبط أيهما.

لم يكن يبدو أنه كان متمكناً من فهم النظام العظيم للمدارس؛ فقد كان فعلاً كثيراً جداً عليه. على العموم، كان يتصرف وكأن هناك الكثير جداً من

كل شيء ـ وكأنه تمكّن فقط من اختيار جزء قليل. كان الجزء الذي اختاره هو نظام الفنادق والملاحة في الأنهار. لقد بدا مفتوناً حقاً بالفنادق؛ إذ التقطَ صورةً لكل فندق زاره. لكن البواخر النهرية كانت اهتمامه الرئيسي؛ فلم يرغب بفعل شيء سوى الإبحار على القوارب الكبيرة. سافرا سوية من نيويورك إلى ميلواكي، توقفا عند أكثر المدن إثارة للاهتمام على الطريق؛ وكلما ينطلقان ثانيةً يريد أن يعرف فيما إذا كان يمكن الذهاب بواسطة الباخرة. لقد بدا أنه لا يملك فكرة عن الجغرافيا ـ إذ كان لديه انطباع أن بالتيمور كانت تقع غرب أميركا وكان يتوقع دائماً أن يصل إليها عن طريق المسيسيبي. وبدا أنه لم يسمع أبداً بأي نهر في أميركا سوى المسيسيبي، وكان متفاجئاً لمعرفته وجود نهر هدسون، وإن اضطرَّ في النهاية إلى الاعتراف بأنه كان مماثلاً تماماً لنهر الراين.

كانا قد أمضيا بضع ساعات مريحة في عربات النوم[1]، وكان يطلب دائماً المثلجات من الرجل الزنجي. لم يتمكن من الاعتياد على هذه الفكرة ـ فكرة أن تحصل على المثلجات داخل عربات القطار. أنت لا تستطيع طبعاً أن تحصل على ذلك، ولا على المراوح، ولا على الحلوى، ولا على أي شيء في عربات القطار الإنجليزية!

وجد الحرارة طاغية جداً، فأخبرَتْهُ بأنها في الواقع توقعت بأن تكون الأعظم التي شعر بها. إنه موجودٌ الآن في إنجلترا، يصطاد ـ «يصطاد في الأرجاء» ـ كما أطلقت هنرييتا على ذلك. إن وسائل التسلية تلك هي وسائل الهنود الحمر، وقد تركنا متعة المطاردة هذه وراءنا منذ مدة طويلة. يبدو لي أنه يُعتَقَد في إنجلترا بشكلٍ عام بأننا نرتدي التوماهوك[2] والريش؛ لكن زيّاً كهذا كان

---

(1) عربات النوم: هي عربات قطار مزودة فقط بأسرّة لتجعل نوم المسافرين مريحاً. اخترعها الأميركي جورج بولمان. (المترجمة)

(2) التوماهوك: هي الفؤوس التي يستعملها الهنود الحمر. (المترجمة)

يتماشى أكثر مع العادات الإنجليزية. لن يكون للسيد بانِلْنج الوقت ليلحق بها في إيطاليا، لكن في حال إن ذهبَتْ إلى باريس ثانيةً فيتوقع أن يلحق بها هناك. إذ رغب كثيراً جداً أن يرى فيرساي ثانيةً، فقد كان مولعاً جداً بالعهود القديمة. لم يتفقا بشأن ذلك، لكن ذلك هو ما أحبَّتْ فيرساي من أجله، وهو أنه يمكنكَ رؤية أن العهود القديمة قد مُحيت. ولم يعد هناك دوقات وماركيزات الآن؛ لقد تذكّرَتْ على خلاف ذلك يوماً ما، عندما كان يوجد هناك خمس عوائل أميركية تتجول كلها في الأرجاء. كان السيد بانِلْنج متلهفاً جداً لأن تتناول ثانيةً موضوع إنجلترا، وتصوَّرَ بأنها قد تنسجم بشكل أفضل معها الآن؛ فإنجلترا قد تغيرت كثيراً خلال سنتين أو ثلاث. كان عازماً إن هي ذهبَتْ إلى هناك أن يذهب لرؤية أخته السيدة بينسل، وأن هذه المرة يجب أن تصل الدعوة لها مباشرةً. فاللغز بشأن تلك الدعوة الأخرى لم يُفَسَّر أبداً.

وصل كاسبار غودوود أخيراً إلى قصر روكانيرا؛ فقد كتب رسالةً لإيزابيل سلفاً ليستأذن بذلك. وقد أُجيب على الفور بذلك؛ بأنها ستكون متواجدة في البيت عند الساعة السادسة هذا المساء.

لقد أمضت النهار وهي تتساءل لأجل أي شيء كان آتياً ـ ما الفائدة التي يتوقع أن يحصل عليها من ذلك. فلحدّ الآن كان قد قدّم نفسه كشخصٍ فاقدٍ لقدرة المصالحة، شخصٍ كان سيأخذ ما يريده أو لا يأخذ شيئاً. رغم ذلك، لم يثر ترحيب إيزابيل أية تساؤلات، ولم تجد صعوبة كبيرة بالظهور سعيدة كفاية لتخدعه. فقد كانت مقتنعة على الأقل بأنها خدعَتْهُ وجعلَتْهُ يقول لنفسه بأنه قد تم تضليله. لكنها رأت أيضاً، وكذلك اقتنعتْ، بأنه لم يكن خائب الأمل مثل بعض الرجال الآخرين الذين كانت متأكدة من أنهم سيكونون كذلك؛ فهو لم يكن قد أتى إلى روما ليبحث عن فرصة. لم تكتشف أبداً لأجل أي شيء قد أتى، فهو لم يقدم لها تفسيراً؛ لا يمكن أن يكون هناك سبب سوى السبب البسيط وهو أنه أراد أن يراها. بكلماتٍ أخرى، لقد أتى من أجل الترفيه

عن نفسه. تابعت إيزابيل هذا الاستنتاج بكثيرٍ من اللهفة، وكانت مسرورة لاكتشافها صيغةً كانت ستهدئ من شبح التذمر القديم لهذا الرجل. إن كان قد أتى إلى روما لأجل الترفيه عن نفسه فهذا هو تماماً ما تريده؛ لأنه إن كان حريصاً على الترفيه عن نفسه فمعنى ذلك أنه تغلَّبَ على وجع قلبه. وإن كان قد تغلَّبَ على وجع قلبه، فكل شيء سيكون على ما يرام وستكون مسؤوليتها منتهية. صحيح أنه احتمَلَ شفاءَه بصلابة قليلاً، إلا أنه لم يكن أبداً ضعيفاً وليّناً، وكان لديها كل الأسباب لكي تؤمن بأنه كان راضياً بما لاقاه. لم يكن يثق بهنرييتا رغم أنها تثق به، وبالنتيجة لم تتوصل إيزابيل إلى معلومة واضحة بشأن قراره. كان ميّالاً للأحاديث القصيرة في مواضيع عامة؛ لقد تذكّرَتْ بأنها قالت عنه مرة، قبل سنوات: «إن السيد غودوود يخطُب كثيراً لكنه لا يُحاوِر». إنه الآن يخطب كثيراً لكنه يتحاور قليلاً ربما؛ أي اعتماداً على مقدار ما يوجد في روما ليتم التحدث عنه.

لم تكن النيّة من وصوله هي تيسير علاقتها مع زوجها، لأن السيد أوزموند إن لم يكن قد أَحَبَّ أصدقاءها فلن يكون لدى السيد غودوود ذريعة للاهتمام غير أنه أول أصدقائها. ولن يتبقّى لديها شيء لتقوله عنه إلّا أنه كان أقدمهم؛ فهذا الكلام الهزيل قليلاً سيعالج الأحداث. لقد كانت مضطرة إلى تقديمه لجيلبرت، إذ كان من المستحيل أن لا تدعوه إلى العشاء، إلى أمسيات الخميس التي أصبحت مرهَقة جداً منها والتي لا يزال زوجها يقيمها ليس إلى حدٍّ كبير لأجل دعوة الناس بقدر ما هو لأجل عدم دعوتهم.

حضر السيد غودوود إلى أمسيات الخميس بشكلٍ منتظم، بوقار، وبوقتٍ مبكر تقريباً. لقد أظهر احترامه لها بكثير من الرزانة. انتابت إيزابيل من حينٍ لآخر لحظات من الغضب؛ فقد كان هناك شيء ركيك بشأنه؛ لقد فكّرتْ بأنه قد يعرف بأنها لا تعلم ماذا تفعل به. لكنها لم تستطع أن تطلق عليه بليداً؛ فهو لم يكن كذلك مطلقاً؛ لقد كان فقط بريئاً بشكل فوق العادي. أن تكون بريئاً

بهذا الشكل، يجعل الإنسان مختلفاً جداً عن معظم الناس؛ إذ على المرء أن يكون بريئاً معه قليلاً على نحوٍ مماثل. لقد كوّنَتْ هذه الفكرة الأخيرة في الوقت نفسه الذي كانت تمتدح فيه نفسها بأنها أقنعَتْهُ بأنها كانت أكثر النساء خلوّاً من الهمّ. لم يُلْقِ أبداً أي شك على هذه النقطة، ولم يسألها أبداً أية أسئلة شخصية. لقد انسجم مع أوزموند أفضل بكثير مما بدا ممكناً. كان لدى أوزموند كرهٌ كبير في أن يُعَوَّلَ عليه؛ إذ إن في حالةٍ كهذه كان لديه رغبة لا تقاوَم بتخييب أملكَ. وكان بناءً على هذا المبدأ، سلّى نفسه بالإعجاب بعمودٍ من بوسطن والذي تأكّدَ من أن يعامله بفتور.

سأل إيزابيل فيما إذا كان السيد غودوود أيضاً راغباً بالزواج منها، وأبدى دهشته من عدم قبولها به؛ إذ كان سيصبح ذلك حدثاً مميزاً كالعيش تحت برج أجراس طويل قليلاً كان سيدقّ كل الساعات ويعمل اهتزازاً غريباً في الغلاف الجوي. لقد صرَّحَ بأنه يودُّ أن يتحدث مع غودوود العظيم؛ فلم يكن ذلك سهلاً في البداية، إذ كان عليكَ أن تتسلق سلّماً شاهقاً بلا نهاية صعوداً إلى قمة البرج؛ لكن عندما تصل إلى هناك ستحظى بمشهدٍ واسع وتشعر بنسيمٍ منعشٍ قليلاً.

كان لدى أوزموند ـ كما نعلم ـ أرستقراطية جذّابة، وقد أظهرها كلها لكاسبار غودوود بالتفصيل. تمكنتْ إيزابيل من أن ترى السيد غودوود وهو يظنّ حسناً بزوجها أفضل مما تمنّى يوماً؛ وقد منحها ذلك في الصباح في فلورنسا انطباع كونه لا يُكَوِّنُ انطباعاً جيداً.

دعاه جيلبرت بشكلٍ متكرر إلى العشاء، ودخّنَ السيد غودوود السيجار معه بعد ذلك، وحتى رغب بأن يريه مجموعته الفنية. قال جيلبرت لإيزابيل بأنه كان أصيلاً جداً؛ فقد كان قوياً وذا طرازٍ جيد كالحقيبة الإنجليزية ـ فقد احتوى على الكثير من الأحزمة والأبازيم التي ما كانت لتتهرأ، وقفلاً كبيراً ناصعاً.

أُخِذَ كاسبار غودوود في جولة في بلدة كامباجنا وكرّس وقتاً كبيراً لهذه الممارسة؛ لذا كان الوقت مساءً عندما رأته إيزابيل. لقد تذكّرَتْ قولها له في أحد الأيام إن كان راغباً بتقديم خدمة لها. ثم أضافت مبتسمةً: (مع ذلك، لا أدري ما الحقُّ الذي أملكه لأطلب منكَ خدمة).

أجاب: (أنتِ الشخص الوحيد في العالم الذي لديه كل الحق بذلك).

ـ (أنا أمنحكَ ثقةً لا أمنحها لأي أحدٍ آخر).

كانت الخدمة هي أن يذهب ويرى ابن خالتها رالف الذي كان مريضاً في فندق باريس، لوحده، وأنْ يكون لطيفاً معه قدر الإمكان. لم يكن السيد غودوود قد رآه أبداً، لكنه سيعرف من كان هذا الشخص المسكين؛ فهي إن لم تكن مخطئة فإن رالف قد دعاه مرة إلى جاردن كورت. تذكَّرَ كاسبار الدعوة جيداً، وعلى الرغم من أنه ليس من المفترض أن يكون رجلاً تقليدياً، إلا أن عليه تماماً أن يضع نفسه في مكان الرجل المسكين الذي يرقد محتضراً في فندق روماني.

فقام بزيارة قصيرة لفندق باريس، وعندما أُدخِلَ إلى حيث يوجد مالك جاردن كورت، وجد الآنسة ستاكبول جالسةً بجانب سريره. في الواقع، كان هناك تغيّرٌ فريدٌ قد حصل في علاقة هذه السيدة برالف تاتشيت. إذ لم يُطلَب منها من قبل إيزابيل أن تذهب وتراه، لكن عند سماعها بأنه كان مريضاً جداً من أن يخرج ذهبتْ فوراً من تلقاء نفسها. بعد ذلك قامت بزيارته يومياً ـ بمقتضى قناعةٍ بأنهما كانا عدوّين لدودين.

اعتاد رالف أن يقول: (أوه نعم، نحن عدوّان حميمان).

واتهمها بطلاقة ـ بقدر ما تسمح به الدعابة ـ بالمجيء لإقلاقه حتى الموت. في الحقيقة، لقد أصبحا صديقين رائعين، وإن هنريتا مندهشة كثيراً من أنها لم تحبه من قبل. لقد أحبَّها رالف تماماً بقدر ما فعل دائماً، فهو لم يشكّ للحظة بأنها كانت رفيقة ممتازة. تحدثا عن كل شيء، واختلفا أيضاً؛

أي عن كل شيء عدا إيزابيل ـ فهي موضوع يحذَرُ دائماً من الكلام فيه. من ناحية أخرى، تبيَّنَ أن السيد بانِلِنْج مصدرٌ للمعلومات؛ إذ كان رالف قادراً على يتحدث عن السيد بانِلِنْج مع هنريتا لساعات. كان الحديث قد أُثير طبعاً باختلافهما الحتمي في الآراء ـ فقد تفكَّهَ بتبنِّي حقيقة أن الفارس السابق اللطيف كان ميكيافيليّاً أصولياً. لم يستطع كاسبار غودوود المساهمة في جدالٍ كهذا؛ لكن بعد أن تُرِكَ مع مضيّفه، اكتشفَ بأن هناك مواضيع متنوعة أخرى يمكنهما أن يخوضا فيها. يجب أن أعترف أن السيدة التي خرجت للتوّ لم تكن واحدةً منها؛ لقد اعترف كاسبار بكل مميزات الآنسة ستاكبول مقدماً، لكن لم يكن لديه ملاحظة أخرى ليبديها عنها. لم يسهب أي من الرجلين، بعد التلميحات الأولى، بشأن السيدة أوزموند ـ وهو موضوعٌ شعر غودوود بأن فيه الكثير من المحاذير مثلما شعر رالف بذلك. لقد شعر بالأسف الشديد تجاه هذه الشخصية غير القابلة للتصنيف؛ فهو لم يحتمل رؤية رجل مرح، مرح جداً مع كل غرابته، لا يوجد مجال لفعل شيء من أجله. فبالنسبة للسيد غودوود، يوجد هناك دائماً شيء ما لفعله، وقد فعله في هذه الحالة بتكرار زيارته لفندق باريس عدة مرات. لقد بدا لإيزابيل بأنها كانت بارعة جداً؛ فقد تخلصت بدهاء من كاسبار الذي لا لزوم له. لقد منحَتْهُ شيئاً ينشغل به؛ إذ حوَّلَتْهُ إلى القائم بأعمال رالف. كان لديها خطة بجعله يسافر إلى الشمال مع ابن خالتها حالما يسمح الطقس المعتدل بذلك. لقد جلب اللورد واربيرتون رالف إلى روما وعلى السيد غودوود أن يذهب به. بدا أن في ذلك تناسقاً بهيجاً، وكانت الآن متشوقة بشدة من أن يغادر رالف. فقد كان لديها خوفٌ مستمر من أن يموت هنا أمام عينيها، ورُعْبٌ حصول ذلك الحدث في فندقٍ قرب منزلها الذي كان نادراً جداً ما دخله. يجب على رالف أن يأفل إلى مثواه الأخير في منزله الذي يحبه، في واحدةٍ من تلك الحجرات الداكنة، المعتمة لجاردن كورت حيث يتجمّع اللبلاب المعتم حول حافات النافذة اللامعة. بدا لإيزابيل في هذه الأيام أن هناك شيئاً مخيفاً في جاردن كورت؛ إذ لا يوجد

فصل من الماضي لا يُعَوَّض تماماً. فعندما فكرت بالشهور التي أمضتها هناك، بزغت الدموع في عينيها.

لقد امتدحتْ نفسها، كما ذكرتُ، لبراعتها، لكن أصابها الضيق من كل ما تمكنَتْ من استقطابه؛ لأنه قد وقعت عدة أحداث بدت تواجهها وتتحداها: إذ وصلت الكونتيسة جيميني من فلورنسا ـ وصلت بصناديقها، ثيابها، ثرثرتها، أكاذيبها، عبثها، والأسطورة الغريبة والساخرة لعدد عشّاقها؛ وعاد السيد غوزييه ـ الذي كان غائباً في مكانٍ ما لا أحد يعلم أين ولا حتى بانسي ـ للظهور في روما وبدأ يكتب لها رسائل طويلة والتي لم تجب عليها أبداً؛ وعادت مدام ميرليه من نابولي وقالت لها بابتسامةٍ غريبة: (ما الذي فعلتِهِ بحق السماء باللورد واربيرتون؟) وكأنّه كان شأناً يخصّها!.

***

الفصل 48

في أحد الأيام، عند نهاية شهر شباط، قرر رالف أن يعود إلى إنجلترا. كانت لديه أسبابه لهذا القرار والتي لم يكن ملزماً بأن يفشيها؛ لكن هنرييتا ستاكبول التي ذكر لها ما عزم عليه، داهنت نفسها بأنها قد خمَّنَتْها. رغم ذلك، فقد امتنعت عن أن تفصح عنها؛ وقالت فقط بعد برهة عندما جلست بجانب سريره: (أعتقدُ بأنكَ تعلم بأنه لا يمكنكَ الذهاب لوحدكَ؟).

أجاب رالف: (ليست لدي فكرة أن أفعل ذلك. سأحظى بأناسٍ معي).

ـ (ما الذي تعنيه بـ «أناس» ؟ الخدم الذين تدفع لهم؟).

قال رالف بشكلٍ مازح: (آه، في النهاية، فهم كائنات بشرية).

أرادت الآنسة ستاكبول أن تعرف: (هل من بينهم نساء؟).

ـ (تتحدثين وكأنّ لدي الكثير منهن! كلا، أعترف بأن ليس لدي خادمة في مجموعة العاملين لدي).

قالت هنرييتا بهدوء: (حسناً، لا يمكنكَ أن تذهب إلى إنجلترا بهذه الطريقة. لا بدّ أن تحظى بعناية امرأة).

ـ (لقد حظيتُ بالكثير جداً من عنايتكِ في الأسبوعين الأخيرين بحيث ستدوم لوقتٍ طويل).

قالت هنرييتا: (لم تَحْظَ منها بما يكفي. أفكر بأن أذهب معكَ).

رفع رالف نفسه من على سريره ببطء.

ـ (تذهبين معي؟).

ـ (نعم. أعرفُ بأنكَ لا تحبني، لكنني سأذهب معكَ على الرغم من ذلك. سيكون من الأفضل لصحتكَ أن تستلقي ثانيةً).

نظر رالف إليها قليلاً؛ ثم تراجع ببطء.

قال بسرعة: (أنا أحبكِ كثيراً جداً).

أطلقت هنرييتا واحدة من ضحكاتها الغريبة.

ـ (أنتَ لا تحتاج إلى أن تعتقد بأن بقولكَ ذلك يمكنكَ أن ترشوني. سوف أذهب معكَ، وما هو أكثر من ذلك هو أن أعتني بكَ).

قال رالف: (أنتِ امرأة طيبة جداً).

ـ (انتظِرْ حتى أوصلكَ إلى البيت بأمان قبل أن تقول ذلك. لن يكون الأمر سهلاً. لكن من الأفضل لكَ أن تذهب، برغم ذلك).

قال رالف لها قبل أن تتركه: (هل تقصدين حقاً بأنكِ ستعتنين بي؟).

ـ (حسناً، أقصدُ أن أحاول).

ـ (إذن أبلغكِ بأنني أخضع. أوه، أنا أخضع!).

ربما كانت علامة الخضوع أن قام بعد بضع دقائق من تركها له لوحده إن انفجَرَ في نوبة ضحك عالية. لقد بدا له لاعقلانياً للغاية أن يبدأ رحلةً عبر أوروبا تحت إشراف الآنسة ستاكبول، فذلك دليل حاسم على تخليه عن كل الأعمال وإقلاعه عن كل ممارسة. والغرابة الكبيرة هي أن المشهد قد سرّه؛ فقد كان كسلان بامتنان وبترف، وقد شعر بأنه لا يطيق حتى الانتظار لبدء الرحلة. في الحقيقة، كان لديه تطلع كبير ليرى منزله ثانيةً، فنهاية كل شيء كانت قريبة. لقد بدا له بأنه يمكنه أن يمدَّ ذراعه ويلامس الهدف. لكنه أراد أن يموت في البيت؛ كانت تلك هي الأمنية الوحيدة التي تركها ـ وهي أن يبسط نفسه في الغرفة الكبيرة الهادئة حيث كان قد رأى والده راقداً فيها، وأنْ يغمض عينيه عند مطلع الصيف.

في اليوم نفسه، أتى كاسبار غودوود لرؤيته، وأخبر ضيفَه بأن الآنسة ستاكبول قد تولَّتْ أمره وستعيده إلى إنجلترا.

قال كاسبار: (آه، إذن، أخشى بأنني سأكون العجلة الخامسة في العربة، فقد جعلَتْني السيدة أوزموند أن أعدها بأن أذهب معكَ).

ـ (يا اللّه... إنه العصر الذهبي! أنتم كلكم لطفاء جداً).

ـ (إن اللطف الذي من جانبي يُعزى لها؛ إذ بالكاد يُعزى لكَ).

ابتسم رالف.

ـ (أتقبَّلُ ذلك. إنها لطيفة).

أجاب غودوود بدون أن يسترسل في المزاح: (بجعل الناس تذهب معكَ؟ نعم، ذلك نوع من اللطف).

ثم أضاف: (رغم ذلك، فعن نفسي، سأذهب طالما ستقول بأنني سأفضّل كثيراً أن أسافر معكَ ومع الآنسة ستاكبول بدلاً من أن أسافر مع الآنسة ستاكبول فقط).

قال رالف: (وكنتَ ستبقى بدلاً من أن تأتي أيضاً. ليس هناك حقاً حاجة لمجيئكَ، فهنريتا بارعة بشكلٍ رائع).

ـ (أنا متأكد من ذلك. لكنني وعدتُ السيدة أوزموند).

ـ (يمكنكَ بسهولة أن تستغلها لتعفيكَ).

ـ (من المستحيل أن تعفيني. فهي تريدني أن أعتني بكَ، لكن ليس ذلك هو الشيء الأساسي. إن الشيء الأساسي هو أنها تريد مني أن أغادر روما).

لمَحَ رالف: (آه، لقد فهمتَ الموضوع جيداً).

واصل غودوود الكلام: (لقد سئمتُ منها. إذ ليس لديها شيء تقوله لي، لذا اختَرَعَتْ ذلك).

أضاف رالف بسرعة: (أوه، إذن، إن كان ذلك يريحها فسآخذكَ معي بالتأكيد. مع ذلك، لا أفهم لِمَ يجب أن يكون ذلك مريحاً لها).

قال كاسبار غودوود ببساطة: (حسناً، إنها تعتقد بأنني أراقبها).

ـ (تراقبها؟).

ـ (أنْ أحاول أن أستنتج فيما إذا كانت سعيدة).

قال رالف: (من السهل استنتاج ذلك. إنها أكثر امرأة رأيتُها سعيدة ظاهرياً).

أجاب رالف بتحفّظ: (أنا مقتنع بذلك تماماً).

مع ذلك، برغم كل تحفّظه، كان لديه الكثير ليقوله: (لقد كنتُ أراقبها؛ فقد كنتُ صديقاً قديماً وقد بدا لي بأنني على حق. إنها تتظاهر بالسعادة، فذلك هو ما اضطلعَتْ لتقوم به، وقد اعتقدتُ بأنني أودُّ أن أرى بنفسي إلامَ يؤدي ذلك).

فواصل كلامه بنبرة قاسية في صوته: (ولقد رأيتُ. ولا أريد أن أرى المزيد. وأنا الآن مستعد تماماً للذهاب).

ردّ رالف: (هل تعلم بأنه يدهشني الوقت الذي وددتَ فيه أن ترى بنفسكَ إلامَ يؤدي ذلك؟).

كانت تلك هي المحادثة الوحيدة التي خاضها هذان الرجلان بشأن إيزابيل أوزموند.

اتخذت هنرييتا استعداداتها للمغادرة، واكتشفَتْ في خضمّ ذلك أنه من الملائم أن تقول بضع كلمات للكونتيسة جيميني التي ردّت في فندق الآنسة ستاكبول الزيارة التي أدّتها لها هذه السيدة في فلورنسا.

قالت للكونتيسة جيميني: (لقد كنتِ مخطئة جداً بشأن اللورد. أعتقد أن من الصواب أن تعلمي ذلك).

صاحت الكونتيسة: (بشأن تودده لإيزابيل؟ يا سيدتي المسكينة، لقد كان في منزلها ثلاث مرات في اليوم. لقد ترك آثاراً من رحلته!).

ـ (لقد رغب أن يتزوج من ابنة أخيكِ؛ ذلك هو سبب مجيئه للمنزل).

حدّقت الكونتيسة، ثم قالت بضحكة مستهترة: (هل هذه هي القصة التي ترويها إيزابيل؟ إنها ليست سيئة طالما تسير الأمور. لو كان يرغب بالزواج من ابنة أخي، أرجوكِ فلِمَ لم يفعل ذلك؟ ربما ذهب ليشتري خاتم الزواج وسيعود به الشهر القادم، بعد رحيلي).

ـ (كلا، لن يعود. فالآنسة أوزموند لم ترغب بالزواج منه).

ـ (إنها مجامِلة جداً! كنتُ أعرف بأنها معجبة بإيزابيل، لكنني لم أعلم بأنها أوصلَت الموضوع إلى هذا الحد).

قالت هنرييتا ببرود وهي تفكر بأن الكونتيسة كانت حمقاء بشكلٍ غير مريح: (أنا لا أفهمكِ. فأنا يجب عليّ حقاً أن أتشبث بوجهة نظري... وهي أن إيزابيل لم تستمِل اهتمام اللورد واربيرتون).

ـ (يا صديقتي العزيزة، ما الذي نعرفه أنا وأنتِ عن الأمر؟ كل ما نعرفه هو أن أخي يستحق كل شيء).

قالت هنرييتا بوقار: (أنا لا أدري ما الذي يستحقه أخوكِ).

ـ (ليس تشجيعها للورد واربيرتون هو ما أشتكي منه، بل إبعاده. أريد أن أراه على وجه الخصوص. هل تعتقدين بأنها تصورَتْ بأنني سأجعله خائناً؟).

ثم واصلت الكونتيسة حديثها بإصرار متهور: (مع ذلك، فهي تتجنبه فقط. يمكن للمرء أن يشعر بذلك. إن البيت غاصٌّ به هناك؛ إنه موجودٌ في جوّ البيت تماماً. أوه، نعم، لقد ترك آثاراً؛ أنا متأكدة بأنني سأراه في النهاية).

قالت هنرييتا بعد قليل بواحدةٍ من تلك الإلهامات التي جعلتْ رسائلها إلى الإنترفيور ناجحة: (حسناً، ربما سيكون موفقاً معكِ أكثر مما هو مع إيزابيل!).

عندما أخبرت صديقتها بالعرض الذي قدّمَتْهُ لرالف، أجابت إيزابيل بأنها لا يمكنها فعل شيء سيسعدها أكثر. فقد كانت مؤمنة دائماً بأن رالف وهذه الشابة أساساً قد خُلقا ليفهم أحدهما الآخر.

صرحت هنرييتا: (أنا لا أهتم فيما إذا كان يفهمني أم لا. لكن الشيء المهم هو أنه لا يجب أن يموت في عربات القطار).

قالت إيزابيل وهي تهزّ رأسها بمزيدٍ من الإيمان: (إنه لن يموت بهذه كذلك).

ـ (لن يموت لو تمكنتُ من احتمال الأمر. أرى بأنكِ تريدين منا كلنا أن نرحل. لا أدري ماذا تريدين أن تفعلي؟).

قالت إيزابيل: (أريد أن أكون لوحدي).

ـ (لن تكوني كذلك طويلاً طالما لديكِ ضيوف كثيرون جداً في المنزل).

ـ (آه، إنهم جزء من تمثيلية كوميدية. وأنتِ والآخرون متفرجون).

سألت هنرييتا بتجهّمٍ قليلاً: (هل تسمين ذلك تمثيلية كوميدية يا إيزابيل آرتشر؟).

ـ (تمثيلية مأساوية إذن لو أحببتِ. وأنتم كلكم تتفرجون علي. إن ذلك يجعلني متضايقة).

اندمجت هنرييتا في هذا الدور لوهلة، ثم انفجرت في الكلام: (أنتِ تشبهين الغزال المجروح وهو يبحث عن أعمق عتمة. أوه، أنت فعلاً تمنحينني إحساساً بالعجز!).

ـ (أنا لستُ عاجزة مطلقاً. فهناك الكثير من الأشياء التي أنوي فعلها).

ـ (لستِ أنت من أتحدث عنه؛ بل عن نفسي. فأنْ أتركك مثلما وجدتُكِ تماماً بينما أتيتُ لغرضٍ ما، لَهُوَ أمرٌ يتجاوز الحدّ).

قالت إيزابيل: (أنتِ لا تفعلين ذلك، بل أنت تتركينني وأنا منتعشة كثيراً).

ـ (انتعاشٌ خفيفٌ جداً...ليموناضة رديئة! أريدكِ أن تعديني بشيء).

ـ (لا يمكنني أن أفعل ذلك. لن أعد بشيءٍ آخر أبداً. لقد وعدتُ قبل أربع سنوات وعداً كئيباً وقد نجحتُ بصعوبة جداً في الإيفاء به).

ـ (لم يكن لديكِ ما يشجعكِ. أما في هذه الحالة، فيجب علي أن أمنحكِ أكبر تشجيع. اتركي زوجكِ قبل أن يحل ما هو أسوأ؛ ذلك هو ما أريدكِ أن تعديني به).

ـ (الأسوأ؟ ما هو الذي تسمينه الأسوأ؟).

ـ (قبل أن تَفسدَ شخصيتكِ).

أجابت إيزابيل مبتسمة: (هل تعنين أخلاقي؟ إنها لن تفسد. فأنا أعتني بها جيداً).

ثم أضافت وهي تبتعد: (أنا مندهشة للغاية من الطريقة الارتجالية التي تتحدثين بها عن تَرْكِ امرأةٍ لزوجها. من السهولة جداً رؤية سبب عدم حصولكِ على واحدٍ أبداً!).

قالت هنرييتا وكأنها كانت تبدأ جدالاً: (حسناً، لا يوجد شيء اعتيادي في مدن غربنا الأميركي أكثر من ذلك، والى هذه المدن يجب أن ننظر في المستقبل).

رغم ذلك، لم يكن جدالها يتعلق بهذه القصة التي تمتلك خيوطاً أخرى يجب فكّها.

أعلنت لرالف تاتشيت بأنها مستعدة لمغادرة روما بأي قطار يختاره، واستجمع رالف على الفور قواه للمغادرة.

ذهبت إيزابيل لرؤيته في اللحظة الأخيرة، وأبدى التلميح نفسه الذي أبدته هنرييتا. لقد أدهشه أن إيزابيل كانت مسرورة بشكلٍ غير معتاد لأنها ستتخلص منهم جميعاً. استجابةً لكل ذلك، وضعتْ يدها برفقٍ على يده وقالت بنبرة منخفضة وبابتسامة سريعة: (عزيزي رالف...!).

كانت إجابة كافية، وكان مقتنعاً بها تماماً. لكنه واصل الكلام بالطريقة نفسها، أي بمزاح وبراءة: (لقد رأيتُكِ أقل مما أستطيع، لكنه أفضل من أن لا أراكِ. ثم إنني سمعتُ الكثير عنكِ).

ـ (لا أدري مِمَّنْ وأنتَ تعيش الحياة التي عشتَها).

ـ (من فم الهواء! أوه، ليس من أحدٍ آخر. لم أسمح للناس بأن تتكلم عنكِ. إنهم يقولون دائماً بأنكِ «فاتنة»، وذلك لطيفٌ جداً).

قالت إيزابيل: (ربما سأزوركَ أكثر بالتأكيد. لكن عندما يتزوج المرء فسينشغل كثيراً).

ـ (أنا لستُ متزوجاً لحسن الحظ. عندما تأتين لزيارتي في إنجلترا، سأكون قادراً على تسليتكِ بكل حريةِ العازب).

استمرَّ في الحديث وكأنهما سيلتقيان ثانيةً بشكلٍ أكيد، واستمرَّ في جعل هذا الاعتقاد يظهر بأنه صائب قليلاً. لم يلمّح إلى أن أوانه كان قريباً، لاحتمالية عدم صموده لفصل الصيف. كانت إيزابيل تلقائية تماماً عندما رجّحَ أن الأمر كذلك؛ فالحقيقة كانت واضحة بشكلٍ كافٍ بدون أن يحذرا من ذلك أثناء الحديث. كان ذلك مستحسَناً جداً في البداية، رغم أن رالف لم يكن أنانياً بخصوص هذا الموضوع كما في مواضيعه الأخرى. ذكَّرَتْهُ إيزابيل برحلته، بالمحطات التي يجب عليه أن يقسّم بها رحلته، بالمحاذير التي يجب أن يتبعها.

واصل كلامه: (إن هنريتا هي أكبر محاذيري. فضمير هذه المرأة عظيمٌ).

ـ (بالتأكيد ستكون حيّة الضمير للغاية).

ـ (ستكون حيّة الضمير؟ إنها حيّة الضمير بالفعل! لأنها تعتقد أن من واجبها أن تذهب معي. وهناك حسٌّ بالواجب تجاهكِ).

قالت إيزابيل: (نعم، وهو حسٌّ كبير، ويجعلني أشعر بالخجل العميق. إذ يجب أن أذهب معكَ، تعلم ذلك).

ـ (لن يرغب زوجكِ بذلك).

ـ (بلا، لن يرغب بذلك. لكن يمكنني الذهاب برغم ذلك).

ـ (أنا مذعورٌ من جرأة مخيلتكِ. تخيلي أن أصبح سبباً في خلافٍ بين سيدةٍ وزوجها!).

قالت إيزابيل ببساطة ـ وإن ليس بوضوحٍ جداً: (لهذا السبب أنا لا أذهب).

رغم ذلك، فقد فهم رالف جيداً بما يكفي: (كان يجب أن أتخيل ذلك، بكل تلك الانشغالات التي ذكرتِها).

قالت إيزابيل: (ليس هذا هو السبب. أنا خائفة).

بعد أن توقفتْ عن الكلام، كررتْ ـ وكأنها تُسْمِعُ نفسَها بدلاً من أن تُسْمِعَهُ هو ـ الكلمة: (أنا خائفة).

بالكاد تمكّنَ رالف من أن يكتشف ماذا كانت تعني نبرة صوتها؛ فقد كانت بطيئة بشكلٍ غريب ـ خالية جداً من الإحساس بشكلٍ واضح. هل رغبَتْ بعمل كفّارة علنية لأجلِ خطيئةٍ لم تُدَن بها؟ أم هل كانت كلماتها فقط محاوَلة لتحليل ذاتي مستنير؟

أيّاً يكن الأمر، لم يتمكن رالف من مقاومة فرصة سهلة بهذا الشكل، فقال: (خائفة من زوجكِ؟).

قالت وهي تنهض: (خائفة من نفسي!)

وقفتْ هناك للحظة، ثم أضافت: (إن كنتُ خائفة من زوجي فذلك سيكون واجبي ببساطة. فذلك هو ما يُنتَظَر من المرأة أن تكون عليه).

ضحك رالف: (آه، نعم، لكن للتعويض عن ذلك، يوجد دائماً رجلٌ ما يخاف بفظاعة من امرأةٍ ما!).

لم تهتم لهذه المزحة، لكنها فجأة اتخذت منعطفاً آخر؛ إذ صاحت فجأة: (لن يتبقّى شيء للسيد غودوود، وهنرييتا على رأس عصابتكَ الصغيرة!).

أجاب رالف: (آه، يا عزيزتي إيزابيل، إنه معتاد على ذلك. لم يتبقَّ شيء للسيد غودوود).

فاحمَرَّ وجهها، ومن ثم انتبهَتْ وبسرعة بأنها يجب أن تتركه. فوقفا سويةً للحظة ويديها في يديه.

قالت: (لقد كنتَ أفضل أصدقائي).

ـ (كان لأجلكِ أردتُ أن... أردتُ أن أعيش. لكنني لستُ بذي فائدة لكِ).

ثم خطر لها بشكلٍ مؤثر أكثر بأنها لن تراه ثانيةً. لم تستطع أن تتقبَّل ذلك، لم تستطع أن تفارقه بهذه الطريقة، فقالت أخيراً: (إن أرسلْتَ في طلبي فسوف أحضر).

ـ (لن يوافق زوجكِ على ذلك).

ـ (أوه، بلى، يمكنني تدبُّر الأمر).

قال رالف: (سأُبقي تلك مشيئتي الأخيرة!).

فقامت ببساطة بتقبيله رداً على ذلك.

حلَّ يوم الخميس، وأتى كاسبار غودوود ذلك المساء إلى قصر روكانيرا. كان من ضمن أوائل الواصلين، وأمضى بعض الوقت في الحديث مع جيلبرت أوزموند الذي كان دائماً تقريباً حاضراً عندما استُقْبِلَتْ زوجته. جلسا سوية وبدا أوزموند الكثير الكلام، الصريح، المرح، مستغرقاً بنوعٍ من البهجة التأملية. فانحنى للخلف وساقاه متصالبتان، متكئاً ويتحدث، بينما غيَّر غودوود القلِق أكثر وغير المفعم بالحيوية إطلاقاً، موقعه وعبث بقبعته وجعل الأريكة الصغيرة تصدر صريراً. اكتسى وجه أوزموند بابتسامة واضحة وجريئة؛ إذ كان كرجلٍ أُنعِشَتْ أحاسيسه بأخبار سعيدة. قال للسيد غودوود بأنه كان متأسفاً لأنهما سيخسرانه؛ فهو نفسه سيفتقده على وجه الخصوص. وأنه رأى القليل جداً من الرجال الأذكياء ـ إذ إنهم كانوا نادرين في روما بشكل يبعث على الدهشة. وعليه أن يقرر العودة؛ فهناك شيء يبعث على النشاط بالنسبة لإيطالي عريق مثله في التحدث مع غريبٍ أصيل.

قال أوزموند: (أنا معجب جداً بروما، تعلم ذلك، لكن لا يوجد شيء أحبه أكثر من أن ألتقي بأناسٍ ليس لديهم ذلك الخيال. ففي النهاية، يكون الناس المتحضرون قليلين جداً. أنت متحضّر وأيضاً لستَ سوقياً إطلاقاً. فهناك الكثير جداً من المتحضّرين الذين نراهم من هذا النوع الرديء جداً. إن كانوا هم أبناء المستقبل فنفضّل أن نموت مبكراً. إن كبار السن طبعاً مزعجون جداً أيضاً. إنّ زوجتي وأنا نحب كل شيء جديد حقاً... ليس فقط التظاهر بذلك. لا يوجد هناك شيء جديد لسوء الحظ في الجهل والغباء. فنحن نرى الكثير من ذلك بأشكالٍ تقدم نفسها كتجلٍّ من النجاح ومن الكفاح. تَجَلٍّ من السوقية! هناك نوع معين من السوقية والذي أعتقدُهُ جديداً حقاً؛ إذ لا أعتقد بأنه كان يوجد شيء يوماً مثله من قبل. في الحقيقة، لا أجد سوقية مطلقاً قبل القرن الحالي. في النهاية، ترى تهديداً بسيطاً من هنا وهناك، لكن اليوم ازدادَ الأمر شدة بحيث لا يمكن تمييز الأشياء الرقيقة بكل معنى الكلمة. الآن، نحن أحببناك...!).

تردد قليلاً بذلك، واضعاً يده برفق على ركبة غودوود وهو يبتسم بمزيج من الثقة والحرج.

ـ (سوف أقول شيئاً مزعجاً للغاية ومتسامحاً، لكن عليكَ أن تسمح لي بأن أحظى بالاستحسان عليه. لقد أحببناك لأنكَ... لأنكَ صالَحْتَنا قليلاً مع المستقبل. لو يوجد عدد معين من أمثالكَ... في الوقت المناسب! أنا أتحدث بالنيابة عن زوجتي مثلما أتحدث عن نفسي كما ترى. وهي تتحدث بالنيابة عني، أي زوجتي. ولِمَ لا أتحدثُ بالنيابة عنها؟ فنحن، كما تعلم، ملتحمان كالشمعدان ومِطْفَأة الشموع[1]. هل أنا أتوهم كثيراً عندما أعتقد وأقول بأنني فهمتُ منكَ أن عملكَ... كان... تجارياً؟ هناك مخاطر في ذلك كما تعلم، لكن

(1) مطفأة الشموع: هي أداة معدنية على شكل مقبض في نهايته مخروط صغير يستخدم لإطفاء لهب الشمعة. (المترجمة)

الطريقة التي أفلَتَّ بها من ذلك هي ما يدهشنا. اعذرني إنْ بدا إطرائي البسيط بذوقٍ مروِّع؛ فلحسن الحظ أن زوجتي لا تسمعني. ما أقصده هو أنكَ... ما كنتُ أذكره للتوّ. كان العالم الأميركي كله متآمراً لجعلكَ هكذا. لكنكَ قاومتَ، إذ إن لديكَ شيئاً أنقذكَ. والآن أنت متحضّر جداً، متحضّر جداً؛ أكثر الرجال الذين نعرفهم تحضُّراً! سنكون مسرورين دائماً برؤيتكَ ثانيةً).

لقد ذكرتُ بأن أوزموند كان في مزاج جيد، وستمنح هذه الإشارات دليلاً وافياً عن هذه الحقيقة. لقد كانت شخصيّةً تماماً أكثر مما حرص عادةً على أن تكون، وإن كان كاسبار غودوود قد انشغل بهم بشكلٍ وثيق أكثر فذلك لأنه اعتَقَدَ بأن حماية الضعف كانت بين يدين غريبتين قليلاً. رغم ذلك، قد نعتقد بأن أوزموند قد عرف جيداً ما هو موشِكٌ على فعله، وإن اختارَ استخدام نبرة المحاباة بفظاظةٍ ليست من عادته، فلديه سبب متميز لهذا التهوّر.

كان لدى غودوود فقط شعورٌ مبهم بأنه كان يبلغه شيئاً بطريقةٍ ما؛ فبالكاد ميَّزَ موضع الخلط. في الحقيقة، بالكاد عرف عمّا كان يتحدث أوزموند؛ لقد أراد أن يكون لوحده مع إيزابيل، وقد أَنَبّتْهُ تلك الفكرة بصوتٍ أعلى من صوت زوجها المجلجِل. لقد راقبها وهي تتحدث مع أناسٍ آخرين وتساءَلَ متى ستتحرر منهم، وفيما إذا يمكنه أن يطلب منها أن يذهبا إلى إحدى الغرف الأخرى. لم يكن مزاجه من أفضل الأمزجة، كمزاج أوزموند، فقد كان هنالك أثرٌ من انفعالٍ سمج في إدراكه للأمور. فحتى هذا الوقت لم يكره أوزموند شخصياً؛ بل رآه فقط مثقفاً بشكلٍ جيد ومجامِلاً وأكثر مما توقع في الشخص الذي كانت إيزابيل ستتزوجه طبعاً. كان مضيّفه قد أحرز في مضمار الصراحة تفوقاً كبيراً عليه، وكان لدى غودوود حسٌّ قوي جداً باللعب النظيف لاستعداده لاهانته على هذا الأساس. لم يكن قد حاول بشكلٍ أكيد أن يظن به الظن الحسن؛ وكان ذلك هرباً من لطفٍ مؤثرٍ لم يكن غودوود يحتمله تماماً، حتى في الأيام التي كان فيها على وشك أن يتناغم مع ما حدث. لقد تقبّلَهُ كشخصية ذكية قليلاً من النوع الرديء،

والمصابة بفرط الرفاهية التي ألهَتْهُ ليتخلص منها بالحديث المنمّق. لكنه فقط وثق به جزئياً؛ فهو لم يستطع أن يستنتج لِمَ يجود عليه أوزموند الشيطان بتنميقٍ من أي نوع. لقد جعله ذلك يشكّ بأنه وجد تسليةً خاصة في ذلك أسهمَتْ بتكوين انطباعٍ عام، وهو أن لمنافسه المنتصر أثراً من الحماقة في طبيعته. كان يعلم في الحقيقة بأنه لم يكن لدى أوزموند سبب ليتمنى له الشر؛ فليس لديه شيء ليخاف منه. كان قد أحرز تفوقاً عظيماً وتمكّنَ من أن يخاطر ليكون لطيفاً مع رجلٍ كان قد فقد كل شيء.

صحيح أن غودوود تمنى بقسوةٍ أحياناً بأنه لو كان ميتاً ووَدَّ بأن يقتله، لكن لم يكن لدى أوزموند الوسيلة ليعرف ذلك، لأن الخبرة قد جعلت الشاب بارعاً في فن الظهور منيعاً اليوم من أي انفعال عنيف. لقد هذّبَ هذه البراعة لكي يخدع نفسه، لكنه كان قد خدع بها الآخرين أولاً. علاوة على ذلك، فقد هذّبَها بنجاحٍ محدود والذي لا يمكن أن يوجد دليل أفضل منه من الانفعال العميق والصامت الذي سيطر على روحه عندما سمع أوزموند يتحدث عن مشاعر زوجته وكأنه قد أُرسِلَ ليجيب عليها.

كان ذلك هو كل ما فهمه مما قاله له مضيّفُه هذا المساء؛ وشعر بأن أوزموند قد لمَّحَ حتى أكثر من المعتاد بذكر التناغم الزوجي الذي يسود قصر روكانيرا. كان حريصاً أكثر من أي وقت مضى على أن يتحدث وكأنه هو وزوجته لديهما كل شيء في حالة انسجام وأنه من الطبيعي بالنسبة لكل منهما أن يقولا: «نحن» مثلما يقولا: «أنا». كان يوجد في كل هذا مظهر من التصميم حيَّرَ وأغضَبَ رجلنا المسكين الذي من بوسطن، الذي تمكّنَ فقط من أن يفكر ـ ليريح نفسه ـ بأن علاقة السيدة أوزموند بزوجها لم تكن من شأنه. لم يكن لديه بتاتاً دليل على أن زوجها يفتري عليها، وأنْ يحكم عليها من خلال المظاهر، فسيكون ملزماً بأن يؤمن بأنها أحبَّتْ حياتها. فهي لم تُبْدِ له أدنى علامة على الاستياء.

لقد أخبرته الآنسة ستاكبول بأنها كانت قد فقدت غرورها، لكن الكتابة للصحف جعلت الآنسة ستاكبول حساسة؛ إذ كانت مولعة جداً بالأخبار قبل أوانها. علاوة على ذلك، كانت منذ وصولها إلى روما حذرةً كثيراً؛ إذ توقفت تماماً عن أن تومض له بمصباحها. إن ذلك في الحقيقة كان ضد إرادتها تماماً، وهذا يؤسَف له. فقد رأت حقيقة وضع إيزابيل، وقد ألهمها ذلك تحفُّظاً مشروعاً. فأيّاً كان الشيء الذي يمكن فعله لإصلاح الأمر لن يكون الشيء الأكثر نفعاً هو إلهاب عشاقها السابقين بالشعور بأخطائها.

استمرت الآنسة ستاكبول بالاهتمام العميق بحالة مشاعر السيد غودوود، لكنها تُظهر ذلك في الوقت الحاضر فقط بإرسالها له مقتطفات مختارة، فكاهية وغيرها أخرى، من الصحف الأميركية التي تتلقّى منها العديد في كل بريد والتي تتابعها دائماً وفي يدها زوج من المقصات. كانت المقالات التي تقتطعها تضعها في مظروفٍ معنون إلى السيد غودوود، والذي تتركه بيدها في فندقه. لم يسألها أبداً سؤالاً واحداً عن إيزابيل؛ ألم يقطع خمسة آلاف ميل ليرى بنفسه؟ إذن لم يكن مسموحاً له مطلقاً أن يعتقد بأن السيدة أوزوند تعيسة؛ لكن غياب السماح نفسه شكَّلَ إزعاجاً، ومثَّل القسوة التي ـ برغم فكرته بأنه توقَّفَ عن الاهتمام ـ أدركَ بها الآن بأن المستقبل لا يحمل له المزيد طالما كانت معنيّةً بذلك. لم يكن لديه حتى الاكتفاء بمعرفة الحقيقة؛ إذ من الواضح بأنه لن يكون واثقاً بأنه سيحترمها لو كانت تعيسة. لقد كان يائساً، عاجزاً، وعديم الفائدة. لقد لفتت انتباهه لهذه الخاصية الأخيرة من خلال خطتها الذكية في جعله يغادر روما. لم يكن لديه اعتراض مطلقاً على فعل ما بوسعه لأجل ابن خالتها، لكن ما جعله يصرّ على أسنانه هو أن يفكر بأن من كل الخدمات التي طلبَتْها منه كانت هذه هي الخدمة التي كانت توّاقة لأن تختارها. لن يوجد هناك ضرر في اختيارها خدمةً كانت ستبقيه في روما.

في هذه الليلة، كان ما يفكر فيه بشكل رئيس هو أن يتركها غداً، وأنه لم يجنِ

شيئاً بالقدوم سوى معرفة أنه لم يكن مرغوباً فيه كثيراً كما هو الحال دائماً. أما عنها، فهو لم يعرف شيئاً؛ فقد كانت هادئة، غامضة، غير قابلة للاختراق. لقد شعر بالمرارة القديمة التي حاول بصعوبة كبيرة أن يتجرعها تتصاعد ثانيةً إلى حلقه، وعرف أن هناك خيبات أمل تدوم مدى الحياة.

واصل أوزموند الكلام؛ فقد كان غودوود يشعر بشكلٍ مبهم بأنه كان يلامس ثانيةً تآلفه المثالي مع زوجته. لقد بدا له لوهلة بأن لدى الرجل نوعاً من التخيلات الشيطانية؛ إذ كان من المستحيل أن يختار موضوعاً غير اعتيادي جداً كهذا بدون أي خبث. لكن، في النهاية، ماذا يهم سواء كان شيطانياً أم لا، وسواء تحبه أم تكرهه؟ فهي يمكنها أن تكرهه لحدّ الموت بدون أن يفيد المرء نفسه بشيء.

قال أوزموند: (بالمناسبة، أنت تسافر مع رالف تاتشيت، أعتقد بأن ذلك يعني بأنكَ سترحل متأخراً؟).

ـ (لا أدري، فأنا سأفعل ما يريده بالضبط).

ـ (أنتَ لطيف جداً. نحن ممتنون لكَ بشكلٍ هائل؛ يجب أن تسمح لي بقول ذلك. ربما عبَّرَتْ لكَ زوجتي عن شعورنا. فقد كنا نفكر دائماً بتاتشيت طوال فصل الشتاء؛ إذ بدا أكثر من مرة وكأنه لن يغادر روما أبداً. ما كان عليه أن يأتي؛ فأنْ يسافر الناس بهذه الحالة لهو أسوأ من عملٍ طائش. ما كنتُ بتاتاً لأخضع لالتزامٍ كهذا بتاتشيت مثلما هو بالنسبة... بالنسبة لزوجتي ولي. على أناسٍ آخرين حتماً أن يعتنوا به، ولا يوجد أحد كريم للغاية مثلكَ).

قال كاسبار بسخرية: (ليس لدي شيء آخر أفعله).

نظر إليه أوزموند لوهلة باستنكار.

ـ (عليكَ أن تتزوج ومن ثم سيكون لديكَ الكثير لتفعله! في الحقيقة، إنكَ في تلك الحالة لن تكون جاهزاً تماماً لأعمال الرحمة).

قال الشاب بدون تفكير: (هل تجد نفسكَ منشغلاً كثيراً وأنتَ رجل متزوج؟).

ـ (آه، كما ترى، فأن تكون متزوجاً هو بحد ذاته انشغال. والانشغال ليس دائماً أن تقوم بشيء، بل عادةً أن لا تقوم بشيء؛ لكن ذلك يتطلب اهتماماً أكثر أيضاً. ثم إن زوجتي وأنا نفعل الكثير جداً من الأمور معاً. فنحن نقرأ، ندرس، نؤلف الموسيقى، نتنزه بالعربة... ونتحدث أيضاً وكأننا نتعرّف على بعضنا لأول مرة. أنا لغاية هذه الساعة أُسَرُّ بحديث زوجتي. إن مللتَ يوماً فاعمَلْ بنصيحتي وتزوجْ. في الواقع، قد تُسبب لكَ زوجتكَ الملل في تلك الحالة، لكنكَ لن تملَّ من نفسكَ. سيكون لديكَ دائماً شيء تقوله لنفسكَ... دائماً لديكَ موضوع تفكر به).

قال غودوود: (أنا لا أشعر بالملل؛ فلدي الكثير لأفكر به ولأقوله لنفسي).

صاح أوزموند بضحكةٍ خفيفة: (أكثر مما تقوله للآخرين! أين ستذهب بعد ذلك؟ أقصد بعد أن تُسلِّمَ تاتشيت لمشرفيه الطبيعيين... أعتقد بأن أمه ستعود في النهاية لتعتني به. إن تلك السيدة الضئيلة الحجم رائعة؛ فهي تهمل واجباتها بلمسة أخيرة...! لعلكَ ستقضي الصيف في إنجلترا؟).

ـ (لا أدري. ليس لدي خطط).

ـ (رجلٌ محظوظ! إن ذلك كئيبٌ قليلاً، لكنه تفرُّغٌ تام).

ـ (أوه نعم، أنا متفرغٌ تماماً).

قال أوزموند وكأنه كان مجموعة من الزوّار تدخل إلى روما: (متفرغ لتعود إلى روما على ما آمل. تذكَّرْ أنكَ عندما تأتي بأننا نعتمد عليكَ!).

كان غودوود عازماً على المغادرة مبكراً، لكن المساء انقضى بدون أن يحظى بفرصة للتحدث مع إيزابيل بطريقة أخرى إلّا كواحدٍ من المتحدثين العديدين المصاحبين لها. كان هناك شيء عنيد في الثبات الذي تفاداه به؛ إذ

كشف حقدُه الجامح عن نيّةٍ حيث لم يَظهر بالتأكيد عليه ذلك. لم يظهر عليه ذلك مطلقاً. فقابلت نظراتَه بابتسامتها الصافية المرحّبة التي بدت تقريباً تطلب منه أن يأتي ويساعدها في الترحيب ببعض ضيوفها. رغم ذلك، لم يقابِل طلباً كهذا سوى بنفاد صبرٍ جاف. دار في الأرجاء وانتظَرَ؛ وتحدّثَ إلى الناس القلائل الذين يعرفهم والذين وجدوه لأول مرة متناقضاً مع نفسه قليلاً. كان ذلك بالفعل أمراً نادراً مع كاسبار غودوود رغم أنه تناقَضَ دائماً مع الآخرين.

كانت هناك دائماً موسيقى في قصر روكانيرا، وكانت عادةً جميلة جداً. تمالَكَ أعصابه تحت ستار الموسيقى؛ لكن قرب الانتهاء، عندما رأى الناس تبدأ بالانصراف، انسحَبَ قريباً من إيزابيل وسأل بنبرة منخفضة إن لم يكن بمقدوره أن يتحدث إليها في واحدة من الغرف الأخرى التي تأكَّدَ منها للتو بنفسه بأنها كانت فارغة. فابتسمَتْ وكأنها رغبَتْ أن تجامله، لكنها وجدت نفسها مقيدة تماماً.

ـ (أخشى بأنه مستحيل. فالناس يغادرون ويجب أن أكون حيث يمكنهم أن يرونني).

ـ (إذن، سأنتظر حتى يغادر جميعهم).

فترددت للحظة، ثم صاحت: (آه، سيكون ذلك باعثاً على السرور!).

ثم انتظَرَ، رغم أنه تطلَّبَ وقتاً طويلاً الآن. في النهاية، كان هناك عدة أناس بدوا ملتصقين بالسجادة. لم يبدُ على الكونتيسة جيميني، التي لم تكن على ما يرام حتى منتصف الليل على حدّ قولها، بأنها شعرَتْ بأن الحفلة قد انتهت؛ فقد كانت لا تزال تحظى بحلقة صغيرة من الرجال المحترمين أمام النار، وتطلق من حينٍ لآخر ضحكةً متواصلة.

كان أوزموند قد اختفى ـ فهو لم يُوَدِّعِ الناس؛ وبينما كانت الكونتيسة توسِّع حلقتها وفقاً لعادتها في هذه الفترة من المساء، أرسلتْ إيزابيل بانسي إلى الفراش.

جلست إيزابيل منعزلة قليلاً؛ وهي أيضاً يبدو أنها تمنت من أخت زوجها لو تصدر صوتاً منخفضاً أكثر وتسمح لآخر المتسكعين بالمغادرة بسلام.

سألها غودوود على الفور: (ألا يمكنني أن أقول كلمةً لكِ الآن؟).

فنهضت على الفور وهي تبتسم.

ـ (بالتأكيد، سنذهب في مكانٍ آخر لو تحب).

فذهبا سوية، تاركين الكونتيسة مع حلقتها الصغيرة، وبعد أن اجتازا العتبة، لم يتحدث أي منهما لوهلة. ما كانت إيزابيل ستجلس؛ بل وقفت وسط الغرفة تروّح بالمروحة ببطء؛ كانت بالنسبة له تمتلك الجمال نفسه المعتاد. بدت بأنها تنتظره ليتكلم. الآن، وقد كان لوحده معها، انطلقت إلى وعيه كل العواطف لم يكن قد قمعها أبداً، إذ نشطت في عينيه وجعلت الأشياء تسبح حوله.

ازدادت الغرفة المضيئة الفارغة عتمةً وغشاوة، وخلال هذه الغشاوة المرتفعة شعر بتحليقها أمامه بعينين متلألئتين وشفتين منفرجتين. لو كان يرى بشكل أوضح لرأى أن ابتسامتها كانت جامدة ومتصنعة قليلاً ـ لأنها كانت مرتعبة مما رأته في وجهه، فقالت: (أعتقدُ بأنكَ تريد أن تودعني؟).

أجاب بصدقٍ كئيب تقريباً: (نعم... لكنني لا أحب ذلك. لا أريد أن أغادر روما).

ـ (يمكنني تخيّل ذلك جيداً. إن ذلك لطفٌ منكَ بشكلٍ رائع. لا يمكنني أن أخبركَ كم أراكَ كريماً).

لم يقل شيئاً لوهلةٍ أكثر. ثم قال: (أنتِ ببضع كلمات كهذه تدفعينني إلى الذهاب).

ردّت بمرح: (يجب أن تعود يوماً ما).

ـ (يوماً ما؟ تعنين بأبطأ ما يمكن من الآن).

ـ (أوه لا، لا أعني ذلك أبداً).

أضاف غودوود: (ماذا تعنين؟ فأنا لا أفهم! لكنني قلتُ بأنني أود الذهاب وسأذهب).

قالت إيزابيل بلطف: (عُدْ متى تحب).

انفجر كاسبار في الكلام: (أنا لا أبالي مطلقاً بابن خالتكِ!).

ـ (هل ذلك هو ما أردتَ أن تخبرني به؟).

ـ (كلا، كلا، لم أكن أريد أن أخبركِ أي شيء. أردتُ أن أطلب منكِ...).

توقف عن الكلام للحظة، ومن ثم قال بنبرة منخفضة وسريعة: (ماذا حقاً فعلتِ بحياتكِ؟).

توقف عن الكلام ثانيةً وكأنه ينتظر إجابة. لكنها لم تقل شيئاً. فواصل الكلام: (أنا لا أستطيع أن أفهم، أنا لا أستطيع اختراقكِ! ماذا يجب عليَّ أن أظن... ماذا تريدينني أن أعتقد؟).

لم تقل شيئاً مرة أخرى، ووقفت فقط تنظر إليه، هذه المرة بدون أن تتظاهر باللطف أبداً.

(لقد قيل لي بأنكِ لستِ سعيدة. إن كنتِ كذلك أودُّ أن أعرف ذلك. فذلك سيكون أمراً مهماً بالنسبة لي. لكن أنت نفسكِ تقولين بأنكِ سعيدة، وأنكِ بطريقةٍ ما هادئة جداً، لطيفة جداً، واقعية جداً. لقد تغيرتِ كلياً. أنت تخفين كل شيء؛ أنا حقاً لم أتقرّب منكِ).

قالت إيزابيل برفق لكن بنبرة التنبيه: (أنتَ تتقرّب كثيراً).

ـ (ومع ذلك لا ألمسكِ! أريد أن أعرف الحقيقة. هل أنت بخير؟).

ـ (أنتَ تسأل كثيراً).

ـ (نعم... لطالما سألتُ كثيراً. أنت لن تخبرينني طبعاً. لن أعرف أبداً إن كنتِ قادرة على تغيير الأمور. وبالتالي لن يكون ذلك من شأني).

كان يتحدث بمجهودٍ واضح ليسيطر على نفسه، وليمنح شكلاً متفاهماً لحالةٍ مزاجية متهورة. لكن إحساسه بأنها كانت فرصته الأخيرة، وبأنه أحبَّها وكان قد خسرها، وبأنها ستعتقده أحمق مهما قال؛ قد منحه فجأةً شعوراً كضربة سوط أضافت اهتزازاً عميقاً لصوته المنخفض.

قال كاسبار غودوود: (أنتِ غامضة تماماً، وهذا ما يجعلني أعتقد بأن لديكِ شيئاً تخفينه. لقد أخبرتُكِ بأنني لا أبالي مطلقاً بابن خالتكِ، لكن ذلك لا يعني بأنني لا أحبه. أقصد ليس لأنني أحبه بأنني سأذهب معه. بل كنتُ سأذهب حتى لو كان معتوهاً وفي حال أنت تطلبين مني ذلك. حتى لو طلبتِ مني سأذهب الى سيبيريا غداً. لماذا تريدين مني مغادرة المكان؟ لا بدّ أن لديكِ سبباً لذلك. فلو كنتِ مقتنعة مثلما تتظاهرين بذلك، ما كنتِ لتهتمي. كنتُ سأعرف الحقيقة بشأنكِ حتى لو كانت مريعة، بدلاً من أن آتي إلى هنا لأجل لا شيء. لكن ليس هذا هو ما أتيتُ لأجله. لقد فكرتُ بأنه لا يجب عليّ أن أهتم. لقد أتيتُ لأنني أردتُ أن أؤكد لنفسي بأنني لستُ بحاجة إلى أن أفكر بكِ بعد الآن. لم أفكر بأي شيء آخر، وأنتِ محقّة جداً في أن تريدي مني الرحيل. لكن إن كان يجب علي أن أرحل، فلا ضرر في أن أُنفِّسَ عن نفسي قليلاً، أليس كذلك؟ إن كنتِ تشعرين بأذّى حقاً... أي إن كان أوزموند يؤذيكِ... فلا شيء مما أقوله سيؤذيكِ. أنا عندما أقول لكِ بأنني أحبكِ فذلك ببساطة هو ما أتيتُ لأجله. ظننتُ أن السبب هو شيء آخر، لكنه كان لأجل هذا السبب. لا يجب عليّ أن أقول ذلك لو لم أؤمن بأنني لن أراكِ ثانيةً. إنها المرة الأخيرة... اسمحي لي بأن أقطف زهرة واحدة! ليس لدي الحق بقول ذلك، أعلمُ ذلك؛ وليس لديكِ الحق لتُصغي. لكنكِ لا تُصغين؛ فأنتِ لم تُصْغِي أبداً، أنت دائماً تفكرين بشيءٍ آخر. بعد هذا يجب أن أرحل طبعاً؛ لذا سوف أحظى على الأقل بسبب. إن طلبكِ ليس سبباً. ليس سبباً حقيقياً. لا أستطيع أن أحكم من خلال زوجكِ فقط).

واصل كلامه بشكل عَرَضي وبشكل غير مترابط قليلاً: (أنا لا أفهمه؛ فهو يخبرني بأنكما تعشقان بعضكما البعض. لِمَ يقول لي ذلك؟ ما شأني بالموضوع؟ عندما أُخبركِ بذلك تبدين غريبة. لكن لطالما كنتِ غريبة. نعم، إن لديكِ شيئاً تخفينه. إنه ليس من شأني... صحيح جداً. لكنني أحبكِ).

ومثلما قال، فقد بدت غريبة. أدارت نظرها نحو الباب الذي دخلا منه، ورفعَتْ مروحتها وكأنها تنبهه، فقالت برقة: (لقد تصرفتَ بشكل جيد تماماً، فلا تفسد ذلك).

ـ (لا أحد يسمعني. إنه رائع ما تحاولين مماطلتي به. أنا أحبكِ مثلما لم أحبكِ من قبل).

ـ (أعرف ذلك. عرفتُ ذلك حالما وافقتَ على الذهاب).

ـ (لا يمكنكِ احتمال الأمر... طبعاً لا يمكنكِ. كنتِ ستحتملينه لو استطعْتِ، لكنكِ لا تستطيعين لسوء الحظ. أقصد لسوء الحظ بالنسبة لي. أنا لا أطلب شيئاً.. لا شيء، بمعنى، لا يجب أن أطلب شيئاً. لكنني أطلب منكِ إجابة وحيدة فريدة: هي أن تخبريني... أن تخبريني...!).

ـ (أن أخبركَ ماذا؟).

ـ (فيما إذا يمكنني أن أشفق عليكِ).

سألت إيزابيل وهي تحاول أن تبتسم ثانيةً: (هل ستحب ذلك؟).

ـ (أن أشفق عليكِ؟. بكل تأكيد!. فذلك على الأقل سيكون عملاً عظيماً. وسأدفع حياتي مقابل ذلك).

فرفعت مروحتها إلى وجهها الذي غطته كله عدا عينيها اللتين استقرَّتا لوهلةٍ على عينيه.

ـ (لا تدفع حياتكَ مقابل ذلك، بل فكِّرْ في ذلك من حينٍ لآخر).

وبهذا عادت إلى الكونتيسة جيميني.

***

الفصل 49

لم تظهر مدام ميرليه في قصر روكانيرا في أمسية ذلك الخميس الذي رويتُ عنه بعض الأحداث، ولم تكن إيزابيل متفاجئة من ذلك رغم أنها لاحظتْ غيابها. فقد كانت هناك أشياء قد دارت بينهما والتي لم تُضِفْ حافزاً للألفة. ولكي نفهمها، علينا أن ننظر قليلاً إلى الوراء.

لقد ذكرتُ أن مدام ميرليه عادت من نابولي بعد مغادرة اللورد واربيرتون لروما بفترة قصيرة، وأن عند لقائها أولاً بإيزابيل (التي أتت مدام ميرليه لتراها على الفور لتقدّرها حق قدرها) كان أول كلامها هو استفهامٌ بخصوص مكان تواجُد هذا الرجل النبيل الذي بدت بأنها حمَّلَتْ صديقتَها مسؤوليته. فقالت إيزابيل ردّاً على ذلك: (أرجوكِ لا تتحدثي عنه، فقد سمعنا الكثير جداً عنه مؤخراً).

أحنت مدام ميرليه رأسها قليلاً إلى أحد الجوانب باحتجاج وابتسمت عند الزاوية اليسرى من فمها.

ـ (أنتِ سمعت نعم، لكن يجب أن تتذكري بأنني أنا لم أسمع، في نابولي. لقد تمنيتُ أن أجده هناك ولأكون قادرة على تهنئة بانسي).

ـ (لا يزال يمكنكِ أن تهنئي بانسي، لكن ليس على الزواج من اللورد واربيرتون).

سألت مدام ميرليه بكثيرٍ من الجرأة لكن أيضاً بقصد الفكاهة: (كيف تقولين ذلك! ألا تعلمين بأنني كنتُ قد علّقتُ آمالاً على ذلك؟).

كانت إيزابيل مشوشة، لكنها كانت عازمة على أن تكون فكاهية أيضاً.

ـ (إذن ما كان يجب عليكِ أن تذهبي إلى نابولي. كان يجب عليكِ البقاء هنا لتُتابِعي الموضوع).

ـ (كان لدي ثقة كبيرة جداً بكِ. لكن هل تعتقدين بأن الأوان قد فات؟).

قالت إيزابيل: (من الأفضل أن تسألي بانسي).

ـ (سوف أسألها ماذا قلتِ لها).

بدا أن هذه الكلمات تبرر الدفاع عن النفس الذي ثار من جانب إيزابيل بإدراكها أن موقف ضيفتها كان موقفاً انتقادياً. فمدام ميرليه، كما نعلم، كانت مهذبة جداً لحدّ الآن؛ ولم تقم بالانتقاد أبداً؛ إذ كانت خائفة بوضوح من التطفّل. لكن من الواضح بأنها أخفت نفسها فقط لهذه المناسبة، لأن الآن كان لديها حِدّةٌ خطرة في نظرتها ومظهرٌ من الانفعال الذي لم يستطع حتى هدوءها المثير للإعجاب على تغييره. لقد أُصيبتْ بخيبة أمل أثارت دهشة إيزابيل ـ إذ لم يكن لدى بطلتنا علم باهتمامها الحماسي بزواج بانسي، وقد أظهرتْ ذلك بطريقةٍ أيقظتْ قلق إيزابيل.

سمعت إيزابيل بشكلٍ أوضح من قبل صوتاً ضعيفاً، ساحراً، لم تعرف من أين يأتي، في الفراغ الباهت الذي أحاطها، أعلنَ بأن هذه المرأة الذكية، القوية، الحازمة، الخبيرة بشؤون الحياة والناس، هذا التجسد لِما هو عملي، شخصي، فوري، كانت عاملاً جباراً في قَدَرِها.

لقد كانت أقرب لها مما كانت إيزابيل قد اكتشفت لحدّ الآن، ولم يكن قربها هو الحدث المثير الذي تخيَّلَتْهُ منذ مدة طويلة. فمغزى هذا الحدث قد مات في دواخلها في اليوم الذي صادف وصُدمتْ بالطريقة التي جلست بها تلك السيدة الرائعة مع زوجها على انفراد. لم يكن قد حدث ارتياب واضح لحدّ الآن؛ لكنه كان كافياً ليجعلها تنظر إلى هذه الصديقة بنظرة أخرى، ولتقودها للتفكير بوجود معنىً في تصرّفها السابق أكبر مما لاحظَتْهُ في حينه.

قالت إيزابيل لنفسها آه نعم، كان يوجد معنى؛ وبدا أنها تستيقظ من كابوسٍ طويل. ماذا كان ذلك الشيء الذي أقنعها بأن نيّة مدام ميرليه لم تكن سليمة؟ لا شيء سوى عدم الثقة التي تجسدت مؤخراً والتي اقترنت الآن بالحيرة الكبيرة الناتجة من احتجاج ضيفتها بالنيابة عن بانسي المسكينة. كان هناك شيء ما في هذا الاحتجاج الذي أثار منذ البداية مواجهةً وافية بالغرض؛ اهتياجاً لا يوصف استطاعت أن تراه غائباً عن مجاهرة صديقتها بالرقة والتحفّظ. لم تكن مدام ميرليه راغبة بالتدخّل، بالتأكيد، لكن فقط ما دام لا يوجد هناك شيء لتتدخل فيه.

ربما سيبدو للقارئ بأنّ إيزابيل قد تعجّلَتْ في إضفاء الشك، لمجرد الاشتباه، على إخلاصٍ مُبَرْهَناً عليه بسنوات عديدة من العلامات الجيدة. لقد تأثرَتْ بسرعة فعلاً، ولسبب منطقي، بحقيقةٍ غريبة كانت تتسرّب إلى روحها؛ وهي أن توجُّه مدام ميرليه كان مشابهاً لتوجُّه أوزموند: وذلك يكفي.

قالت ردّاً على الملاحظة الأخيرة لرفيقتها: (أعتقد بأن بانسي لن تخبركِ بشيءٍ سيجعلكِ أكثر غضباً).

ـ (أنا لستُ غاضبة مطلقاً. أنا فقط لدي رغبة كبيرة بإصلاح الموقف. هل تعتقدين بأن اللورد واربيرتون قد تركنا إلى الأبد؟).

ـ (لا يمكنني أن أخبركِ؛ فأنا لا أفهمكِ. إن الموضوع قد انتهى؛ لذا أرجو أن تتوقفي عن الحديث في الموضوع. لقد تحدّث أوزموند إليَّ كثيراً بشأنه، وليس لدي المزيد لأقوله أو لأسمعه).

ثم أضافت: (ليس لدي شكّ في أنه سيكون سعيداً جداً بمناقشة الموضوع معكِ).

ـ (أعلم ما يفكر به؛ فقد أتى لرؤيتي في المساء السابق).

ـ (حالما وصلتِ؟ إذن أنت تعرفين كل شيء عن الموضوع ولستِ بحاجة لأن تستعيني بي من أجل المعلومات).

ـ (ليست المعلومات هي ما أريده، بل العطف أساساً. لقد علّقتُ آمالاً على ذلك الزواج؛ فهذه الفكرة قد فعلَتْ ما تفعله أمورٌ قليلةٌ جداً... وهي أنها أشبعت الخيال).

ـ (خيالكِ نعم. لكن ليس خيال الأشخاص المعنيين بالموضوع).

ـ (تقصدين بذلك طبعاً بأنني لستُ من المعنيين بالموضوع. ليس بشكلٍ مباشر طبعاً. لكن عندما يكون المرء صديقاً قديماً فلن يحتمل أن يكون لديه شيء معرّض للضرر. أنت تنسين المدة الطويلة التي أعرف بها بانسي).

ثم أضافت مدام ميرليه: (أنتِ تقصدين طبعاً بأنكِ واحدة من الأشخاص المعنيين بالموضوع).

ـ (كلا، فذلك آخر شيء أقصدُه. أنا سئمتُ من الموضوع كله).

ترددت مدام ميرليه قليلاً.

ـ (آه، نعم، إن مهمّتَكِ قد نجحتْ).

قالت إيزابيل بتجهّمٍ شديد: (انتبهي لِما تقولينه).

ـ (أوه، أنا منتبهةٌ لما أقوله؛ ربما حتى ليس أكثر مما عندما يبدو أقل. إن زوجكِ يتحكّم بكِ بصعوبة)

لم تجب إيزابيل على هذا لوهلة؛ فقد شعرتْ بأنها مخنوقة بمرارة. لم يكن تطاول مدام ميرليه بإخبارها أن أوزموند يثقُ بها بقدر عدم ثقته بزوجته هو ما صدمها إلى أقصى حدّ، لأنها لم تكن سريعة لتعتقد بأن ذلك كان المقصود به هو التطاول. فمدام ميرليه نادراً جداً ما تكون متطاولة، وفقط عندما يكون التطاول شرعياً تماماً. أما الآن، فهو ليس شرعياً، أو على الأقل ليس شرعياً بعد. بل إن ما أثّرَ بإيزابيل كقطرةٍ من حامضٍ حارق فوق جرحٍ مفتوح هو معرفتها أن أوزموند أهانها بحديثه مثلما أهانها بتفكيره.

سألت في النهاية: (هل تودّين أن تعرفي كيف أتحكم به؟).

ـ (كلا، لأنكِ لن تخبريني أبداً. وسيكون من المؤلم بالنسبة لي أن أعرف).

كان هناك صمت مؤقت. ولأول مرة منذ أن عرَفَتْها، رأت إيزابيل أن مدام ميرليه بغيضة. لقد تمنّت لو تتركها، قالت بسرعة بقصد أن يُنهي ذلك لقاءهما: (تذكّري كم هي جذّابة بانسي، ولا تيأسي).

لكن السيماء المرح لمدام ميرليه لم يُعانِ تشنُّجاً، بل قامت فقط بلفّ معطفها حولها، وقامت أثناء ذلك برش عطرٍ باهتٍ طيب في الهواء.

ـ (أنا لستُ يائسة؛ أنا أشعر بالحماس. وأنا لم آتِ لأوبخكِ؛ بل أتيتُ لأعلم الحقيقة لو أمكن. أنا أعرف بأنكِ ستخبرينني بها لو طلبتُ منكِ ذلك. إنها نعمة كبيرة لديكِ يمكن للمرء أن يعتمد عليها. كلا، أنت لن تصدقي الراحة التي أشعرُ بها لذلك).

سألت إيزابيل مندهشة: (أية حقيقةٍ تتحدثين عنها؟).

ـ (فقط هذه: فيما إذا كان اللورد واربيرتون قد غيَّر رأيه من تلقاء نفسه أم لأنكِ نصحتِهِ بذلك. أقصد ليريح نفسه أم ليريحكِ. فكّري في الثقة التي ما زالت لديّ فيكِ، رغم فقداني القليل منها...).

واصلت مدام ميرليه الكلام مبتسمةً: (... بسؤالي سؤالاً كهذا!).

فجلست وهي تنظر لصديقتها لترى تأثير كلماتها عليها، ومن ثم واصلت الكلام: (الآن، لا تكوني بطلة، لا تكوني غير منطقية، لا تستائي. يبدو لي بأنني أُكرمُكِ عندما أتحدث بهذه الطريقة. لا أعرف امرأةً أخرى كنتُ سأفعل معها ذلك. فلا أعرف مطلقاً امرأةً أخرى ستخبرني الحقيقة. ألا ترين كم من المناسب أن يعرفها زوجكِ؟ صحيح بأنه لا يبدو أن لديه أي ذوق بتاتاً في محاولته معرفتها؛ إلا أنه منهمكٌ في افتراضاتٍ لامبرر لها. لكن ذلك لا يغيّر حقيقة أنه عندما يعرف بشكلٍ واضح ما حصل حقاً فذلك سيشكّل فرقاً في رأيه عن مستقبل ابنته. فإذا كان اللورد واربيرتون قد سئم فقط من الطفلة المسكينة فذلك موضوعٌ، ويؤسف له. وإن تخلّى عنها ليرضيكِ فذلك

موضوعٌ آخر! ويؤسف له أيضاً لكن بطريقة مختلفة. وبالتالي، في الحالة الأخيرة ربما ستتخلين عن أن تكوني راضية... وهو ببساطة رؤية ابنة زوجكِ متزوجة. اترُكيه... دعينا نحصل عليه!).

استمرت مدام ميرليه بشكلٍ متعمد جداً بمراقبة رفيقتها وهي تعتقد بوضوح بأنها يمكنها الاستمرار في الكلام بشكلٍ مطمئن. وكلما تستمر في الكلام تزداد إيزابيل شحوباً؛ وتشبك يديها بقوة أكثر في حضنها. ليس السبب هو أن ضيفتها قد رأت في النهاية بأنه الوقت المناسب لتكون متطاولة، لأن هذا لم يكن واضحاً أكثر. بل إنه رعبٌ أسوأ من ذلك.

همهمت إيزابيل: (من أنت. ما أنت؟ ما علاقتكِ بزوجي؟). كان من الغريب أنها لوهلةٍ وقفتْ إلى جانبه وكأنها كانت تحبه.

ـ (آه، إذن أنت تحتملين ذلك بشجاعة! أنا آسفة جداً. لا تظني بأنني سأفعل ذلك بالرغم من هذا).

واصلت إيزابيل الكلام: (ما أنت فاعلةٌ بي؟).

نهضت مدام ميرليه ببطء وهي تُمَسِّدُ الموفه[1] الخاصة بها لكن بدون أن تزيح عينيها عن وجه إيزابيل.

أجابت: (كل شيء!).

جلست إيزابيل هناك وهي تنظر إليها، بدون أن تنهض؛ فقد كان شكلُها كمُصَلٍّ يطلب الاستجابة لصلاته. لكن النور في عينيّ هذه المرأة بدا ظلاماً فقط، فهمهمت أخيراً: (أوه، يا للبؤس!). واتكأت إلى الخلف وهي تغطي وجهها بيديها. لقد خطر لها، كموجةٍ مندفعة بشدة، بأن السيدة تاتشيت كانت على حق؛ فمدام ميرليه هي من زَوَّجَتْها.

---

(1) الموفه: هي قطعة من الفرو أسطوانية الشكل مفتوحة من الجانبين تستعمل في الشتاء لتدفئة اليدين عند الخروج من المنزل. (المترجمة)

قبل أن تكشف عن وجهها ثانيةً كانت هذه السيدة قد غادرت الغرفة.

خرجت إيزابيل بالعربة لوحدها في ذلك المساء؛ فقد أرادت أن تبتعد، تحت السماء، حيث يمكنها أن تنزل من العربة وتسير فوق زهور الأقحوان. كانت قبل هذا بمدة طويلة قد وثقت بروما العتيقة، لأن في عالمٍ من الأطلال بدت أطلال سعادتها كارثةً أقل غرابة.

أراحت تعبها فوق أشياء كانت منهارةً منذ قرون ومع ذلك كانت لا تزال منتصبة؛ فألقت بحزنها الخفي في صمت هذه الأماكن المنعزلة، حيث عزل طابعها العصري جداً نفسه لتصبح منشودة، بحيث عندما جلست في ركنٍ تُدَفِّئه الشمس في يومٍ شتائي، أو وقفتْ في كنيسةٍ مهجورة لا يأتي إليها أحد، تمكنت قليلاً من أن تبتسم عندها وتفكر بضآلة هذه الأمكنة. لقد كانت ضئيلة في التاريخ الروماني الكبير، وحملها بسهولةٍ إحساسها الذي يلازمها بمصير البشرية من الأماكن الضئيلة إلى الأماكن الكبيرة. لقد أصبحتْ ضليعةً بعمق وبدقة بروما؛ فقامت روما بإذابة وتلطيف انفعالها. لكنها بدأت تراها بشكلٍ رئيسي المكان الذي عانى فيه البشر. كان هذا هو ما خطر لها في الكنائس الخاوية حيث عرضَتْ عليها الأعمدةُ الرخامية المتحوِّلة من بقايا وثنية صُحبة دائمة، والبخور العتيق ليكون مجموعةً من صلواتٍ غير مستجابة. لم يكن هناك مهرطقٌ ألطف ولا أقل ثباتاً من إيزابيل؛ إذ لم يتمكن أكثر العابدين إيماناً والذين يحدقون على صور المذبح المعتم أو على الشموع المحتشدة، من أن يشعروا بشكل أكثر أُلفة بإيحاء هذه الأشياء، ولا أن يكونوا عُرضةً في لحظاتٍ كهذه لتجلٍّ روحي.

كانت بانسي ـ كما نعلم ـ رفيقتها الدائمة تقريباً، ومؤخراً أضفت الكونتيسة جيميني، التي تتزين بمظلةٍ وردية اللون، بريقاً لحاشيتهما؛ لكنها أحياناً تجد نفسها وحيدة عندما ترغب بذلك وحينما يسمح المكان بذلك. في حالاتٍ كهذه، يكون لديها عدة أمور تلجأ إليها؛ ربما كان أكثرها يسراً هو كرسيٌّ على

السور المنخفض الذي يحيط بالمكان العشبي الفسيح أمام الواجهة العالية الرزينة لكاتدرائية يوحنا اللاتراني التي نرى منها عبر الكامباجنا ملامح جبل ألبان[1] الصعب اقتفاء أثره، والسهول الشاسعة التي لا تزال مليئة تماماً بما تقاذَفَ منه.

بعد مغادرة ابن خالتها ورفاقه تجوّلَتْ أكثر من المعتاد؛ إذ حملت روحَها المكتئبة من مكانٍ مقدس معروف إلى آخر. حتى عندما تكون بانسي والكونتيسة جيميني معها، تشعر بأثر الحياة الفانية.

تمايلت العربة وهي تترك خلفها أسوار روما، عبر الأزقّة الضيقة حيث بدأت نباتات زهرة العسل البرية بالتشابك على الأسيجة، أو تنتظرها في أماكن هادئة حيث تمتد الحقول في الجوار بينما تسير أبعد وأبعد فوق عشبٍ مبقّعٍ بالزهور، أو تجلس على صخرةٍ كانت لها فائدة ذات يوم، وتحدق عبر ستار حزنها الشخصي إلى الحزن المهيب للمشهد ـ إلى الضوء المكثّف الدافئ، التدرجات المختلفة جداً والتداخل الرقيق للّون، الرعاة الجاثمين بوضعياتٍ فريدة، التلال حيث لظلال الغيم إشراقة الخجل.

في المساء الذي بدأتُ الحديث عنه، كانت قد اتخذتْ قراراً في أن لا تفكر بمدام ميرليه؛ لكن القرار أثبت بأنه عديم الفائدة، وحامت صورة هذه السيدة أمامها باستمرار. فسألت نفسها، بخوف طفولي قليلاً، من أن تفترض فيما إذا كان اللقب التاريخي الكبير ساحرة ينطبق على هذه الصديقة المقرّبة لسنوات عديدة. لقد تعرّفَتْ على هذا اللقب فقط من الكتاب المقدس وأعمال أدبية أخرى؛ فحسب اعتقادها، لم يكن لها اطلاع شخصي على السحر. لقد رغبت أن تعرف أكثر عن حياة الناس، ورغم إطرائها لنفسها بأنها هذّبَتْ حياتَها

---

(1) جبل ألبان: هو ثاني أعلى جبل في مجموعة تلال ألبان بالقرب من روما. وهو عبارة عن بركان قديم كانت تتقاذف منه الحمم البركانية، وقد خمد قبل عشرة آلاف سنة، ويسمى أيضاً مونتي كافو. (المترجمة)

بعض النجاح، إلا أن هذا الشرف الأساسي قد كذَّبَها. ربما ليس من السحر ـ بالمعنى التاريخي ـ أن تكون حتى متظاهِراً بدهاء؛ لأن ذلك هو ما كانت عليه مدام ميرليه بدهاء، بدهاء، بدهاء.

كانت خالة إيزابيل، ليديا، قد اكتشفت ذلك مسبقاً بمدة طويلة، وأخبرت به ابنة أختها؛ لكن إيزابيل في ذلك الوقت كانت قد أطرت نفسها بأن لديها آراءً عن الأشياء، خاصة عن عفوية مجرى حياتها ورفعة تأويلاتها، أغنى بكثير من المنطق المتشدد للسيدة تاتشيت المسكينة. لقد فعلت مدام ميرليه ما أرادت؛ فقد رتبت لزواج صديقيها؛ وهي فكرة لم تخفق في جعلها مسألة رائعة لدرجة أنها تاقت كثيراً لحدثٍ كهذا. يوجد هناك أناس لديهم شغف التنسيق للزواج، مثل مناصري الفن لأجل الفن؛ لكن مدام ميرليه برغم من أنها كانت فنانة عظيمة، إلا أنها بالكاد كانت واحدة من هؤلاء.

لقد أساءت الظن كثيراً بالزواج، أساءت الظن كثيراً حتى بالحياة؛ لكنها رغبتْ بهذه الزيجة بالذات ولم ترغب بغيرها. وهكذا، كان لديها فكرة الاستفادة، وسألت إيزابيل نفسها من أين كانت ستستفيد. لقد تطلَّبَ منها طبعاً وقتاً طويلاً لتكتشف ذلك، وحتى عندئذٍ، كان اكتشافها ناقصاً.

لقد تذكرت بأن مدام ميرليه، برغم أنها بدت بأنها أحبتها منذ لقائهما الأول في جاردن كورت، إلا أنها كانت ودودة بشكلٍ مضاعف بعد وفاة السيد تاتشيت وبعد علمها بأن صديقتها الشابة كانت هدفاً لإحسان الرجل العجوز الطيب. إنها لم تستفد من الوسيلة الباهظة، وهي اقتراض النقود، بل استفادت من فكرةٍ رفيعةٍ أكثر؛ من خلال تقديم واحدٍ من أصدقائها المقرّبين للقَدَر الغرّ والساذج لهذه الشابة. لقد اختارت طبعاً أقرب أصدقائها، وأصبح الآن واضحاً بما يكفي لإيزابيل بأن جيلبرت قد شغل هذه المكانة. لقد وجدت نفسها بهذه الطريقة بمواجهةِ قناعةٍ، وهي أن الرجل الذي كانت تعتقده الأقل جشعاً في العالم قد تزوجها، كمغامرٍ سافل، لأجل أموالها.

من الغريب أن نقول بأن ذلك لم يخطر أبداً في ذهنها من قبل؛ فإن فكرتْ تفكيراً مجحفاً بأوزموند، فهي لن تُسبب له هذا الأذى بالتحديد. كان هذا هو أسوأ ما تمكنت من التفكير به، وكانت تقول لنفسها بأن الأسوأ سوف يأتي.

قد يتزوج رجلٌ امرأةً لأجل أموالها، لا بأس بذلك. لكن عليه على الأقل أن يُعْلِمَها. لقد تساءلت، بما أنه أرادها لأجل أموالها، فيما إذا كانت أموالها ستكفيه الآن. هل كان سيأخذ أموالها ويتركها تذهب؟ آه، لو كان الإحسان الكبير للسيد تاتشيت سيساعدها اليوم فقط فسيكون نعمة بالفعل!

خطر لها بسرعة بأن مدام ميرليه لو أرادت أن تسدي لجيلبرت معروفاً فلا بدّ أن عرفانه لها بالجميل قد فقد أهميته. كيف يجب أن تكون مشاعره اليوم بخصوص ولية نعمته الغيورة جداً، وما هو التعبير الذي لا بدّ أنهما وصلا إليه من جانب سيدٍ للتهكّم كهذا؟

إنه لعملٌ فريد، وأيضاً مميز، أن تقوم إيزابيل قبل عودتها من جولتها الصامتة بكسر الصمت بالتأوه الرقيق: (مسكينة، مسكينة مدام ميرليه!). ربما ستكون شفقتها مبررة لو كانت في المساء نفسه قد اختفت خلف واحدة من الستائر الدمشقية الثمينة التي بليت بفعل الزمن والتي زخرفت الصالون الصغير المثير للاهتمام التابع للسيدة المذكورة؛ أي الحجرة المرتبة بإتقان التي زرناها مرة برفقة السيد غوزييه المتواضع. ففي تلك الحجرة، وقبل الساعة السادسة، كان جيلبرت أوزموند جالساً، ووقفت مضيّفتُه أمامه كما رأتها إيزابيل تقف في مناسبةٍ أحيينا ذكراها في هذه القصة بتركيزٍ لا يناسب كثيراً أهميتها الظاهرية بقدر أهميتها الحقيقية.

قالت مدام ميرليه: (أنا لا أصدق بأنكَ غير سعيد؛ أعتقد بأن الأمر أعجبَكَ).

سأل أوزموند بوجهٍ متجهم بما يكفي ليوحي بأنه كان كذلك: (هل قلتُ بأنني غير سعيد؟).

ـ (كلا، لكنكَ لا تقول العكس مثلما يجب عليكَ ذلك بالامتنان المعتاد).

ردَّ بخشونة: (لا تتحدثي عن الامتنان).

ثم أضاف بسرعة: (ولا تثيري غضبي).

فجلست مدام ميرليه على مهل وذراعاها مطويتان ويداها البيضاوان كانتا موضوعتين بطريقةٍ تسند إحداهما إحدى الذراعين وتسند حلية الذراع الأخرى إن جاز التعبير. لقد بدت هادئة بشكلٍ رائع لكن حزينة بشكلٍ مؤثر.

ـ (من جانبكَ، لا تحاول أن تخيفني. أتساءل إن كنتَ تحزر بعضاً من أفكاري).

ـ (لن أزعج نفسي بها أكثر مما أحتمل. فلدي منها ما يكفي تماماً).

ـ (ذلك لأنها باعثة للسعادة).

أسند أوزموند رأسه على ظهر كرسيه ونظر إلى رفيقته بوضوحٍ ساخر والذي بدا أيضاً إلى حدٍّ ما تعبيراً عن الإرهاق، فأشار بسرعة: (أنتِ تثيرين غضبي فعلاً. أنا متعَبٌ جداً).

صاحت مدام ميرليه: (وأنا أيضاً!).

ـ (بالنسبة لكِ فالسبب هو انكِ أتعبتِ نفسكِ. أما بالنسبة لي فليس السبب هو خطئي).

ـ (عندما أتعبتُ نفسي فذلك لأجلكَ. لقد وهبتُكَ شيئاً مفيداً. وتلكَ هبةٌ عظيمة).

تساءل أوزموند بموضوعية: (هل تسمين ذلك فائدة؟).

ـ (أنتَ لم تبدُ أبداً بأحسن حال؛ لم تكن أبداً لطيفاً جداً، رائعاً جداً).

همهم بعد تفكير: (تبّاً لروعتي! بعد كل هذا، كم هي قليلةٌ معرفتكِ بي!).

ابتسمت مدام ميرليه.

ـ (إن كنتُ لا أعرفكَ فلا أعرف شيئاً. لديكَ حس النجاح التام).

ـ (كلا، لن يكون لدي ذلك حتى أجعلكِ تتوقفين عن التحكم بي).

ـ (لقد فعلتُ ذلك منذ مدة طويلة. أنا أتحدث على أساس معرفةٍ قديمة. لكنكَ أيضاً تعبّر عما في نفسكَ أكثر).

تردد أوزموند كثيراً: (تمنيتُ لو عبّرتِ عن نفسكِ بشكلٍ أقل!).

ـ (أنتَ تريد أن تحكم عليّ بالصمت؟ تذكَّرْ بأنني لستُ مهذارة. على أية حال، هناك ثلاثة أو أربعة أمور أودُّ أن أقولها لكَ أولاً).

واصلت كلامها بنبرة مختلفة: (إن زوجتكَ لا تعرف ما هي فاعلةٌ بنفسها).

ـ (اعذريني، إنها تعرف تماماً. فلديها طريقٌ مرسوم بوضوح. إنها تعتزم أن تنفّذ ما تفكر فيه).

ـ (لا بدّ أن ما تفكر فيه اليوم ملفتٌ للنظر).

ـ (مؤكَّد بأنها كذلك. فلديها منه أكثر من ذي قبل).

قالت مدام ميرليه: (كانت عاجزة عن أن تريني أيّاً من ذلك هذا الصباح. لقد بدت بحالةٍ مزاجيةٍ ساذجةٍ جداً، وذاهلة قليلاً. لقد كانت تائهة تماماً).

ـ (كان من الأفضل أن تقولي مباشرةً بأنها كانت يائسة).

ـ (آه لا، لا أريد أن أحمسكَ كثيراً).

كان رأسه لا يزال متكئاً للخلف وكاحل إحدى قدميه مستقر على الركبة الأخرى. جلس بهذه الوضعية لفترة قصيرة، ثم قال أخيراً: (أود أن أعرف ماذا دهاكِ).

ـ (ما دهاني... ما دهاني...!). وهنا توقفت مدام ميرليه عن الكلام، ثم واصلت بانفجار فجائي من الانفعال، انفجارِ رعدٍ صيفيٍّ في سماءٍ صافية: (ما دهاني هو أنني سأقطع يدي اليمنى لأكون قادرة على النحيب، وهذا هو ما لا أستطيع فعله!).

ـ (ما الفائدة التي ستجنيها من النحيب؟).

ـ (كان سيجعلني أشعر مثلما شعرتُ قبل أن أعرفكَ).

ـ (إن كنتُ قد جففتُ دموعكِ فذلك موضوعٌ مختلف. لكنني أراكِ تذرفينها).

قالت: (أوه، مع ذلك، لا زلتُ أعتقد بأنكَ ستجعلني أبكي. أقصد تجعلني أعوي كالذئب. لدي أملٌ كبيرٌ، لدي احتياجٌ كبير، لهذا الشيء. لقد كنتُ لئيمةً هذا الصباح؛ كنتُ مريعة).

أجاب أوزموند: (إن كانت إيزابيل في الحالة المزاجية الذاهلة التي ذكرتِها فمن المحتمل أنها لن تشعر بذلك).

ـ (إن شعبذتي بالضبط هي ما جعلَتْها ذاهلة. لم أستطع احتمال ذلك؛ لقد كنتُ مشبعة بشيءٍ شرير. ربما كان شيئاً خيِّراً، لا أدري. أنت لم تنشّف دموعي فقط؛ أنت نشّفتَ روحي).

قال أوزموند: (إذن لستُ أنا المسؤول عن حالة زوجتي. من المريح أن أفكر بأنني سأستفيد من تأثيركِ عليها. ألا تعلمين بأن الروح هي جوهرٌ خالد؟ فكيف يمكنها أن تخضع للتحوُّل؟).

ـ (أنا لا أصدق مطلقاً بأنها جوهرٌ خالد. أنا أعتقد بأنها يمكن تدميرها. وذلك هو ما حصل لي، والذي كان حدثاً جيداً لأبدأ به؛ وأنه أنت من يجب أن أشكره لذلك).

أضافت بجديّةٍ في نبرتها: (أنتَ شرير للغاية).

سأل أوزموند بالبرود نفسه المتعمّد: (هل هذه هي الطريقة التي يجب أن ننتهي بها؟).

ـ (لا أعرف الطريقة التي يجب أن ننتهي بها. وليتني أعرف! كيف ينتهي الأناس الأشرار؟... خاصةً فيما يخص جرائمهم العادية. لقد جعَلْتَني شريرة مثلكَ).

قال أوزموند ولامبالاته المتعمدة تمنح تأثيراً قوياً للكلمات: (أنا لا أفهمكِ. أنت تبدين لي طيبة جداً بشكلٍ كافٍ).

مال هدوء مدام ميرليه، على العكس، للتناقص. وكانت على وشك أن تفقده أكثر مما في أية مناسبة تَشَرَّفْنا فيها بلقائها. فاستحال البريق الذي في عينها عتمةً، وكشفت ابتسامتها عن شقاءٍ أليم.

ـ (بشكلٍ كافٍ لكل شيء فعلتُه بنفسي؟ أعتقد بأن ذلك هو ما تعنيه).

صاح أوزموند وهو يبتسم أيضاً: (بشكلٍ كافٍ لتبقي فاتنة!).

همهمت مرافقته ولجأت، وهي جالسة هناك بفتنتها الفائقة، إلى الوضع نفسه الذي أثارَتْهُ في إيزابيل في الصباح؛ أي أحنت وجهها وغطته بيديها: (أوه، يا إلهي!).

سأل أوزموند: (هل ستنحبين في النهاية؟).

وعند بقائهما بلا حراك واصل الكلام: (هل اشتكيتُ لكِ يوماً؟).

فأسقطت يديها فوراً.

ـ (كلا، فقد انتقَمْتَ بدلاً من ذلك.. لقد انتقَمْتَ منها).

ألقى أوزموند برأسه إلى الوراء أكثر، فنظر لبرهةً إلى السقف، وربما كان يناشد بطريقة غير متكلفة القوى السماوية.

ـ (أوه، يا لخيال النساء! إنه دائماً فاحشٌ في الأساس. أنت تتحدثين عن الانتقام ككاتب روايةٍ رديء).

ـ (أنتَ لم تشتَكِ بالطبع، فقد استمتعتَ بانتصاركَ كثيراً جداً).

ـ (أنا متشوِّقٌ قليلاً لأعرف ما هو الذي تسمينه انتصاري).

ـ (لقد جعلتَ زوجتكَ تخاف منكَ).

غيَّرَ أوزموند وضعيته؛ فمالَ نحو الأمام ومرفقاه متكئان على ركبتيه ونظر قليلاً إلى السجادة الفارسية القديمة الجميلة التي عند قدميه. كان له

مظهر من يرفض قبول تثمين أي شخص لأي شيء، حتى للوقت، ومظهر من يفضّل أن يلتزم بتثمينه هو؛ وهي صفةٌ جعلَتْهُ أحياناً شخصاً منفعلاً لتتحدثَ معه.

قال أخيراً: (إن إيزابيل ليست خائفة مني، وليس ذلك هو ما أتمناه. لأي شيء تريدين أن تستفزيني عندما تقولين أشياء كهذه؟).

أجابت مدام ميرليه: (لقد فكرتُ عموماً في الضرر الذي يمكنكَ أن تسببه لي. فزوجتكَ كانت خائفة مني هذا الصباح، لكن في دواخلي كانت في الحقيقة خائفة منكَ).

ـ (ربما قلتِ أشياء لاذعة؛ أنا لستُ مسؤولاً عن ذلك. وأنا لا أفهم فائدة ذهابكِ أساساً لرؤيتها؛ فأنتِ قادرة على التصرف بدونها. فأنا لم أجعلكِ خائفة مني، ذلك هو ما يمكنني أن أراه).

واصَلَ كلامه: (ثم كيف أجعلُها كذلك؟ أنت على الأقل ذات بطش. لا يمكنني أن أتخيل من أين انتشلتِ هذا الهراء؛ قد يظن المرء بأنكِ عرفتِني منذ وقتٍ قريب).

فنهض وهو يتحدث، وسار نحو الموقد حيث وقف لبرهةٍ وهو يُميلُ نظره إلى عيِّناتٍ رقيقة مطلية بالخزف النادر، وكأنه يراها لأول مرة. فالتَقَطَ كوباً صغيراً وحمله بيده؛ ومن ثم تابَعَ كلامه وهو لا يزال يحمله ويسند ذراعه على رف الموقد: (أنتِ دائماً ترين الكثير جداً في كل شيء؛ أنت تبالغين في الأمر؛ ويغيب عن ناظريكِ ما هو حقيقي. أما أنا، فأكثرُ بساطةً مما تعتقدين).

ـ (أنا أعتقد بأنكَ بسيطٌ جداً).

وأبقت مدام ميرليه عينيها على كوبها.

(لقد توصلتُ إلى ذلك بمرور الوقت. فقد كوّنْتُ رأياً عنكَ، كما قلتُ، منذ زمنٍ بعيد؛ لكنني فهمتُكَ منذ زواجكَ فقط. لقد رأيتُ بشكلٍ أفضل ما

أنت بالنسبة لزوجتكَ مما كنتَ بالنسبة لي. أرجو أن تكون حريصاً على ذلك الشيء الثمين).

قال أوزموند بجفاء وهو يُنزلُه: (إن به أثراً ضئيلاً لصدعٍ صغير أساساً. إن لم تكوني تفهمينني قبل زواجي، فإنه تسرُّعٌ قاسٍ منكِ أن تضعينني في قفصٍ كهذا. مع ذلك، فأنا نفسي معجبٌ بقفصي هذا؛ فقد اعتقدتُ بأنه سيكون اتفاقاً مريحاً. لقد طلبتُ القليل جداً؛ لقد طلبتُ فقط بأن تُحِبِّني).

ـ (أنْ تحبكَ كثيراً جداً!).

ـ (طبعاً كثيرٌ جداً؛ ففي حالةٍ كهذه يطلب المرء الحدَّ الأقصى. أي أن تعشَقَني، لو شئتِ. أوه نعم، لقد أردتُ ذلك).

قالت مدام ميرليه: (أنا لم أعشقكَ أبداً).

ـ (آه، لكنكِ تظاهرتِ بذلك!).

واصلت مدام ميرليه الكلام: (في الحقيقة أنت لم تتهمني أبداً بأنني اتفاقٌ مريح).

قال أوزموند: (لقد رفضَتْ زوجتي... رفضتْ أن تفعل أي شيء من هذا القبيل. إن كنتِ مصممة على أن تجعلي من ذلك مأساة، فلن تصيبها مأساة).

صاحت مدام ميرليه وهي تنهض بتنهيدةٍ خافتة طويلة، لكنها تنظر في الوقت نفسه إلى محتويات رف موقدها: (إن المأساة ستصيبني أنا. يبدو بأنه يجب عليّ أن أتعلّم بشكلٍ مكثّف مضار الوضع الخاطئ)

ـ (أنتِ تعتبرين نفسكِ كجملةٍ في دفتر. يجب علينا أن نبحث عن راحتنا حيثما يمكننا أن نجدها. فإن كانت زوجتي لا تحبني، فعلى الأقل ابنتي تحبها. سوف أبحث عن تعويضٍ في بانسي. لحسن الحظ، ليس لدي خطأ معها كي أبحث عنه).

قالت برقة: (آه، لو كانت لدي ابنة...!).

تمهّل أوزموند، ثم أعلن بهيئةٍ متكلّفةٍ قليلاً: (قد يكون أبناء الآخرين ذوي فائدة كبيرة!).

ـ (أنتَ تشبه دفتراً أكثر مني. هناك في النهاية شيء ما يربطنا معاً).

سأل أوزموند: (هل هو فكرةُ الأذى الذي يمكنني أن أسببه لكِ؟).

تابعت مدام ميرليه كلامها: (كلا، إنه فكرة الخير الذي يمكنني أن أسديه لكَ. فذلك....).

ثم أضافت وقد عاد وجهها لاسترخائه المعتاد بعد أن كان قد ازدادَ قساوةً وألماً: (فذلك هو ما جعلني غيورة جداً من إيزابيل. فأنا أردتُ أن يكون ذلك هوعملي أنا).

التقطَ صديقها قبعته ومظلته، وقال بعد منْح الأولى ضربتين أو ثلاثاً بكمِّ معطفه: (عموماً، أعتقد بأنه من الأفضل أن تتركي الأمر لي).

كان أول شيء قامت به بعد أن تركها هو أنها ذهبت ورفعتْ من رفّ الموقد كوب القهوة الرقيق الذي ذكر أوزموند أن به صدعاً؛ لكنها نظرتْ إليه بشكلٍ منذهل قليلاً وولولَتْ قليلاً: (هل كنتُ حقيرة جداً مقابل لا شيء؟).

***

الفصل 50

لأن الكونتيسة جيميني غير مُلمّةٍ بالصروح القديمة، عرضَتْ إيزابيل أحياناً على أن تُقدمها إلى هذه الآثار المثيرة للاهتمام ولتُضفي على نزهتهما المسائية هدفاً آثارياً. لم تعترض الكونتيسة على ذلك أبداً والتي اعترفَتْ بأنها تعتقد بأن زوجة أخيها هي أعجوبة من المعرفة، وحدقت على كتل المباني الرومانية الآجرّية بصبر، وكأنها ركامٌ من الأقمشة الحديثة. لم يكن لديها الحس التاريخي، رغم أنه كان لديها الحس القصصي في بعض الاتجاهات، وفيما يخصها هي نفسها كان لديها الحسّ التبريري، لكنها كانت مسرورة جداً بتواجدها في روما بحيث رغبت فقط أن تطفو مع التيار. كانت ستقضي بسرور ساعة كل يوم في العتمة الرطبة لحمامات تيتوس لو كان ذلك شرطاً لبقائها في قصر روكانيرا. رغم ذلك، لم تكن إيزابيل دليلاً سياحياً متشدداً؛ واعتادت أن تزور الأطلال بشكل رئيسي لأنها تسمح لها بالتحدث في أمورٍ أخرى بدلاً من الشؤون العاطفية لسيدات فلورنسا والتي لم تكن مرافِقتُها قد كلَّتْ من تقديم معلومات بشأنها. يجب أن نضيف أن من خلال هذه الزيارات عارضت الكونتيسة كل أشكال الاستكشاف التي تتضمن الحركة؛ فقد كانت تفضّل أن تجلس في العربة وتهتف بأن كل شيء كان مثيراً للاهتمام جداً. لقد قامت بهذه الطريقة لحدّ الآن باستكشاف المدرج الروماني، مما سبَّبَ تأسفا لانهاية له لابنة أخيها التي ـ مع كل الاحترام الذي تكنّه لها ـ لم تستطع أن تفهم لِمَ لا تنزل من العربة وتدخل المبنى. كان لدى بانسي فرصة قليلة جدا للتنزه بحيث لم يكن رأيها في المسألة مُحبِطاً تماماً؛ لكن يمكن التكهن بأنه

كان لديها أمنية خفيّة وهي بأن ضيفة والديها حالما تدخل، يمكن استدراجها لتتسلق الدرجات العلوية. وقد أتى اليوم عندما أعلنت الكونتيسة رغبتها عن توَلّي هذا العمل ـ في مساءٍ معتدلٍ في آذار عندما أعرب الشهر العاصف عن نفسه بهبّاتٍ ربيعية.

دخلت السيدات الثلاث في المدرج الروماني معاً، لكن إيزابيل تركت رفيقتها لتتجوّل عبر المكان. فصعدَتْ بشكلٍ متكرر إلى تلك الأفاريز المحطمة التي اعتاد الجمهور الروماني أن يهتف منها ويصفق وحيث تزهر اليوم الزهور البرية (عندما تُترَك) في الشقوق العميقة؛ واليوم شعرَتْ بالإرهاق ورغبتْ أن تجلس في الحَلَبة المحطمة. لقد تم أخذ استراحة أيضاً، لأن الكونتيسة تطلب مراراً عناية المرء أكثر مما تعطي بالمقابل. لذا بقيت في الأسفل لهذا السبب، بينما قادت بانسي عمتها غير الحكيمة إلى السلّم الشاهق الطابوقي الذي عند أسفله يفتح الحارس البوّابة الخشبية العالية. كانت الساحة الكبيرة شبه ظليلة؛ إذ كان ضوء الشمس قد جعل درجة اللون الأحمر الشاحب للطابوق الجيري بارزة ـ اللون الكامن الذي كان العنصر الحي الوحيد في تلك الأطلال الهائلة.

كان يتجوّل هنا وهناك فلّاحٌ أو سائح وهم ينظرون إلى الأفق البعيد حيث استمرت مجموعة من طيور السنونو تحوم وتغطس في السكون الخالص. أدركتْ إيزابيل على الفور بأن واحداً من الزائرين المزروعين وسط الحلبة قد التَفَتَ لشخصها وكان ينظر إليها بوقفةٍ متزنة قليلاً والتي أدركتْ قبل بضعة أسابيع بأنها تميزت برغبةٍ حائرة، لكن لا تُقهَر. إن وقفةً كهذه، اليوم، تعود فقط للسيد إدوارد غوزييه. وقد تَبيَّنَ أنه في الحقيقة يفكر في التحدث إليها. عندما تأكَّدَ بأنها كانت لوحدها، تقرَّبَ منها وهو يشير إلى أنها رغم أنها لم تجب على رسائله إلا أنها ربما لن تغلق أذنيها عموماً عن بلاغته الكلامية. فأجابت بأن ابنة زوجها كانت قريبة وبأنها يمكنها فقط أن تمنحه خمس دقائق؛ وهكذا، أخرج ساعته وجلس فوق كتلة محطمة من الطابوق.

قال إدوارد غوزييه: (سيُقال قريباً بأنني بعتُ كل تحفياتي الصغيرة!).

فصاحت إيزابيل بشكل عفوي من الذعر؛ وكأنه أخبرها بأنه كان قد قلع كل أسنانه.

واصل كلامه: (لقد بعتُها جميعها في المزاد العلني في فندق دروو. حصل البيع قبل ثلاثة أيام، وقد أبرقوا إليَّ بالنتيجة. إنها مذهلة).

ـ (أنا مسرورة لسماع ذلك؛ لكنني أتمنى أن تكون قد احتفَظْتَ بحوائجكَ الجميلة).

ـ (لدي المال بدلاً من ذلك... خمسون ألف دولار. هل سيعتقد السيد أوزموند بأنني غني الآن بما يكفي؟).

سألت إيزابيل برفق: (هل لهذا السبب فعلتَ ذلك؟).

ـ (ولأجل أي شيء بحق السماء يمكن أن يكون السبب؟ فذلك هو الشيء الوحيد الذي أفكر فيه. لقد ذهبتُ إلى باريس واتخذتُ تدابيري. لم أستطع الوقوف على البيع؛ فلم أتحمل أن أراها وهي تُباع؛ إذ أعتقد بأن ذلك كان سيقتلني. لكنني وضعتُها في أيدٍ أمينة، وقد جلبَتْ ثمناً عالياً. يجب أن أخبركِ بأنني احتفظتُ بالتحفيات المطلية بالمينا).

ثم صاح الشاب بتحدٍّ: (والآن لدي المال في جيبي، ولن يستطيع أن يقول بأنني فقير!).

قالت إيزابيل وكأنّ جيلبرت أوزموند لم يكن قد قال ذلك مسبقاً: (سيقول الآن بأنكَ لستَ متعقلاً).

حدجها غوزييه بنظرة حادة.

ـ (هل تقصدين بأنني بدون تحفياتي لا شيء؟ هل تقصدين بأنها كانت أفضل شيء فيَّ؟ إن ذلك هو ما أخبروني به في باريس؛ أوه، لقد كانوا صريحين جداً بشأن ذلك. لكنهم لم يكونوا قد رأوها!).

قالت إيزابيل بلطفٍ شديد: (يا صديقي العزيز، أنت تستحق النجاح).

ـ (أنتِ تقولين ذلك بشكلٍ محزن جداً وكأنكِ تقولين بأنني لا أستحق النجاح).

وتفحَّصَ عينيها بعينيه الخائفتين بشكلٍ واضح. كان له مظهر رجلٍ يعرف بأنه كان حديثَ باريس لأسبوع، لكن أيضاً مظهر رجلٍ لديه قلقٌ أليم من أن يبقى شخصٌ أو اثنين من الحمقى يعتبرونه دون المستوى بالرغم من هذه المكانة العالية.

واصل الكلام: (أنا أعلم ما حدث هنا بينما كنتُ غائباً. ماذا يتوقع السيد أوزموند بعد أن قامت برفض اللورد واربيرتون؟).

ناقشت إيزابيل: (أن تتزوج من نبيلٍ آخر).

ـ (أي نبيلٍ آخر؟).

ـ (من يختاره هو).

نهض غوزييه على مهل وهو يضع ساعته في جيب صدريته.

ـ (أنتِ تضحكين على أحدٍ ما، لكن هذه المرة لا أعتقد بأنه عليَّ).

قالت إيزابيل: (أنا لم أقصد أن أضحك، فأنا نادراً ما أضحك. والآن من الأفضل أن تغادر).

صرّح غوزييه بدون أن يتحرك: (أنا أشعر باطمئنانٍ كبير!).

قد يكون هذا هو ما يشعر به، لكن ذلك جعله بشكلٍ واضح يشعر بأكثر من ذلك ليقول هذا التصريح بصوتٍ عالٍ قليلاً، وهو يوازن نفسه بإعجابٍ قليلاً على أصابع قدمه وهو ينظر حول المدرج الروماني وكأنه مليء بالمستمعين. فجأةً، رأته إيزابيل وقد تغيّر لون وجهه؛ فقد كان هناك أكثر من مستمعٍ واحد مما توقع. فالتفتت وأدركت بأن رفيقتيها قد عادتا من جولتهما. فقالت بسرعة: (عليكَ حقاً أن تغادر).

همهم إدوارد غوزييه بصوتٍ مختلف بشكلٍ غريب عن التصريح الذي ذكرتُهُ للتو: (آه، سامحيني يا سيدتي العزيزة!).

ومن ثم أضاف بلهفة كرجلٍ استولت عليه في خضم بؤسه فكرةٌ سعيدة: (هل تلك السيدة هي الكونتيسة جيميني؟ لدي رغبة كبيرة في أن يتم تقديمي إليها).

نظرت إليه إيزابيل لوهلة وقالت: (ليس لديها تأثير على أخيها).

ـ (آه، كم تُبيّنينه وحشاً!).

واستقبل غوزييه الكونتيسة التي تقدمت أمام بانسي بحماس إلى حدٍّ ما، ربما لأنها أدركَت بأن زوجة أخيها منخرطة في محادثةٍ مع شابٍّ جميلٍ جداً.

صاحت إيزابيل وهي تتركه: (أنا مسرورة لأنكَ احتفظتَ بتحفياتكَ المطلية بالمينا!).

فتوجهت مباشرةً نحو بانسي التي، عند رؤيتها لإدوارد غوزييه، توقفت وعيناها منكّستان.

قالت برفق: (سنعود إلى العربة).

ردت بانسي برفقٍ أكثر: (نعم، إن الوقت متأخر).

ومضت بدون همهمة، بدون تردد أو النظر إلى الخلف. رغم ذلك، رأت إيزابيل ـ سامحةً لهذا التحرر الختامي ـ بأن تجاوباً كان قد حصل فوراً بين الكونتيسة والسيد غوزييه. كان قد خلع قبعته وكان منحنياً ومبتسماً؛ إذ من الواضح بأنه قد عرَّفَ عن نفسه، بينما أظهرت مؤخرة الكونتيسة المعبّرة لعينيّ إيزابيل ميلاً لطيفاً. مع ذلك، كانت هذه الأحداث قد غابت عن النظر فوراً لأن إيزابيل وبانسي قد احتلتا مكانهما ثانيةً في العربة. أبقت بانسي، التي جلست بمواجهة زوجة أبيها، في البداية عينيها مثبّتتين على حضنها؛ ثم رفعتْهُما وثبتتهما على عينيّ إيزابيل، حيث شعَّ من عينيّ كل واحدة منهما بريق كئيب

قليلاً ـ ومضة من شعور بالخوف لامَسَ إيزابيل في أعماقها. في الوقت نفسه، مرت موجةٌ من الحسد فوق روحها كلما قارنت بين التشوّق الباعث على الارتعاش والطموح الواضح للطفلة وبين يأسها الجامد.

قالت بعطف: (مسكينة بانسي الصغيرة!).

أجابت بانسي بنبرة الدفاع المتحمس: (أوه، لا تُبالِ!).

ومن ثم مرت فترة صمت؛ فقد استغرقت الكونتيسة وقتاً طويلاً للمجيء، فسألت إيزابيل في النهاية: (هل أطْلَعْتِ عمتكِ على أي شيء، وهل فرحَتْ بالأمر؟).

ـ (نعم، لقد أطلعتُها على كل شيء. أعتقد بأنها كانت سعيدة كثيراً).

ـ (أنتِ لستِ مُتعَبة على ما آمل).

ـ (أوه، لا، أشكركِ، أنا لستُ متعبة).

كانت الكونتيسة لا تزال متخلفةً عنهم، لذا طلبت إيزابيل من الحوذي أن يذهب إلى المدرج الروماني ويخبرها بأنهما تنتظران. فعاد على الفور بتصريحٍ مفاده أن السيدة الكونتيسة تطلب منهما أن لا تنتظرا ـ فهي ستعود في عربة!.

بعد أسبوعٍ من ميل عواطف هذه السيدة إلى السيد غوزييه، وجدَتْ إيزابيل، وهي ذاهبة متأخرة قليلاً لترتدي استعداداً للعشاء، بانسي جالسة في غرفتها. بدا وكأنّ الفتاة تنتظرها؛ إذ نهضت من على كرسيها الخفيض.

قالت بصوتٍ خفيض: (عذراً، اسمحي لي، فستكون الأخيرة... لبعض الوقت).

كان صوتها غريباً، وكان لعينيها المفتوحتين على وسعهما نظرة خائفة وقلقة.

صاحت إيزابيل: (لا تقولي بأنكِ مغادِرة!).

ـ (أنا ذاهبة إلى الدير).

ـ (إلى الدير؟).

اقتربت بانسي أكثر حتى أصبحت قريبة كفاية لتضع ذراعيها حول إيزابيل وتضع رأسها على كتفها. بقيت على هذا الوضع لبرهة هادئةً تماماً. لكن رفيقتها تمكنت من أن تشعر برعدتها. عبّرَتْ رعدة جسدها الصغير عن كل شيء كانت عاجزةً عن قوله. مع ذلك، ألحّتْ عليها إيزابيل: (لماذا تذهبين إلى الدير؟)

ـ (لأن بابا يعتقد بأن ذلك هو الأفضل. فهو يقول بأنه يحسن للفتاة الشابة أن تعتزل قليلاً من حينٍ لآخر. ويقول بأنّ العالم، العالم دائماً، قاسٍ جداً بالنسبة لفتاةٍ شابة. وهذه فقط فرصة لقليلٍ من الاعتزال... قليلٍ من التأمل).

تحدثت بانسي فقط باختصار جملاً مفككة وكأنها بالكاد تثق بنفسها؛ ومن ثم أضافت بانتصارٍ ذي رباطة جأش: (أعتقد بأن بابا على حق؛ فقد تواجدتُ كثيراً جداً في هذا العالم هذا الشتاء).

كان لتصريحها تأثير غريب على إيزابيل؛ إذ بدا أنه يحمل معنى أكبر مما تعرفه الفتاة نفسها. فسألتْ: (متى تم إقرار ذلك؟ فلم أسمع عنه شيئاً أبداً).

ـ (بابا هو من أخبرَني قبل نصف ساعة؛ فهو يعتقد بأنه لا يجب التحدث عنه كثيراً مقدماً. ستأتي مدام كاثرين من أجلي في الساعة السابعة والربع، وسآخذ فستانين فقط. إنه فقط لبضعة أسابيع؛ أنا متأكدة بأنها ستكون أسابيع سعيدة جداً. سوف أجد كل تلك السيدات اللواتي اعتدن أن يكنَّ لطيفات جداً معي، وسوف أرى الفتيات الصغيرات اللواتي يدرسن).

قالت بانسي بمظهرٍ من العظمة الضئيلة: (أنا معجبة جداً بالفتيات الصغيرات. وأنا أيضاً معجبة جداً بالأم كاثرين. سوف أكون هادئة جداً وأفكر كثيراً).

أصغت إليها إيزابيل وهي تحبس أنفاسها؛ فقد كانت مصعوقة بخشية تقريباً.

ـ (فكري بي في بعض الأحيان).

صاحت بانسي: (آه، تعالي لرؤيتي قريباً!) وكانت النبرة مختلفة كثيراً عن الملاحظات البطولية التي أفصحَتْ عنها للتو. لم تستطع إيزابيل أن تقول المزيد؛ فهي لم تفهم شيئاً؛ بل شعرَتْ فقط بأنها لحدّ الآن لم تعرف زوجها كثيراً. كانت إجابتها لابنته قبلة طويلة ورقيقة.

بعد نصف ساعة علمَتْ من خادمتها بأن مدام كاثرين قد وصلت في عربة وغادرت مع الآنسة ثانيةً.

عند ذهابها إلى غرفة الاستقبال قبل العشاء وجدت الكونتيسةَ جيميني لوحدها، ووصفت هذه السيدة الحدثَ بالقول، وبهزّة رأسٍ رائعة: (أنا هنا يا عزيزتي، استريحي!).

لكن إن كان ذلك تصنُّعاً فقد كانت متحيّرة من أن ترى زوجها متأثراً. بل تمكنتْ فقط أن تشعر قليلاً بأنه كان لديه تقاليد أكثر مما تصوّرَتْ. لقد أصبح من عادتها أن تكون حريصة جداً فيما تقوله له بحيث ـ من الغريب كما يبدو ـ أنها ترددت بعد بضع دقائق من دخوله من أن تشير إلى المغادَرة المفاجئة لابنته؛ وتحدثت عنها فقط بعد أن جلسا على المائدة. لكنها كانت قد منعَتْ نفسها دائماً من أن تسأل أوزموند سؤالاً واحداً. وكان كل ما تمكنتْ من فعله هو أن تصرّح، وكان هناك تصريحٌ قد صدر بشكلٍ طبيعي جداً: (سوف أفتقد بانسي كثيراً جداً).

نظر لوهلةٍ ورأسه مائل قليلاً إلى سلة الأزهار التي في وسط المائدة، فقال في النهاية: (آه، نعم، لقد فكرتُ في ذلك. عليكِ أن تذهبي وتريها، تعلمين ذلك؛ لكن ليس دائماً. قد تتساءلين لِمَ أرسلتُها إلى الأخوات الطيبات؛ لكنني أشكُّ في إمكانيتي جعلكِ تفهمين. لكنه غير مهم؛ ولا تزعجي نفسكِ بشأن ذلك. لهذا السبب لم أتحدث عنه. فلم أتصور بأنكِ ستخوضين في الموضوع. لكن هذه الفكرة كانت لدي دائماً؛ فقد اعتبرتُها دائماً جزءاً من

تعليم المرء لابنته. فابنة المرء يجب أن تكون نقية وطاهرة؛ يجب أن تكون بريئة ورقيقة. فبأخلاقيات اليوم هي مُعرَّضة إلى أن تصبح مضطربة جداً ومقهورة. إن بانسي فتاة صغيرة مضطربة، فتاة صغيرة فوضوية؛ فقد تعرّضَتْ لنكسات كثيرة جداً. إن هذا الحشد من الناس المتخبّطين المتواقحين الذي يسمّي نفسه مجتمَعاً... يجب على المرء أن يُخرجَها منه أحياناً. إن الأديرة هادئة جداً، مريحة جداً، نافعة جداً. أحبُّ أن أراها هناك، في الحديقة العتيقة، تحت الممرات المقنطرة، بين تلك النساء الهادئات الفاضلات. إن الكثير منهن قد وُلدنَ نساءً محترمات؛ والقليل منهنّ نبيلات. ستحظى بكتبها ورسوماتها، ستحظى بالبيانو الخاص بها. لقد عملتُ أكثر التدابير سخاءً. لا يجب أن يكون هناك تقشّف؛ يجب أن يكون هناك فقط إحساسٌ قليل بالعزلة. سوف تحظى بالوقت لتفكر، وهناك شيء أريدها أن تفكر به).

كان أوزموند يتحدث بحرية، وبشكل منطقي، ورأسه لا يزال مائلاً إلى جانبٍ واحد وكأنّه كان ينظر إلى سلّة الزهور. رغم ذلك، كانت نبرته نبرة رجلٍ لا يقدّم كثيراً تفسيراً بصياغة شيء إلى كلمات ـ إلى صور قليلاً ـ ليرى بنفسه كيف سيبدو. لقد فكَّرَ قليلاً بالصورة التي أثارها وبدا مسروراً بها بشكلٍ كبير. ومن ثم واصل الكلام: (في النهاية، إن الكاثوليك حكماء جداً. والدير مؤسسة عظيمة؛ ولا نحتمل بدونها؛ فهي تمثّل حاجة أساسية في العائلات، والمجتمع، إنها مدرسة للأخلاق الحميدة؛ إنها مدرسة السكينة).

ثم أضاف: (أوه، أنا لا أريد أن أعزل ابنتي عن العالم. أنا لا أريد أن أجعلها تؤسس أفكارها على أي عالمٍ آخر. فهذا العالم مناسب تماماً، كما يجب عليها أن تأخذ به، ويمكنها أن تفكر فيه بقدر ما تحب. فقط يجب عليها أن تفكر فيه بالطريقة الصحيحة).

أولت إيزابيل اهتماماً بالغاً لهذا الوصف القصير؛ فقد وجدَتْهُ في الحقيقة مثيراً للاهتمام بشكلٍ هائل. فقد بدا بأنه يوضّح لها إلى أي مدى كانت فيه

رغبة زوجها قادرة على الاستمرار لتكون مؤثّرة ـ إلى درجة اللعب بحيلٍ نظريّة على ابنته الصغيرة الحساسة. لم تستطع أن تفهم غرضه، كلا ـ ليس تماماً؛ لكنها فهمَتْهُ بشكلٍ أفضل مما تصوَّرَ أو رغبَ، لأنها كانت مقتنعة بأن الحدث برمته كان تعميةً مدروسة موجَّهة إليها ومقصودٌ منها أن تؤثر في مخيلتها. فقد أراد أن يفعل شيئاً مفاجئاً واعتباطياً، شيئاً غير متوقع ومحكم؛ ليحدد الفرق بين عواطفه وعواطفها، ويُظهِر بأنه إن كان يعتبر ابنته عملاً فنياً ثميناً فمن الطبيعي أن يكون حريصاً أكثر وأكثر على اللمسات النهائية. إن أرادَ أن يكون مؤثراً، فقد نجح في ذلك؛ إذ سبَّبَ هذا الحدث رعدة في قلب إيزابيل. كانت بانسي تعرف الدير في طفولتها وكانت قد وجدت بيتاً سعيداً هناك؛ إذ كانت معجبة بالراهبات الطيبات اللواتي كُنَّ معجبات جداً بها، ولم يكن هناك لهذا السبب صعوبة محددة في مكانها. لكن برغم ذلك، كانت الفتاة خائفة؛ فالانطباع الذي رغب والدها أن يعمله كان قاسياً جداً بشكلٍ واضح. لم تضمحل التقاليد البروتستانتية القديمة أبداً من مخيلة إيزابيل، وبما أن تفكيرها قد انضَمَّ إلى هذه العظة العجيبة لعبقرية زوجها ـ جلستْ وهي تنظر مثل زوجها إلى سلة الزهور ـ فقد أصبحت بانسي الصغيرة المسكينة بطلة تمثيلية مأساوية. أراد أوزموند أن يكون معلوماً بأنه لم يكن متضايقاً من شيء ـ ووجدتْ زوجته أن من الصعب أن تتظاهر بتناول عشائها. كان هناك ارتياح مؤكّد في الوقت الحالي بسماعها الصوت العالي المتصنّع لأخت زوجها. من الواضح أن الكونتيسة أيضاً كانت تفكر في الموضوع مسبقاً لكنها توصلتْ لاستنتاج مختلف عن إيزابيل، إذ قالت: (إنه أمر غريب جداً يا عزيزي أوزموند أن تخترع أسباباً ظريفة بهذا الكم لإقصاء بانسي المسكينة. لِمَ لا تقول مباشرةً بأنكَ تريد إبعادها عن طريقي؟ ألم تكتشف بأنني أُحسنُ الظن بالسيد غوزييه؟ أنا أُحسنُ الظن به بالفعل؛ فهو يبدو بالنسبة لي لطيفاً جداً. لقد جعلني أؤمن بالحب الحقيقي؛ إذ لم أكن أؤمن به من قبل! وطبعاً قررتَ بأنني بهذه القناعات رفيقة مخيفة لبانسي).

أخذ أوزموند رشفة من كأس النبيذ؛ لقد بدا مبتهجاً. فأجاب وهو يبتسم، وكأنه يقول رأياً شجاعاً: (يا عزيزتي إيمي، أنا لا أعلم أي شيء عن قناعاتكِ، لكنني لو شككتُ بأنها تتعارض مع قناعاتي فسيكون من الأسهل أن أُقصيكِ أنت).

***

الفصل 51

لم تكن الكونتيسة قد أُقصيَتْ، لكنها شعرت بأن تمتعها بضيافة أخيها غير مأمون.

بعد أسبوعٍ من هذا الحدث، تلقّت إيزابيل برقيةً من انجلترا، مؤرَّخة من جاردن كورت وتحمل ختم السيدة تاتشيت، ورد فيها:

«لن يستطيع رالف الصمود لعدة أيام، ويودُّ أن يراكِ لو أمكن. لقد أرادَ مني أن أقول لكِ بأنه يجب عليكِ أن تأتي فقط إن لم يكن لديكِ التزامات أخرى. لقد قلتُ لنفسي بأنكِ اعتدتِ كثيراً على أن تتحدثي عن التزاماتكِ وأن تسألي ماذا كانت؛ سأكون متلهفة لأعرف فيما إذا كنتِ قد اكتشفتِ ذلك. إن رالف يحتضر فعلاً، ولا يوجد أحدٌ بجانبه».

كانت إيزابيل مستعدةً لهذه الأخبار لأنها تلقت من هنرييتا ستاكبول تقريراً مفصلاً عن رحلتها إلى إنجلترا مع مريضها المعجب؛ فقد كان رالف قد وصل ميتاً أكثر منه حيّاً، لكنها تدبرت أمرها لتنقله إلى جاردن كورت حيث كان قد أُخِذَ إلى فراشه الذي ـ كما كتبت الآنسة ستاكبول ـ يبدو بأنه لن يغادره ثانيةً. وأضافت بأنها كان لديها في الحقيقة مريضان بين يديها بدلاً من واحد، لأن السيد غودوود، الذي لم يكن ذا فائدة مادية، كان مريضاً كالسيد تاتشيت لكن بطريقة مختلفة. بعد ذلك كتبت بأنها كانت مضطرة لأن تترك الساحة للسيدة تاتشيت التي كانت قد عادت لتوها من أميركا وأَفْهَمَتْها بسرعة بأنها لا تريد أية مقابلات صحفية في جاردن كورت.

كانت إيزابيل قد كتبت رسالة إلى خالتها بعد مجيء رالف إلى روما بفترة

قصيرة، تُعلمُها فيها بحالته الحرجة، وتقترح بأنها لا يجب عليها أن تُضيّع الوقت في العودة إلى أوروبا. وكانت السيدة تاتشيت قد أبرقت بتأكيدٍ لهذا التنبيه، وكانت الأخبار الأخرى الوحيدة التي تلقتها إيزابيل منها هي البرقية الثانية التي ذكرتُها للتو.

وقفت إيزابيل لبرهة وهي تنظر إلى الرسالة الأخيرة؛ ومن ثم توجهت نحو باب غرفة مكتب زوجها وهي تَدُسُّ الرسالة في جيبها. هنا أيضاً توقفت ثانيةً لوهلة. بعد ذلك، فتحت الباب ودخلَتْ.

كان أوزموند جالساً عند الطاولة بالقرب من النافذة وأمامه كتاب مستند إلى مجموعة من الكتب. كان الكتاب مفتوحاً عند صفحةٍ بها أقراص صغيرة ملونة، ورأت إيزابيل على الفور بأنه كان ينسخ منها صورةً لعملةٍ قديمة. وكانت هناك علبة للألوان المائية وفرش رسم رفيعة ملقاة أمامه، وكان قد نسخ مسبقاً إلى ورقةٍ نظيفة صورة القرص الدقيق الملون بدقة. كان ظهره ناحية الباب، لكنه أحَسَّ بأنها زوجته بدون أن يلتفت.

قالت: (اعذرني على إزعاجكَ).

فأجاب وهو مستمر في عمله: (أنا عندما آتي إلى غرفتكِ أطرق الباب دائماً).

ـ (لقد نسيتُ؛ فلدي شيء آخر أفكرُ فيه. إن ابن خالتي يحتضر).

قال أوزموند وهو ينظر إلى ما رسمه عبر عدسةٍ مكبّرة: (آه، أنا لا أصدقُ ذلك. فقد كان يحتضر عندما تزوجنا؛ سوف يعيش أكثرنا جميعاً).

لم تضيّع إيزابيل الوقت ولا التفكير لتدرك الاستخفاف الدقيق لهذا التصريح؛ بل قامت ببساطة بالاستمرار في الكلام بسرعة وكلها تصميم: (أبرقتْ لي خالتي ويجب أن أذهب إلى جاردن كورت).

سأل أوزموند بنبرةٍ فضولية غير مُغرِضة: (لِمَ يجب عليكِ الذهاب إلى جاردن كورت؟).

ـ (لأرى رالف قبل أن يموت).

لم يُجب على ذلك لبعض الوقت؛ بل واصَلَ صبَّ اهتمامه الأساسي على عمله الذي كان من النوع الذي لا يحتمل الإهمال، ثم قال في النهاية: (لا أرى حاجةً لذلك، فقد أتى ليراكِ هنا. لم أكن أحبُّ ذلك؛ ورأيتُ أن بقاءه في روما كان غلطة كبيرة. لكنني احتملتُ ذلك لأنها كانت المرة الأخيرة التي يجب أن تَريهِ فيها. والآن تخبرينني بأنها ليست الأخيرة. آه، أنت ناكرة للجميل!).

ـ (ولأجل ماذا يجب أن أكون ممتنة؟).

ترك جيلبرت أوزموند أدواته، نفخَ بقعاً من الغبار عن لوحته، نهض على مهل، ولأول مرة نظر إلى زوجته.

ـ (لعدم تدخُّلي بينما كان هنا).

ـ (أوه، نعم، أنا ممتنة. أذكرُ جيداً كم أعلَمْتَني بوضوح بأنكَ لم تحب ذلك. لقد كنتُ مسرورةً جداً عندما غادرَ).

ـ (اتركيه إذن وشأنه. لا تركضي وراءه).

أشاحت إيزابيل بنظرها عنه؛ واستقرَّ على لوحته الصغيرة.

قالت وهي مدركةٌ تماماً بأن نبرتها قد تُدهِشُ رجلاً ذَوّاقاً عصبي المزاج مثلما هو عنيد بشكلٍ أحمق: (يجب أن أذهب إلى إنجلترا).

أشار أوزموند: (لن أحبّذ الأمر إنْ فعلتِهِ).

ـ (ولِمَ يجب عليَّ أن أهتم بذلك؟ فأنتَ لن تحبّذ ذلك حتى لو لم أفعله. فأنتَ لا تحب شيئاً أفعلُهُ أو لا أفعلُهُ. أنت تتجرأ على الاعتقاد بأنني أكذب).

استحال أوزموند شاحباً قليلاً؛ وأبدى ابتسامة باهتة.

ـ (إذن ذلك هو سبب ذهابكِ؟ ليس لتري ابن خالتكِ، بل لتنتقمي مني).

ـ (أنا لا أعرف شيئاً عن الانتقام).

قال أوزموند: (أنا أعرف. ولا تمنحيني فرصةً لذلك).

ـ (أنتَ فقط متلهف جداً لتستغل أي فرصة. أنت تتمنى بشدة أن أرتكب حماقة).

ـ (في هذه الحالة، يجب أن أكون مسروراً إن لم تطيعيني).

قالت إيزابيل بنبرة خفيضة كان لها أثر الصبر: (لو لم أُطيعكَ؟).

ـ (دعيني أكون صريحاً. إن غادرتِ روما اليوم فسيكون ذلك جزءاً من تمردٍ مُدبَّر ومُخَطَّطاً له).

ـ (كيف يمكنكَ أن تسميه مخططاً له؟ فأنا لم أستلم برقية خالتي إلّا قبل ثلاث دقائق؟).

ـ (أنتِ تخططين بسرعة؛ إنه إنجازٌ عظيم. لا أفهم لِمَ يجب علينا أن نطيل حديثنا؛ فأنتِ تعرفين ما أريد).

ووقف هناك وكأنه ينتظر أن تراها تخرج. لكنها لم تتحرك أبداً؛ إذ لم تستطع الحركة، وذلك غريبٌ كما يبدو؛ فلا زالت تريد أن تبرئ نفسها؛ فقد كان لديه القوة وبدرجة غير اعتيادية بجعلها تشعر بهذه الحاجة. كان هناك شيء ما في مخيلتها تمكَّنَ دائماً من اجتذابه ضد قراراتها.

قالت إيزابيل: (ليس لديكَ سبب منطقي لرغبةٍ كهذه، وأنا لدي كل الأسباب المنطقية للذهاب. لا يمكنني أن أصف كم تبدو متحاملاً عليّ، لكنني أعتقد بأنكَ تعرف. إن تمردكَ هو المخطَّط له، إنه خبيث).

لم تكن قد تلفّظتْ أبداً بأسوأ أفكارها لزوجها من قبل، ومن الواضح بأن إحساس سماعه لذلك كان جديداً على أوزموند. لكنه لم يُبْدِ دهشة، فمن الواضح أن بروده دليل على تيقُّنِهِ من أن زوجته ستكون في الحقيقة عاجزة عن أن تقاوم إلى الأبد مسعاه الحاذق بإخراجها من الغرفة.

أجاب: (إذن فالأمر صعب).

وأضاف وكأنه تقريباً يمنحها مشورةً من صديق: (إن هذه مسألة مهمة جداً).

لقد فهمَتْ بأنها مدركة جيداً لأهمية الحدث؛ وبأنها تعرف بأنهما وصلا إلى أزمةٍ بينهما جعلَتْها تصبح حذرة؛ فلم تقل شيئاً.

واصل الكلام: (أنتِ تقولين بأنه ليس لدي سبب منطقي؟ بل أنا لدي أكثر الأسباب منطقيةً. فأنا أكره بكل كياني ما تنوين فعله. إنه أمرٌ غير مشرّف؛ إنه غير محتشم؛ إنه غير لائق. إن ابن خالتكِ بالنسبة لي هو لا شيء بأية حال، وأنا لستُ ملزماً بأن أقدم له أية تنازلات. لقد قدمتُ مسبقاً أكثر التنازلات سخاءً. فعلاقتكِ معه، عندما كان هنا، أبقتني قلقاً. لكنني سمحتُ بذلك لأنني توقعتُ من أسبوعٍ لآخر بأن يرحل. أنا لم أحبه قط وهو لم يحبني قط).

قال أوزموند برعشة سريعة في صوته لم تكن مسموعة كثيراً: (ولهذا السبب أنت تحبينه، لأنه يكرهني. أنا لدي تصوُّر لِما يجب أن تفعله زوجتي وما لا يجب أن تفعله. لا يجب أن تسافر عبر أوروبا لوحدها، من غير اعتبار لأعمق رغباتي، لتجلس إلى جوار سرير رجالٍ آخرين. إن ابن خالتكِ هو لا شيء بالنسبة لكِ؛ إنه لا شيء بالنسبة لنا. أنت تسخرين بشكلٍ واضح أكثر عندما أتحدثُ عنا نحن الاثنين، لكنني أؤكدُ لكِ بأننا يا سيدة أوزموند هو كل ما أعرفُ. لقد اعتبرتُ زواجنا مهماً؛ ويبدو أنكِ وجدتِ طريقة في عدم فعل ذلك. لم أعلم بأننا مطلّقان أو منفصلان؛ فبالنسبة لي نحن مرتبطان بشكلٍ أبدي. أنت أقرب إليّ من أي كائنٍ بشري، وأنا أقرب إليكِ. قد يكون ذلك تقارُباً مزعجاً؛ لكنه على أية حال تقارُبٌ من تدبيرنا المتعمّد. أنت لا تحبين أن يتم تذكيركِ بذلك، أعلمُ ذلك؛ لكن أنا أحبُّ ذلك كثيراً لأنني... لأنني...).

فتوقف لبرهةٍ عن الكلام وهو يبدو وكأن لديه شيئاً ليقوله والذي سيكون في الصميم جداً.

ـ (لأنني أعتقد بأنه يجب علينا أن نتقبّل تبعات أفعالنا، وأن أكثر شيء أقدّرهُ في الحياة هو شرف الشخص!).

لقد تكلم بجدية وقليلاً برقّة؛ إذ اختفت لهجة السخرية من نبرته. وكان لها

جاذبية أسرت عواطف زوجته سريعاً؛ إذ وجد التصميمُ الذي دخلَتْ به الغرفة نفسَه أسيراً في شبكةٍ من خيوط رفيعة. لم تكن كلماته الأخيرة أمراً، بل مثّلَتْ نوعاً من الالتماس؛ ومثّلَتْ شيئاً متعالياً واستبدادياً كعلامة الصليب أو راية بلاد المرء، رغم أنها شعرت بأن أي تعبير من الاحترام من جانبه لا يمكن أن يكون سوى نوع مُحَسَّن من الأنانية. لقد تحدَّثَ باسم شيء مقدسٍ وثمين ـ وهو اتباع الأسلوب الرفيع. كانا منفصلَيْن تماماً في المشاعر كعاشقَيْن خائبَيْن؛ لكنهما مع ذلك ليسا منفصلَيْن في التأثير.

لم تكن إيزابيل قد تغيرت؛ فشغفها القديم بالعدالة لا يزال يسكنها؛ واليوم، وفي خضم إحساسها بالمغالطة الكافرة لزوجها، بدأ هذا الشغف ينبض بنغمةٍ وَعَدَتْهُ لوهلةٍ بالنصر. لقد خطر لها أن برغبته في الحفاظ على المظاهر كان في النهاية صادقاً، وأن هذا الأمر ـ مهما كان المدى الذي وصل إليه ـ هو فضيلةً. فقبل عشر دقائق كانت تشعر بكل متعة التصرف اللاعقلاني ـ وهي متعةٌ كانت غريبةً عليها منذ وقتٍ طويل؛ لكن التصرف الذي تغير فجأة إلى تنازلٍ بطيء قد انقلب بفساد لمسة أوزموند. رغم ذلك، إن كان لا بدّ لها أن تتنازل فستُعْلِمُهُ بأنها كانت ضحية بدلاً من ساذجة.

قالت: (أنا أعلم بأنكَ سيد فن السخرية. كيف تتحدث عن رباطٍ أبدي... كيف يمكنكَ أن تتحدث عن كونكَ مسروراً؟ أين هو تآلفنا عندما تتهمني بالخيانة؟ أين هي قناعتكَ عندما لا تملك شيئاً سوى ارتيابٍ بشعٍ في قلبكَ؟).

ـ (إن الارتياب هو في عيشنا سوياً باحترام بالرغم من مشاكل كهذه).

صاحت إيزابيل: (نحن لا نعيش سوياً باحترام!).

ـ (نحن كذلك بالفعل إن كنتِ ستذهبين إلى إنجلترا).

ـ (ذلك قليلٌ جداً؛ ذلك لا شيء. يمكنني أن أفعل أكثر بكثير من ذلك).

فرفع حاجبيه دهشةً، وحتى كتفيه، قليلاً؛ فقد عاش طويلاً في إيطاليا ليفهم هذه الحيلة.

ـ (آه، إن أتيتِ لتهدديني فأُفضِّلُ الانسحاب).

وعاد إلى طاولته حيث التقط الورقة التي كان يعمل عليها ووقف يتأملها.

قالت إيزابيل: (أعتقدُ بأنني إن ذهبتُ لا تتوقعْ مني العودة).

فالتفتَ بسرعة، وتمكنتْ من أن ترى بأن هذه الحركة على الأقل لم تكن مصطنعة. فنظر إليها قليلاً ومن ثم تساءل: (هل جننتِ؟).

واصلت كلامها: (كيف يمكن لذلك أن لا يكون سوى قطيعة؟ خاصةً إن كان كل ما قلتَهُ صحيحاً؟).

كانت عاجزة عن أن ترى كيف يمكن لذلك أن لا يكون سوى قطيعة؛ فقد تمنت بصدقٍ أن تعرف ماذا يمكن أن يكون.

فجلس أمام طاولته وقال: (أنا في الحقيقة لا أستطيع مجادلتكِ في فرضية تحديكِ لي). والتقطَ ثانيةً إحدى فرش الرسم الصغيرة الخاصة به.

لم تلبث سوى برهة؛ كانت وحدها كافية لتحيط بنظرها هيئته العامة اللامبالية بشكلٍ مفتعل وأيضاً الأكثر تعبيراً؛ والتي بعدها غادرت الغرفة بسرعة. كانت قدراتها، طاقتها، غضبها، قد تلاشت ثانيةً؛ فقد شعرت وكأن غشاوة باردةً، معتمة، قد أحاطتها فجأة. كان أوزموند مأخوذاً لدرجة عالية بمهارة إثارة أي ضعف.

وجدت، وهي في طريقها عائدة لغرفتها، الكونتيسة جيميني واقفةً عند المدخل المفتوح لردهةٍ صغيرة رُتِّبَتْ فيها مجموعة صغيرة من الكتب المختلفة. كان لدى الكونتيسة كتابٌ مفتوح في يدها؛ إذ بدت تنظر إلى صفحةٍ أخفقت في إثارة اهتمامها، فرفعت صوتها على صوت خطوات إيزابيل وقالت: (آه، يا عزيزتي، أنت الواسعة الاطلاع كثيراً، دُلّيني على كتاب مثير للاهتمام كي أقرؤه! فكل شيء هنا كئيب...! هل تظنين بأن هذا سينفعني؟).

نظرت إيزابيل إلى عنوان الكتاب الذي حملَتْهُ لكن بدون أن تقرأه أو تفهمه.

ـ (أخشى بأنه لا يمكنني أن أنصحكِ. فلدي أخبار سيئة. إن رالف تاتشيت ابن خالتي يحتضر).

ألقت الكونتيسة كتابها.

ـ (آه، لقد كان لطيفاً جداً. أنا حزينة جداً لأجلكِ).

ـ (ستحزنين أكثر أيضاً لو عرفتِ).

ـ (ماذا هناك لأعرفه؟ تبدين بحالٍ سيئة جداً).

أضافت الكونتيسة: (لا بدّ أنكِ كنتِ مع أوزموند).

قبل نصف ساعة كانت إيزابيل ستصغي ببرود شديد لتنويه بأنها يجب أن تشعر يوماً برغبةٍ للتعاطف مع أخت زوجها، ولا يمكن أن يوجد دليل على ارتباكها الحالي أكبر من أنها تشبثتْ تقريباً بالرعاية المرتبكة لهذه السيدة، فقالت بينما تشع العينان البراقتان للكونتيسة عليها: (لقد كنتُ مع أوزموند).

صاحت الكونتيسة: (إذن أنا متأكدة بأنه كان بغيضاً! هل قال بأنه مسرورٌ لأن السيد تاتشيت المسكين يحتضر؟).

ـ (لقد قال بأن من المستحيل أن أذهب إلى إنجلترا).

كان ذهن الكونتيسة سريع الخاطر عندما يتعلق الأمر بشؤونها؛ فقد تكهنت مسبقاً بانطفاء أي بريق آخر لزيارتها إلى روما. فرالف تاتشيت سيموت، وإيزابيل ستذهب للتعزية، ثم إنه لن يكون هناك المزيد من حفلات العشاء. إن تكهُّناً كهذا سبَّبَ لوهلةٍ تجهماً معبِّراً في محيّاها؛ لكن هذا التغير السريع المعبِّر في تعبير الوجه كان إعرابها الوحيد عن خيبة الأمل. ففكرتْ بأن اللعبة في النهاية كانت عديمة النفع قليلاً؛ إذ إنها أساساً تجاوزتْ مدة استضافتها. فاهتمت كثيراً بمشكلة إيزابيل لتنسى مشكلتها؛ إذ رأت أن مشكلة إيزابيل كانت عميقة. فقد بدت أعمق من مجرد موت ابن خالة، ولم تتردد الكونتيسة في الربط بين أخيها المثير للغضب وبين تعبير عينيّ زوجة أخيها.

كان قلبها يخفق بترقبٍ سارٍّ قليلاً، لأنها إن كانت تتمنى أن ترى أوزموند وقد تفوَّقَ عليه شخصٌ آخر فالظروف بدت مؤاتية الآن. إن كان على إيزابيل أن تذهب إلى إنجلترا طبعاً، فهي نفسها ستغادر قصر روكانيرا على الفور؛ فلا شيء سيشجعها على البقاء هناك مع أوزموند. مع ذلك، شعرتْ برغبة قوية في أن تسمع بأن إيزابيل ستذهب إلى إنجلترا.

قالت مداعِبةً: (لا يوجد شيء مستحيل بالنسبة لكِ يا عزيزتي. فلماذا أيضاً أنت غنية وذكية وطيبة؟).

ـ (لماذا حقاً؟ أنا أشعر بأنني ضعيفة بشكلٍ أحمق).

سألت الكونتيسة بنبرةٍ أوضحت بشكلٍ كافٍ بأنها لم تتمكن من تخيُّلِ ذلك: (لماذا يقول أوزموند بأنه مستحيل؟).

مع هذا، منذ اللحظة التي بدأت فيها تسألها عن هذه النقطة تراجعت إيزابيل؛ إذ قامت بسحب يدها التي كانت الكونتيسة قد أخذَتْها برقّة. لكنها أجابت عن هذا التساؤل بمرارة واضحة: (لأننا سعداء جداً سوياً بحيث لا يمكننا أن نفترق حتى لأسبوعين).

صاحت الكونتيسة بينما استدارت إيزابيل مبتعدة: (آه، عندما أريد أن أقوم بنزهة يخبرني زوجي ببساطة بأنه لا يمكنني الحصول على المال!).

فذهبت إيزابيل إلى غرفتها حيث ظلت تروح وتجيء لمدة ساعة.

قد يبدو لبعض القُرّاء بأنها سببت لنفسها الكثير من المتاعب، وأنه من المؤكد بالنسبة لامرأةٍ سعيدة قد سمحتْ لنفسها بأن يتم حبسها بسهولة. لقد اتضح لها بأنها الآن فقط قد قدّرَتْ كثيراً الالتزام الكبير للزواج. فقد عنى الزواج في حالةٍ كهذه، عندما يكون على المرء أن يختار، بأن المرء قد اختارَ زوجه كأمرٍ مفروغٍ منه. قالت لنفسها أكثر من مرة وهي تتوقف قليلاً عن مشيها: (أنا خائفة... نعم، أنا خائفة). لكن ما كانت خائفةً منه لم يكن زوجها ـ استياؤه، حقده، نقمته؛ لم يكن حتى حكمها الأخير على تصرفها ـ

وهو تفكيرٌ أعاقها مراراً؛ بل كان فقط النزاع الذي سيحدث في الذهاب عندما أراد أوزموند منها البقاء. لقد انفتحت ثغرةٌ من الخلاف بينهما، لكن مع ذلك كانت رغبته هي أن تبقى، لقد كان رعباً بالنسبة له أن تذهب. لقد عرفت الدهاء المثير للغضب الذي تمكَّنَ أوزموند من أن يشعر بأنه عائق. فما كان يعتقدهُ بشأنها قد عرفَتْهُ، وما كان قادراً على قوله لها كانت قد شعرتْ به؛ مع ذلك فقد تزوجا، برغم ذلك كله، والزواج يعني أن المرأة يجب أن تتمسك بالرجل الذي وقفتْ معه عند مذبح الكنيسة وهي تنطق العهد الكبير. فانهارت على أريكتها في النهاية ودفنَتْ وجهها في كومةٍ من الوسائد. عندما رفعت رأسها ثانيةً كانت الكونتيسة جيميني تحوم أمامها. كانت قد دخلت بشكلٍ غير محسوس تماماً؛ وكانت لها ابتسامة غريبة على شفتيها الرفيعتين وكان وجهها برمّته قد ازداد أُلفةً متألقة خلال ساعة. قد يُقال بأنها بلا ريب تعيش عند نافذة روحها، لكنها الآن كانت تنحني خارج هذه النافذة.

بدأت الكلام: (لقد طرقتُ الباب لكنكِ لم تجيبيني. لذا تجرأتُ على الدخول. لقد كنتُ أراقبكِ في الخمس دقائق الأخيرة. أنت تعيسةٌ جداً).

ـ (نعم، لكنني لا أعتقد بأنه يمكنكِ مواساتي).

ـ (ألا منحتِني فرصةً للمحاولة؟).

جلست الكونتيسة بجانبها على الأريكة. واصلت الابتسام، وكان هناك شيء صادق وبهيج في تعابيرها. فقد بدا بأن لديها الكثير لتقوله، وخطر لإيزابيل لأول مرة بأن أخت زوجها قد تقول شيئاً إنسانياً حقاً. تلاعبت بعينيها البرّاقتين اللتين كان فيهما سحرٌ غير مريح.

استأنفت الكلام: (على أية حال، لكي أبدأ بالكلام، يجب أن أخبركِ بأنني لا أفهم قراركِ. فأنتِ تبدين بأن لديكِ الكثير جداً من الوساوس، والكثير جداً من الدوافع، والكثير جداً من القيود. فأنا عندما اكتشفتُ قبل عشر سنوات بأنَّ أحَبَّ أمنيةٍ لزوجي هي أن يجعلني بائسة، قام في الآونة الأخيرة ببساطة بتركي

وشأني... آه، لقد كان أمراً بسيطاً رائعاً! أنت لستِ بسيطة جداً يا عزيزتي إيزابيل المسكينة).

قالت إيزابيل: (كلا، أنا لستُ بسيطةً تماماً).

أعلنت الكونتيسة: (هناك شيء أريدكِ أن تعرفيه لأنني أعتقد بأنكِ يجب أن تعرفيه. ربما تعرفينه؛ ربما خمنتِهِ. لكن إنْ خمنتِهِ، فكل ما أستطيع أن أقوله هو أنني لا زلتُ لا أفهم كثيراً لِمَ لا يجب عليكِ أن تفعلي ما تريدينه).

ـ (ما الذي تريدين مني أن أعرفه؟).

شعرت إيزابيل بهاجسٍ جعل قلبها يخفق أسرع. فقد كانت الكونتيسة على وشك أن تفسر، وكان هذا وحده نذيراً بالشؤم. لكن مع ذلك، كانت ميّالة لتتلاعب قليلاً بموضوعها.

ـ (لو كنتُ مكانكِ لكنتُ قد خمنتُه منذ مدة طويلة. ألم ترتابي حقاً بالموضوع؟).

ـ (أنا لم أخمّن شيئاً. ما الذي يجب علي أن أرتاب به؟ لا أعرف ماذا تقصدين).

صاحت الكونتيسة: (ذلك لأن لديكِ نفساً بريئة بشكلٍ يبعث على الغيض. فأنا لم أرَ أبداً امرأةً بهذه النفس البريئة!).

نهضت إيزابيل ببطء.

ـ (ستخبرينني شيئاً مريعاً).

ـ (يمكنكِ أن تسميه أي اسمٍ تريدينه!).

ونهضت الكونتيسة أيضاً بينما ازداد طبعها المشاكس وضوحاً ورهبةً. وقفت قليلاً بطريقة مبهرجة بدت لإيزابيل عندئذٍ قبيحة. قالت بعدها: (إن زوجة أخي الأولى لم يكن لديها أطفال).

حدّقت إيزابيل عليها؛ فقد كان هذا التصريح خيبة أمل.

ـ (زوجة أخيكِ الأولى؟).

ـ (أنتِ تعرفين ـ لو كان من المناسب ذكر الأمر ـ أن أوزموند كان متزوجاً من قبل! أنا لم أتحدث معكِ عن زوجته؛ إذ ظننتُ بأن ذلك قد لا يكون لائقاً أو محترماً. لكن لا بدّ أن الآخرين قد فعلوا ذلك بشكلٍ أقل تفصيلاً. إن المرأة الصغيرة المسكينة بالكاد عاشت ثلاث سنوات وماتت وليس لديها أطفال. ولم يمر على وفاتها فترة طويلة عندما أتت بانسي).

انقبضت ملامح إيزابيل إلى تجهُّم؛ فقد انفرجت شفتاها بدهشةٍ باهتةٍ غامضة. كانت تحاول أن تفهم؛ إذ بدا أن هناك الكثير لتفهمه أكثر مما تمكنت من رؤيته.

ـ (إذن بانسي ليست ابنة زوجي؟).

ـ (بل ابنة زوجكِ بامتياز! لكن ليست ابنة زوجِ امرأةٍ أخرى. بل ابنة زوجةِ رجلٍ آخر).

ثم صاحت الكونتيسة: (آه، يا حبيبتي يا إيزابيل، إن المرء معكِ يجب أن يوضح أكثر!).

سألت إيزابيل: (أنا لا أفهم. ابنة زوجة من؟).

ـ (زوجة رجل سويسري تافه مريع كان قد مات... منذ متى؟... منذ مدة طويلة، أكثر من خمسة عشر عاماً مضى. لم يعترف بالآنسة بانسي أبداً، ولن يكون لديه أي شيء يقوله لها عما يعرفه. فاعترف بها أوزموند، وكان ذلك أفضل؛ وإن كان عليه أن يهيئ بعد ذلك القصة الفارغة عن موت زوجته أثناء ولادة الطفلة، وعن قيامه بسبب الحزن والخوف بإبعاد الطفلة الصغيرة عن نظره لأطول فترة ممكنة قبل أن يأخذها إلى المنزل من المربية. كانت زوجته قد ماتت فعلاً، تعلمين ذلك، لسببٍ مختلف تماماً وفي مكانٍ آخر تماماً: في جبال بيمونتيز حيث كانا قد ذهبا في أحد أيام شهر آب لأن صحتها بدأت تحتاج إلى الهواء النقي، لكن فجأة ساءت حالتها... ومرضت على نحوٍ

مهلك. مرت القصة على نحوٍ مُرضي؛ فقد حُجبت طويلاً بالمظاهر لأن لا أحد تنبَّهَ لذلك، لأن لا أحد اهتمَّ أن يدقق فيها).

واصلت الكونتيسة كلامها ببلاغة: (لكنني طبعاً عرفتُ... بدون استقصاء كما أيضاً بدون كلمة واحدة قيلت بيننا... أقصد بيني وبين أوزموند، ستفهمين ذلك. ألا ترينه وهو ينظر إلي بهذه الطريقة بصمت ليحسم الموضوع؟... أي ليهدئني في حال قلتُ أي شيء. لم أقل شيئاً، يميناً أو شمالاً... ولا كلمة واحدة لأي مخلوق، إن كنتِ تصدقين ذلك عني؛ يا عزيزتي، أقسمُ بشرفي بأنني أتحدثُ لكِ عن هذا الأمر الآن كما لم أتحدث عنه أبداً أبداً بعد كل هذا الوقت. إذ كان سيكفيني منذ البداية أن تكون الطفلة ابنة أخي... أي منذ اللحظة التي كانت فيها ابنة أخي. أما بخصوص أمها الحقيقية.....!).

لكن بذلك، تركتْ بشكل لا إرادي العمةُ الرائعة لبانسي ـ من خلال انطباع وجه زوجة أخيها ـ عينين بدتا تنظران إليها أكثر مما صادفت يوماً. لم تذكر اسماً، لكن مع ذلك لم تتمكن إيزابيل إلّا من أن تستشف من شفتيها أثراً ما لم يُذكَر. فانهارت ثانيةً في مقعدها وهي تُدَلّي رأسها. فسألت بصوتٍ فهمَتْهُ الكونتيسة بصعوبة: (لِمَ تقولين ذلك لي؟).

ـ (لأنني سئمتُ كثيراً من جهلكِ بالموضوع. بصراحة يا عزيزتي، أنا سئمتُ من عدم إخباري لكِ؛ وكأنني بغباء لم أستطع طوال هذا الوقت تدبُّر الأمر! كان ذلك فوق استطاعتي، إن لا تمانعين قولي ذلك، فالأحداث التي حولكِ بدت بأنها نجحتْ في جعلكِ تجهلين الأمر. إن امتلاكي دائماً لدورٍ سيّئ في الأداء هو نوع من المساعدة... المساعدة على الجهل البريء؛ وفيما يخص هذا الموضوع، أي السكوت على أخي، فإن تأثيري قد وجد نفسه على أية حال في النهاية مستنزفاً).

أضافت الكونتيسة بشكلٍ رائع: (علاوة على ذلك، فإنها ليست كذبةً سوداء، تعلمين ذلك. فالحقيقة هي بالضبط ما قلتُهُ لك).

قالت إيزابيل على الفور: (ليس لدي فكرة).

ونظرت لها بطريقةٍ شابهت بلا شك الحماقة الواضحة لهذا الاعتراف.

ـ (وهذا هو ما اعتقدتُهُ... وإن كان من الصعوبة تصديق ذلك. ألم يخطر ببالكِ أبداً بأنه كان على مدى ست أو سبع سنوات عشيقها؟).

ـ (لا أدري. خطرت في ذهني أشياء، وربما كانت كلها لها هذا المعنى).

أمام كل هذا المشهد صاحت الكونتيسة: (لقد كانت بارعة بشكلٍ مذهل، لقد كانت مذهلةً بشأن بانسي!)

واصلت إيزابيل الكلام وبدت بأنها تتبيَّن ما يحدث وما لم يحدث، فقالت: (أوه، بالنسبة لي، لم توجد فكرة اتخذت يوماً بوضوح هذا الشكل). ومع ذلك تحدثتْ كشخصٍ قلقٍ ومتحيّر، فقالت: (وفي الواقع... أنا لا أفهم).

بدت الكونتيسة المسكينة ترى أن بوحها بالأمر قد أخفق في إمكانية تأثيره. فقد توقعت أن تشعل لهيباً سريعاً، لكنها بالكاد أحدثت شرارة. إذ لم تُظهِر إيزابيل تأثراً كما يجب أكثر من تأثُّرِ شابةٍ واسعة الخيال بفقرةٍ شريرة لقصةٍ شعبية.

استأنفت مرافِقتُها الكلام: (ألا تلاحظين كم أن الطفلة لا تبدو وكأنها ابنة زوجها؟... أقصد السيد ميرليه نفسه. لقد انفصلا لمدةٍ طويلة بسبب ذلك، وذهب إلى بلدٍ بعيد.. أعتقد إلى أميركا الجنوبية. إن كانت قد حظيت يوماً بأطفال... وهو أمرٌ لستُ متأكدةً منه... فإنها قد فقدَتْهم. شاءت الظروف أن تجعل الأمر قابلاً للتنفيذ تحت الضغط «أعني عند أزمة محرجة كهذه»، أي أن يعترف أوزموند بالفتاة الصغيرة. إن زوجته كانت ميتة... وهذا صحيح جداً؛ لكنها لم تكن ميتة لمدة طويلة ليُلائمَ تواريخ لا يرتاب فيها أحد... أقصد بأن الشك لم يُثَر منذ البداية ليكترثا له. فما هو الشيء الطبيعي أكثر من أن تترك السيدة أوزموند المسكينة وراءها في منطقةٍ نائية ولأجل عالمٍ لا يزعج نفسه بالتفاهات، ثمرة سعادتها القصيرة التي كلفتها حياتها؟ وبمساعدة تغيير

المسكن... الذي كان أوزموند يعيش فيه معها في نابولي في فترة مكوثهما في الألب والذي تركه في الوقت المناسب إلى الأبد... سارت القصة بمجملها التي وُضعتْ بنجاح. إن زوجة أخي المسكينة وهي في قبرها غير قادرة على شيء، ولكي تنجو الأم الحقيقية بجلدها، أنكرت كل علاقة واضحة بالطفلة).

صاحت إيزابيل التي أرفقت ذلك بالبكاء: (آه، مسكينة، امرأةٌ مسكينة!).

لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن ذرفت أية دموع؛ فقد عانت من ردٍّ فعلٍ شديد بسبب النحيب. لكنها الآن تدفقت بغزارةٍ وجدت فيها الكونتيسة جيميني حيرةً أخرى فقط. فضحكت بصخب.

ـ (إنه لأمرٌ لطيف منكِ أن تشفقي عليها! إن لديكِ فعلاً طريقتكِ الخاصة بكِ...!).

قالت إيزابيل بتعنيف فجائي: (لا بدّ أنه كان خائناً لزوجته... وكذلك سريع جداً!).

واصلت الكونتيسة كلامها: (إن ذلك تماماً هو المطلوب... أن تبحثي في قضيتها! مع ذلك، أنا أتفق معكِ كثيراً بأن ذلك كان سريعاً جداً).

ـ (لكن هل هو، هل هو...؟). وتلعثمت إيزابيل وكأنها لم تفهم؛ وكأنّ سؤالها كان موجهاً لنفسها رغم أنه كان موجوداً في عينيها بشكلٍ كافٍ.

ـ (هل هو مخلص لكِ؟ حسناً، إن ذلك يا عزيزتي يعتمد على ما تسميه مخلصاً. فعندما تزوجكِ لم يعد عاشقاً لامرأةٍ أخرى... فعاشق كهذا يا عزيزتي هو بين الخطر والحَذَر، بينما مرّ على الحدث وقت طويل! إن هذا الحال قد انقضى؛ فالسيدة قد تابت، أو بكل الأحوال ولأسبابٍ تخصها، قد تراجعت؛ فهي أيضاً كان لديها دائماً تقديس شديد جداً للمظاهر لدرجة أنه حتى أوزموند نفسه قد سئم من ذلك. يمكنكِ بذلك أن تتخيلي الأمر... عندما لا يستطيع أن يرتقي بشكل مريح إلى مستوى أي أحد من أولئك الذين يهتم بهم! لكن الماضي برمته كان بينهما).

كررت إيزابيل بشكل تلقائي: (نعم، إن الماضي برمته هو بينهما).

ـ (آه، إن هذا الماضي الأخير هو لا شيء. وإنما، كما قلتُ، تلك الست أو السبع سنوات، هي التي احتفظا بها).

بقيت صامتة قليلاً، ثم قالت: (لماذا إذن أرادته أن يتزوجني؟).

ـ (آه، يا عزيزتي، إن تلك هي سيطرتها! لأن لديكِ المال؛ ولأنها تخيلتْ بأنكِ ستكونين طيبة مع بانسي).

صاحت إيزابيل: (امرأةٌ مسكينة... ومسكينة بانسي التي لا تحبها!).

ـ (ذلك هو السبب في أنها أرادت شخصاً كانت بانسي ستحبه. إنها تعرف؛ إنها تعرف كل شيء).

ـ (هل ستعرف بأنكِ أخبرتِني ذلك؟)

ـ (ذلك سيعتمد على فيما إذا كنتِ ستخبرينها. إنها مستعدة لذلك، وهل تعلمين علامَ تعتمد في حجتها؟ على اعتقادكِ بأنني أكذب. ربما تعتقدين ذلك؛ لا تزعجي نفسكِ بإخفاء الأمر. فأنا لا أكذب هذه المرة. لقد قلتُ الكثير من الأكاذيب الحمقاء، لكنها لم تؤذِ أي أحداً سوى نفسي).

جلست إيزابيل وهي تحدق على قصة رفيقتها وكأنها تحدق في رزمة ضخمة من بضائع رائعة فتحها غجريٌّ جوّال عند قدميها.

سألت أخيراً: (لِمَ لم يتزوجها أوزموند؟).

ـ (لأنها لا تملك المال).

كان لدى الكونتيسة إجابة لكل شيء، وإن كانت تكذب فإنها تكذب بشكلٍ بارع.

(لا أحد يعلم، ولم يعلم أحدٌ أبداً، كيف تكسب رزقها أو كيف تحصل على كل تلك الأشياء الجميلة. ولا أصدق بأن أوزموند نفسه يعرف. إلى جانب ذلك، ما كانت هي لتتزوجه).

ـ (كيف أحَبّتْهُ إذن؟).

ـ (إنها لا تحبه بهذه الطريقة. في البداية أحبّتْهُ، ومن ثم ـ على ما أعتقد ـ كانت ستتزوجه؛ لكن في تلك الفترة كان زوجها على قيد الحياة. في الوقت الذي كان فيه السيد ميرليه قد عاد... لن أقول عاد إلى أقاربه، لأنه لم يكن لديه أي أقارب... كانت علاقتها مع السيد أوزموند قد تغيرت، وأصبحت طموحة أكثر).

واصلت الكونتيسة كلامها تاركةً إيزابيل تجفل من ذلك بشكلٍ مؤسف جداً بعد ذلك: (إضافة إلى ذلك، فهي لم تمتلك تجاهه... لم تمتلك ما يمكنكِ أن تسميه غرور الذكاء. فقد تأملت أن تتزوج رجلاً عظيماً؛ كانت تلك دائماً هي فكرتها. لقد انتظرتْ وترقبتْ وخططتْ وصَلّتْ؛ لكنها لم تنجح أبداً. أنا لا أسمي مدام ميرليه شخصية ناجحة، تعلمين ذلك. أنا لا أدري ماذا يمكنها أن تحقق أيضاً، لكن في الوقت الحالي لديها القليل جداً لتُظهره. كانت النتيجة الوحيدة الملموسة التي حققَتْها يوماً... عدا طبعاً معرفة كل شخص والإقامة معهم بدون تكاليف... هي الجمع بينكِ وبين أوزموند. أوه، لقد فعلَتْ ذلك يا عزيزتي؛ لا داعي لأن تتظاهري وكأنكِ شككتِ بالموضوع. لقد راقبتُهما لسنوات؛ أنا أعرف كل شيء... كل شيء. إنهم يظنونني مغفلة كبيرة، لكنني أستخدم عقلي جيداً لأتابع هؤلاء الاثنين. إنها تكرهني، وطريقتها بإظهار ذلك هي بالتظاهر بأنها تدافع عني إلى الأبد. فعندما يقول الناس بأن لدي خمسة عشر عشيقاً، تتظاهر هي بأنها مذعورة وتصرح بأنه لا يوجد دليل على نصفهم. كانت تخاف مني لسنوات، وكانت تتسلّى كثيراً بالأشياء الخسيسة والكاذبة التي يقولها الناس عني. إنها تخاف من أن أكشفها، وقد هددتني في أحد الأيام عندما بدأ أوزموند يتودد إليكِ. حدث ذلك في بيته في فلورنسا؛ هل تتذكرين ذلك المساء عندما جَلَبَتْكِ هناك وتناوَلْنا الشاي في الحديقة؟ لقد أبلغَتْني آنذاك بأنني إنْ بُحتُ بالسر فهي أيضاً ستبوح بالسر. فهي تدّعي

بأنه يوجد الكثير لتقوله عني أكثر مما يوجد ليُقال عنها. ستكون مقارنة مثيرة للاهتمام! أنا لا أبالي مطلقاً بما قد تقوله، لأنني ببساطة أعرف بأنكِ لن تبالي مطلقاً. إذ لا يمكنكِ أن تزعجي نفسكِ بشأني أقل مما تفعلي حالياً. لذا يمكنها أن تنفّذ انتقامها مثلما تريد؛ لا أعتقد بأنها ستخيفكِ كثيراً. إن خطتها العظيمة كانت نزيهة بشكلٍ هائل... نوع من الزنبق في أوج تفتحه... تجسيد للاستقامة. لقد قدست دائماً ذلك الحاكم القوي. ولا يجب أن تكون هناك إشاعة عن زوجة القيصر، تعلمين ذلك؛ وأمِلَتْ دائماً أن تتزوج القيصر كما قلتُ. كان ذلك أحد أسباب عدم زواجها من أوزموند؛ وهو الخوف عندما يراها الناس مع بانسي أن يقوموا بربط الأمور ببعضها... بل حتى أن يقوموا برؤية الشبه بينهما. كان لديها رعب لئلا تكشف الأم نفسها. لقد كانت حذرةً بشكلٍ رهيب؛ ولم تفعل الأم ذلك).

قالت إيزابيل التي كانت مُصغيةً إلى كل ذلك بوجهٍ يزداد شحوباً أكثر وأكثر: (بلى، بلى، لقد فعلت الأم ذلك. لقد كشفت نفسها لي في اليوم السابق. مع ذلك لم أشعر بها. فقد كانت هناك فرصة في أن تتزوج بانسي زواجاً أرستقراطياً، وعند خيبة أملها في عدم نجاحه أسقَطَتِ القناع قليلاً).

صاحت الكونتيسة: (آه، هنا كانت ستكشف نفسها! لقد فشلتْ بشكلٍ رهيبٍ جداً في أن تُتِمَّ موضوع ابنتها).

جفلت إيزابيل عند كلمة «ابنتها» التي ألقتها ضيفتُها بشكلٍ اعتيادي جداً. فهمهمت: (يبدو ذلك رائعاً جداً). وبهذا الانطباع المربك، فقدت قليلاً شعورها بتأثرها شخصياً بالقصة.

واصلت الكونتيسة الكلام: (لا تذهبي الآن وتنقلبي ضد الطفلة البريئة المسكينة! إنها لطيفة جداً بالرغم من أصلها المؤسف. أنا نفسي أحببتُ بانسي؛ ليس لأنها كانت ابنتها طبعاً، بل لأنها أصبحت ابنتكِ).

صاحت إيزابيل وهي تحمر خجلاً من الفكرة: (نعم، لقد أصبحت ابنتي. وكم تعاني المرأة المسكينة وهي تراني...!).

ـ (أنا لا أصدق بأنها تعاني؛ على العكس، بل إنها مستمتعة. فزواج أوزموند قد منح ابنته حياةً صغيرة رائعة. إذ كانت قبل ذلك تعيش في جُحر. وهل تعرفين ماذا تظن الأم؟ بأنكِ قد تُعجَبين بالطفلة لدرجة أنكِ ستفعلين شيئاً من أجلها. فأوزموند طبعاً لا يمكنه أن يمنحها مهراً. فأوزموند حقاً فقيرٌ للغاية؛ لكنكِ طبعاً تعرفين كل شيء عن ذلك).

ثم صاحت الكونتيسة: (آه، يا عزيزتي، لِمَ ورثتِ المال؟).

توقفتْ عن الكلام لبرهة وكأنها رأت في وجه إيزابيل شيئاً غريباً.

(لا تقولي لي الآن بأنكِ ستمنحينها مهراً. أنت قادرة على ذلك، لكنني سأرفض أن أصدق ذلك. لا تحاولي أن تكوني طيبة جداً. كوني متساهلة قليلاً وعفوية وكريهة؛ اشعُري بأنكِ شريرة قليلاً مرة واحدة في حياتكِ لترتاحي!).

قالت إيزابيل: (إنه أمرٌ غريبٌ جداً. أعتقد بأنني يجب أن أشعر كذلك، لكنني آسفة. أنا ممتنةٌ لكِ كثيراً).

صاحت الكونتيسة بضحكة ساخرة: (نعم، واضحٌ أنكِ ستصبحين كذلك! ربما... ربما لن تصبحي. فأنتِ لا تأخذين الموضوع مثلما تصورتُ).

سألت إيزابيل: (وكيف عليّ أن آخذه؟).

ـ (حسناً، يجب علي أن أقول، كامرأةٍ مُستَغَلّة).

لم تجب إيزابيل على ذلك؛ بل أصغت فقط وواصلت الكونتيسة الكلام: (إنهما دائماً مرتبطان بعضهما ببعض؛ وبقيا كذلك حتى بعد أن ابتعَدَتْ... أو ابتَعَدَ. لكنه بقي دائماً يعني بالنسبة لها أكثر مما تعني هي بالنسبة له. وعندما انتهت حفلة تنكرهما البسيطة، عقدا صفقةً بأن على كل واحد منهما أن يمنح الآخر حرية كاملة، لكن على كل منهما أيضاً أن يفعلا أي شيء ممكن ليساعد الآخر. قد تسألينني كيف أعرف شيئاً كهذا. لقد عرفتُه من خلال الطريقة التي يتصرفان بها. انظري الآن، كم النساء هن أفضل كثيراً من الرجال! إذ وجدَتْ

زوجةً لأوزموند، لكن أوزموند لم يحرك إصبعاً صغيراً لأجلها. سعتْ لأجله، خططت لأجله، عانت لأجله؛ حتى أنها وجدت له المال أكثر من مرة؛ ونهاية ذلك هي أنه سئم منها. فهي عُرْفٌ قديم؛ أي هناك لحظات يحتاجها فيها، لكن بالمجمل ما كان ليفتقدها لو رحلَتْ. وما هو أكثر من ذلك هو أنها اليوم تعرف ذلك).

أضافت الكونتيسة بظرافة: (لا داعي لأن تكوني غيورة!).

نهضت إيزابيل من على أريكتها ثانيةً، إذ شعرت بأنها مسحوقة ومنقطعة النفس؛ وكان رأسها يئز مما عرفَتْهُ من معلومات جديدة، فكررت الكلام: (أنا ممتنة لكِ كثيراً).

ومن ثم أضافت فجأة وبنبرةٍ مختلفة تماماً: (كيف عرفتِ كل هذه الأمور؟).

يبدو بأن هذا التساؤل قد أزعَجَ الكونتيسة أكثر من تعبير إيزابيل عن الامتنان الذي أسعدها. فرمقت رفيقتها بنظرةٍ جريئة صاحت بها: (لنفترض بأنني اخترعتُ الأمر!). مع ذلك، قامت هي أيضاً بتغيير نبرتها فجأة وقالت، وهي تضع يدها على ذراع إيزابيل، مع توغّل ابتسامتها الحادة المرحة: (والآن، هل ستتخلين عن رحلتكِ؟).

حدقت إيزابيل قليلاً؛ فاستدارت مبتعدة. لكنها شعرت بأنها ضعيفة، فوضعت بسرعة ذراعها فوق رف المدفأة لغرض الاستناد عليها. بقيت دقيقةً على هذا الحال، ثم ألقت رأسها المشوش فوق ذراعيها بعينين مغمضتين وشفتين باهتتين.

صاحت الكونتيسة: (لقد أخطأتُ لأنني تكلمتُ... فقد جعلتُكِ مريضة!).

ولولت إيزابيل، ليس باستياء ولا بانفعالٍ سريع كانت رفيقتُها متطلعةً إليه، بل بنبرة حزنٍ لامتناهٍ ومؤثّرٍ كثيراً: (آه، يجب أن أرى رالف!).

***

الفصل 52

ذلك المساء، كان هناك قطار سيتوجه إلى تورينو وباريس. بعد أن تركَتْها الكونتيسة، عقدت إيزابيل اجتماعاً سريعاً وحاسماً مع خادمتها التي كانت كتومة ومخلصة ومجتهدة. بعد ذلك، لم تفكر (باستثناء رحلتها) سوى بشيءٍ واحد. وهو أنها يجب أن تذهب لرؤية بانسي؛ التي لم تستطع أن تتغاضى عنها. لم تكن قد رأتها بعد لأن أوزموند جعلها تفهم أن الوقت مبكر جداً لتبدأ برؤيتها.

سارت بالعربة عند الساعة الخامسة إلى بوابةٍ عالية في شارعٍ ضيّق في حي ساحة نافونا، وكانت قد أُدخلَتْ من قبل حارسة الدير، وهي إنسانة لطيفة ومجامِلة بإفراط. كانت إيزابيل قد جاءت إلى هذه المؤسسة من قبل؛ إذ كانت قد أتت مع بانسي لرؤية الأخوات. لقد عرفتْ بأنهم نساء طيبات، ورأت أن الغرف الكبيرة كانت نظيفة وباعثة على البهجة وأن الحديقة المُستَغَلّة جيداً كان مشمسة في الشتاء وظليلةً في الربيع. لكنها كرهت المكان الذي تحدّاها وأرعبها قليلاً؛ فما كانت مطلقاً ستُمضي ليلةً واحدة هناك. فقد وَلَّدَ اليوم انطباعاً أكثر من قبل بأنه سجن مؤثث جيداً؛ لأنه لم يكن ممكناً تخيُّل بانسي بأنها كانت حرة في مغادرته. فظهرت لها هذه المخلوقة البريئة في صورة جديدة وقاسية، لكن الأثر الثانوي للصورة هو أن تمد لها يد العون.

تركتها حارسة الدير تنتظر في ردهة استقبال الدير بينما ذهبتْ لتبلّغ بأن هناك زائرة للسيدة الشابة المحبوبة. كانت ردهة الاستقبال حجرة واسعة وباردة ومؤثثة بأثاثٍ جديد المظهر؛ تضمّن موقداً كبيراً ونظيفاً من الخزف

الأبيض ـ كان منطفئاً ـ ومجموعة من الزهور الشمعية تحت ناقوس زجاجي، وسلسلة من رسوم لشخصيات دينية على الجدران. لو كانت إيزابيل في وضعٍ آخر لرأته يشبه روما أقل مما يشبه فيلادلفيا، لكن اليوم لم تَرَ شيئاً؛ إذ بدت الحجرة فقط بالنسبة لها فارغة جداً وصامتة جداً. عادت حارسة الدير بعد حوالي خمس دقائق وهي تُدخِلُ شخصاً آخر. نهضت إيزابيل وهي تتوقع أن ترى إحدى سيدات الرهبنة، لكن لدهشتها البالغة وجدت نفسها بمواجهة مدام ميرليه. كان التأثير غريباً لأن مدام ميرليه كانت حاضرة مسبقاً في مخيلتها لدرجة أن ظهورها بلحمها ودمها كان أشبه برؤية صورة مرسومة تحركت فجأة وبشكل مخيف قليلاً. كانت إيزابيل تفكر طوال اليوم بأكذوبة مدام ميرليه، بوقاحتها، ببراعتها، بمعاناتها المحتملة؛ وومضتْ هذه الأشياء الشريرة كضوءٍ خاطفٍ حينما دخلت الغرفة. إن تواجدها هناك بأية حال كان له أثر الدليل البشع، أثر الخط اليدوي، أثر بقايا الآثار المدنسة، أثر الأشياء المزعجة التي تصدر في المحكمة. لقد جعل ذلك إيزابيل تشعر بالدوار؛ لأنه إن كان من الضروري أن تتحدث على الفور فستكون عاجزة تماماً. لكن ضرورةً كهذه لم تكن هامّة بالنسبة لها؛ إذ بدا لها فعلاً بأن ليس لديها شيء مطلقاً لتقوله لمدام ميرليه. مع ذلك، فإن في علاقة المرء بهذه السيدة لا توجد هناك أبداً أية ضروريات جوهرية؛ إذ إن لديها أسلوباً لم يتغلب فقط على عيوبها بل على عيوب الأناس الآخرين. لكنها كانت مختلفة عن المعتاد؛ فقد دخلت ببطء خلف الحارسة، وأدركت إيزابيل على الفور بأنه ليس من المستحسن أن تعتمد على دهائها التقليدي. فبالنسبة لها أيضاً كان الوضع استثنائياً، وقد أخذت على عاتقها أن تتعامل معه على ضوء الظروف الحالية. منحها ذلك بهاءً خاصاً؛ إذ لم تتظاهر حتى بالابتسام، وعلى الرغم من أن إيزابيل قد رأت بأنها كانت تلعب دوراً أكثر من أي وقت مضى، إلا أن هذه المرأة المذهلة على العموم لم تَبْدُ طبيعية أكثر كما هو اليوم. نظرتْ لصديقتها الشابة من الرأس وحتى القدم، لكن ليس بقسوة ولا بتحدٍّ؛ بل بلطفٍ رزينٍ

بدلاً من ذلك؛ وبدون أي من مظاهر التلميح بلقائهما الأخير. كانت قد بدت وكأنها تمنت أن تلاحظ فرقاً. لقد كانت منفعلة إذن، وقد هدأت الآن.

قالت للحارسة: (يمكنكِ أن تتركينا لوحدنا، وخلال خمس دقائق سترنُّ هذه السيدة لكِ الجرس). ومن ثم التفتت نحو إيزابيل التي، بعد أن لاحظت ما قيل للتو، توقفت عن الاهتمام وسمحت لنظرها بالتنقل على امتداد ما سمحت به حدود الغرفة. لم تكن راغبة بالنظر إلى مدام ميرليه ثانيةً أبداً.

واصلت هذه السيدة الكلام: (أنتِ مندهشة لأن تجدينني هنا، وأخشى بأنكِ لستِ مسرورة. أنت لا تفهمين لِمَ يجب عليّ أن آتي؛ فالأمر كأنه بأنني توقعتُ مجيئكِ. أعترفُ بأنني كنتُ غير مهذبة قليلاً... ويجب أن أطلب السماح منكِ).

لم تكن هناك حركة ملتوية ذات استهزاء في ذلك؛ فقد قيلت ببساطة وبلطف؛ لكن إيزابيل التي كانت تعوم بعيداً في بحر الدهشة والألم، لم تتمكن من أن تقول لنفسها بأيّة نيّة قيل فيها ذلك.

واصلت مدام ميرليه الكلام: (لكنني لم أكن جالسة لمدة طويلة، أي إنني لم أُمْضِ مدة طويلة مع بانسي. لقد أتيتُ لرؤيتها لأنه خطر لي هذا المساء بأنها وحيدة قليلاً وربما حتى تعيسة قليلاً. قد يكون ذلك مناسِباً لفتاةٍ صغيرة؛ أنا لا أعرف الكثير عن الفتيات الصغيرات؛ ولا أستطيع الكلام. على أية حال فالأمر محزن قليلاً. لذلك استغليتُ الفرصة. لقد علمتُ طبعاً بأنكِ ستأتين، وأبوها كذلك؛ أيضاً لم أعلم بأن الزوّار الآخرين ممنوعون. فالمرأة الطيبة... ما اسمها؟ مدام كاثرين... لا تعترض البتة. لقد بقيتُ عشرين دقيقة مع بانسي؛ إن لديها غرفة صغيرة رائعة، وكأن لاعلاقة لها بالدير مطلقاً، مع بيانو وأزهار. لقد رتَّبَتْها بشكلٍ رائع؛ إن لديها ذوقاً كبيراً. طبعاً إن ذلك كله ليس من شأني، لكنني أشعر بالسعادة أكثر منذ أن رأيتُها. يمكنها أيضاً أن تحظى بخادمة لو أحبَّتْ؛ لكن ليس لديها فرصة لترتدي الثياب طبعاً. فهي ترتدي فستاناً أسودَ

بسيطاً؛ إنها تبدو فاتنة جداً. ذهبتُ بعد ذلك لرؤية الأم كاثرين التي لديها أيضاً غرفة جيدة جداً؛ أنا أؤكد لكِ بأنني لا أجد الأخوات المسكينات لهن علاقة بالرهبنة إطلاقاً. فالأم كاثرين لديها أكثر طاولات الزينة الصغيرة روعة، مع شيء بدا بشكلٍ غير مألوف كقنينة عطر. إنها تتحدث بسرور عن بانسي؛ إذ تقول إنه لسرورٌ كبير لهم أن يحظوا بها هنا. إنها قديسة صغيرة من السماء وقدوةٌ لأكبرهن سناً. حينما كنت على وشك أن أغادر مدام كاثرين جاءت الحارسة لتقول لها بأن هناك سيدة أتت لأجل الآنسة. عرفتُ طبعاً بأنه لا بدّ وأن تكوني أنت، وطلبتُ منها أن تسمح لي بالذهاب واستقبالكِ في مكانكِ. لقد ترددتْ كثيراً... يجب أن أخبركِ بذلك... وقالت إن من واجبها أن تخبر رئيسة الدير؛ إنه من الأهمية الكبرى أن تُعامَلي باحترام. لقد طلبتُ منها أن تترك رئيسة الدير وشأنها وسألتُها كيف تخيّلَتْ بأنني سأتعامل معكِ!).

وهكذ، واصلت مدام ميرليه الكلام بكثيرٍ من ذكاءِ امرأةٍ كانت لمدة طويلة سيدة فن الحديث. لكن كان هناك جوانب وتداخُل في كلامها لم يكن خفيّاً على سمع إيزابيل رغم أن عينيها كانتا شاردتين عن وجه رفيقتها.

لم تستكمل الحديث أكثر عندما لاحظت إيزابيل تغيُّراً فجائياً في صوتها، وتَرَدِّياً في تماسكها، والذي كان بحدِّ ذاته مسرحية متكاملة. إن هذا التحول الدقيق قد أشار إلى اكتشافٍ هام ـ وهو الشعور بموقفٍ جديد كلياً من جانب مستمعتها. فمدام ميرليه قد خمنتْ في ظرفِ لحظةٍ أن كل شيء قد انتهى بينهما، وفي ظرفِ لحظةٍ أخرى خمنتْ سبب ذلك. فالإنسانة التي وقفت هناك لم تكن الإنسانة نفسها التي رأتها حتى هذه اللحظة، بل كانت إنسانة مختلفة جداً ـ إنسانةٌ عرفَتْ سرّها. كان هذا الاكتشاف هائلاً، ومنذ لحظة هذا الاكتشاف، تلعثمَتْ أكثر النساء براعة وفقدتْ قوتها. لكن في تلك اللحظة فقط. ثم قام التيار الواعي لسلوكها المثالي بالتجمع ثانيةً والانسياب بسلاسة حتى النهاية كما كان. لكنها كانت قادرة على المواصلة فقط لأن النهاية كانت

أمام ناظريها. لقد تم التعرض لنقطةٍ جعلَتْها تضطرب، واحتاجت الحذر لتقمع اهتياجها، فكان ملاذها الوحيد هو في عدم كشف نفسها. لقد قاومَتْ ذلك، لكن صوتها المرتعش رفض أن يتحسن، فلم تحتمل ذلك عندما سمعَتْ نفسها تقول ما بالكاد عرَفَتْهُ. فانحسر فيضان ثقتها، وكانت قادرة فقط على الانزلاق إلى الميناء وهي تُلامِس القاع بشكل ضعيف.

لقد رأت إيزابيل ذلك كله بوضوح وكأنه انعَكَسَ على مرآة كبيرة صافية. قد تكون هذه اللحظة عظيمة بالنسبة لها، لأنها قد تكون لحظة انتصار. فأنْ تفقد مدام ميرليه شجاعتها وترى أمامها شبح الانكشاف ـ هو بحدِّ ذاته انتقام، هو بحدِّ ذاته الوعد بيومٍ أكثر فرحاً. وللحظةٍ وقفتْ خلالها وهي تنظر بوضوح خارج النافذة وظهرها شبه ملتفت وقد استمتعت بهذه الرؤيا. على الجانب الآخر من النافذة امتدت حديقة الدير؛ لكن لم يكن ذلك هو ما كانت تراه؛ فهي لم تَرَ شيئاً من النباتات المزهرة والمساء المتوهج. إن بالضوء الباهت لهذه الرؤيا التي أصبحت مسبقاً جزءاً من الخبرة التي منحَتْ سعراً حقيقياً لعجز الأداة التي عُرِضَتْ عليها، رأت الحقيقة القاسية البادية للعيان بأنها كانت أداةً مستعملة مُسَيَّرة ومُعلّقة، لا معنى لها وسهلة الاستعمال كخشبٍ وحديد مُشَكَّلَيْن. جاشت في روحها ثانيةً مرارة ما عَرَفَتْهُ؛ وكأنها شعرتْ على شفتيها طعم الخزي. كانت هناك لحظة كانت ستقول خلالها شيئاً سيهسهس كالسوط إن استدارت وتكلمت. لكنها أغمضت عينيها، فانهارت الرؤيا البشعة. وما تبَقّى هو أكثر نساء العالم ذكاءً تقف هناك على بعد بضع أقدام منها وهي تعرف أن ما تفكر فيه كأنه لا شيء. كان انتقام إيزابيل الوحيد هو أن تكون صامتة رغم ذلك ـ لتترك مدام ميرليه في هذا الموقف غير المسبوق. تركَتْها هناك لفترةٍ لا بدّ أنها بدت طويلة بالنسبة لهذه السيدة التي جلست بحركةٍ كانت بحدِّ ذاتها اعترافاً بالعجز. ثم أجالت إيزابيل النظر ببطء وهي تنظر إليها. كانت مدام ميرليه شاحبة جداً؛ وغشيَتْ نظراتُها وجه إيزابيل.

تمكنتْ من أن ترى ما تريده، لكن خطرها كان قد انتهى. ما كانت إيزابيل لتتهمها أبداً، ولا لتوبخها أبداً؛ ربما لأنها لم ترغب أبداً بأن تمنحها فرصة الدفاع عن نفسها.

قالت شابتنا أخيراً: (أتيتُ لأودّعَ بانسي، فأنا ذاهبة إلى إنجلترا الليلة).

كررت مدام ميرليه وهي جالسة هناك تنظر إليها: (تذهبين إلى إنجلترا الليلة!).

ـ (أنا ذاهبة إلى جاردن كورت. فرالف تاتشيت يحتضر).

استعادت مدام ميرليه رباطة جأشها؛ فقد كان لديها فرصة لتعبّر عن العطف.

ـ (آه، ستتأثرين بذلك. هل أنت ذاهبة بمفردكِ؟).

ـ (نعم، بدون زوجي).

همهمت مدام ميرليه همهمة خافتة ومبهمة؛ وهي طريقةٌ للتسليم بالأحداث المحزنة: (إن السيد تاتشيت لم يستلطفني قط، لكنني حزينة لأنه يحتضر. هل سترين والدته؟).

ـ (نعم، فقد عادت من أميركا).

قالت مدام ميرليه برثاءٍ هادئ وبارز: (لقد اعتادت على أن تكون لطيفة جداً معي، لكنها تغيرتْ، وآخرون أيضاً قد تغيروا).

توقفت عن الكلام للحظة، ثم أضافت: (وأنتِ سترين جاردن كورت العتيقة المحبوبة ثانيةً!).

أجابت إيزابيل: (لن أستمتع بها كثيراً).

ـ (أمر طبيعي... وأنتِ في خضمّ حزنكِ. لكنه على العموم المنزل الذي كنتُ سأحب كثيراً أن أعيش فيه من بين كل المنازل التي أعرفها، وأنا أعرف الكثير).

أضافت مدام ميرليه: (أنا لا أتجرأ بإرسال رسالة إلى الناس، لكنني أحببتُ أن أعبّر عن حبي للمكان).

استدارت إيزابيل مبتعدة.

ـ (من الأفضل أن أذهب إلى بانسي. فليس لدي وقت كثير).

عندما نظَرَتْ حولها بحثاً عن المخرج المناسب، فُتح الباب ودخلت إحدى سيدات المكان، التي تقدمَتْ بابتسامة مهذبة وهي تفرك برفق تحت كميها الطويلين المسترسلين يدين سمينتين بيضاوين. عرفت إيزابيل بأنها مدام كاثرين التي كانت قد تعرّفَتْ عليها مسبقاً، والتمستْ بأنها ستسمح لها على الفور برؤية الآنسة أوزموند.

بدت مدام كاثرين مهذبة على نحوٍ مضاعف لكن ابتسمت بلطفٍ شديد وقالت: (سيكون من المناسب بالنسبة لها أن تراكِ. سآخذكِ إليها بنفسي).

ثم وجهت نظرها البهيج المتسم بالحذر إلى مدام ميرليه، فسألت هذه السيدة: (هل تسمحين لي بالبقاء قليلاً؟ فمن المناسب جداً أن أبقى هنا).

ـ (يمكنكِ البقاء إلى الأبد لو أحببتِ!). وضحكت الأخت الطيبة ضحكة ذات مغزى.

أُرشدَتْ إيزابيل إلى خارج الغرفة عبر دهاليز عديدة، ثم صعوداً إلى درجٍ طويل. كانت كل هذه الأقسام متينة وخالية، مُضاءة ونظيفة؛ ففكرت إيزابيل بأنها لهذه الأسباب كانت أكبر المؤسسات العقابية.

أقدمت مدام كاثرين برفق على فتح باب غرفة بانسي وأدخلت الزائرة؛ ثم وقفتْ وهي تبتسم بيدين مطويتين بينما التقت الاثنتان الأخريان وتعانقتا. فكررت: (إنها مسرورة برؤيتكِ، إنّ ذلك سينفعها).

ووضعت بحرص أفضل كرسي لإيزابيل. لكنها لن تُبْدِ حركةً بأنها ستجلس؛ بل بدت مستعدة للمغادرة. فاستفسرتْ من إيزابيل وهي تتريث قليلاً: (كيف تبدو هذه الطفلة المحبوبة؟).

أجابت إيزابيل: (إنها تبدو شاحبة).

قالت الأخت الطيبة: (إنه الابتهاج برؤيتكِ. إنها سعيدة جداً. إنها تضيء المكان).

كانت بانسي، مثلما قالت مدام ميرليه، ترتدي ثوباً أسود بسيطاً؛ ربما هذا هو ما جعلها تبدو شاحبة. فصاحت بكل ما تهيأت به من لهفتها المعتادة: (إنهم طيبون جداً معي... إنهم يفكرون بكل شيء!).

أشارت مدام كاثرين بنبرة امرأةٍ كان عطفها عادة، ومبدؤها في الواجب هو تلبية كل تعهُّد: (نحن نفكر بكِ دائماً... فأنتِ عُهدةٌ ثمينة).

كان لهذا الكلام وَقْعٌ ثقيل الوطأة على مسامع إيزابيل؛ إذ بدا أنه يمثل استسلام الشخصية، وسلطة الكنيسة.

عندما تركتهما مدام كاثرين لوحدهما، ركعتْ بانسي وأخفت رأسها في حضن زوجة أبيها. بقيتْ على هذا الوضع للحظات بينما مسَّدَتْ إيزابيل شعرها برفق. ثم نهضتْ وهي تشيح بوجهها ناظِرَةً حول الغرفة، فقالت: (ألا تعتقدين بأنني تدبرتُ الأمر جيداً؟ فلدي كل شيء امتلَكْتُهُ في البيت).

بالكاد عرفت إيزابيل ماذا يمكنها أن تقول لها: (إنه أمرٌ جميل؛ أنت مرتاحةٌ جداً). فمن ناحية، لم تسمح لها بأن تعتقد بأنها أتت لتعطف عليها، ومن ناحية أخرى سيكون من السخرية الثقيلة أن تتظاهر بالفرح معها. لذا أضافت ببساطة بعد لحظة: (لقد أتيتُ لأودعكِ. فأنا ذاهبةٌ إلى إنجلترا).

استحال وجه بانسي الصغير الأبيض أحمرَ.

ـ (إلى إنجلترا! ولن تعودي؟).

ـ (لا أدري متى أعود).

فتنفست بانسي بتعب.

ـ (آه، أنا آسفة). لقد تكلمتْ وكأن ليس لها الحق بالانتقاد؛ لكن نبرتها عبّرَتْ عن عمق خيبة الأمل.

قالت إيزابيل: (إن ابن خالتي، السيد تاتشيت، مريض جداً؛ إذ من المحتمل أنه سيموت. أتمنى رؤيته).

ـ (آه، نعم، لقد أخبرتِني بأنه سيموت. طبعاً يجب عليكِ الذهاب. وهل سيذهب بابا؟).

ـ (كلا، سأذهب وحدي).

لم تقل الفتاة شيئاً لوهلةٍ.

لقد تساءلت إيزابيل مراراً عن رأي بانسي عن العلاقة الواضحة لوالدها بزوجته؛ لكنها لم تُظهِر أبداً لا بالتلميح ولا بالتصريح بأنها تراهما مفتقرين لمظاهر الألفة. لكن إيزابيل كانت متأكدة بأن لها آراءها الخاصة بها، وأنها لا بدّ وأن لديها قناعة بأن هناك أزواجاً وزوجات كانوا أكثر ألفة من ذلك. لكن بانسي لم تكن غير مهذبة حتى في التفكير؛ إذ ما كانت ستتجرأ كثيراً على محاسبة زوجة والدها الرقيقة مثلما لن تتجرأ كثيراً على انتقاد والدها الرائع. فقلبها سيبقى راسخاً قليلاً مثلما سيبقى كذلك لو رأت اثنين من القديسين في الصورة الكبيرة التي في مصلى الدير يديران رأسيهما المرسومين ويهزانهما تجاه أحدهما الآخر. لكن بالنسبة لهذه الحالة الأخيرة، لن تقوم (لأجل الاحترام ذاته) بذكر هذه الظاهرة المخيفة بحيث ستحتفظ بكل المعرفة عن أسرار حيواتٍ أكبر من حياتها.

واصلت الكلام بسرعة: (ستكونين بعيدةً جداً).

فشرحت إيزابيل الموقف: (نعم، سأكون بعيدة. لكن لن يكون الأمر مهماً، لأن طالما أنت هنا، فلن يمكن استدعائي لأكون بقربكِ).

ـ (نعم، لكن يمكنكِ أن تأتي وتريني؛ حتى وإن لم تأتِ بشكل متكرر).

ـ (أنا لن آتي لأن والدكِ منع ذلك. واليوم لم أجلب شيئاً معي، فلا أستطيع أن أرفّه عنكِ).

ـ (ليس من الضروري الترفيه عني، فليس ذلك ما يتمناه بابا).

ـ (إذن، لن يكون الأمر مهماً سواء كنتُ في روما أو في إنجلترا).

قالت بانسي: (أنتِ لستِ سعيدة يا سيدة أوزموند).

ـ (لستُ سعيدةً جداً. لكن لا يهم. ذلك هو ما أقوله لنفسي. ماذا يهم؟ لكن يجب علي أن أغادر).

ـ (أرغب فعلاً أن تفعلي ذلك).

واصلت بانسي الكلام بلطف: (لا تتركيني هنا).

لم تقل شيئاً لدقيقة؛ فقد خفق قلبها بسرعة، فسألت: (هل ستأتين معي الآن؟).

نظرت إليها بانسي باعتراض.

ـ (هل بابا هو من قال لكِ أن تأخذيني؟).

ـ (كلا، إنه اقتراحي الخاص).

ـ (أعتقد أنه من الأفضل أن أنتظر إذن. ألم يرسل بابا لي رسالة؟).

ـ (لا أعتقد بأنه يعرف بأنني آتية إلى هنا).

قالت بانسي: (إنه يعتقد بأنني لستُ راضية بما يكفي. لكنني راضية جداً. فالسيدات لطيفات جداً معي، والفتيات الصغيرات يأتين لرؤيتي. هناك بعض الفتيات الصغيرات... فتيات فاتنات. وغرفتي أيضاً... يمكنكِ رؤيتها بنفسكِ. إن ذلك كله باعث على الرضا كثيراً. لكنني رضيتُ كفاية. أراد بابا مني أن أفكر قليلاً جداً... وقد فكرتُ كثيراً جداً).

ـ (بماذا فكرتِ؟).

ـ (حسناً، بأنه لا يجب عليّ أبداً أن أزعج بابا).

ـ (لكنكِ تعرفين ذلك مسبقاً).

قالت بانسي: (نعم، لكنني عرفتُ ذلك بشكل أفضل. سأفعل أي شيء... سأفعل أي شيء).

ومن ثم، حينما سمعت كلامها، تصاعدت حمرة شديدة بريئة إلى وجهها. ففهمت إيزابيل معنى ذلك؛ فهمتْ بأن الفتاة المسكينة مغلوبٌ على أمرها. كان من الجيد بالنسبة لإدوارد غوزييه أن احتفَظَ بتحفياته المطلية بالمينا!

نظرت إيزابيل في عينيها ورأت هناك على وجه الخصوص أملاً ضعيفاً يجب أن يُعالَج بيسر. فوضعت يدها على يد بانسي وكأنها تريد أن تُعْلِمَها بأن مظهرها قد أفصح عن قلة شأن؛ لأن انهيار الصمود المؤقت للفتاة (الذي كان يُعتقَد بأنه هادئٌ وطبيعي) قد بدا فقط بأنه تقديرها الخاص لحقائق الأمور. لم تتجرأ على محاسبة الآخرين، لكنها حاسبت نفسها فقط؛ ورأت الواقع. لم يكن لديها موهبة التدافع مع الحشود؛ ففي قدسية الانعزال كان يوجد شيء ما غلب عليها. فقد أحنت رأسها الجميل للتحكم وطلبت فقط من التحكم أن يكون رؤوفاً بها. نعم، كان من الجيد تماماً أن احتفظ إدوارد غوزييه ببعض حوائجه الخزفية!

نهضت إيزابيل؛ فقد كان وقتها يمر بسرعة.

ـ (وداعاً إذن. أنا مغادِرةٌ روما الليلة).

تشبثت بانسي بثوبها؛ إذ كان هناك تغير مفاجئ في وجه الطفلة.

ـ (تبدين غريبة. أنت تخيفينني).

قالت إيزابيل: (أوه، أنا مسالمة جداً).

ـ (ربما لن تعودي أبداً؟).

ـ (ربما سأعود. لا أستطيع أن أقرر).

ـ (آه، يا سيدة أوزموند، أنت لن تتركيني!).

رأت إيزابيل الآن بأنها خمنت كل شيء فسألت: (يا طفلتي العزيزة، ما الذي أستطيع فعله لكِ؟).

ـ (لا أدري... لكنني أكون أسعد عندما أفكر بكِ).

ـ (يمكنكِ أن تفكري بي دائماً).

قالت بانسي: (ليس وأنتِ بعيدة. أنا خائفة قليلاً).

ـ (ما الذي أنت خائفة منه؟).

ـ (من بابا... قليلاً. ومن مدام ميرليه. لقد كانت هنا للتو لرؤيتي).

علّقتْ إيزابيل: (لايجب عليكِ أن تقولي ذلك).

ـ (أوه، سأفعل أي شيء يريدانه. لكن فقط لو تكونين هنا فسوف أفعله بسهولة أكبر).

فكرت إيزابيل، ثم قالت أخيراً: (لن أخذلكِ. وداعاً يا طفلتي).

ثم تعانقتا لبرهةٍ، في صمت، كأختين؛ وبعد ذلك سارت بانسي على طول الدهليز مع زائرتها إلى قمة الدرج. فأشارت وهما تسيران: (إن مدام ميرليه كانت هنا).

وعندما لم تجب إيزابيل بشيء أجابت بسرعة: (أنا لا أحب مدام ميرليه!).

ترددت إيزابيل، ثم توقفت وقالت: (لا يجب عليكِ أبداً أن تقولي ذلك... أنْ تقولي بأنكِ لا تحبين مدام ميرليه).

نظرت إليها بانسي بدهشة؛ لكن الدهشة لدى بانسي لم تكن سبباً لعدم الامتثال، فقالت برقّةٍ جذابة: (ولن أحبها ثانيةً).

عند قمة الدرج، كان عليهما أن تفترقا، لأن جزءاً من الضوابط المتسامحة وأيضاً الواضحة جداً التي عاشت بانسي بها هي أن لا تنزل.

نزلت إيزابيل الدرج، وعندما وصلت إلى الأسفل كانت الفتاة واقفة في الأعلى. فنادت بصوتٍ تَذَكَّرَتْهُ إيزابيل بعد ذلك: (سوف تعودين؟).

ـ (نعم... سأعود).

التقت مدام كاثرين بالسيدة أوزموند في الأسفل وأوصلتها إلى باب حجرة الاستقبال التي توقفتا خارجها وهما تتحدثان لبرهة.

قالت الأخت الطيبة: (أنا لن أدخل، فمدام ميرليه تنتظركِ).

عند هذا التصريح، تسمّرَتْ إيزابيل؛ فقد كانت على وشك أن تسأل فيما إذا لم يكن هناك مخرج آخر من الدير. لكن ببرهة من التفكير تم التأكيد لها بأنها ستحسن صنعاً إنْ لم تَبُحْ إلى الراهبة المسؤولة برغبتها تفادي صديقة بانسي الأخرى. فأمسكت رفيقتُها ذراعَها برفق وقالت بالفرنسية وبشكل غير متكلّف قليلاً وهي تحيطها بنظراتٍ ذكية وودودة: (آه، حسناً، يا سيدتي العزيزة، ماذا ترين؟).

ـ (بخصوص ابنة زوجي؟ أوه، يتطلب وقتاً طويلاً لإخباركِ).

علقت مدام كاثرين بوضوح: (نحن نعتقد بأن ذلك يكفي).

وفتحت باب حجرة الاستقبال.

كانت مدام ميرليه جالسة مثلما تركَتْها إيزابيل تماماً؛ كامرأةٍ منهمكة جداً في التفكير بحيث لم تحرك إصبعاً واحداً.

حينما أغلقت مدام كاثرين الباب، نهضت، ورأت إيزابيل بأنها كانت تفكر بشيءٍ ما. كانت قد استعادت توازنها؛ كانت قد استعادت زمام ذكائها، فقالت بشكل مؤدب: (اكتشفتُ بأنني أريد أن أنتظركِ. لكن ليس لنتحدث عن بانسي).

تعجبت إيزابيل عَمّا يمكن أن يكون ما تريد أن تتحدث به إليها، وعلى الرغم من تصريح مدام ميرليه هذا أجابت بعد قليل: (قالت لمدام كاثرين بأن ذلك يكفي).

فأضافت مدام ميرليه: (نعم، إن ذلك يبدو لي أيضاً كافياً. أردتُ أن أسألكِ عن نبأ آخر عن السيد تاتشيت المسكين. هل لديكِ سبب لتعتقدي بأنه في أيامه الأخيرة؟).

ـ (ليس لدي معلومات سوى البرقية. ولسوء الحظ أنها تؤكد فقط هذه الاحتمالية).

قالت مدام ميرليه: (سوف أسألكِ سؤالاً غريباً. هل أنت معجبة بابن خالتكِ). وابتسمت بغرابة كغرابة قولها.

ـ (نعم، أنا معجبة به جداً. لكنني لا أفهمكِ).

فتأخرت في الإجابة ، ثم قالت : (إنه من الصعب قليلاً الشرح. لقد خطر لي ما لم يخطر لكِ، وسأنفعكِ بما خطر لي. إن ابن خالتكِ قد أسدى لكِ يوماً معروفاً. ألم تخمني ما هو؟).

ـ (لقد أسدى لي الكثير من المعروف).

ـ (نعم، لكن واحداً منها كان أهم من البقية. فقد جعلكِ امرأةً ثرية).

ـ (جعلني؟).

كانت مدام ميرليه على ما يبدو أنها رأت نفسها منتصرة، فاستمرت في الكلام بشكل أكثر انتصاراً: (لقد منحكِ تلك اللمعة الإضافية التي كانت مطلوبة لتجعلكِ زوجةً لامعة. ففي الأساس أنه هو من يجب أن تشكريه).

فتوقفت عن الكلام، فقد كان هناك شيء ما في عيني إيزابيل.

ـ (أنا لا أفهمكِ. لقد كانت أموال زوج خالتي).

ـ (نعم، كانت أموال زوج خالتكِ لكنها كانت فكرة ابن خالتكِ. فهو من دفع والده لذلك. آه يا عزيزتي، كان المبلغ هائلاً!).

بقيت إيزابيل محدقة؛ فقد بدا أنها تعيش اليوم في عالمِ مضاءٍ ببهرجةٍ بشعة.

ـ (لا أدري لِمَ تقولين أشياء كهذه. فأنا لا أعلم ما تعلمين).

ـ (أنا لا أعلم شيئاً غير ما خمنتُهُ. لكنني خمنتُ ذلك).

توجهت إيزابيل نحو الباب، وعندما فتحتها توقفت لبرهة ويدها فوق

مقبض الباب. عندئذٍ قالت ـ وكان ذلك انتقامها الوحيد: (أعتقدُ بأنه أنت من يجب علي أن أشكرها!).

أرخت مدام ميرليه نظرها ووقفت هناك كنوعٍ من التكفير المتعاظم عن الذنب.

ـ (أنتِ تعيسة جداً، أعلم ذلك. لكنني كذلك أكثر منكِ).

ـ (نعم، يمكنني تخيُّلُ ذلك. ولا أعتقد بأنني أوَدُّ أن أراكِ ثانية أبداً).

رفعت مدام ميرليه نظرها وأشارت بهدوء عندما خرجت إيزابيل: (سوف أذهب إلى أميركا).

***

الفصل 53

عندما نزلت إيزابيل من باريس ميل في تشيرنج كروس، توجهت نحو أحضان ـ أو ذراعيّ هنرييتا ستاكبول لكن ليس باندهاشٍ بل بإحساسٍ كان سيكون له الكثير من تأثير السعادة في مناسبةٍ أخرى.

كانت قد أرسلت برقية لصديقتها من تورينو، وعلى الرغم من أنها لم تقل بوضوح لنفسها بأن هنرييتا ستستقبلها، إلا أنها شعرت بأن برقيتها ستولِّد نتيجة مشجعة.

كان ذهنها، طوال رحلتها الطويلة من روما، قد استسلم للغموض؛ إذ كانت عاجزة عن استطلاع المستقبل. لقد قامت بهذه الرحلة بعينين لا تنظران ولم تستمتع كثيراً بالبلدان التي اجتازتها، رغم أنها كانت مزدانة بأقصى نضارة الربيع. كانت أفكارها تُتابعُ طريقها عبر بلدانٍ أخرى ـ أراضي غريبة المنظر، معتمة، غير مطروقة، لا يوجد فيها تغيُّر في الفصول سوى، على ما يبدو، كآبة الشتاء الدائمة. كان لديها الكثير لتفكر فيه؛ لكن لم يكن التأمل ولا هدف معين هو ما شغل تفكيرها. تخللت أفكارها رؤى غير مترابطة، وومضات خاطفة من الذكريات ومن الآمال. بقي الماضي والمستقبل يروحان ويجيئان حسب مشيئتهما، لكنها رأتهما فقط بصورٍ غير منتظمة ظهرت وتلاشت وفق منطقها الخاص بها. لقد كانت الأمور التي تذكَّرتْها عجيبة. فهي الآن وقد أصبحت مطلعةً على السر، وعرفت الآن شيئاً أقلقها كثيراً والذي جعل إخفاءه الحياةَ أشبه بمحاولة اللعب بصمت بمجموعة غير مناسبة من أوراق اللعب، برزت أمامها حقيقة الأشياء، وعلاقاتها المتبادلة، ومعناها، وفي معظم الأحيان

رعبها، كصرحٍ ضخم. تذكرت الآلاف من الأمور التافهة؛ إذ دبت فيها الحياة باهتزازٍ تلقائي. كانت تراها أموراً تافهة في وقتها؛ والآن تراها محملة بالأثقال. مع ذلك، فهي حتى الآن أمور تافهة في النهاية، لأن ماذا كانت فائدتها بالنسبة لها في أن تفهمها؟ لم تبدُ اليوم بأن لها أية فائدة. فكل هدف، وكل مقصد، كان منتهياً؛ وكل رغبة أيضاً عدا الرغبة الوحيدة بالوصول إلى ملاذها الذي يحتضنها كثيراً. كان جاردن كورت هو نقطة انطلاقها، وكانت العودة إلى تلك الحجرات الهادئة حلاً مؤقتاً على الأقل. كانت قد انطلقت بقوتها، وسترجع بضعفها، وإن كان المكان استراحة لها في السابق، فسيكون اليوم مَهْرَباً. لقد حسدت رالف على احتضاره، لأن المرء إن كان يفكر بالراحة فتلك هي أكثر وسائل الراحة مثالية. ففكرة أن تتوقف نهائياً عن قطع الأمل تماماً وأنْ لا تعرف بعد ذلك شيئاً ـ كانت حلوةً كحلاوة حمامٍ بارد في حوضٍ رخامي في حجرة مظلمة في بلادٍ حارة.

في الحقيقة، لقد نالتها، في رحلتها من روما، لحظاتٌ كانت ممتعة قليلاً لكونها ساكنة. إذ جلست في ركنها بلا حراكٍ كثير، ومستسلمةً كثيراً، بإحساس المنطوي، متجردةً كثيراً من الأمل والتلهف، لدرجة أنها تذكرت إحدى تلك الشخصيات الأتروسكانية[1] الراقدة في وعاء الرماد الخاص بها. لم يكن يوجد شيء الآن تتأسف عليه ـ فقد انتهى هذا كله. لم تكن فقط أيام طيشها بعيدة وإنما أيام ندمها أيضاً. كان الشيء الوحيد الذي يجب أن تندم عليه هو أن مدام ميرليه كانت... حسناً، كانت لا يمكن تخيلها أبداً. فهنا فقط أخفق ذكاؤها، بسبب عجزها الفعلي في أن ترى حقيقة مدام ميرليه. أيّاً كان السبب، فإن مدام ميرليه نفسها هي من يجب أن تندم؛ وكانت ستفعل ذلك بلا شك في أميركا حيث أعلنت عن وجهتها. لم يعد هذا الأمر يقلق إيزابيل؛ كان

(1) الأتروسكانية: هي حضارة في إيطاليا القديمة في منطقة توسكانا، نشأت حوالي سنة 900 قبل الميلاد. (المترجمة)

فقط لديها انطباع بأنها لا يجب أن ترى مدام ميرليه ثانيةً. حملها هذا الانطباع إلى المستقبل الذي كانت تحظى من حينٍ لآخر عنه بلمحاتٍ مشوّهة.

فقد رأت نفسها في السنوات البعيدة وهي لا تزال في موقف امرأةٍ لديها حياة لتعيشها وأن هذه اللمحات قد تعارضت مع روح اللحظة الحاضرة. قد يكون من المحبب الهرب بعيداً جداً، بعيداً حقاً، أبعد أكثر من إنجلترا الخضراء الكئيبة قليلاً، لكن هذا الامتياز كانت محرومةً منه بشكلٍ واضح. كان يقبع عميقاً في روحها ـ أعمق من أي رغبة في الانعزال ـ بأنّ الاعتقاد بأن الحياة ستكون قضيتَها لم يحن بعد. وفي لحظاتٍ أخرى كان يوجد شيء باعث للإلهام، باعث على الحياة قليلاً، في هذا الاعتقاد. لقد كان دليلاً على القوة ـ كان دليلاً بأنها في يومٍ ما ستصبح سعيدة ثانيةً. إذ لا يمكن أن يحدث بأن تعيش فقط لتعاني؛ ففي النهاية هي لا تزال شابة، وقد تحدُث لها الكثير من الأشياء العظيمة أيضاً. فأن تعيش فقط لتعاني ـ فقط لتشعر بإجحاف الحياة وهو يتكرر ويزداد ـ بدا لها بأنها كريمة جداً ومترفّعة جداً على ذلك. ثم تساءلت إن كان من الغرور والغباء أن تحسن الظن بنفسها. متى كان ذلك ضماناً لتكون كريمة؟ ألم يكن التاريخ كله حافلاً بهلاك أشخاصٍ أقوياء؟ ألم يكن من المحتمل أكثر إن كان الشخص ضعيفاً بأنه سيعاني؟.

إذن تضمَّنَ ذلك اعترافاً ربما بأن لدى المرء عظمة مؤكَّدة؛ لكن إيزابيل اكتشفتْ، كما مَرَّ أمام عينيها، الصورة الخاطفة المبهمة لمستقبلٍ طويل. لا يجب عليها الهرب؛ بل يجب عليها أن تستمر حتى النهاية. ثم أحاطها خريف العمر ثانيةً ولفَّها الغطاء الكئيب للامبالاتها.

قبّلَتْها هنرييتا ـ لأن هنرييتا تُقَبِّلُ دائماً ـ وكأنها كانت خائفة من أن يتم ضبطها وهي تفعل ذلك؛ ومن ثم وقفت إيزابيل هناك في الزحام وهي تنظر حولها بحثاً عن خادمتها. لم تطلب شيئاً؛ بل أرادت أن تنتظر. انتابها شعورٌ مفاجئ بأنه يجب على أحدٍ ما أن يساعدها. لقد ابتهجت بمجيء هنرييتا؛

فقد كان هناك شيء مخيفاً في الوصول إلى لندن. فنفق المحطة المظلم والمليء بالدخان والصعب الوصول، والضوء الشاحب والغريب؛ والحشود المتدافعة الكثيفة العابسة؛ قد ملأتها بخوفٍ متوتر وجعلها تضع ذراعها في ذراع صديقتها. لقد تذكرتْ بأنها أحبت هذه الأشياء؛ فقد بدت جزءاً من مشهدٍ هائل كان فيه شيء أثَّرَ فيها. وتذكرتْ كيف سارت مبتعدةً عن محطة يوستن في ظلمة الشتاء في الشوارع المكتظّة قبل خمس سنوات. لم تتمكن من فعل ذلك الشيء اليوم، وجاء الحدث أمامها كأنه عملُ شخصٍ آخر.

ـ (من الرائع جداً أنكِ أتيتِ).

قالت هنرييتا ذلك وهي تنظر إليها وكأنها تعتقد بأن إيزابيل قد تكون متأهبة للاحتجاج على العبارة.

ثم أشارت الآنسة ستاكبول وهي تُلمّح بشكلٍ متوعِّد إلى قوتها في الاستهجان: (لو لم تكوني قد أتيتِ... لو لم تكوني قد أتيتِ؛ حسناً، لا أعلم).

نظرت إيزابيل حولها بدون أن ترى خادمتها. رغم ذلك، استقرت عيناها على شخصٍ آخر شعرت بأنها رأته من قبل؛ وبسرعةٍ عرفت بأنه المُحَيّا اللطيف للسيد بانِلِنْج. وقف على مبعدةٍ قليلاً، ولم يكن في مقدور الحشود التي اعتصرَتْهُ أن تجعله يبتعد بوصة واحدة عن المكان الذي اتخذَهُ ـ من أن ينتزع نفسه بحذر بينما تؤدي السيدتان تعانقهما.

قالت إيزابيل بِرِقّةٍ وبشكل عَرَضي وغير مهتمة كثيراً الآن فيما إذا كانت ستجد خادمتها أم لا: (ها هو السيد بانِلِنْج).

صاحت هنرييتا: (أوه، نعم، إنه يذهب معي إلى أي مكان. تعالَ هنا يا سيد بانِلِنْج!).

عندئذٍ، تقدَّمَ الفارس الهمام بابتسامة ـ ابتسامةٍ منفعلة مع ذلك بسبب جديّة المناسبة.

سألت هنرييتا: (أليس من الرائع أنها أنت؟)

وأضافت: (إنه يعرف عن الموضوع. لقد خضنا نقاشاً بالفعل. وقال إنه ما كان عليكِ أن تأتي وأنا قلتُ بأنه كان عليكِ أن تأتي).

بالمقابل ابتسمت إيزابيل.

ـ (لقد اعتقدتُ بأنكِ دائماً موافِقة على مجيئي).

لقد شعرَتْ بأنها تمكنت من الابتسام الآن؛ ورأت على الفور في عينيّ السيد بانِلِنْج الشجاعتين بأن لديه أخباراً جيدة لها. فقد بدتا تقولان بأنه تمنى منها أن تتذكر بأنه كان صديقاً قديماً لابن خالتها ـ وبأنه قد فهم، وبأن الأمر على ما يرام. مدت إيزابيل يدها له؛ لقد تخيَّلَتْهُ وبشكلٍ مبالغٍ به كفارسٍ بريءٍ جميل.

قال السيد بانِلِنْج: (أوه، أنا موافق دائماً، لكن هي غير موافقة، تعلمين ذلك).

تساءلت هنرييتا: (ألم أقل لكِ بأن الخادمة شيء مزعج؟ من المحتمل أن سيدتكِ الشابة قد بقيت في كاليه).

قالت إيزابيل وهي تنظر إلى السيد بانِلِنْج الذي لم تجده مثيراً للاهتمام بهذا القدر: (أنا لا أهتم).

أوعزت له هنرييتا: (ابْقَ معها بينما أذهب وأرى).

وتركت الاثنين معاً للحظة. وقفا هناك في البداية بصمت، ومن ثم سأل السيد بانِلِنْج إيزابيل كيف كان الوضع عند القنال[1]. فقالت إيزابيل: (صحوٌ كثيراً. كلا، أعتقد بأنه كان عاصفاً جداً)، مما سبَّبَ دهشة رفيقها. وبعد ذلك أضافت: (كنتَ في جاردن كورت، أعلمُ ذلك).

---

(1) القنال: يقصد القنال الإنجليزي، وهو ذلك الجزء من المحيط الأطلسي الذي يفصل بين بريطانيا وفرنسا. يسميه الإنجليز القنال الإنجليزي، بينما يسميه الفرنسيون قناة المانش. (المترجمة)

ـ (كيف علمتِ ذلك؟).

ـ (لا يمكنني أن أقول لكَ... إلّا أنكَ تبدو كشخصٍ كان في جاردن كورت).

ـ (هل ترينَ بأنني أبدو حزيناً بشكلٍ رهيب؟ إن الوضع هناك حزين بشكلٍ رهيب، تعلمين ذلك).

قالت إيزابيل برحابةٍ لم تكلفها شيئاً: (لا أرى بأنكَ تبدو أبداً حزيناً بشكلٍ رهيب. بل تبدو لطيفاً بشكلٍ رهيب)، فقد بدا بالنسبة لها أنه لا يجب عليها أن تشعر ثانيةً بحرجٍ ظاهري. رغم ذلك، كان السيد بانِلِنْج المسكين لا يزال في هذه المرحلة، فقد احمَرَّ كثيراً وضحك، وأكَّدَ لها بأنه يكون عادةً مكتئباً جداً، وأنه عندما يكون مكتئباً يصبح قاسياً بشكلٍ رهيب.

ـ (يمكنكِ أن تسألي الآنسة ستاكبول، تعلمين ذلك. لقد كنتُ في جاردن كورت قبل يومين).

ـ (هل رأيتَ ابن خالتي؟).

ـ (فقط لوقتٍ قصير. لكنه يرى الناس؛ فقد كان اللورد واربيرتون هناك يوم أمس. ورالف كما هو حاله باستثناء أنه في الفراش وأنه يبدو مريضاً بشكلٍ جسيم وأنه لا يستطيع التحدث).

تابع السيد بانِلِنْج الكلام: (كان مبتهجاً وهزلياً كثيراً برغم ذلك. كان حاذقاً جداً مثلما هو دائماً. إنه أمرٌ بائسٌ كثيراً).

كانت هذه الصورة المبسطة، حتى في المحطة المزدحمة والصاخبة، نابضة بالحياة.

ـ (هل حدث ذلك مؤخراً؟).

ـ (نعم، فقد ذهبتُ عن قصد. رأينا بأنكِ ستفضّلين أن تعرفي).

ـ (ممتنةٌ لكَ كثيراً. هل يمكنني النزول الليلة؟).

قال السيد بانِلِنْج: (آه، لا أعتقد بأنها ستدعكِ تذهبين. فهي تريدكِ أن تقفي معها. لقد جعلتُ خادم السيد تاتشيت يعدني بأن يرسل لي برقيةً اليوم، ووجدتُ البرقية قبل ساعة في النادي الذي أرتادُهُ. «هادئاً ومرتاحاً»، هذا ما قالته البرقية ومؤرخة في الساعة الثانية. لذا كما ترين، يمكنكِ الانتظار حتى يوم غد. لا بدّ أنكِ متعَبة كثيراً).

ـ (نعم، أنا متعبة كثيراً. وأشكركَ ثانيةً).

قال السيد بانِلِنْج: (أوه، كنا متأكدين من أنكِ ستحبين الأخبار الأخيرة).

ولاحظت إيزابيل من هذه العبارة من أنه وهنريتا بديا في النهاية متفقين.

عادت الآنسة ستاكبول بخادمة إيزابيل التي كانت محتجزة بسبب إجراءات إثبات عملها كخادمة. كانت هذه الإنسانة الممتازة، بدلاً من أن تتيه في الزحام، قد قامت ببساطة بالعناية بحقائب سيدتها بحيث أصبحت الأخيرة الآن حرة في مغادرة المحطة.

أشارت هنريتا إليها: (أنتِ تعلمين بأنه لا يجب عليكِ أن تفكري بالذهاب إلى جاردن كورت هذه الليلة. فلا يهم فيما إذا كان هناك قطار أم لا. إذ عليكِ أن تأتي مباشرةً إليَّ في شارع ويمبول. لا توجد هناك بقعة سيئة في لندن، لكنني حصلتُ على بقعةٍ لكِ رغم ذلك. إنها ليست قصراً رومانيّاً، لكنها ستفي بالغرض لليلةٍ واحدة).

قالت إيزابيل: (سوف أفعل ما تريدين).

ـ (ستأتين وتجيبين على بضعة أسئلة؛ ذلك هو ما أريده).

تساءل السيد بانِلِنْج مداعباً: (إنها لا تقول شيئاً عن العشاء، أليس كذلك يا سيدة أوزموند؟).

حدجَتْهُ هنريتا لوهلةٍ بنظراتها المتأملة.

ـ (أرى بأنكَ مستعجل لتحصل على عشائكَ. ستكون في محطة بادينجتون غداً صباحاً في الساعة العاشرة).

قالت إيزابيل: (لا تأتِ لأجلي يا سيد بانلِنْج).

صرحت هنرييتا وهي تدفع صديقتها داخل العربة: (إنه سيأتي لأجلي).

ولاحقاً، في الحجرة الكبيرة المعتمة الواقعة في شارع ويمبول ـ ولكي لا نظلمها، كان هناك عشاء كافٍ ـ سألت هذه الأسئلة التي لمَّحَتْ إليها في المحطة: (هل افتَعَلَ زوجكِ ثورة غضب بشأن مجيئكِ إلى هنا؟). كان ذلك هو أول تساؤلات الآنسة ستاكبول.

ـ (كلا، لا أستطيع أن أقول بأنه افتعل ثورة غضب).

ـ (إذن هو لم يعترض؟).

ـ (بلا، لقد اعترَضَ كثيراً جداً. لكن ليس للدرجة التي تسمينها ثورة غضب).



ـ (إلى أي درجة إذن؟).

ـ (لقد كانت محادثةً هادئةً جداً).

تأملت هنرييتا ضيفتها لوهلة، ومن ثم أشارت: (لا بدّ أن الأمر كان فظيعاً).

ولم تنكر إيزابيل بأنه كان فظيعاً. لكنها حددت نفسها بالإجابة على أسئلة هنرييتا، والتي كانت سهلةً كما كانت واضحة بشكلٍ يُطاق. لم تقدم لها في الوقت الحالي معلومات جديدة.

قالت الآنسة ستاكبول أخيراً: (حسناً، لدي تعقيب واحد فقط يجب أن أقوله. أنا لا أفهم لِمَ وعدتِ الآنسة أوزموند الصغيرة بالعودة).

أجابت إيزابيل: (أنا لستُ متأكدة من أنني أنا نفسي أفهم الآن. لكنني عندئذٍ لم أكن أفهم).

ـ (لو كنتِ قد نسيتِ سببكِ فربما لن تعودي).

تريثت إيزابيل قليلاً في الكلام، ثم قالت: (ربما سأجد سبباً آخر).

ـ (لن تجدي بالتأكيد سبباً جيداً).

أشارت إيزابيل: (في حالة عدم وجود سبب أفضل فإن وعدي سيفي بالغرض).

ـ (نعم، ولهذا السبب أكرهه).

ـ (لا تتحدثي في الموضوع الآن. فوقتي ضيق. إن مجيئي كان أمراً معقداً، لكن ماذا ستكون عودتي؟).

قالت هنرييتا بإصرارٍ كبير: (عليكِ في النهاية أن تتذكري بأنه لن يفتعل لكِ ثورة غضب!).

أجابت إيزابيل بعبوس: (سيفعل ذلك بالرغم من هذا. لن تكون ثورة غضب للحظة؛ بل ستكون ثورة غضب لمدى حياتي).

جلست المرأتان لبضع دقائق وفكّرتا بهذه النتيجة. ومن ثم قامت الآنسة ستاكبول ـ لكي تغير الموضوع كما طلبت منها إيزابيل ـ بالإعلان بسرعة: (سوف أمكث مع السيدة بينسل!).

ـ (آه، الدعوة وصلت أخيراً!).

ـ (نعم، لقد تطلّبت خمس سنوات. لكن هذه المرة أرادت رؤيتي).

ـ (طبيعي جداً).

قالت هنرييتا التي ثبتت نظرها على نقطةٍ بعيدة: (لقد كان طبيعياً أكثر مما أعتقد بأنكِ تعلمين). ومن ثم أضافت وهي تستدير فجأة: (يا إيزابيل آرتشر، سامحيني. أنت لا تعلمين السبب؟ لأنني انتقدتُكِ، وأيضاً تفوقتُ عليكِ. فالسيد أوزموند على الأقل كان مولوداً في الجانب الآخر!).[1]

كانت قد مرت لحظة قبل أن تفهم إيزابيل مقصدها؛ فقد كان المعنى مستتراً بتواضع أو على الأقل بذكاءٍ جداً. لم يكن ذهن إيزابيل في الوقت الحاضر منهمكاً بالأمور الهزلية؛ لكنها رحبت بضحكةٍ سريعة بالصورة التي

(1) الجانب الآخر: تقصد به أميركا. أي الجانب الآخر من العالم. (المترجمة)

قدّمتها رفيقتها. مع ذلك، استردت توازنها على الفور وسألت بحدّةٍ مفرطةٍ جداً: (يا هنرييتا ستاكبول، هل ستتخلين عن وطنكِ؟).

ـ (نعم يا عزيزتي إيزابيل المسكينة، سأتخلى. لن أتظاهر بإنكار ذلك؛ فالحقيقة تظهر على وجهي. سوف أتزوج من السيد بانِلْنج وأستقرُ هنا في لندن تماماً).

قالت إيزابيل وهي تبتسم الآن: (يبدو ذلك غريباً جداً).

ـ (حسناً، نعم، أعتقد بأنه كذلك. لقد توصلتُ إلى ذلك شيئاً فشيئاً. أعتقد بأنني أعرف ماذا أفعل؛ لكنني لا أعرف إن كان يمكنني تفسير ذلك).

أجابت إيزابيل: (لايمكن للمرء أن يفسر سبب زواجه. وإن زواجكِ لا يحتاج إلى تفسير. فالسيد بانِلْنج ليس أحجية).

ـ (بلى، إنه ليس أحجية سيئة... أو حتى رحلة جويّة شاهقة بظرافة أميركية).

واصلت هنرييتا الكلام: (إن له طبيعة جميلة. لقد درستُهُ لعدة سنوات وتمكنتُ من معرفتهِ تماماً. إنه واضحٌ كنشرةٍ إعلانية جيدة. إنه ليس مثقفاً، لكنه يقدّر الثقافة. من ناحية أخرى، فهو لا يبالغ في ادّعائها. أفكر أحياناً بأننا نفع في الولايات المتحدة).

قالت إيزابيل: (آه، لقد تغيرتِ حقاً! إنها المرة الأولى التي أسمعكِ فيها يوماً تقولين شيئاً ضد وطنكِ).

ـ (أنا أقول فقط بأننا شغوفان بقوة الفكر البحتة؛ وذلك في النهاية ليس خطيئة بذيئة. لكنني تغيرتُ؛ فالمرأة يجب أن تتغير كثيراً لتتزوج).

ـ (أتمنى أن تكوني سعيدةً جداً. فأنتِ أخيراً... ومن هنا... سترين شيئاً عن الحياة المنزلية).

تنهدت هنرييتا تنهيدةً ثقيلة قليلاً، وأضافت ببهجة بريئة: (أعتقد بأن ذلك هو مفتاح اللغز. لم أحتمل أن يتم تَجَنُّبي. والآن لدي الحق كأي أحدٍ آخر تماماً!).

سُرَّتْ إيزابيل حقاً، لكن كانت هناك كآبة مؤكدة في نظرتها. فهنرييتا في النهاية اعترفت بأنها إنسانة وأنثى، هنرييتا التي كانت تُعتبر لحدّ الآن كشعلة متوقدة ساطعة، صوتاً روحياً. كان مخيّباً للآمال أن تجد بأن لديها مشاعر شخصية، وأنها خاضعة للعواطف المعتادة، وأن صداقتها مع السيد باِنلِنْج لم تكن متميزة جداً. فقد كان هناك افتقار للتميز في زواجها منه ـ كان هناك حتى نوع من الحماقة؛ ولوهلةٍ، وبالنسبة لإحساس إيزابيل، اكتسبت كآبة الحياة لوناً داكناً أكثر. بعد ذلك بقليل فكرت في الحقيقة بأن السيد باِنلِنْج نفسه على الأقل كان متميزاً. لكنها لم تفهم كيف لهنرييتا أن تتخلى عن وطنها. فهي نفسها قد خففتْ من التمسك به، لكنه لم يكن وطنها بقدر ما كان وطن هنرييتا.

سألتها على الفور فيما إذا كانت قد استمتعت بزيارتها إلى السيدة بينسل، فقالت هنرييتا: (أوه نعم، فهي لم تَدْرِ ما تفعله إزائي).

ـ (وهل كان ذلك باعثاً على البهجة؟).

ـ (كثيراً، لأنها من المفروض أن تكون عقلاً منظّماً. فهي تعتقد بأنها تعرف كل شيء؛ لكنها لا تفهم امرأةً من طرازي العصري. سيكون من الأسهل بالنسبة لها لو كنتُ فقط أفضل قليلاً أو أسوأ قليلاً. إنها محيّرة جداً؛ أعتقد بأنها ترى أن عملي هو أن أسافر وأفعل شيئاً عديم الأخلاق. إنها تعتقد أن من غير الأخلاقي أن أتزوج أخاها؛ لكن في النهاية ليس ذلك لا أخلاقياً جداً. ولن تفهم أبداً مزاجي... أبداً!).

قالت إيزابيل: (إذن هي ليست ذكية جداً كأخيها. يبدو بأنه يفهمكِ).

صاحت الآنسة ستاكبول بصرامة: (أوه لا، إنه لا يفهمني! أنا أعتقد حقاً بأن ذلك هو ما يريد أن يتزوجني لأجله... فقط ليكتشف هذا اللغز وأبعادَه. إنها فكرة راسخة.... نوع من الاجتذاب).

ـ (من الجيد منكِ أن تسايري الأمر).

قالت هنرييتا: (أوه حسناً، أنا أيضاً لدي شيء أريد أن أكتشفه!).

ورأت إيزابيل بأنها لم تتجرد من الولاء، وإنما خططت لهجوم. فقد كانت أخيراً على وشك أن تواجه إنجلترا جدياً.

مع ذلك، شعرت إيزابيل أيضاً في اليوم التالي عند محطة بادينجتون، حيث وجدت نفسها في الساعة العاشرة بصحبة كل من الآنسة ستاكبول والسيد بانِلنْج، بأن الرجل قد مَلَّ من حيرته قليلاً. فإن لم يكن قد اكتشَفَ كل شيء فقد اكتشفَ على الأقل الأمر المهم ـ وهو أن الآنسة ستاكبول لن تنقصها روح المبادرة. من الواضح أنه في اختياره للزوجة كان حذراً من هذا النقص.

قالت له إيزابيل وهي تمد له يدها: (لقد أخبرَتْني هنرييتا، وأنا سعيدةٌ جداً).

أجاب السيد بانِلنْج وهو يتكئ على مظلته الأنيقة: (أتجرأ وأقول بأنكِ تعتقدين الأمر غريباً جداً).

ـ (نعم، أنا أظنه غريباً جداً).

قال السيد بانِلنْج بوضوح: (لا يمكنكِ أن تظنينه غريباً بشكلٍ رهيب كما أظنُّهُ أنا. لكنني أحببتُ دائماً في الواقع أن أحذف سطراً).

***

الفصل 54

كان وصول إيزابيل إلى جاردن كورت في هذه المناسبة الثانية أكثر هدوءاً حتى من وصولها إليه أول مرة. لم يكن محيطاً برالف سوى أقارب قليلين، وخدم جدد لم تكن السيدة أوزموند تعرفهم؛ لذا بدلاً من أن يوصلوها إلى حجرتها كانوا قد اقتادوها إلى غرفة الاستقبال وتُركت تنتظر بينما أوصلوا اسمها إلى خالتها. لقد انتظرت وقتاً طويلاً؛ فقد بدا أن السيدة تاتشيت لم تستعجل في الذهاب إليها.

نفد صبرها في النهاية؛ إذ أصبحت متوترة وخائفة وكأن الأشياء من حولها بدأت تُظهِر لها أشياء محسوسة، وتراقب انزعاجها بتكشيرةٍ غريبة. كان اليوم مظلماً وبارداً؛ وكان الظلام حالكاً في أرجاء الغرفة الواسعة المملة. كان المنزل هادئاً جداً ـ هدوءاً تذكَّرَتْهُ إيزابيل؛ فهو نفسه قد عمَّ المكان كله لأيام قبل موت زوج خالتها.

تركت غرفة الاستقبال وجالت في الأرجاء ـ مشت في المكتبة وعلى طول الرواق الذي يضم اللوحات حيث أصدرت خطوتها في ذلك الهدوء العميق صدى. لم يتغير شيء؛ فقد تعرّفت على كل شيء كانت قد رأته من قبل وكأنها وقفت هناك أمس فقط. حسدتْ سَكينةَ «القطع» القيِّمة التي لم تتغير قيد شعرة بل ازدادت فقط في القيمة بينما يفقد مالكوها شيئاً فشيئاً الشباب والسعادة والجمال؛ وانتبهَتْ بأنها كانت تتجول في الأرجاء مثلما فعلت خالتها ذلك مرةً في اليوم الذي أتت فيه لرؤيتها في ألباني. لقد تغيرت تماماً منذ ذلك الحين ـ كانت تلك هي البداية. خطر لها فجأة أنه لو لم تأتِ

خالتها ليديا في ذلك اليوم بتلك الطريقة بالذات ووجدتها وحدها لكان كل شيء الآن مختلفاً. ربما كانت ستحظى بحياةٍ أخرى وربما كانت ستصبح امرأة سعيدة.

وقفت في الرواق أمام لوحة صغيرة ـ لوحة ساحرة وثمينة للرسام بونينجتون ـ استقرت عليها عيناها وقتاً طويلاً. لكنها لم تكن تنظر إلى اللوحة؛ بل كانت تتساءل فيما لو لم تكن خالتها قد أتت في ذلك اليوم إلى ألباني فهل كانت ستتزوج كاسبار غودوود.

ظهرت السيدة تاتشيت أخيراً؛ بعد أن عادت إيزابيل مباشرةً إلى غرفة الاستقبال الكبيرة التي لم يوجد فيها أحد. لقد بدت أكبر سناً كثيراً، لكن نظرتها كانت حادة مثلما هي دائماً، ورأسها منتصباً كما هو دائماً؛ بدت شفتاها الرفيعتان مستودعاً لمعانٍ كامنة. كانت ترتدي فستاناً رمادياً بسيطاً من النوع غير المزيّن كثيراً، وتساءلت إيزابيل، مثلما تساءلت أول مرة، فيما إذا كانت قريبتها الملفتة للنظر تشبه أكثر ملكة أو مديرة سجن. كان ملمس شفتيها رقيقاً جداً في الحقيقة على الوجنة الحارة لإيزابيل.

قالت السيدة تاتشيت: (لقد جعلتُكِ تنتظرين لأنني كنتُ جالسةً مع رالف. فالممرضة ذهبت لتناول الغداء وقد أخذتُ مكانها. كان لديه شخص من المفروض أن يعتني به، لكنه لا يجيد شيئاً؛ فهو دائماً ينظر من النافذة فيما إذا كان يوجد شيء ليراه! لم أرغب بالتحرك من مكاني لأن رالف كان نائماً وكنتُ خائفة من أن يزعجه الصوت. فانتظرتُ حتى عادت الممرضة. تذكرتُ بأنكِ تعرفين المنزل).

أجابت إيزابيل: (لقد اكتشفتُ بأنني أعرفه أفضل حتى مما ظننتُ؛ فقد كنتُ أتمشّى في كل مكان).

ثم سألتْ إن كان رالف ينام كثيراً.

ـ (إنه يرقد وعيناه مغمضتان؛ إنه لا يتحرك. لكنني لستُ متأكدةً من أن ذلك كله نوم).

ـ (هل سيراني؟ هل يمكنه التحدث إلي؟).

امتنعت السيدة تاتشيت من أن تحذّرها، وكان قوله: «يمكنكِ أن تجربي» هو منتهى مبالغتها. ومن ثم عرضتْ لتوصل إيزابيل إلى غرفتها.

ـ (لقد ظننتُ بأنهم أخذوكِ إلى هناك؛ لكنه ليس منزلي، إنه منزل رالف؛ ولا أدري ماذا يفعلون. كان يجب عليهم على الأقل أن يأخذوا أمتعتكِ؛ لا أعتقد بأنكِ جلبتِ الكثير. مع ذلك، ليس هذا هو ما يهمني. اعتقدتُ بأنهم منحوكِ الغرفة نفسها التي كانت لديكِ سابقاً؛ عندما سمع رالف بأنكِ قادمة قال بأنه يجب عليكِ أن تحظي بتلك الغرفة).

ـ (هل قال أي شيء آخر؟).

صاحت السيدة تاتشيت وهي تسبق ابنة أختها إلى السلّم: (آه، يا عزيزتي، إنه لا يثرثر مثلما اعتادَ دائماً!).

لقد كانت الغرفة نفسها، وقد أخبر شيء ما إيزابيل بأنه لم ينم فيها أحدٌ منذ أنْ كانت تشغلها. كانت امتعتها هناك ولم تكن ضخمة؛ جلست السيدة تاتشيت قليلاً وعيناها على الأمتعة.

سألت شابتُنا وهي تقف أمامها: (ألا يوجد حقاً أي أمل؟).

ـ (لا أمل بتاتاً. ولن يوجد هناك أمل. لم تكن حياةً ناجحة).

ـ (كلا... لقد كانت دائماً حياةً جميلة).

وجدت إيزابيل نفسها الآن تُعارِضُ خالتها؛ فقد كانت متوترة من قسوتها.

ـ (لا أدري ماذا تعنين بذلك؛ فلا يوجد جمال بلا صحة. إن ذلك فستانٌ غريب جداً لتسافري به).

نظرت إيزابيل إلى ثوبها.

ـ (لقد غادرتُ روما بإخطارِ ساعةٍ واحدة؛ فأخذتُ أول ما وصلتْ يدي إليه).

ـ (إن أختيكِ في أميركا رغبتا في معرفة ماذا ترتدين. لقد بدا ذلك اهتمامها الأساسي. لم أكن قادرة على إخبارهما... لكن يبدو بأن لديهما الفكرة الصحيحة: وهي أنكِ لا ترتدين شيئاً أدنى من القطيفة السوداء).

قالت إيزابيل: (إنهما تعتقدان بأنني أذكى مما أنا في الحقيقة؛ أنا خائفة من أن أقول لهما الحقيقة. كتبتْ لي ليلي بأنكِ تعشيتِ معها).

ـ (لقد دعتني أربع مرات وذهبتُ مرةً واحدة. بعد المرة الثانية تركَتْني وشأني. كان العشاء لذيذاً جداً؛ لا بدّ أنه كان مُكلِفاً. إن لزوجها أخلاقاً سيئة جداً. هل استمتعتُ بزيارتي إلى أميركا؟ لماذا استمتعتُ بها؟ لم أذهب لأجل متعتي الشخصية).

كانت تلك مواضيع مثيرة للاهتمام، لكن السيدة تاتشيت تركت ابنة أختها بسرعة، والتي كانت ستلتقيها خلال نصف ساعة عند وجبة الظهيرة.

جلست السيدتان مقابل إحداهما الأخرى أمام هذه الوجبة على مائدة مختصرة في غرفة الطعام الكئيبة. وهنا، وبعد وقتٍ قصير، لم تَرَ إيزابيل خالتها بأنها قاسية مثلما كانت تبدو، وتذكّرتْ شفقتها الماضية لعدم قدرة المرأة المسكينة على التعبير وافتقارها إلى التأسف والى خيبة الأمل. لقد اكتشفَتِ اليوم وبشكلٍ لا يقبل الخطأ نعمة أن تكون قادرة على أن تشعر بهزيمةٍ أو بخطإٍ أو حتى بعيبٍ أو اثنين. تساءلَتْ فيما إذا لم تكن حتى تفتقد لِما يقوّي مشاعرها أو تحاول سراً ابتغاء ملذات الحياة أو بقايا الوليمة؛ الإقرار بالألم أو إحياء تأنيب الضمير. من ناحية أخرى، ربما كانت خائفة؛ لأنها إنْ بدأت تشعر بتأنيب الضمير أساساً فقد يأخذها ذلك بعيداً جداً. مع ذلك، استطاعت إيزابيل أن تشعر كيف خطر في ذهنها بشكلٍ باهت بأنها فشلت في شيء ما، في أن ترى نفسها في المستقبل كامرأةٍ عجوز بدون ذكريات. لقد بدا وجهها الضئيل الصارم مأساوياً.

أخبرَتِ ابنة أختها بأن رالف لم يتحرك لحدّ الآن، لكنه من المحتمل أنه

سيكون قادراً على رؤيتها قبل العشاء. ثم أضافت بسرعة بأنه رأى اللورد واربيرتون يوم أمس؛ وهو تصريحٌ أجفل إيزابيل قليلاً، لأنه بدا إشارة بأن هذه الشخصية كانت في الجوار وأن مصادفةً قد تجمعهما. إن مصادفةً كهذه لن تكون سعيدة؛ فهي لم تأتِ إلى إنجلترا لتتنازع ثانيةً مع اللورد واربيرتون. مع ذلك، قالت لخالتها على الفور بأنه كان لطيفاً جداً مع رالف؛ وإنها رأت شيئاً من ذلك في روما.

ردت السيدة تاتشيت: (لديه الآن شيء آخر لتريه). وتوقفت عن الكلام وهي تحدق كالمثقاب. رأت إيزابيل بأنها تقصد شيئاً ما، وخمنتْ بسرعةٍ ما كانت تقصده. لكن إجابتها أخفت تخمينها؛ فقد دق قلبها أسرع وأرادت أن تكسب وقتاً: (آه، نعم... مجلس اللوردات وكل ذلك).

ـ (إنه لا يفكر باللوردات؛ إنه يفكر بالسيدات. إنه على الأقل يفكر بواحدةٍ منهن؛ فقد أخبر رالف بأنه خاطِبٌ ليتزوج).

صاحت إيزابيل بلطف: (آه، ليتزوج!).

ـ (ما لم يلغِ الموضوع. لقد اعتَقَدَ بأن رالف يريد معرفة ذلك. لا يستطيع رالف المسكين أن يذهب إلى حفل الزفاف رغم أنني أعتقد بأنه سيحدث قريباً جداً).

ـ (ومن هي هذه السيدة الشابة؟).

ـ (فردٌ من جماعة أرستقراطية؛ السيدة فلورا، السيدة فيليسيا، شيء من هذا القبيل).

قالت إيزابيل: (أنا مسرورة جداً. لا بد أن ذلك قرار مفاجئ).

ـ (مفاجئ تماماً على ما أعتقد؛ خطبة خلال ثلاثة أسابيع. لقد أُعلنت فقط للتو).

كررت إيزابيل بتأكيدٍ كبير: (أنا مسرورة جداً).

كانت تعرف بأن خالتها كانت تراقبها ـ باحثةً عن علاماتٍ لأية مرارة بسبب ذلك، وقد مَكَّنَتْها رغبتها بمنع مرافِقتَها من ملاحظة أي شيء من هذا القبيل من التحدث بنبرة الاستحسان السريع، وبنبرة الارتياح قليلاً. إن السيدة تاتشيت طبعاً تتبع التقاليد، وهي أن السيدات ـ حتى المتزوجات منهن ـ يَعتَبِرْنَ زواج عشاقهن إهانة لهن. لذلك كان اهتمام إيزابيل الأول هو أن تُظهِر بأنها ليست مُهانةً الآن برغم ما يُعتقد ذلك عموماً. لكن أثناء ذلك ـ وكما ذكرتُ ـ كان قلبها يخفق بسرعة؛ وإذا كانت قد جلست لبضع لحظات وهي تفكر ـ إذ نسيت بسرعة مراقبة السيدة تاتشيت لها ـ فليس السبب هو أنها فقدت معجباً. كان خيالها قد جاب نصف أوروبا؛ توقَّفَ لاهثاً ـ وحتى مرتعداً ـ في مدينة روما. تخيلت نفسها وهي تعلن لزوجها بأن اللورد واربيرتون كان سيقتاد عروساً إلى مذبح الكنيسة، ولم تكن مدركةً طبعاً كم بدت شاحبةً جداً عندما بذلتْ هذا المجهود الفكري. لكن في النهاية، استجمعت قواها وقالت لخالتها: (كان من المؤكد بأنه سيفعل ذلك في وقتٍ من الأوقات).

كانت السيدة تاتشيت صامتة، ثم هزت رأسها بحدّةٍ قليلاً وصاحت في النهاية: (آه، يا عزيزتي، لقد تفوقتِ عليّ!).

استمرتا في تناول غدائهما بصمت؛ إذ شعرت إيزابيل وكأنها سمعت بموت اللورد واربيرتون. لقد كانت تعرفه فقط كخاطب، والآن انتهى ذلك كله. لقد كان ميتاً بالنسبة لبانسي المسكينة؛ فبواسطة بانسي ربما قد يعيش.

كان هناك خادم يروح ويجيء؛ فطلبت منه السيدة تاتشيت في النهاية أن يتركهما. كانت قد أنهت وجبتها؛ فجلست ويداها مطويتان على حافة المائدة.

قالت عندما ذهب الخادم: (أريد أن أسألكِ ثلاثة أسئلة).

ـ (ثلاثة عدد كبير).

ـ (لا يمكنني أن اكتفي بأقل من ذلك؛ فقد كنتُ أفكر. كلها أسئلة وجيهة).

أجابت إيزابيل: (ذلك هو ما أخافُ منه، فأفضَل الأسئلة هو أسوأها).

دفعت السيدة تاتشيت كرسيها إلى الخلف، وعندما تركت ابنة أختها المائدة وسارت بارتباكٍ قليلاً إلى إحدى النوافذ، شعرت بأنها متبوعة بنظراتها.

فتساءلت السيدة تاتشيت: (هل تأسفتِ يوماً بأنكِ لم تتزوجي اللورد واربيرتون؟).

هزت إيزابيل رأسها ببطء لكن ليس بشدة.

- (كلا يا خالتي العزيزة).

- (جيد، فمن المستحسن أن أخبركِ بأنني أنوي تصديق ما تقولينه).

أعلنتْ وهي لا تزال مبتسمة: (إن تصديقكِ لِما أقوله هو إغراءٌ هائل).

- (إغراءٌ بالكذب؟ لا أنصحكِ بفعل ذلك، لأنني عندما أُمنَح معلومات خاطئة أصبح خطيرةً كجرذٍ مسموم. أنا لا أقصد أن أتبجَّحَ عليكِ).

قالت إيزابيل: (إن زوجي هو الذي لا ينسجم معي).

أضافت السيدة تاتشيت: (لم أستطع أن أخبره بأن لا يفعل ذلك. أنا لا أُسَمّي ذلك تبجُّحاً عليكِ).

واصلت الكلام: (هل لا زلتِ تحبين سيرينا ميرليه؟).

- (ليس مثلما أحببتُها سابقاً. لكن لا يهم، لأنها ذاهبة إلى أميركا).

- (إلى أميركا؟ لا بدّ أنها فعلتْ شيئاً سيئاً جداً).

- (نعم... سيّئ جداً).

- (هل يمكنني أن أسأل ما هو؟).

- (لقد... استغلتني).

صاحت السيدة تاتشيت: (آه، وكذلك فعلتْ معي! إنها تستغل كل شخص).

قالت إيزابيل وهي تبتسم ثانيةً وسعيدةً لأن أسئلة خالتها قد انتهت: (سوف تستغل أميركا).

لم يكد يحل المساء حتى تمكنت من رؤية رالف. لقد كان نائماً طوال النهار؛ كان على أية حال راقداً وهو فاقد للوعي. كان الطبيب موجوداً، لكنه غادر بعد فترةٍ قصيرة ـ وهو طبيب البلدة الذي كان قد عالج والده والذي كان رالف يحبه. كان يأتي ثلاث أو أربع مرات في اليوم؛ فقد كان مهتماً بشدة بمريضه. كان رالف قد حظي بالسيد ماثيو هوب، لكنه كان ضجراً من هذا الرجل المشهور الذي طلب رالف من والدته أن ترسل له رسالة بأنه قد مات الآن وأنه بذلك ليس بحاجة لاستشارة طبية أخرى. فكتبت السيدة تاتشيت ببساطة إلى السيد ماثيو بأن ابنها يمقته.

في يوم وصول إيزابيل لم يُبَلَّغْ رالف بذلك لعدة ساعات كما ذكرتُ؛ لكن بحلول المساء نهض وقال بأنه عرف بأنها قد أتت. كيف عرف ذلك، لم يكن واضحاً، إذ لم يذكر أحدٌ هذه المعلومة مخافة إثارته.

دخلت إيزابيل وجلست بجوار سريره في الضوء الخافت؛ فقد كانت هناك فقط شمعة محجوبة عن النظر في ركن الغرفة. أخبرت الممرضةَ بأنها ستجلس معه لبقية المساء.

فتح عينيه ورآها، وحرَّكَ يده الممتدة إلى جانبه بلا حراك لكي تأخذها. لكنه كان عاجزاً عن الكلام؛ فأغلق عينيه ثانيةً وبقي ساكناً تماماً، فقط مُبْقِياً يدها في يده. جلست بجانبه مدة طويلة حتى عادت الممرضة؛ لكنه لم يُبْدِ حركةً أخرى. قد يكون ميتاً عندما نظرَتْ إليه؛ فقد كان له الآن جسد وهيئة الموتى. لقد تذكرَتْهُ عندما كان في روما، لكن الآن كان أسوأ؛ فلم يكن يوجد سوى تغيير واحد محتمل الآن. وهو طمأنينة غريبة في وجهه؛ كانت ثابتة كثبات غطاء الصندوق. وبهذا كان مجرد مجموعة متشابكة من العظام؛ عندما فتح عينيه ليقوم بتحيتها كانتا وكأنهما تنظران إلى فضاء بلا حدود.

لم يكد يحل منتصف الليل حتى عادت الممرضة، لكن تلك الساعات بالنسبة لإيزابيل لم تبدُ طويلة؛ فذلك بالضبط هو ما أتت لأجله. فاذا كانت قد

أتت لكي تنتظر فقط، فقد وَجدتْ مناسبةً سانحة، لأنه رقد ثلاثة أيام كنوعٍ من الصمت الشاكر.

لقد عرفها وبدا للحظاتٍ بأنه يرغب بالتحدث إليها؛ لكنه لم يجد الصوت. ثم أغمض عينيه وكأنه هو أيضاً ينتظر شيئاً ما ـ شيئاً كان سيأتي بالتأكيد. لقد كان هادئاً جداً بشكلٍ تام لدرجة بدا لها أن ما كان آتياً قد وصل الآن؛ ومع ذلك لم تفقد الإحساس بأنهما كانا لا يزالان معاً. لكنهما لم يكونا معاً دائماً؛ فقد كانت هناك ساعات أخرى أمضتها في التجول عبر المنزل الفارغ وهي تصغي لصوتٍ لم يكن صوت رالف المسكين. لقد تملَّكَها رعب ثابت؛ فقد فكرتْ أنه من الممكن أن يقوم زوجها بالكتابة لها. لكنه لم يرسل لها شيئاً، وتسلمتْ فقط رسالة من فلورنسا ومن الكونتيسة جيميني.

على أية حال، فقد نطق رالف أخيراً ـ في مساء اليوم الثالث. فهمهم بسرعة في العتمة الهادئة من سهرها: (أشعرُ بتحسُّنٍ هذه الليلة. أعتقد بأنه يمكنني أن أقول شيئاً).

فهبطت على ركبتيها بجوار وسادته؛ وأخذت يده الهزيلة في يدها؛ وتوسّلَتْ إليه أن لا يجهد نفسه ـ أن لا يرهق نفسه. كان وجهه جادّاً بحكم الضرورة ـ لم يكن قادراً على تحريك عضلات وجهه للابتسام؛ لكن من الواضح أن صاحبه لم يفقد حسّ المشاكسة: (ما الذي يهم إن كنتُ مرهَقاً ولدي الأبدية كلها لأرتاح؟ لا ضرر في بذل بعض الجهد عندما يكون آخر جهد. ألا يشعر الناس دائماً بالارتياح قبل نهايتهم مباشرةً؟ كنتُ أسمع ذلك دائماً؛ وذلك هو ما كنتُ أنتظره. لقد فكرتُ بأنه سيأتي منذ أن تواجدتِ هنا. حاولتُ مرتين أو ثلاثاً؛ فقد كنتُ خائفاً من أن تتعبي من الجلوس هناك).

تحدَّثَ ببطء باندفاعات مؤلمة وبوقفات طويلة في الكلام؛ فبدا صوته كأنه آتٍ من بعيد. عندما توقَّفَ عن الكلام، رقد ووجهه ناحية إيزابيل، وعيناه الكبيرتان اللتان لا ترمشان مفتوحتان على عينيها.

واصل الكلام: (إنه لطفٌ منكِ أن تأتي. لقد فكرتُ بأنكِ ستأتين، لكنني لم أكن متأكداً).

قالت إيزابيل: (وأنا أيضاً لم أكن متأكدة حتى أتيتُ).

ـ (تبدين كملاكٍ بجانب سريري. أنت تعرفين بأنهم يتحدثون عن ملاك الموت. إنه أجملهم جميعاً. أنت مثلهم، وكأنكِ تنتظرينني).

ـ (لم أكن أنتظرُ موتكَ؛ بل كنتُ أنتظرُ... أنتظر هذا. إن هذا ليس موتاً يا عزيزي رالف).

ـ (ليس بالنسبة لكِ... كلا. لا يوجد شيء يجعلنا نشعر بأننا أحياء أكثر من أن نرى غيرنا يموت. إن ذلك هو الشعور بالحياة... الشعور بأن نبقى. لقد شعرتُ بذلك... حتى أنا. لكنني الآن بلا فائدة إلّا أن أُسلمها لآخرين. فالأمر منتهٍ بالنسبة لي).

ثم توقف عن الكلام. أمالت إيزابيل رأسها أكثر حتى استقرَّ على اليدين اللتين تمسكان بيديه. لم تستطع أن تفهمه الآن؛ لكن صوته البعيد كان قريباً من أذنها.

واصل الكلام فجأة: (يا إيزابيل، أتمنى أن يكون الأمر منتهياً بالنسبة لكِ).

فلم تجب بشيء؛ بل أجهشت بالبكاء؛ بقيت على هذا الحال ووجهها متوارٍ. رقد صامتاً وهو يصغي إلى نحيبها؛ وأخيراً أطلق أنيناً طويلاً.

فصاحت: (ما الذي فعلتَهُ من أجلي؟ ما الذي فعلتَهُ لي).

كان اهتياجها البالغ الآن قد هدأ قليلاً بموقفها هذا. لقد فقدتْ كل حرجها وكل رغبة بإخفاء الأشياء. والآن يجب عليه أن يعرف؛ لقد أرادت أن يعرف، لأن ذلك هو ما جمعهما معاً بشكل أهم، وهو الآن بعيد عن متناول الألم.

(لقد فعلتَ شيئاً ذات مرة... وأنتَ تعلم ما هو. يا رالف لقد كنتَ كل شيء! ما الذي فعلتُهُ أنا لأجلكَ... ما الذي يمكنني فعله اليوم؟ أتحرّقُ شوقاً كي تعيش. لكنني لا أتمنى أن تعيش؛ إذ سأتمنى لنفسي الموت كي لا أفقدكَ).

كان صوتها متقطعاً كصوته ومشبعاً بالدموع والحرقة.

ـ (أنتِ لن تفقديني... سوف تُبقينني. ابقيني في قلبكِ؛ سوف أكون أقرب لكِ مما كنتُ يوماً. يا عزيزتي إيزابيل، إن الحياة أفضل، لأنه يوجد هناك حب في الحياة. والموت جيد... لكن لا يوجد فيه حب).

واصلت إيزابيل الكلام: (أنا لم أشكركَ أبداً... أنا لم أنطق أبداً... أنا لم أكن أبداً ما يجب أن أكون عليه!).

لقد شعرَتْ برغبةٍ عنيفة بأن تشنّ هجوماً على نفسها وتتهمها، وبأن تجعل حزنها يتملكها. لقد أصبحت، ولوهلةٍ، كل متاعبها واحدة وانصهرت معاً إلى هذا الحزن الحالي.

(ما الذي ستظنه فيَّ؟ مع ذلك، كيف يمكنني أن أعرف؟ فأنا لم أعرف أبداً، وقد عرفتُ اليوم فقط لأن هناك أناساً أقل غباءً مني).

قال رالف: (لا تُبالِ بالناس. أعتقد بأنني سعيد لأنني سأترك الناس).

فرفعت رأسها ويداها المشتبكتان؛ وبدت لوهلة تصلّي من أجله.

سألت: (هل صحيح... هل صحيح؟).

قال رالف بقصدٍ محسوس للسخرية: (هل صحيح بأنكِ غبية؟ أوه لا).

ـ (بل هل صحيح بأنكَ جعَلْتَني غنية... بأنَّ كل ما أملكُهُ يعود الفضل فيه لكَ؟).

فأبعد رأسه ولم يقل شيئاً لوهلة، ثم قال في النهاية: (آه، لا تقولي ذلك... لم يكن ذلك شيئاً سارّاً).

وحرّكَ رأسه ثانيةً ببطء نحوها، ونظر أحدهما للآخر مرة أخرى وقال: (لكن بالنسبة لهذا الموضوع... لكن بالنسبة لهذا الموضوع...!). فتوقف عن الكلام. ثم ولول: (أعتقدُ بأنني حطمتُكِ).

كانت مدركةً جيداً بأنه بعيد عن متناول الألم؛ فقد بدا مسبقاً زاهداً جداً في

هذا العالم. لكن حتى وإن لم تكن قد عانت فلا يزال عليها أن تتكلم، لأنه لم يعد هناك شيء مهم الآن سوى الإدراك الوحيد الذي لم يكن معاناةً محضة ـ إدراك بأنهما كانا ينظران إلى الحقيقة معاً.

قالت: (لقد تزوجني من أجل المال).

لقد أرادت أن تقول كل شيء؛ كانت خائفة من أن يموت قبل أن تفعل ذلك. حدّقَ عليها قليلاً، ولأول مرة أنزلَتْ عيناه الشاخصتان جفونهما. لكنه رفعها بسرعة ومن ثم أجاب: (لقد كان واقعاً في حبكِ بشدة).

ـ (نعم، كان واقعاً في حبي. لكنه ما كان ليتزوجني لو كنتُ فقيرة. أنا لا أؤذيكَ بقولي ذلك، كيف يمكنني فعل ذلك؟ أردتُ فقط أن تعرفَ ذلك. فقد حاولتُ دائماً أن أُبعدَكَ عن أن تعرف ذلك؛ لكن ذلك انتهى تماماً).

قال رالف: (كنتُ أعرفُ ذلك دائماً).

ـ (كنتُ أشكُّ بأنكَ تعرف ذلك، وكنتُ منزعجة منه، لكنني لستُ منزعجة منه الآن).

ـ (أنتِ لا تؤذينني... أنت تجعلينني سعيداً جداً). كانت هناك سعادة غريبة في صوته عندما قال ذلك. فأحنت رأسها ثانيةً وضغطت شفتيها على ظهر يده.

واصل الكلام: (كنتُ أعرفُ ذلك دائماً، رغم أنه كان غريباً جداً... وباعثاً على الشفقة كثيراً. لقد أردتِ أن تنظري إلى الحياة بنفسكِ... لكن لم يكن يُسمَح لكِ ذلك؛ وقد عوقبتِ على إرادتكِ هذه. لقد كنتِ مسحوقة في طاحونة التقاليد نفسها).

انتحبت إيزابيل: (أوه نعم، لقد عوقبتُ).

أصغى إليها قليلاً، ثم واصل الكلام: (هل كان خبيثاً جداً معكِ بشأن مجيئكِ إلى هنا؟).

ـ (لقد جعل الأمر عليَّ صعباً جداً. لكنني لا أهتم).

ـ (هل انتهى الأمر بينكما إذن؟).

ـ (أوه كلا، لا أعتقد بأن كل شيء قد انتهى).

لهث رالف: (هل ستعودين إليه؟).

ـ (لا أدري... لا يمكنني أن أقرر. سوف أبقى هنا قدر ما يمكن. فلا أريد أن أفكر بذلك... لا أحتاج إلى أن أفكر بذلك. أنا لا أهتم بأي شيء سواك، وذلك يكفي في الوقت الحالي. حتى وإن سيدوم ذلك قليلاً. فهنا على ركبتيّ، وأنتَ تحتضر بين ذراعي، أنا أسعد مما كنتُ كذلك منذ مدة طويلة. وأنا أريدكَ أن تكون سعيداً... وأنْ لا تفكر بأي شيء حزين: إلّا أن تشعر بأنني بقربكَ وأنني أحبكَ. لِمَ يجب أن يكون هناك ألم؟ في ساعاتٍ كهذه، ماذا يجب علينا أن نفعل بالألم؟ ليس ذلك هو أكثر الأمور تعقيداً؛ فهناك شيء معقد أكثر).

من الواضح أن رالف قد وجد لحظةً بعد أخرى صعوبة أكثر في التحدث؛ فكان عليه أن ينتظر أكثر ليستجمع قواه. في البداية لم يجب على تلك الكلمات الأخيرة؛ وسمح لكثير من الوقت أن ينقضي. ومن ثم همهم ببساطة: (يجب أن تبقي هنا).

ـ (أود أن أبقى... طالما يبدو ذلك مناسباً).

فكرر كلماتها: (طالما يبدو مناسباً... طالما يبدو مناسباً؟ نعم، أنت تفكرين بذلك كثيراً).

قالت إيزابيل: (طبعاً على المرء أن يفعل ذلك. أنت مرهَقٌ جداً).

ـ (أنا مرهَق جداً. لقد قلتِ للتو بأن الألم ليس أكثر الأشياء تعقيداً. كلا... كلا. بل إنه معقد جداً. لو أمكنني البقاء...).

فقاطَعَتْهُ برقّة، فمن السهولة مقاطعته: (بالنسبة لي، سوف أبقى هنا دائماً).

لكنه بعد برهة واصل الكلام: (في النهاية سوف ينتهي الأمر؛ إنه ينتهي

الآن. لكن الحب يبقى. لا أدري لِمَ علينا أن نعاني كثيراً جداً. ربما سأكتشف ذلك. هناك الكثير من الأمور في الحياة. أنت لا تزالين شابةً جداً).

قالت إيزابيل: (أشعر بأنني كبيرة جداً في السن).

ـ (سوف تزدادين شباباً ثانيةً. أنا أراكِ على هذا النحو. لا أعتقد... لا أعتقد...). فتوقف عن الكلام ثانيةً، فقد خذلته قواه. فتوسلتْ إليه أن يهدأ الآن.

قالت: (لسنا بحاجة للكلام ليفهم بعضنا بعضاً).

ـ (لا أعتقد بأن خطأً جسيماً كهذا يمكن أن يؤذيكِ كثيراً).

صاحت وهي تبكي: (أوه، رالف، أنا سعيدة جداً الآن).

واصل الكلام: (وتذكّري هذا، إن كرهكِ أحدٌ ما فإن أحداً ما أيضاً قد أحبَّكِ. آه لكن، إيزابيل... عشقتُ!...). فأطلق زفيراً ببطء وبشكلٍ مسموع كثيراً، فصاحت وهي منهارة كثيراً: (أوه يا أخي!).

***

الفصل 55

كان قد أخبرها في أول مساءٍ أمضته في جاردن كورت بأنها إنْ عاشت وعانت بما فيه الكفاية فسترى يوماً ما الشبح الموجود حقاً في هذا البيت العتيق. من الواضح أنها استوفت الشروط الضرورية؛ لأن في اليوم التالي، عند الشروق البارد الشاحب، أبصرت شبحاً كان يقف إلى جوار سريرها. فرقدت بدون أن تنزع ثيابها لأنها تعتقد بأن رالف لن يقاوم الليلة. لم تكن تميل للنوم؛ فقد كانت تنتظر، وإن انتظاراً كهذا باعثٌ على اليقظة. لكنها أغمضت عينيها؛ إذ اعتقدت بأنه مهما طال الليل فإنها ستسمع طَرْقاً على بابها. لكن لم تسمع أي طرقة، لكن في الوقت الذي بدأ الظلام يزداد كآبة قليلاً نهضت من على وسادتها بسرعة وكأنها تلقت استدعاءً من المحكمة. لقد بدا لها لوهلةٍ بأنه كان واقفاً هناك ـ هيئة باهتة تحوم في ظلام الغرفة. جفلت قليلاً، فقد رأت وجهه الأبيض ـ عينيه اللطيفتين؛ ومن ثم لم تر شيئاً.

لم تكن خائفة؛ بل كانت مطمئنة كثيراً. فتركت المكان، واجتازت الرواق المظلم باطمئنانها ونزلت بحركة سريعة الدرجات البلوطية التي لمعت تحت الضوء الباهت لنافذة الرواق. وقفت قليلاً خارج باب غرفة رالف وهي تصغي، لكنها لم تسمع سوى السكون الذي ملأها. فتحت الباب بطريقةٍ رقيقة وكأنها كانت ترفع نقاباً عن وجه شخصٍ ميت، ورأت السيدة تاتشيت جالسةً بلا حراك بجانب سرير ابنها وإحدى يديه في يدها. كان الطبيب موجوداً على الجانب المقابل ورسغ يد رالف المسكين الأخرى مستقرة بين أصابعه المحترفة. كانت الممرضتان بينهما عند قدميه.

لم تنتبه السيدة تاتشيت لإيزابيل، لكن الطبيب نظر إليها بقسوةٍ جداً؛ ومن ثم وضع يد رالف برفق في موضع مناسب، بمحاذاته. نظرت الممرضة إليها بقسوة جداً أيضاً، ولم يقل أحدٌ كلمة؛ لكن إيزابيل نظرتْ فقط إلى ما أتت لرؤيته. كان أكثر شحوباً مما كان رالف عليه يوماً في حياته، وكان هناك شبه غريب لوجه والده الذي رأته قبل ست سنوات راقداً على الوسادة نفسها.

توجهت نحو خالتها ووضعتْ ذراعها حولها؛ وخضعت السيدة تاتشيت ـ التي لم تغرها عموماً ولم تسرّها الملاطفة ـ إلى هذه الملاطفة لوهلة وهي تنهض لتستجيب لها على ما يبدو. لكنها كانت صارمة وذات نظرة حادة؛ وكان وجهها الأبيض القاسي رهيباً.

همهمت إيزابيل: (خالتي العزيزة ليديا).

قالت السيدة تاتشيت وهي تحرر نفسها: (اذهبي واشكري اللّٰه لأن ليس لديكِ ابن).

بعد ثلاثة أيام من ذلك، وجد عددٌ ضخم من الناس وقتاً، في أوج «موسم لندن[1]» ليأخذوا قطار الصباح للذهاب إلى محطة هادئة في بيركشاير وليُمضوا نصف ساعة في كنيسة صغيرة رمادية انتصبت عبر طريق سهلي. كانت السيدة تاتشيت قد أودعت ابنها التراب في المدفن الأخضر لهذه البناية. وقفت عند حافة القبر ووقفت إيزابيل بجانبها؛ لم يكن لموظف الكنيسة نفسه اهتمام فعلي بالمشهد أكثر من السيدة تاتشيت. لقد كانت مناسبة كئيبة، لكن لا قاسية ولا شاقة؛ إذ كان هناك اعتدالٌ مؤكد في مظاهر الأمور. فقد تحول الطقس إلى طقسٍ صافٍ؛ وكان النهار، الذي هو أحد أواخر أيام شهر أيار الغدّار، دافئاً وخالياً من الرياح، وكان الجو صافياً كصفاء الزعرور وطائر الشحرور.

---

(1) موسم لندن: هو تجربة اجتماعية نشأت بين أعضاء الطبقات العليا للمجتمع البريطاني. نشأت أول الأمر كطريقة يقوم بها أعضاء مجلس النواب البريطاني فيها بالترفيه عن أنفسهم أثناء تواجدهم في لندن، وبقيت كذلك لعدة أجيال، ولها أوقات معينة. (المترجمة)

إن كان التفكير بتاتشيت المسكين محزناً، فلم يكن محزناً جداً، لأن الموت بالنسبة له لم يكن قاسياً. فقد كان يحتضر منذ مدة طويلة؛ فكان مستعداً جداً له؛ وكل شيء كان متوقعاً جداً ومُهيّأً.

كانت هناك دموع في عينيّ إيزابيل، لكنها لم تكن الدموع التي حجبت النظر. فقد نظرت خلالها إلى جمال النهار وروعة الطبيعة وجمال باحة الكنيسة الإنجليزية العتيقة والرؤوس المنحنية للأصدقاء الطيبين. كان اللورد واربيرتون موجوداً، ومجموعة من الرجال الذين لا تعرفهم والذين كان عدد منهم لهم علاقة بالبنك كما علمتْ بعد ذلك؛ وكان هناك آخرون تعرفهم. كانت الآنسة ستاكبول من بينهم، والسيد بانِلْنج المتواضع إلى جانبها، وكاسبار غودوود رافعٌ رأسه أعلى من البقية ـ ولم يُحْنِهِ كثيراً.

كانت إيزابيل طول الوقت شاعرةً بنظرة السيد غودوود؛ كان ينظر إليها بشكل أكثر قسوة مما كان ينظر لها عادةً علناً، بينما حدّقَ الآخرون نظرهم على مرج باحة الكنيسة. لكنها لم تجعله يرى بأنها رأته؛ وفكرت به فقط لاندهاشها من كونه لا يزال في إنجلترا. فقد افترضت جدلاً بأنه بعد مرافقته لرالف إلى جاردن كورت بأنه قد رحل؛ لأنها تذكرت أن هذا البلد لم يعجبه كثيراً. رغم ذلك، فقد تواجد هناك وبشكلٍ واضح؛ وبدا أن هيئته تقول بأنه متواجد لغرضٍ صعب. ما كانت لتواجه نظراته، وإن كان يوجد فيها حنان بلا شك؛ لقد جعلها منزعجة قليلاً. كان قد اختفى بتفرُّق المجموعة الصغيرة، وكان الشخص الوحيد الذي أتى ليتحدث إليها ـ رغم أن العديد قد تحدثوا مع السيدة تاتشيت ـ كانت هنرييتا ستاكبول، التي لم تتوقف عن البكاء.

كان رالف قد أخبر إيزابيل بأنه رغب أن تبقى في جاردن كورت، ولم تستعجل في مغادرة المكان. قالت لنفسها أن المواساة الدارجة أن تبقى مع خالتها. من حسن الحظ أن لديها عُرْفاً جيداً كهذا؛ وإلا فإنها كانت مفتقدة له بشدة. كانت مهمتها قد انتهت؛ فقد أدت ما تركت زوجها من أجله. كان لديها

زوج في مدينة أجنبية يعدُّ ساعات غيابها؛ في حالةٍ كهذه يحتاج المرء إلى دافعٍ ممتاز؛ لم يكن واحداً من أفضل الأزواج، لكن ذلك لا يغير الموضوع. فهناك التزامات معينة تضمّنها الزواج نفسه ولا علاقة لها بتاتاً بمقدار المتعة المستمدة منه. فكرت إيزابيل بزوجها أقل ما يمكن؛ لكنها الآن وهي بعيدة عنه، بعيدة عن هجائه، فكرت بروما بنوعٍ من القشعريرة الروحية. كانت توجد قشعريرة في المشهد، وعادت بذاكرتها إلى أعمق ظلمة في جاردن كورت. عاشت يوماً بعد يوم وهي تماطل، وتغمض عينيها وهي تحاول أن لا تفكر. لقد عرفت بأنها يجب أن تقرر، لكنها لم تقرر شيئاً؛ فمجيئها نفسه لم يكن قراراً قاطعاً. وعند هذه الحالة جفلتْ فعلاً. لم تسمع عن أوزموند شيئاً، ومن الواضح أنها لن تسمع شيئاً؛ فسيترك الأمر كله لها. لم تسمع شيئاً من بانسي، لكن ذلك كان هيّناً؛ فوالدها قد أخبرها بأن لا تكتب شيئاً.

تقبلت السيدة تاتشيت صحبة إيزابيل، لكنها لم تعرض عليها أية مساعدة؛ فقد بدت مستغرقة بالتفكير ـ بدون حماس وإنما بوضوحٍ تام ـ براحة وضعها الجديد. لم تكن السيدة تاتشيت متفائلة، لكنها حتى من الظروف المؤلمة نجحت في أن تستمد فائدة معينة. تضمّن ذلك فكرة أن بعض الأمور في النهاية تحدث لأناس آخرين وليس لها فقط. فالموت أمرٌ بشع، لكن في هذه الحالة هو موت ابنها وليس موتها هي؛ فهي لم تمتدح نفسها أبداً بأن موتها سيكون أمراً مزعجاً لأي أحد سوى للسيدة تاتشيت. كانت أفضل حالاً من رالف المسكين الذي ترك وراءه كل متاع الحياة، وفي الحقيقة، كل السندات المالية؛ لأن ما هو أسوأ من الموت بالنسبة لرأي السيدة تاتشيت هو أنه يُعرّض المرء للاستغلال. بالنسبة لها كانت في موقع الحدث؛ ولا يوجد شيء جيد مثل هذا. فأعلمت إيزابيل بالتفصيل، في الليلة التي دُفن فيها ابنها، بعضاً من تدابير وصية رالف. كان قد أخبرها كل شيء، واستشارَها بشأن كل شيء. لم يترك لها أموالاً؛ فهي ليست بحاجة للمال طبعاً. ترك لها أثاث جاردن كورت فيما عدا اللوحات

والكتب واستخدام المكان لمدة عام واحد؛ وبعد ذلك يجب أن يُباع. والأموال المتحققة من البيع يجب التبرع بها لمستشفى خاصة بالفقراء الذين يعانون من المرض الذي توفي بسببه؛ وتم تعيين اللورد واربيرتون كمنفّذ لهذا البند من الوصية. ويُنفَق ما تبقّى من أملاكه، التي يجب أن تُسحَب من البنك، في وصايا مختلفة، بعضها لأبناء العم في فيرمونت الذين كان والده كريماً جداً معهم سابقاً. وهناك عدد من الوصايا الصغيرة. قالت السيدة تاتشيت: (بعضها خاصة جداً؛ ترك مبلغاً كبيراً من المال لأشخاص لم أسمع بهم أبداً. منحني قائمة ومن ثم سألتُ عن بعضهم، فأخبرني بأنهم أناسٌ أحبَّهُم في فترات مختلفة. من الواضح بأنه اعتَقَدَ بأنكِ لم تحبيه لأنه لم يترك لكِ بنساً واحداً. كان من رأيه بأنكِ عوملتِ بسخاء من قبل والده، وعن ذلك أنا ملزمة بأن أعتقد بأنكِ كذلك ـ وإن كنتُ لا أقصد بأنني سمعتُهُ يوماً يتذمر من ذلك. اللوحات سوف تتفرق؛ فهو قد وزّعها الواحدة تلو الأخرى كتذكارات صغيرة. تذهب أغلى اللوحات قيمة من المجموعة إلى اللورد واربيرتون. وماذا تعتقدين بأنه فعل بمكتبته؟ يبدو ذلك كنكتةٍ فعلاً. لقد تركها إلى صديقتكِ الآنسة ستاكبول «تقديراً لخدماتها في مجال الأدب». هل يقصد مرافَقَتَها له من روما؟ هل هذه خدمة في مجال الأدب؟ إنها تتضمن الكثير جداً من الكتب النادرة والقيّمة، ولأنها لا تستطيع حملها حول العالم في حقيبتها، ينصحها ببيعها في المزاد. سوف تبيعها طبعاً في مزاد كريستي، وبإيراداتها ستؤسس صحيفة. هل سيكون ذلك خدمة في مجال الأدب؟).

امتنعت إيزابيل عن الإجابة عن هذا السؤال لأنه يتعدى الاستفهام البسيط الذي اعتبَرَتْ أن من الضروري أن تخضع له يوم وصولها. إلى جانب ذلك، فهي لم تكن أقل اهتماماً بالأدب مما هو اليوم، كما اكتشفَتْ ذلك عندما نادراً ما تُنزِل من الرف أحد الكتب النادرة والقيّمة التي تتحدث عنها السيدة تاتشيت. كانت عاجزة جداً عن القراءة؛ فاهتمامها كان رهن إشارتها كثيراً.

في أحد المساءات، في المكتبة، بعد أسبوع من المراسم التي تمت في باحة الكنيسة، كانت تحاول أن تثبت اهتمامها لساعةٍ واحدة؛ لكن كانت عينيها دائماً تشرد من الكتاب الذي في يدها إلى النافذة المفتوحة التي تطلُّ على الطريق الطويل. كانت بهذه الطريقة قد رأت عربةً متواضعة وهي تقترب من الباب ورأت اللورد واربيرتون جالساً في أحد أركانها بوضعية غير مريحة قليلاً. كان يملك دائماً درجة عالية من التهذيب، لذلك لم يكن من الغريب تحت هذه الظروف أن يتعنّى لينزل من لندن ليزور السيدة تاتشيت. كانت السيدة تاتشيت طبعاً هي من أتى لرؤيتها وليس السيدة أوزموند؛ ولتُثبتَ لنفسها صحة هذه الفرضية قامت إيزابيل بسرعة بالخروج من المنزل والسير بعيداً في الحديقة. فمنذ وصولها إلى جاردن كورت لم تخرج إلا قليلاً، إذ لم يكن الطقس مناسباً لارتياد أرض الحديقة. مع ذلك، كان الطقس هذا المساء رائعاً، وقد خطر لها في البداية فكرة خروجها كفكرة سعيدة. كانت الفرضية التي ذكرتُها للتو منطقية تماماً، لكنها لم تجلب لها ارتياحاً كبيراً، وإن رأيتَها وهي تتجول في الأرجاء كنتَ ستقول بأن لديها نيّة سيئة.

بعد انقضاء ربع ساعة لم تهدأ عندما وجدت نفسها بمواجهة المنزل ورأت السيدة تاتشيت وهي تظهر من الرواق بجانب زائرها. من الواضح أن خالتها قد اقترحَتْ على اللورد واربيرتون أن يأتيا للبحث عنها. لم يكن لديها مزاج لاستقبال الضيوف، ولو كان لديها فرصة لانسحبَتْ خلف إحدى الأشجار الكبيرة. لكنها رأت بأنها قد شوهدت ولم يبقَ عليها إلّا أن تتقدم.

لأن المرج في جاردن كورت كان امتداداً شاسعاً، فقد أخذ ذلك بعض الوقت لاحظَتْ خلاله بأن اللورد واربيرتون قد أبقى يديه وراء ظهره بشكلٍ ثابت وعينيه على المرج وهو يسير بجانب مضيّفته. كان كلاهما صامتَيْن بشكلٍ واضح؛ لكن كان للنظرة القصيرة الهزيلة للسيدة تاتشيت وهي موَجَّهة نحو إيزابيل تعبيراً حتى وهي على مبعدة. فقد بدت هذه النظرة تقول بحدّة

قاطعة: «هنا الرجل النبيل المذعن كثيراً الذي كان من الممكن أن تتزوجيه!». مع ذلك، عندما رفع اللورد واربيرتون عينيه لم يكن ذلك هو ما كانت تقولانه، بل قالتا فقط: «كان ذلك أخرق بعض الشيء، تعلمين ذلك، وأنا أعتمدُ عليكِ لتساعديني».

كان عابساً جداً، وقوراً جداً، ولأول مرة منذ أن عرفَتْهُ إيزابيل، حيّاها بدون ابتسامة. كان حتى في أيام محنه يبدأ دائماً بالابتسام. لقد بدا خجولاً للغاية.

قالت السيدة تاتشيت: (إن اللورد واربيرتون طيب جداً لمجيئه لرؤيتي. أخبرَني بأنه لا يعلم بأنكِ لا تزالين هنا. أعرفُ بأنه صديقٌ قديم لكِ. وعندما قيل لي بأنكِ لستِ في المنزل جلبتُهُ ليرى بنفسه).

قام مُرافِق السيدة تاتشيت بالتفسير بشكل عَرَضي قليلاً: (أوه، رأيتُ أن هناك قطاراً في الساعة 6:46 يمكنه أن يعيدني في الوقت المناسب على العشاء. أنا مسرور لأجدكِ لم ترحلي).

قالت إيزابيل بلهفةٍ أكيدة: (لن أبقى هنا لمدة طويلة، تعلم ذلك).

ـ (لا أعتقد ذلك، لكنني آمل أن تكون بضعة أسابيع. لقد أتيتِ إلى إنجلترا بأسرع... آ... بأسرع مما توقعتِ؟).

ـ (نعم، لقد أتيتُ بشكل فجائي جداً).

استدارت السيدة تاتشيت مبتعدةً وكأنها كانت تنظر إلى حالة الحديقة التي لم تكن فعلاً كما يجب بينما تردد اللورد واربيرتون قليلاً. تخيّلَتْ إيزابيل بأنه كان على وشك أن يسأل عن زوجها ـ بشكلٍ مرتبك قليلاً ـ ثم منع نفسه. بقي عابساً بشكلٍ لا يمكن إخفاؤه، إما لأنه ظنَّ بأن ذلك لائقٌ بمكانٍ حصلت فيه للتو حادثة وفاة، أو لأسبابٍ شخصية أكثر. إن كان مرتبكاً لأسبابٍ شخصية فمن حسن الحظ بأن لديه الدافع الأول ليخفي ذلك؛ إذ تمكَّنَ من أن يستغل هذا الحدث إلى أقصاه. فكرت إيزابيل بكل ذلك. لم يكن وجهه حزيناً، لأن ذلك كان موضوعاً آخر، لكنه خالٍ من التعبير بشكلٍ غريب.

واصل اللورد واربيرتون الكلام: (ستُسعَد أخواتي بالقدوم لو عرفن بأنكِ لا زلتِ هنا ـ لو فكرن في أن يرينكِ، تكرَّمي واسمحي لهن برؤيتكِ قبل أن تغادري إنجلترا).

ـ (سيسرني ذلك كثيراً؛ فلدي ذكرى ودودة عنهن).

ـ (لا أدري فيما إذا كنتِ ستأتين إلى لوكلي ليومٍ أو اثنين؟ تعلمين بأن هناك دائماً ذلك الوعد القديم). واحمرَّ سيادة اللورد قليلاً عندما اقترَحَ هذا الاقتراح مما منح وجهه مظهراً أكثر ألفة قليلاً.

(ربما لستُ مصيباً بقول ذلك في هذا الوقت بالذات؛ فأنتِ طبعاً لا تفكرين بالزيارات. لكنني قصدتُ ما سيكون بالكاد زيارة. ستتواجد أخواتي في لوكلي في عيد العنصرة لخمسة أيام؛ فإذا أمكنكِ القدوم عندئذٍ... لأنكِ قلتِ بأنكِ لن تبقين طويلاً في إنجلترا... سأستوثق من أن لن يكون هناك أحدٌ آخر فعلاً).

تساءلت إيزابيل فيما إذا حتى السيدة الشابة التي سيتزوجها لن تكون متواجدة هناك مع والدتها؛ لكنها لم تفصح عن هذه الفكرة واكتفت بالقول: (أشكركَ كثيراً. أخشى أنني لا أعرف الكثير عن عيد العنصرة).

ـ (لكنكِ وعدتِني... أليس كذلك؟... في وقتٍ من الأوقات).

كان يوجد استنطاق في هذا؛ لكن إيزابيل تجاوزته. نظرَتْ إلى مُحاوِرها لبرهة، وكانت نتيجة نظرتها هي أن السيد سبق وأنْ شعرتْ بالأسف نحوه.

قالت: (احرِصْ على أن لا يفوتَكَ القطار).

ثم أضافت: (أتمنى لكَ كل السعادة).

فاحمَرَّ وجهه ثانيةً، أكثر من ذي قبل، ونظر إلى ساعته.

ـ (آه، نعم، 6:40؛ ليس لدي وقت كثير، لكن لدي العربة السريعة عند الباب. أشكركِ كثيراً).

لم يكن واضحاً فيما إذا كانت هذه التشكرات قد قُدِّمَتْ لتذكيرها له بموعد قطاره أم لتعقيبها الرقيق.

(وداعاً يا سيدة أوزموند؛ وداعاً).

فتصافحا بدون أن تلتقي عيونهما، ثم عاد إلى السيدة تاتشيت التي كانت قد سارت عائدةً نحوهما. كان ابتعاده عنها مريحاً أيضاً؛ وبسرعةٍ رأته السيدتان يسير بخطواتٍ سريعة عبر المرج.

استفهمت إيزابيل من خالتها: (هل أنت متأكدة جداً من أنه سيتزوج؟).

ـ (لا يمكن أن أكون متأكدة أكثر منه؛ لكنه يبدو متأكداً. لقد هنأتُهُ وهو تَقَبَّلَ ذلك).

قالت إيزابيل: (آه، أنا أستسلم!) ـ بينما عادت خالتها إلى المنزل وإلى تلك الهواية التي قاطعها الضيف.

لقد استسلمتْ لكنها لا تزال تفكر بالأمر ـ فكرتْ بالأمر بينما تجولت ثانيةً تحت أشجار البلوط الضخمة التي كانت ظلالها طويلة فوق أرض الحديقة.

بعد بضع دقائق وجدت نفسها قرب مسطبةٍ صدئة والتي بعد أن نظرت لها قليلاً استوقفتها كشيءٍ كانت تعرفه. لم يكن السبب فقط بأنها رأتها من قبل، ولا حتى أنها جلستْ عليها يوماً؛ بل لأن على هذه البقعة كان قد حدث شيء مهم لها ـ فذلك المكان كان له مظهر الألفة. ثم تذكرَتْ بأنها جلسَتْ هناك قبل ست سنوات عندما جلب لها الخادم من المنزل الرسالة التي أخبرها فيها كاسبار غودوود بأنه تبعها إلى أوروبا؛ وأنها عندما قرأت الرسالة رفعَتْ نظرها لتسمع اللورد واربيرتون وهو يصرّح بأنه يودُّ الزواج منها. لقد كانت بالفعل مسطبةً تاريخية ومثيرة للاهتمام؛ فبقيت تنظر إليها وكأن لديها شيئاً تقوله لها. ما كانت لتجلس عليها الآن ـ فقد شعرت بالخوف قليلاً من ذلك. فوقفت أمامها فقط، وبينما هي كذلك، عاد لها الماضي على شكل واحدة من الموجات العاطفية المندفعة تلك التي يزورها الأشخاص الحساسون

في أوقاتٍ غريبة. كان تأثير هذا الاضطراب هو الإحساس الفجائي بالتعب الشديد. والذي تحت تأثيره تغلّبَتْ على هواجسها وهَوَتْ على المسطبة الصدئة.

لقد ذكرتُ بأنها كانت غير مرتاحة وغير قادرة على أن تتمالك نفسها؛ وعلى أية حال لو كنتَ قد رأيتَها هناك لاحترمتَ عدالة الصفة الأولى، ولكنتَ على الأقل سلَّمْتَ بأن في هذه اللحظة كانت صورةً لضحية البطالة. كانت هيئتها تفتقر بشكلٍ غريب للهدف؛ فيداها المتدليتان إلى جانبيها قد ضاعتا في طيّات ثوبها الأسود؛ وعيناها محدّقتان بشكلٍ مبهم أمامها. لم يكن يوجد شيء يستدعيها لتعود إلى المنزل؛ فالسيدتان، وهما في عزلتهما، قد تعشتا مبكراً وتناولتا الشاي في ساعة غير محددة.

ما طول المدة التي جلستْ فيها في هذا المكان، لن تتمكن من أن تخبركَ بذلك؛ لكن الظلام كان قد ازداد عتمة عندما شعرت بأنها لم تكن بمفردها. فعدّلَتْ نفسها بسرعة وهي تنظر حولها، ومن ثم رأت ما حلَّ بعزلتها. فقد كانت تتشاركها مع كاسبار غودوود الذي وقف ينظر إليها على بعد بضع ياردات والذي لم تسمع وقع خطواته على المرج الذي لا يُصدرُ صوتاً عندما اقترَبَ منها. لقد خطر لها في خضم ذلك بأن هذه الطريقة هي نفسها بالضبط كان اللورد واربيرتون قد فاجأها في السابق.

فنهضت على الفور، وحالما رأى كاسبار غودوود بأنها رأته بدأ بالتقدم نحو الأمام. كان لديها الوقت فقط لتنهض عندما قام كاسبار غودوود بحركةٍ بدت عنيفة لكن لم تعرف كنهها بامساكها من معصمها وجَعْلِها تهوي ثانيةً على المسطبة.

أغمضتْ عينيها؛ لم يؤذِها. لقد كانت فقط لمسةً استجابتْ لها. لكن كان هناك شيء ما في وجهه لم ترغب في أن تراه. كانت تلك هي الطريقة التي نظر بها إليها في اليوم السابق في باحة الكنيسة؛ كانت الآن فقط أكثر قسوة. لم

يقل شيئاً في البداية؛ بل شعرت به فقط قريباً منها ـ إلى جوارها على المسطبة واستدارَ نحوها بشكلٍ ضاغط. لقد بدا لها قليلاً بأن لا أحد كان قريباً جداً منها يوماً بهذا الشكل. مع ذلك، لم يستغرق ذلك سوى لحظةٍ قامت بعد انقضائها بتحرير معصمها وهي تدير عينيها نحو زائرها.

قالت: (لقد أخَفْتَني).

أجاب: (لم أقصد أن أخيفكَ، لكن إنْ فعلتُ ذلك قليلاً فلا يهم. لقد أتيتُ من لندن قبل مدة قصيرة بالقطار. لكنني لم أستطع أن آتي إلى هنا مباشرةً. كان هناك رجل في المحطة قد سبقني، وأخذ العربة السريعة التي كانت موجودة هناك، وسمعتُهُ يأمر الحوذي بالمجيء إلى هنا. لا أعرف من هو، لكنني لم أرغب بالمجيء معه؛ فقد أردتُ أن أراكِ على انفراد. لذا كنتُ أنتظر وأسير متجولاً. لقد سرتُ في الأرجاء، وكنتُ على وشك الدخول إلى المنزل عندما رأيتُكِ هنا. كان هناك حارس أو شخص ما قابلَني؛ لكن الأمر سارَ على ما يرام لأنني تعرفتُ عليه عندما أتيتُ إلى هنا مع ابن خالتكِ. هل غادرَ ذلك الرجل؟ هل أنت لوحدكِ حقاً؟ أريدُ أن أتحدث إليكِ).

تحدث غودوود بشكلٍ سريعٍ جداً؛ لقد كان مضطرباً مثلما كان عندما افترقا في روما. تمنت إيزابيل أن تهدأ هذه الحالة؛ وانكفأتْ على نفسها عندما شعرت بالعكس، بأنه أرخى شراعه فقط. انتابها شعورٌ جديد لم تشعر به أبداً من قبل؛ كان شعوراً بالخطر. كان هناك بالفعل شيء مرعب حقاً في إصراره. حدّقَتْ أمامها مباشرةً؛ وهو انحنى إلى الأمام ناظراً بعمق إلى وجهها ويديه على ركبتيه. بدت العتمة تزداد من حولهما، فكرر الكلام: (أريد أن أتحدث اليكِ. فلدي شيء خاص أريد قوله. لا أريد أن أزعجكِ... مثلما فعلتُ في اليوم السابق في روما. لم يكن ذلك ذا فائدة؛ لقد أزعجَكِ الأمر فقط. لم أستطع احتمال ذلك؛ أعلمُ بأنني كنتُ مخطئاً. لكنني تغيّرت الآن؛ أرجوكِ أن لا تعتقدي بأنني مخطئ).

واصل كلامه وصوته القوي العميق يتحول إلى مناشدة: (لقد أتيتُ إلى هنا اليومِ لغرضٍ ما. إنه مختلفٌ جداً. كانَ من العبث بالنسبة لي أن أتحدث معكِ عندئذٍ؛ لكنني الآن يمكنني مساعدتكِ).

وقعتْ كلماتُه عميقاً في روحها، وما كانت لتستطيع أن تقول لكَ فيما إذا كان السبب هو أنها خائفة أو لأن صوتاً كهذا في العتمة بدا نعمةً ضرورية؛ لكنها أصغت له مثلما لم تُصْغِ من قبل. لقد ولَّدَتْ كلماته نوعاً من السكينة في كل كيانها؛ لكنها أجابته بسرعة وبجهد.

سألَتْهُ بنبرةٍ منخفضة وكأنها كانت تأخذ ما قاله بجدية كافية لتجعل التساؤل موثوقاً: (كيف يمكنكَ مساعدتي؟).

ـ (بتشجيعكِ على الثقة بي. فأنا أعلم الآن وأعلم اليوم. هل تذكرين ما سألتُكِ عنه في روما؟ كنتُ عندئذٍ لا أعلم أي شيء. لكن اليومَ أعلم من مصدر موثوق؛ فكل شيء واضح لي اليوم. لقد أحسنتِ صنعاً عندما أبعدتِني مع ابن خالتكِ. كان رجلاً طيباً، رجلاً رائعاً، من أفضل الرجال؛ لقد أخبرني عن حالكِ. لقد شرح كل شيء؛ لقد خمَّنَ شعوري).

ثم قال غودوود وكأنه يلمّحُ تلميحاً مهماً: (كان فرداً من عائلتكِ وتركَكِ تحت رعايتي... منذ أن كنتِ في إنجلترا).

واصل كلامه: (هل تعلمين ما قاله لي آخر مرة رأيتُهُ فيها... وهو راقدٌ هناك حيث توفي؟ لقد قال: «افعلْ كل ما باستطاعتكَ لأجلها؛ افعلْ كل شيء تسمح لكَ به»).

نهضت إيزابيل فجأة: (لا شأن لكَ لتتحدثَ معي!).

فطالَبَ وهو يتبعها بسرعة: (لِمَ لا... لِمَ لا، متى تحدَّثْنا بهذه الطريقة؟ ثم إنه كان يحتضر... وعندما يحتضر الإنسان يكون الأمر مختلفاً).

فامتنعتْ عن الحركة التي أبدتها لتتركه؛ إذ كانت تصغي أكثر من قبل؛ فقد

كان صحيحاً بأنه لم يكن هو نفسه آخر مرة. كان ذلك انفعالاً طائشاً وخائباً، لكن في الوقت الحالي كان لديه رأيٌ استشعرتهُ بكل كيانها.

صاح وهو لا يزال يضغط عليها بقوة لكن هذه المرة بدون أن يلمس طرف ثوبها: (لكن لا يهم! لو لم يكن تاتشيت قد فتح فمه لكنتُ قد عرفتُ برغم ذلك. كان عليّ فقط أن أنظر إليك في جنازة ابن خالتكِ لأرى حالكِ. لا يمكنكِ أن تخدعيني بعد الآن؛ بالله عليكِ كوني صادقةً مع رجلٍ صادقٍ جداً معكِ. أنت أكثر النساء تعاسةً، وزوجكِ أكثر الشياطين فتكاً).

فاستدارت نحوه وكأنه فاجأها، فصاحت: (هل جننتَ؟).

أضاف غودوود بسرعة: (لم أكن أبداً عاقلاً كاليوم؛ لقد فهمتُ الأمر برمته. لا تعتقدي أنه من الضروري أن تدافعي عنه. لكنني لن أقول كلمةً أخرى ضده؛ سوف أتحدثُ عنكِ فقط. كيف يمكنكِ أن تتظاهري بأن قلبكِ ليس محطماً؟ أنت لا تعرفين ماذا تفعلين... لا تعرفين إلى أين تتوجهين. فالوقت متأخرٌ جداً لتلعبي دوراً؛ ألم تتركي كل ذلك خلفكِ في روما؟ لقد عرف تاتشيت كل شيء عن الأمر، وأنا أيضاً عرفتُهُ... ماذا سيكلفكِ مجيئكِ إلى هنا. إنه يكلفكِ حياتكِ؟ قولي إن هذا سيكلفكِ حياتكِ).

واشتعل غضباً تقريباً.

(امنحيني كلمة واحدة صادقة! عندما أعرفُ رعباً كهذا، كيف يمكنني أن أمنع نفسي عن رغبتي بإنقاذكِ؟ ماذا ستعتقدين عني إن وقفتُ ساكناً ورأيتُكِ تعودين إلى جزائكِ؟ «إنه مريعٌ ما يجب عليها أن تدفعه مقابل ذلك!»... ذلك ما قاله لي تاتشيت. يمكنني أن أقول ذلك لكِ، أليس كذلك؟).

ثم صاح غودوود وكأنه يلمّحُ تلميحة الغريب العنيف ثانيةً: (لقد كان قريباً مقرّباً!).

وواصل الكلام: (كنتُ أتمنى أن أُقتَل على أن أدع رجلاً آخر يقول لي هذه الأمور؛ لكنه كان مختلفاً؛ فقد بدا لي بأن معه حق. كان ذلك بعد أن وصل إلى

البيت... عندما رأى بأنه يحتضر، وعندما رأيتُ أنا ذلك أيضاً. أنا أدرك كل شيء عن الموضوع؛ وهو أنكِ تخافين العودة. أنت لوحدكِ تماماً؛ لا تعرفين إلى أين تتجهين. لا يمكنكِ التوجه إلى أي مكان؛ وأنتِ تعلمين ذلك جيداً. والآن، ولهذا السبب، أريدكِ أن تفكري بي).

قالت إيزابيل وهي واقفةٌ أمامه في الظلمة: (أنْ أفكر بكَ؟).

كانت الفكرة التي لَمِحَتْها قبل بضع لحظات قد اتضحت الآن. فألقت رأسها إلى الوراء قليلاً؛ وأمعنَتْ فيها وكأنها مُذَنَّبٌ في السماء.

كرر غودوود كلامه: (أنتِ لا تعلمين إلى أين تتجهين. اتجهي إليَّ مباشرةً. أريدُ أن أقنعكِ بأن تثقي بي).

توقف عن الكلام بعينيه البراقتين. ثم قال: (لِمَ يجب عليكِ أن تعودي... لِمَ يجب عليكِ أن تعاني بهذا الشكل الفظيع؟).

أجابت: (لكي أهرب منكَ!).

لكن ذلك عبَّر قليلاً فقط عن ما شعرَتْ به. والباقي هو أنها لم تحبه من قبل. لقد كانت واثقة من ذلك، لكن هذا كان مختلفاً؛ فقد كان هذا الرياحَ الحارة للصحراء، التي يسقط الآخرون موتى عند الاقتراب منها، كالنسيم العذب للحديقة. تلفّها وترفعها بينما مذاقها حار وغريب كمذاق شيء لاذع أُقحِمَ في فمها.

في البداية، بدا لها بأنه سينفجر بعنفٍ شديد كردٍّ لِما قالته. لكن بعد برهة كان هادئاً تماماً؛ فقد رغب أن يُثبتَ بأنه كان متعقلاً، وبأنه فكَّرَ بذلك كله.

ـ (أريدُ أن أمنع ذلك، وأعتقد بأنه يمكنني ذلك، لو فقط تصغين لي لمرة واحدة. إنه من الوحشي جداً منكِ أن تفكري في أن تعودي إلى ذلك البؤس، أن تذهبي لتفتحي فمكِ إلى ذلك الهواء السام. المجنونة هي أنت. ثقي بي وكأنني حاميكِ. لِمَ لا يجب علينا أن نصبح سعداء... عندما يكون ذلك بمقدورنا،

وعندما يكون ذلك سهلاً جداً؟ أنا مخلصٌ لكِ إلى الأبد... دائماً وأبداً. ها أنا أقف هنا؛ وأنا قوي كالصخرة. ما الذي لديكِ لتقلقي عليه؟ ليس لديكِ أطفال؛ فربما سيكون ذلك عقبة. وهكذا ليس لديكِ شيء لتفكري فيه. عليكِ أن تنقذي ما يمكنكِ من حياتكِ؛ لا يجب عليكِ أن تضيعيها كلها لمجرد أنكِ أضعتِ جزءاً منها. سيكون إهانةً لكِ أن تقلقي لمظاهر الأشياء، لِما سيقوله الناس، لحماقة العالم التي لا أساس لها. ليس لنا علاقة بكل ذلك؛ نحن مستثنون منه؛ فنحن ننظر للأمور كما هي. لقد أحرزتِ خطوة عظيمة بابتعادكِ؛ الخطوة التالية هي لا شيء؛ إنها الخطوة الطبيعية. أُقسمُ وأنا واقفٌ هنا بأن المرأة التي خُلقتْ لتعاني عن قصد، مُبَرَّرٌ لها أي شيء في الحياة... وفي النزول إلى الشارع إن كان ذلك سيساعدها! أعلم كم تعانين، ولهذا السبب أنا هنا. يمكننا أن نفعل ما يحلو لنا تماماً؛ هل من أحدٍ على الأرض نحن مدينون له؟ ما الذي يعيقنا، ما الشيء الذي لديه أدنى حق بالتدخل في قضيةٍ كهذه؟ إن قضيةً كهذه هي بيننا... وقول ذلك يعني حسم الأمر! هل وُلدنا لنتعفن في بؤسنا... هل ولدنا لنكون خائفين؟ لم أعرف أبداً بأنكِ تخافين! لو تثقي بي فقط، لن يخيب أملكِ كثيراً! إن الحياة كلها أمامنا... والعالم كبير جداً. أعلم شيئاً عن ذلك).

أصدرت إيزابيل همهمة طويلة كمخلوقٍ متألم؛ فكأنه كان يغرس شيئاً يؤلمها. فقالت اعتباطاً: (إن العالم صغير جداً)؛ فقد كانت لديها رغبة هائلة لتَظهَر بأنها تُقاوِم. لقد قالت ذلك اعتباطاً لتسمع نفسها وهي تقول شيئاً؛ لكن لم يكن ذلك هو ما قَصَدَتْهُ. فالعالم في الحقيقة لم يبدُ أبداً كبيراً بهذا الشكل؛ بل بدا أنه يمتد حولها ليتخذ شكل بحرٍ عظيم حيث تطفو في مياهٍ بعيدة الغور. لقد كانت بحاجة للمساعدة، وهنا كانت المساعدة؛ وقد أتت بسيلٍ جارف. لا أدري إن كانت آمنت بكل شيء قاله؛ لكنها آمنت عندئذٍ فقط بأنّ السماح له لكي يأخذها بين ذراعيه سيكون أفضل شيء بعد موتها. كان هذا الاعتقاد لوهلة نوعاً من النشوة التي شعرت بأنها تنغمس فيها أكثر وأكثر.

عندما تحركتْ بدت بأنها تتخبّط بقدميها لتتماسك لتتحسس شيئاً تستقر عليه.

سمعت مرافقها يتوسل: (آه، كوني لي مثلما أنا لكِ!). فتوقفت عن الجدال فجأة وبدا صوته يأتي أجشّ ومرعباً عبر خليط من أصوات أكثر غموضاً. على أية حال، لم يكن ذلك طبعاً سوى حقيقة وهمية كما يقول علماء الميتافيزيقا؛ فخليط الأصوات وصخب المياه وما تبقى كله، كان في ذهنها العائم. وبسرعةٍ شعرَتْ بذلك، فقالت لاهثةً: (اسْدِ لي أكبر معروف. أستحلفكَ بأن ترحل!).

فصاح: (آه، لا تقولي ذلك، لا تقتليني!).

فشبكت يديها؛ إذ إن عينيها كانتا تذرفان الدموع.

ـ (بقدر حبكَ لي وبقدر إشفاقكَ عليّ، اتركني وشأني!).

فحملق عليها لوهلة عبر الظلام، وشعرت في اللحظة التالية بأن ذراعيه تحيطانها، وشفتيه على شفتيها. كانت قبلته كصاعقةٍ متّقدة، ومضةٍ اتسعَتْ أكثر وأكثر وبقيت؛ كانت وبشكلٍ غريب كأنّها عندما استجابت لها شعرت بأن كل شيء في رجولته القاسية التي كانت تزعجها، وبكل فعلٍ عنيف لشخصه وهيئته وتواجده، قد برَّرَ شدّتها وخلقتْ شخصاً بهذا الفعل التملُّكي. مثلما سمعت عن أولئك المحطَّمين والغوّاصين الذين يتبعون سلسلةً من الخيالات قبل أن يغرقوا. لكن عندما عاد الظلام كانت لوحدها. لم تنظر حولها أبداً؛ قامت فقط بالإسراع بترك المكان. كانت هناك أنوارٌ في نوافذ المنزل؛ فقد لمعَتْ إلى مسافة بعيدة عبر المرج. وفي وقتٍ قصيرٍ بشكلٍ مذهل ـ لأن المسافة كانت طويلة جداً ـ كانت قد سارت عبر الظلام (لأنها لم تَرَ شيئاً) ووصلت إلى الباب. وهنا فقط توقفتْ. نظرت حولها؛ وأصغت قليلاً؛ ثم وضعت يدها على مقبض الباب. لم تكن تعرف إلى أين تتجه؛ لكنها عرفت الآن. فقد كان هناك طريق مستقيم جداً.

بعد ذلك بيومين، طرق كاسبار غودوود على باب المنزل الواقع في شارع ويمبول والذي اتخذَتْهُ هنريتا مسكناً مفروشاً. ما إن أزالَ يده من على قارعة

الباب حتى فُتح الباب ووقفت الآنسة ستاكبول بنفسها أمامه. كانت ترتدي قبعتها وسترتها؛ فقد كانت على وشك الخروج.

قال: (أوه، صباح الخير. كنتُ آمل أن أجد السيدة أوزموند).

أبقته هنرييتا ينتظر قليلاً إجابتَها؛ لكن كان هناك الكثير من الكلام من الآنسة ستاكبول حتى عندما تكون صامتة.

ـ (أرجوكَ، ما الذي جعلكَ تعتقد بأنها هنا؟)

ـ (نزلتُ إلى جاردن كورت هذا الصباح وأخبرني الخادم بأنها أتت إلى لندن. لقد اعتَقَدَ بأنها ستأتي إليكِ).

أبقته الآنسة ستاكبول ثانيةً معلقاً بنيّةٍ سليمةٍ تماماً.

ـ (لقد أتت إلى هنا يوم أمس وأمضت الليلة هنا. لكن هذا الصباح انطلقتْ إلى روما).

لم يكن كاسبار غودوود ينظر إليها؛ فقد كانت عيناه مثبتتين على عتبة الباب، فتلعثم في الكلام: (أوه، انطلقَتْ....). وبدون أن ينهي عبارته أو أن يرفع نظره تدارَكَ نفسه لكنه لم يستطع الحركة.

فخرجت هنرييتا وهي تغلق الباب وراءها، ومدت يدها الآن وأمسكت بذراعه، وقالت: (اسمع يا سيد غودوود، اصبِرْ فقط!).

وعند هذه العبارة رفع نظره نحوها ـ لكن فقط ليخمن، من خلال وجهها، وباشمئزاز، بأنها فقط تقصد بأنه لا يزال شاباً. وقفتْ وهي تومِضُ له بهذه المواساة التافهة التي جعلَتْهُ يكبر في السن على الفور ثلاثين عاماً. مع ذلك، أخذَتْهُ معها مبتعدَيْن وكأنّها كانت تمنحه الآن مفتاح الصبر.

***

النهاية



"اليزابيث" فتاة أميركية محبوبة ومثقفة لكنها فقيرة، تهبط عليها ثروة من السماء مما تجعلها هدفاً لصائدي الثروات، فماذا ستفعل؟

هنري جيمس

روائي وناقد انجليزي من أصل أميركي ولد عام ١٨٤٣ في نيويورك لعائلة غنية وتوفي سنة ١٩١٦، قرأ في سن صغيرة الأدب الإنكليزي والفرنسي والألماني. شارك في تحرير العديد من المجلات الشهرية مثل مجلة "اتلانتيك". يعتبر مؤسس وقائد مدرسة الأدب الواقعي، آمن بأن الفن الروائي يعتمد على الانطباعات الغنية التي تغذي خيال الكاتب من البيئة المحيطة. كتب أكثر من ٢٤ رواية طويلة مثل (ديزي ميلر) و(أجنحة اليمامة) و(الطبق الذهبي) و(ساحة واشنطن) وعدداً كبيراً جداً من الرسائل والمحاضرات الأدبية. إشتهر هنري جيمس في رواياته بتلاقي أميركا وأوروبا من خلال شخصياته الروائية، وكذلك استخدامه البديع للحوار الداخلي للشخصيات كما سنلاحظ ذلك في رواية بورتريه سيدة والذي تحول إلى عمل سينمائي بنفس العنوان عام ١٩٩٦ قامت ببطولته نيكول كيدمان ونال العديد من الجوائز.

إخراج وتصميم:


ISBN 978-9-9226438-0-9

daralrafidain
daralrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين

